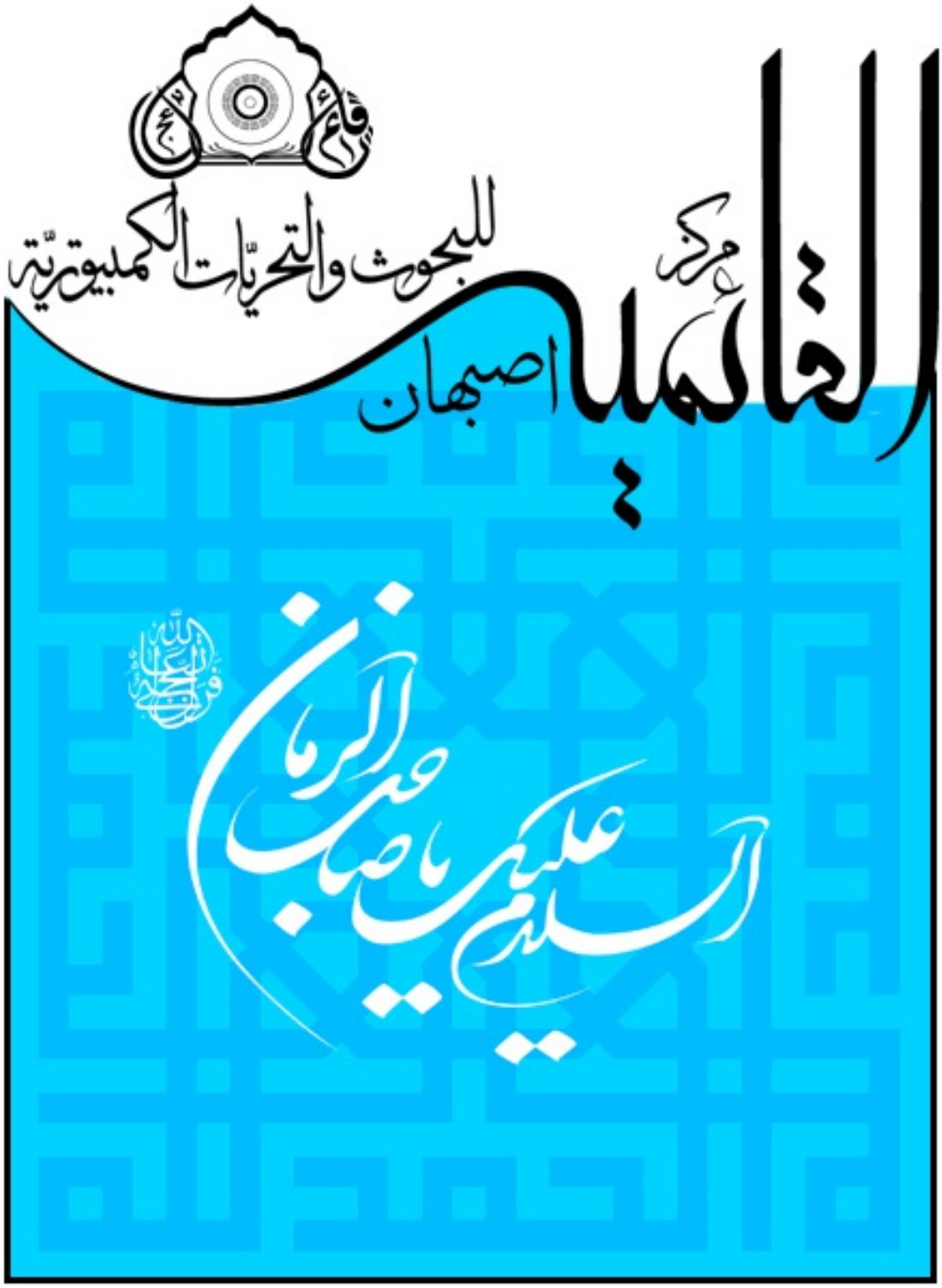

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

حسن المحاضرة
في أخبار مصر والقاهرة

تأليف
الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي
المتوفى سنة ٩١١ هـ

وضع حواشيه
خليل المنصور

المجلد الثاني

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

حسن المحاضرة فی اخبار مصر و القاهرة

كاتب:

جلال الدين عبدالرحمن بن ابی بكر سيوطی

نشرت فی الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، المجلد ۲ ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
[الجزء الثانی] ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
ذکر أمراء مصر من حین فتحت إلی أن ملکها بنو عبید ----- ۱۱
ذکر أمراء مصر من بنی عبید ----- ۲۱
ذکر أمراء مصر من حین ملکها بنو أیوب إلی أن اتخذها الخلفاء العباسیون دار الخلافة ----- ۲۶
کتاب تقلید الخلیفة لصلاح الدین ----- ۲۸
اشارة ----- ۲۸
صلاح الدین فی مصر ----- ۳۳
صلاح الدین و الفرنج ----- ۳۳
صفات صلاح الدین و وفاته ----- ۳۴
*** [مصر بین العزیز و المنصور و الأفضل و العادل] ----- ۳۵
[الفرنج فی دمیاط] ----- ۳۶
*** [الملک العادل سیف الدین أبو بکر، ثمّ الملک الصالح نجم الدین أیوب] ----- ۴۰
[هجوم الفرنج و وفاة الملک الصالح] ----- ۴۱
[شجرة الدر] ----- ۴۱
[الملک المعزّ عز الدین أیبک الجاشنکیر الترکمانی] ----- ۴۲
[الملک المظفر سیف الدین قطز] ----- ۴۲
[أرجوزة الجزّار فی الأمراء المصریة] ----- ۴۳
[ذکر من قام بمصر من الخلفاء العباسیین] ----- ۴۶
اشارة ----- ۴۶

*** فصل ---- ۶۸
ذکر سلاطین مصر الذین فوض إلیهم خلفاء مصر العبّاسیون فاستبدوا بالأمر دونهم ---- ۶۹
ذکر الفرق بین الخلافة و الملک و السلطنة من حیث الشرع ---- ۸۲
*** ذکر من یطلق علیه السلطنة من حیث المصطلح ---- ۸۳
*** ذکر ما یلقب به ملک مصر ---- ۸۳
ذکر جلوس السلطان فی دار العدل للمظالم ---- ۸۳
ذکر عساکر مملکة مصر ---- ۸۴
ذکر أرباب الوظائف فی هذه المملکة ---- ۸۴
ذکر قضاة مصر ---- ۸۶
اشارة ---- ۸۶
الدولة المصریة ---- ۱۰۶
ذکر قضاة الحنفیة ---- ۱۰۸
ذکر قضاة المالکیة ---- ۱۱۰
ذکر قضاة الحنابلة ---- ۱۱۱
ذکر وزراء مصر ---- ۱۱۲
ذکر کتاب السر ---- ۱۳۰
ذکر جوامع مصر ---- ۱۳۳
اشارة ---- ۱۳۳
جامع عمرو ---- ۱۳۴
جامع أحمد بن طولون ---- ۱۳۶
الجامع الأزهر ---- ۱۳۸
جامع الحاکم ---- ۱۳۹
ذکر أمّهات المدارس و الخانقاه العظیمة بالدیار المصریة ---- ۱۳۹
اشارة ---- ۱۳۹

ذکر المدرسة الصلاحیة ---- ۱۴۰
خانقاه سعید السعداء ---- ۱۴۱
المدرسة الکاملیة ---- ۱۴۲
المدرسة الصالحیة ---- ۱۴۲
المدرسة الظاهریة القدیمة ---- ۱۴۳
المدرسة المنصوریة ---- ۱۴۳
المدرسة الناصریة ---- ۱۴۳
الخانقاه البیبرسیة ---- ۱۴۳
خانقاه قوصون بالقرافة ---- ۱۴۳
خانقاه شیخو ---- ۱۴۳
*** مدرسة صرغتمش ---- ۱۴۴
مدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ---- ۱۴۴
المدرسة الظاهریة ---- ۱۴۵
المدرسة المؤیّدیة ---- ۱۴۶
رباط الآثار ---- ۱۴۶
ذکر الحوادث الغریبة الکائنة بمصر فی ملّة الإسلام من غلاء و وباء و زلازل و آیات و غیر ذلک ---- ۱۴۷
ذکر الطریق المسلوک من مصر إلی مکّة شرّفها اللّه تعالی ---- ۱۶۳
ذکر قدوم المبشّر سابقا یخبر بسلامة الحاج ---- ۱۶۴
ذکر حمائم الرسائل ---- ۱۶۴
ذکر عادة المملکة فی الخلع و الزیّ ---- ۱۶۸
ذکر عادة السلطان فی الکتابة علی التقالید ---- ۱۶۸
ذکر معاملة مصر ---- ۱۶۸
ذکر کوکب الذنب ---- ۱۶۹
ذکر بقیة لطائف مصر ---- ۱۶۹

السبب فی کون أهل مصر أذلاء یحملون الضیم ---- ۱۷۵
ذکر النیل ---- ۱۷۶
اشارة ---- ۱۷۶
أثر متصل الإسناد فی أمر النیل ---- ۱۷۷
ذکر مزایا النیل ---- ۱۸۲
ذکر ما قیل فی النیل من الأشعار ---- ۱۸۴
ذکر البشارة بوفاء النیل ---- ۱۸۸
ذکر المقیاس ---- ۱۹۲
ذکر جزیرة مصر و هی المسمّاة الآن بالروضة ---- ۱۹۳
ذکر خلیج مصر ---- ۱۹۷
ذکر الخلیج الناصریّ ---- ۱۹۸
ذکر برکة الحبش ---- ۱۹۸
ذکر الریاحین و الأزهار الموجودة فی البلاد المصریة و ما ورد فیها من الآثار النبویة و الأشعار الأدبیة و الإشارات الصوفیة ---- ۲۰۵
ما ورد فی الفاغیة ---- ۲۰۵
*** ما ورد فی الورد ---- ۲۰۵
ما ورد فی النرجس ---- ۲۰۸
ما ورد فی البنفسج ---- ۲۱۰
ما قیل فی النّیلوفر ---- ۲۱۱
البشنین ---- ۲۱۳
ما ورد فی الآس ---- ۲۱۳
ما ورد فی الریحان، و هو الحبق ---- ۲۱۴
ما قیل فی المنثور، و هو الخیریّ ---- ۲۱۵
ما قیل فی الیاسمین ---- ۲۱۶
ما قیل فی النّسرین ---- ۲۱۷

ما قیل فی الأقحوان ----- ۲۱۷
ما قیل فی البان ----- ۲۱۸
ما قیل فی الشقیق ----- ۲۱۸
فی زهر النارنج ----- ۲۱۹
فی الخشخاش ----- ۲۱۹
فی نور الکتان ----- ۲۱۹
ذکر الفواکه ----- ۲۲۰
ما ورد فی البطیخ ----- ۲۲۰
ما ورد فی الرّمان ----- ۲۲۱
فی جلّنارة ----- ۲۲۱
ما ورد فی الموز ----- ۲۲۲
ما ورد فی النخل ----- ۲۲۲
ما ورد فی الأترج ----- ۲۲۳
ما ورد فی القصب ----- ۲۲۴
فی الکمّثری ----- ۲۲۴
فی الخوخ ----- ۲۲۴
ما ورد فی التین ----- ۲۲۴
فی اللوز الأخضر ----- ۲۲۵
ما قیل فی المشمش ----- ۲۲۵
ما قیل فی النّبق ----- ۲۲۶
ذکر الحبوب و الخضروات و البقول ----- ۲۲۶
فی سنابل البرّ و الشعیر ----- ۲۲۶
اشارة ----- ۲۲۶
فی الباقلّا ----- ۲۲۶

فی القثّاء ----- ۲۲۷
فی الخیار ----- ۲۲۷
فی الفقّوس ----- ۲۲۷
فی القرع ----- ۲۲۷
فی الباذنجان ----- ۲۲۸
فی السّلجم ----- ۲۲۸
فی الفجل ----- ۲۲۸
فی الجزر ----- ۲۲۹
فی الثّوم ----- ۲۲۹
فی التّمام ----- ۲۲۹
فی النعناع ----- ۲۲۹
فی النارنج ----- ۲۳۰
فی اللیمون ----- ۲۳۰
الفهرس ----- ۲۳۱
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۳۴

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، المجلد ۲

اشارة

نام کتاب: حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة

نویسنده: سیوطی، عبدالرحمن بن ابی‌بکر (جلال الدین السیوطی)

تاریخ وفات مؤلف: ۹۱۱ ه. ق

محقق / مصحح: منصور، خلیل عمران

موضوع: جغرافیای کشورها

زبان: عربی

تعداد جلد: ۲

ناشر: دار الکتب العلمیة

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۱۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

hsn almhadhrah fi a'khbar msr walkahrah

تألیف: تاریخ النشر: ۰۱/۰۱/۱۹۹۷

ترجمة، تحقیق: خلیل المنصور الناشر: دار الکتب العلمیة

النوع: ورقی غلاف فنی، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۸۵۶ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۲

[الجزء الثانی]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

ذکر أمراء مصر من حین فتحت إلی أن ملکها بنو عبید

أوّل أمیر عمرو بن العاص رضی اللّه عنه، ولّاه عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه علی الفسطاط و أسفل الأرض، و ولی عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح علی الصّعید إلی القیّوم.

أخرج ابن عبد الحکم، عن أنس، قال: أتی رجل من أهل مصر إلی عمر بن الخطاب فقال: یا أمیر المؤمنین، عائذ بک من الظّلم، قال: عذت معاذا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل یضربنی بالسّوط، و یقول: أنا ابن الأکرمین! فکتب عمر إلی عمرو یأمره بالقدوم علیه، و یقدم بابنه معه. فقدم فقال عمر: أین المصریّ؟

خذ السوط فاضرب، فجعل یضربه بالسّوط و یقول عمر: اضرب ابن الأکرمین. ثمّ قال للمصریّ: ضعه علی صلعة عمرو، قال: یا أمیر المؤمنین، إنّما ابنه الّذی ضربنی و قد اشتفیت منه، فقال عمر لعمرو: مذ کم تعبّدتم النّاس و قد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا؟ قال: یا أمیر المؤمنین، لم أعلم و لم یأتنی.

و أخرج ابن عبد الحكم عن نافع مولى ابن عمر، أنّ صبيغا العراقيّ جعل يسأل عن أشياء من القرآن فی أجناد المسلمين، حتّى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فضربه و نفاه إلى الكوفة، و كتب إلى أبی موسى الأشعريّ أن ألّا يجالسه أحد من المسلمين.

و قال إبراهيم بن الحسين بن ديزيل فی كتابه: حدّثنا عبد اللّه بن صالح، حدّثنی ابن لهيعة، عن يزيد بن أبی حبيب أنّ عمرو بن العاص استحلّ مال قبطيّ من قبط مصر لأنّه استقرّ عنده أنّه كان يظهر الرّوم على عورات المسلمين يكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا و خمسين إردبا دنانير. قال أبو صالح: و الإردبّ ستّ و يبات و عيّرنا الويبة، فوجدناها تسعا و ثلاثين ألف دينار.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: فعلى هذا يكون مبلغ ما أخذ من هذا القبطيّ يقارب ثلاثة عشر ألف ألف دينار.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴

قال ابن عبد الحكم: توفّی عمر، و على مصر أميران: عمرو بن العاص بأسفل الأرض و عبد اللّه بن سعد على الصعيد. فلما استخلف عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص و ولّی عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح أميرا على مصر كلّها؛ و ذلك فی سنة خمس و عشرين.

و قال الواقدیّ و أبو معشر: فی سنة سبع و عشرين.

فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة، و فی نفسه من عثمان أمر كبير؛ و جعل عمرو ابن العاص يؤلّب الناس على عثمان؛ و كره أهل مصر عبد اللّه بن سعد بعد عمرو بن العاص؛ و اشتغل عبد اللّه بن سعد عنهم بقتال أهل المغرب و فتحه بلاد البربر و الأندلس و إفريقيّة، و نشأ بمصر ناس من أبناء الصحابة يؤلّبون الناس على حرب عثمان، و الإنكار عليه فی عزل عمرو، و تولية من دونهم؛ و كان عظم ذلك مسندا إلى محمد بن أبی بكر و محمد بن أبی حذيفة، حتّى استنفرا نحوا من ستّمائة راكب يذهبون إلى المدينة لينكروا على عثمان، فساروا إليها، و سألوه أن يعزل عنهم ابن أبی سرح، و يولّی محمد بن أبی بكر أميرا، فأجابهم إلى ذلك، فلمّا رجعوا إذا هم براكب، فأخذوه و فتّشوه ، فإذا فی إداوته كتاب إلى ابن أبی سرح على لسان عثمان بقتل محمد بن أبی بكر و جماعة معه، فرجعوا و داروا بالكتاب على الصحابة؛ فلام النّاس عثمان على ذلك، فخلف: ماله علم بذلك، و ثبت أنه زوّره على لسانه مروان بن الحكم، و زوّره على خاتمه، فكان ذلك سبب تحريض المصريّين على قتل عثمان حتّى حصروه و قتلوه. و كان الذی باشر قتله رجلا من أهل مصر من كندة يسمى أسود بن حمران، و يكنى أبا رومان، و يلقب حمارا، و قيل: اسمه رومان، و قيل اسمه سودان بن رومان المراديّ. و كان أشقر أزرق، و قتل هو أيضا فی الحال- لعنه اللّه و رضی عن عثمان أمير المؤمنين- و فعل المصريون فی المدينة من الشرّ ما لا يفعله فارس و الرّوم، و نهبوا دار عثمان، و عدلوا إلى بيت المال فأخذوا ما فيه، و كان فيه شیء كثير جدّا، و ذلك فی ذی الحجّة سنة خمس و ثلاثين.

و أخرج الواقدیّ عن عبد الرحمن بن الحارث، قال: الذی قتل عثمان كنانة بن بشر بن غياث التّجيبیّ، حتّى قال القائل:

ألا إنّ خير الناس بعد ثلاثةقتيل التّجيبیّ الّذی جاء من مصرا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵

و أخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيّب، قال: كانت المرأة تجیء فی زمان عثمان إلى بيت المال، فتحمل وقرها، و تقول: اللهمّ بدّل، اللهمّ غيّر. فلمّا قتل عثمان، قال حسّان بن ثابت:

قلتم بدّل فقد بدّلكمسنة حرّى و حربا كاللّهب

ما نقمتم من ثياب خلفةو عبيد و إماء و ذهب

و روى محمد بن عائذ، عن إسماعيل بن عيّاش، عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير، قال: سمع عبد اللّه بن سلام رجلا يقول لآخر: قتل عثمان بن عفّان فلم ينتطح فيها عنزان. فقال ابن سلام: أجل، إنّ البقر و الغنم لا تنتطح فی قتل الخليفة، و لكن تنتطح فيه الرجال بالسلاح؛ و اللّه ليقتلنّ به أقوام إنّهم لفی أصلاب آبائهم ما ولدوا بعد.

و بقیت المدینة خمسة أیام بلا خلیفة، و المصریّون یلحّون علی علیّ أن یبایعوه و هو یهرب منهم؛ و یطلب الکوفیّون الزّبیر فلا یجدونه، و البصریّون طلحة فلا یجیبهم، فقالوا فیما بینهم: لا نولّی أحدا من هؤلاء الثلاثة، فمضوا إلی سعد بن أبی وقّاص فلم یقبل منهم، ثمّ جاءوا إلی ابن عمر، فأبی علیهم، فحاروا فی أمرهم، و قالوا: إن نحن رجعنا بقتل عثمان عن غیر إمرة، اختلف الناس؛ فرجعوا إلی علیّ، فألحوا علیه فبایعوه، فأشار علیه ابن عباس باستمرار نوّاب عثمان فی البلاد إلی حین آخر، فأبی علیه، و عزل عبد اللّه ابن سعد بن أبی سرح عن مصر و ولّی علیها قیس بن سعد بن عبادة.

و کان محمد بن أبی حذیفة لمّا بلغه حصر عثمان تغلّب علی الدیار المصریة، و أخرج منها ابن أبی سرح، و صلّی بالناس فیها، فسار ابن أبی سرح، فجاءه الخبر فی الطریق بقتل عثمان، فذهب إلی الشام، فأخبر معاویة بما کان فی أمره بدیار مصر، و أنّ محمد بن أبی حذیفة قد استحوذ علیها، فسار معاویة و عمرو بن العاص لیخرجاه منها، فعالجا دخول مصر، فلم یقدرا، فلم یزالا به حتّی خرج إلی العریش فی ألف رجل، فتحصّن بها. و جاء عمرو بن العاص، فنصب علیه المنجنیق حتّی نزل فی ثلاثین من أصحابه فقتلوا؛ ذکره ابن جریر .

ثم سار إلی مصر قیس بن سعد بن عبادة بولایة من علیّ، فدخل مصر فی سبعة نفر، فرقی المنبر، و قرأ علیهم کتاب أمیر المؤمنین علیّ، ثمّ قام قیس فخطب الناس،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶

و دعاهم إلی البیعة لعلیّ، فبایعوا، و استقامت له طاعة بلاد مصر سوی قریة منها یقال لها خربتا، فیها أناس قد أعظموا قتل عثمان، و کانوا سادة الناس و وجوههم، و کانوا فی نحو من عشرة آلاف، منهم بسر بن أرطأة، و مسلمة بن مخلّد، و معاویة بن حدیج و جماعة من الأکابر، و علیهم رجل یقال له یزید بن الحارث المدلجیّ، و بعثوا إلی قیس ابن سعد فوادعهم و ضبط مصر، و سار فیها سیرة حسنة.

قال ابن عبد الحکم: لمّا ولی قیس مصر اختطّ بها دارا قبلیّ الجامع، فلما عزل کان الناس یقولون: إنّها له، حتّی ذکرت له، فقال: و أیّ دار لی بمصر؟ فذکروها له فقال: إنّما تلک بنیتها من مال المسلمین، لا حقّ لی فیها.

و یقال: إن قیسا أوصی لمّا حضرته الوفاة: إنی کنت بنیت دارا بمصر و أنا و الیها، و استعنت فیها بمعونة المسلمین؛ فهی للمسلمین ینزلها ولاتهم.

و کانت ولایة قیس مصر فی صفر سنة ست و ثلاثین. فکتب معاویة إلی قیس یدعوه إلی القیام بطلب دم عثمان، و أن یکون هو أزرا له علی ما هو بصدده من القیام فی ذلک، و وعده أن یکون نائبه علی العراقین إذا تمّ له الأمر. فلمّا بلغه الکتاب- و کان قیس رجلا حازما- لم یخالفه و لم یوافقه، بل بعث یلاطف معه الأمر؛ و ذلک لبعده من علیّ، و قربه من بلاد الشام؛ و ما مع معاویة من الجنود، فسالمه قیس و ترکه؛ فأشاع بعض أهل الشام أنّ قیس بن سعد یکاتبهم فی الباطن، و یمالئهم علی أهل العراق.

و روی ابن جریر أنّه جاء من جهته کتاب مزوّر بمبایعته معاویة، فلمّا بلغ ذلک علیّا اتّهمه، و کتب إلیه أن یغزو أهل خربتا الذین تخلّفوا عن البیعة، فبعث یعتذر إلیه بأنّهم کثیر عددهم، و هم وجوه الناس، و کتب إلیه: إن کنت إنّما أمرتنی بهذا لتختبرنی لأنّک اتّهمتنی، فابعث علی عملک بمصر غیری.

فولّی علیّ علی مصر محمد بن أبی بکر، و ارتحل قیس إلی المدینة، ثم رکب إلی علیّ، و اعتذر إلیه، و شهد معه صفّین، فلم یزل محمد بن أبی بکر بمصر قائم الأمر، مهیبا بالدیار المصریة، حتّی کانت وقعة صفّین، و بلغ أهل مصر خبر معاویة و من معه من أهل الشام علی قتال أهل العراق، و صاروا إلی التحکیم. فطمع أهل مصر فی محمد بن أبی بکر، و اجترؤوا علیه، و بارزوه بالعداوة، و ندم علیّ بن أبی طالب علی عزل قیس من مصر لأنّه کان کفؤا لمعاویة و عمرو. فلمّا فرغ علیّ من صفّین، و بلغه أنّ

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷

أهل مصر استخفّوا بمحمد بن أبى بكر لكونه شابا ابن ستّ و عشرين سنة أو نحو ذلك، عزم على ردّ مصر إلى قيس بن سعد.

ثمّ إنّه ولّى عليها الأشتر النّخعىّ، فلمّا بلغ معاوية تولية الأشتر ديار مصر، عظم ذلك عليه؛ لأنّه كان طمع فى استنزاعها من يد محمد بن أبى بكر، و علم أنّ الأشتر سيمنعها منه لحزمه و شجاعته. فلمّا سار الأشتر إليها و انتهى إلى القلزم، استقبله الجايسار- و هو مقدّم على الخراج- فقدّم إليه طعاما، و سقاه شرابا من عسل، فمات منه. فلما بلغ ذلك معاوية و أهل الشام قالوا: إنّ للّه جندا من عسل. و قيل: إن معاوية كان تقدّم إلى هذا الرجل فى أن يحتال على الأشتر ليقتله ففعل ذلك، ذكره ابن جرير.

فلمّا بلغ عليا وفاة الأشتر تأسّف عليه لشجاعته، و كتب إلى محمد بن أبى بكر باستقراره و استمراره بديار مصر، و كان ضعف جأشه مع ما فيه من الخلاف عليه من العثمانيّة الذين ببلد خربتا، و قد كانوا استفحل أمرهم؛ و كان أهل الشام حين انقضت الحكومة سلّموا على معاوية بالخلافة، و قوى أمرهم جدّا، فعند ذلك جمع معاوية أمراءه، و استشارهم فى السير إلى مصر، فاستجابوا له؛ و عيّن نيابتها لعمرو بن العاص إذا فتحها، ففرح بذلك عمرو، فكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلّد و معاوية بن خديج- و هما رؤساء العثمانية ببلاد مصر- يخبرهم بقدوم الجيش إليهم سريعا، فأجابوه، فجهّز معاوية عمرو بن العاص فى ستة آلاف، فسار إليها، و اجتمعت عليه العثمانيّة و هم عشرة آلاف. فكتب عمرو إلى محمد بن أبى بكر: أن تنحّ عنّى بدمك، فإنّى لا أحبّ أن يصيبك منّى ظفر، و إنّ الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك. فأغلظ محمد بن أبى بكر لعمرو فى الجواب، و ركب فى ألفى فارس من المصريّين، فأقبل عليه الشاميّون، فأحاطوا به من كلّ جانب، و تفرّق عنه المصريون، و هرب هو فاختفى فى خربة، و دخل عمرو بن العاص فسطاط مصر، ثمّ دلّ على محمد بن أبى بكر، فجىء به؛ و قد كاد يموت عطشا، فقدّمه معاوية بن حديج فقتله، ثمّ جعله فى جيفة حمار، فأحرقه بالنار؛ و ذلك فى صفر سنة ثمان و ثلاثين.

و كتب عمرو بن العاص إلى معاوية يخبره بما كان من الأمر، و أنّ اللّه قد فتح عليه بلاد مصر، فأقام عمرو أميرا بمصر إلى أن مات بها ليلة عيد الفطر سنة ثلاث و أربعين على المشهور، و دفن بالمقطّم، من ناحية الفجّ؛ و كان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز، فأحبّ أن يدعو له من مرّ به؛ و هو أوّل أمير مات بمصر.

و فى ذلك يقول عبد اللّه بن الزّبير:

أ لم تر أنّ الدهر أخنت ريوبهعلى عمرو السّهمىّ تجبى له مصر

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸ فأضحى نبيذا بالعراء و ضلّلتمكائده عنه و أمواله الدّثر

و لم يغن عنه جمعه المال برهةو لا كيده حتّى أتيح له الدّهر

فلما مات عمرو بن العاص ولّى معاوية على ديار مصر ولده عبد اللّه بن عمرو.

قال الواقدىّ: فعمل له عليها سنتين. و قال غيره: بل أشهرا. ثمّ عزله و ولّى عتبة بن أبى سفيان.

ثمّ عزله و ولّى عقبة بن عامر سنة أربع و أربعين، فأقام إلى سنة سبع و أربعين فعزله.

و ولّى معاوية بن حديج، فأقام إلى سنة خمسين، فعزله.

و ولّى مسلمة بن مخلّد و جمعت له مصر و المغرب ؛ و هو أوّل وال جمع له ذلك.

قال ابن عبد الحكم: حدّثنا عبد الملك بن مسلمة، عن ابن لهيعة عن بعض شيوخ أهل مصر، قال: أوّل كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التى خلف القنطرة أيّام مسلمة بن مخلّد، فأنكر ذلك الجند على مسلمة، و قالوا له: أ تقرّ لهم أن يبنوا الكنائس! حتّى كاد يقع بينهم و بينه شرّ، فاحتجّ عليهم مسلمة يومئذ. فقال: إنّها ليست فى قيروانكم، و إنّما هى خارجة فى أرضهم، فسكتوا عند ذلك.

فأقام مسلمة أميرا إلى سنة تسع و خمسين.

و كان عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عثمان بن ربيعة الثقفىّ المشهور بابن أم الحكم- و أمّ الحكم هى أخت معاوية- أميرا على الكوفة، فأساء السيرة فى أهلها، فأخرجوه من بين أظهرهم طريدا، فرجع إلى خاله معاوية، فقال: لأولينّك مصر خيرا منها، فولّاه مصر، فلمّا سار

إليها تلقّاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر، فقال: ارجع إلى خالك، فلعمرى لا تسير فينا سيرتك فى أهل الكوفة، فرجع ابن أمّ الحكم و لحقه معاوية بن حديج وافدا على معاوية. فلمّا دخل عليه وجده عند أخته أمّ الحكم- و هى أم عبد الرحمن الذى طرده عن مصر- فلما رآه معاوية، قال: بخ بخ! هذا معاوية بن حديج؛ فقالت أمّ الحكم: لا مرحبا! تسمع بالمعيدىّ خير من أنّ تراه. فقال معاوية

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹

ابن حديج: على رسلك يا أمّ الحكم، أما و اللّه لقد تزوجت فما أكرمت، و ولدت فما أنجبت؛ أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا، فيسير فينا كما سار فى أهل الكوفة، فما كان اللّه ليريه ذلك، و لو فعل لضربنا ابنك ضربا يطأطئ منه- و إن كره هذا الجالس- فالتفت إليها معاوية، فقال: كفى؛ فاستمرّ مسلمة على إمرة مصر إلى أن مات فى خلافة يزيد فى ذى الحجة سنة اثنتين و ستين.

فولى بعده سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدىّ.

فلما ولى الزبير الخلافة بعد موت يزيد، و ذلك فى سنة أربع و ستّين، استناب على مصر عبد الرحمن بن قحزم القرشىّ الفهرىّ، فقصد مروان مصر و معه عمرو بن سعيد الأشدق فقاتل عبد الرحمن، فهزم عبد الرحمن و هرب.

و دخل مروان إلى مصر، فتملّكها، و جعل عليها ولده عبد العزيز، و ذلك فى سنة خمس و ستّين، فلم يزل أميرا بها عشرين سنة. و كان أبوه جعل إليه عهد الخلافة بعد عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك يستنزله عن العهد الذى له من بعده لولده الوليد فأبى عليه. ثمّ إنه مات من عامه.

قال ابن عبد الحكم: وقع الطّاعون بالفسطاط، فخرج عبد العزيز إلى حلوان، و كان ابن حديج يرسل إليه فى كلّ يوم بخبر ما يحدث فى البلد من موت و غيره، فأرسل إليه ذات يوم رسولا- فأتاه، فقال له عبد العزيز: ما اسمك؟ قال: أبو طالب، فثقل ذلك على عبد العزيز و غاظه، فقال: أسألك عن اسمك فتقول: أبو طالب! ما اسمك؟ قال: مدرك، فتفاءل عبد العزيز بذلك فمرض، فدخل نصيب الشاعر فأنشأ يقول:

و نزور سيّدنا و سيّد غيرناليت التّشكّى كان بالعوّاد

لو كان يقبل فدية لفديتهبالمصطفى من طارفى و تلادى

فأمر له بألف دينار، ثمّ مات عبد العزيز بحلوان، فحمل فى البحر إلى الفسطاط، و دفن بمقبرتها.

و كانت وفاته ليلة الاثنين ثانى عشر جمادى الأولى سنة ست و ثمانين. و كتب على قصره بحلوان:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰ أين ربّ القصر الّذى شيّد القصر، و أين العبيد و الأجناد؟

أين تلك الجموع و الأمر و النّهى و أعوانهم، و أين السواد؟

و قال عمر بن أبى الجدير العجلانىّ يرثى عبد العزيز بن مروان و ابنه أبا زبّان:

أبعدك يا عبد العزيز لحجّةو بعد أبى زبّان يستعتب الدّهر

فلا صلحت مصر لحىّ سواكماو لا سقيت بالنّيل بعدكما مصر

فأمر بعده عبد الملك، فأقام شهرا إلّا ليلة، ثمّ صرف و ولّى بعده ابنه عبد اللّه بن أمير المؤمنين عبد الملك. قال الليث بن سعد: و كان حدثا، و كان أهل مصر يسمّونه نكيس، و هو أوّل من نقل الدواوين إلى العربية؛ و إنّما كانت بالعجميّة، و هو أوّل من نهى الناس عن لباس البرانس، فأقام إلى التسعين، فعزله أخوه الوليد.

و ولّى قرّة بن شريك العبسىّ، فقدمها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأوّل، و فى ذلك يقول الشاعر:

عجبا ما عجبت حين أتاناأن قد أمّرت قرّة بن شريك

و عزلت الفتى المبارك عنّاثمّ قيلت فيه رأى أبيك

و کـان قرّة ظلومـا عسوفا، قیل: کان یـدعو بالخمر و الملاهی فی جامع مصـر؛ أخرج أبو نعیم فی الحلیـة، قال: قال عمر بن عبـد العزیز: الولید بالشام، و الحجّاج بالعراق، و قرّة بمصر، و عثمان بن حیّان بالحجاز. امتلأت و اللّه الأرض جورا!

و قال ابن عبـد الحکم: أنبأنا سـعید بن عفیر، أنّ عمال الولیـد بن عبـد الملک کتبوا إلیه أنّ بیوت الأموال قـد ضاقت من مال الخمس؛ فکتب إلیهم: أن ابنوا المساجد، فأوّل مسـجد بنی بفسـطاط مصـر المسـجد الذی فی أصل حصن الروم عند باب الرّیحان قبالة الموضع الذی یعرف بالقالوس یعرف بمسجد العیلة ، فأقام قرّة والیا بمصر إلی أن مات سنة ستّ و تسعین .

فولی بعده عبد الملک بن رفاعة القینیّ، فأقام سنة تسع و تسعین.

ثمّ ولی أیوب بن شرحبیل الأصبحیّ فأقام إلی سنة إحدی و مائة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱

ثمّ ولی بشر بن صفوان الکلبیّ فأقام إلی سنة ثلاث و مائة.

ثمّ ولی أخوه حنظلة فأقام إلی سنة خمس و مائة.

ثمّ ولی محمّد بن عبد الملک أخو هشام بن عبد الملک الخلیفة.

ثمّ ولی الحرّ بن یوسف.

ثمّ ولی حفص بن الولید، فأقام إلی آخر سنة ثمان و مائة.

و ولی بعده سنة تسع و مائة عبد الملک بن رفاعة، و صرف فی السنة.

و ولی أخوه الولید، فأقام إلی أن توفّی سنة تسع عشرة.

و ولی بعده عبد الرحمن بن خالد الفهمیّ، فأقام سـبعة أشـهر، و صـرف، و أعید حنظلة بن صـفوان فی سـنة عشرین، ثمّ صرف و أعید حفص بن الولید، فأقام ثلاث سنین ثمّ صرف.

و ولی بعده سنة سبع و عشرین حسان بن عتاهیة التّجیبیّ.

ثم أعید حفص بن الولید، و عزل عنها سنة ثمان و عشرین.

و ولی الحوثرة بن سهیل الباهلیّ.

ثمّ ولی المغیرة بن عبید الفزاریّ سنة إحدی و ثلاثین.

ثمّ ولی عبد الملک بن مروان مولی لخم سنة اثنتین و ثلاثین و مائة.

*** ثمّ لمّا قامت الدولة العباسـیة، و قام السـفّاح، و انهزم مروان الحمار، و هرب إلی الدیار المصـریّة، ولّی السّـفاح نیابة الشام و مصر صالح بن علیّ بن عبد اللّه بن عبّاس، فسار صالح حتّی قتل مروان ببوصیر فی ذی الحجّة سنة اثنتین و ثلاثین و مائة، ثمّ رجع إلی الشّام و استخلف علی مصر أبا عون عبد الملک بن أبی یزید الأزدیّ، فأقام إلی سنة ستّ و ثلاثین.

ثمّ أعید صالح بن علیّ ثمّ صرف، و أعید أبو عون سنة سبع و ثلاثین، فأقام إلی سنة إحدی و أربعین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲

ثمّ ولی بعده موسی بن کعب التمیمیّ، فأقام سبعة أشهر و مات .

و ولی محمّد بن الأشعث الخزاعیّ، ثمّ عزل سنة اثنتین و أربعین.

و ولی نوفل بن الفرات، ثمّ عزل نوفل .

و ولی حمید بن قحطبة الطائیّ، ثمّ صرف سنة أربع و أربعین.

و ولی یزید بن حاتم المهلبیّ ، فأقام إلی سنة اثنتین و خمسین فعزل.

و ولی محمّد بن سـعید ، فأقام إلی أن اسـتخلف المهدیّ، فعزله فی سـنة تسع و خمسـین. و ولّی أبا ضـمرة محمد بن سلیمان، کذا فی

تاریخ ابن کثیر و أمّا الجزّار فقال: إنّه ولی بعد یزید بن حاتم عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاویة بن حدیج التّجیبیّ.

ثمّ ولی بعده أخوه فأقام سنة و شهرین.

ثم ولی بعده موسی بن علیّ اللّخمی سنة خمس و خمسین، فأقام إلی سنة إحدی و ستین.

ثمّ ولی عیسی بن لقمان اللخمی .

ثم ولی واضح مولی المنصور سنة اثنتین و ستّین.

ثمّ صرف من عامه و ولی منصور بن یزید الحمیریّ.

ثمّ ولی بعده یحیی بن داود أبو صالح الخرسیّ .

ثمّ ولی سالم بن سوادة التمیمیّ سنة أربع و ستین.

ثم ولی إبراهیم بن صالح العباسیّ سنة خمس و ستین .

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳

ثم ولی موسی بن مصعب مولی خثعم.

ثمّ ولی الفضل بن صالح العباسیّ سنة تسع و ستین.

ثم ولی علیّ بن سلیمان العباسیّ من السنة.

ثمّ ولی موسی بن عیسی العباسی.

ثمّ عزل سنة اثنتین و سبعین. و ولی مسلمة بن یحیی الأزدیّ.

ثمّ ولی محمد بن زهیر الأزدیّ سنة ثلاث و سبعین.

ثمّ ولی داود بن یزید المهلبیّ سنة أربع و سبعین.

ثم أعید موسی بن عیسی سة خمس و سبعین، ثمّ عزله الرشید سنة ستّ و سبعین.

و ولی علیها جعفر بن یحیی البرمکی، فاستناب علیها عمر بن مهران- و کان شیعیّا زریّ الشکل أحول- و کان سبب ذلک أنّ الرشید بلغه أنّ موسی بن عیسی عزم علی خلعه، فقال: و اللّه لأولّینّ علیها أخسّ الناس، فاستدعی عمر بن مهران، ولّاه علیها نیابة عن جعفر، فسار عمر إلیها علی بغل، و غلامه أبو درّة علی بغل آخر، فدخلها کذلک، فانتهی إلی مجلس موسی بن عیسی، فجلس فی أخریات النّاس، حتّی انفضّوا فأقبل علیه موسی بن عیسی، و هو لا یعرف من هو، فقال: أ لک حاجة یا شیخ؟ قال:

نعم، أصلح اللّه الأمیر! ثمّ مال بالکتب، فدفعها إلیه، فلمّا قرأها قال: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم، قال: لعن اللّه فرعون حین قال: أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ [الزخرف:

۵۱]، ثمّ سلّم إلیه العمل و ارتحل منها.

ثمّ فی سنة سبع و سبعین عزل الرشید جعفرا عن مصر، و ولّی علیها إسحاق بن سلیمان ، کذا فی تاریخ ابن کثیر و غیره.

و ذکر الأدیب أبو الحسین الجزّار فی أرجوزته فی أمراء مصر خلاف ذلک؛ فإنّه قال: أعید موسی بن عیسی سنة خمس و سبعین. ثم أعید إبراهیم بن صالح العباسیّ سنة ستّ و سبعین، ثمّ ولی عبد اللّه بن المسیب الضبیّ.

ثمّ ولی إسحاق بن سلیمان العباسی سنة سبع و سبعین. کذا قال و اللّه أعلم.

ثم عزل إسحاق سنة ثمان و سبعین و ولی هرثمة بن أعین، فأقام نحوا من شهر.

ثمّ عزل و ولی عبد الملک بن صالح العباسیّ، فأقام إلی سلخ سنة ثمان و سبعین.

و ولی عبید اللّه بن مهدیّ العباسیّ سنة تسع و سبعین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴

ثم أعيد موسى بن عيسى سنة ثمانين.

ثم أعيد عبيد اللّه المهدىّ، و صرف فى رمضان سنة إحدى و ثمانين.

و ولى إسماعيل بن صالح العباسىّ.

ثم ولى إسماعيل بن عيسى سنة اثنتين و ثمانين، ثمّ صرف و ولى الليث بن الفضل البيروذىّ.

ثمّ ولى أحمد بن إسماعيل العباسىّ سنة سبع و ثمانين.

ثم ولى عبد اللّه بن محمد العباسىّ.

ثم ولى الحسين بن حمل الأزدى سنة تسعين.

ثمّ ولى مالك بن دلهم الكلبىّ سنة اثنتين و تسعين.

ثمّ ولى الحسن بن التختاخ سنة ثلاث و تسعين.

ثمّ ولى حاتم بن هرثمة بن أعين.

ثمّ صرف فى سنة خمس و تسعين. و ولى جابر بن الأشعث الطائىّ.

ثمّ ولى عباد بن نصر الكندىّ سنة ستّ و تسعين.

ثمّ ولى المطّلب بن عبد اللّه الخزاعىّ سنة ثمان و تسعين.

ثمّ ولى العباس بن موسى فى السنة.

ثمّ أعيد المطّلب سنة تسع و تسعين.

ثمّ ولى السرىّ بن الحكم سنة مائتين.

ثمّ ولى سليمان بن غالب سنة إحدى.

ثمّ أعيد السرىّ بن الحكم فى السّنة، فمات فى سنة خمس و مائتين، فولى بعده أبو نصر محمد بن السرىّ.

ثمّ تغلّب عليها عبيد اللّه بن السرىّ فى سنة ست، فأقام إلى سنة عشر، فوجّه إليه المأمون عبد اللّه بن طاهر فاستنقذها منه بعد حروب يطول ذكرها.

و قد ذكر الوزير أبو القاسم المغربىّ: أنّ البطيخ العبد لاوىّ الذى بمصر منسوب إلى عبد اللّه بن طاهر هذا، قال ابن خلّكان: إمّا لأنه كان يستطيبه، أو لأنه أوّل من زرعه بها.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵

ثمّ ولى بعده عيسى بن يزيد الجلودىّ.

ثمّ فى سنة ثلاث و عشرين و مائتين ثار رجلان بمصر، و هما عبد السلام و ابن جليس، فخلعا المأمون، و استحوذا على الديار المصرية، و تابعهما طائفة من القيسيّة و اليمانيّة فولّى المأمون أخاه أبا إسحاق بن الرشيد نيابة مصر مضافة إلى الشام، فقدمها سنة أربع عشرة، و افتتحها، و قتل عبد السلام و ابن جليس، و أقام بمصر.

ثمّ ولى عليها عمير بن الوليد التميمىّ.

ثم صرف و أعيد عيسى بن يزيد الجلودىّ.

ثمّ ولى عبدويه بن جبلة سنة خمس عشرة.

ثمّ ولى عيسى بن منصور مولى بنى نصر، و فى أيّامه قدم المأمون مصر فى سنة ستّ عشرة .

ثمّ ولى نصر بن كيدر السعيدىّ سنة تسع عشرة.

ثمّ ولى المظفّر بن كيدر.

ثمّ ولى موسى بن أبى العباس الحنفىّ.

ثمّ ولى مالك بن كيدر سنة أربع و عشرين و مائتين.

ثمّ أعيد عيسى بن منصور ثانية سنة تسع و عشرين.

ثمّ ولى هرثمة بن النّضر الجبلىّ سنة ثلاث و ثلاثين.

ثمّ ولى ابنه حاتم فى السنة، فأقام شهرا.

ثمّ ولى علىّ بن يحيى سنة أربع و ثلاثين.

ثمّ ولى أخوه إسحاق بن يحيى الجبلىّ سنة خمس و ثلاثين.

ثمّ ولى عبد الواحد بن يحيى، مولى خزاعة سنة ستّ و ثلاثين.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶

ثمّ ولى عنبسة بن إسحاق الضّبى سنة ثمان و ثلاثين، ثمّ عزل و ولى يزيد بن عبد اللّه من الموالى سنة اثنتين و أربعين.

ثمّ ولى مزاحم بن خاقان سنة ثلاث و خمسين .

ثمّ ولى ابنه أحمد فى السنة.

ثمّ ولى أزجور التركىّ فى السنة، ثمّ صرف فيها أيضا.

*** و ولى أحمد بن طولون التركىّ، ثمّ أضيفت إليه نيابة الشّام و العواصم و الثغور و إفريقيّة، فأقام مدّة طويلة، و فتح مدينة أنطاكية، و بنى بمصر جامعه المشهور، و كان أبوه طولون من الأتراك الذين أهداهم نوح بن أسد السامانىّ- عامل بخارى- إلى المأمون فى سنة مائتين- و يقال إلى الرشيد فى سنة تسعين و مائة- و ولد ابنه أحمد فى سنة أربع عشرة- و قيل سنة عشرين و مائتين- و مات طولون سنة ثلاثين، و قيل سنة أربعين. و حكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أنّ طولون لم يكن أبا أحمد؛ و إنما تبنّاه، و أمّه جارية تركيّة اسمها هاشم، و كان الأتراك طلبوا منه أن يقتل المستعين، و يعطوه واسطا فأبى و قال: و اللّه لا تجرّأت على قتل أولاد الخلفاء فلمّا ولى مصر، قال: لقد وعدنى الأتراك إن قتلت المستعين أن يولّونى واسطا، فخفت اللّه و لم أفعل، فعوّضنى ولاية مصر و الشّام وسعة الأحوال.

قال محمد بن عبد الملك الهمدانىّ فى كتاب عنوان السير: قال بعض أهل مصر:

جلسنا فى دكّان، و معنا أعمى يدّعى علم الملاحم- و ذلك قبل دخول أحمد بن طولون بساعة- فسألناه عمّا يجده فى الكتب لأجله، فقال: هذا رجل من صفته كذا و كذا، يتقلّد هو و ولده قريبا من أربعين سنة؛ فما تمّ كلامه حتّى اجتاز أحمد، فكانت صفته و ولايته و ولاية ولده كما قال.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷

و قال بعض أصحابه: ألزمنى ابن طولون صدقاته، و كانت كثرة، فقله له يوما:

ربما امتدّت إلىّ اليد المطوّقة بالجوهر، و المعصم ذو السّوار، و الكمّ الناعم، أفأمنع هذه الطبقة؟ فقال: هؤلاء المستورون الّذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف، احذر أن تردّ يدا امتدّت إليك، و اعط من استعطاك، فعلى اللّه تعالى أجره؛ و كان يتصدّق فى كلّ أسبوع بثلاثة آلاف دينار سادة سوى الراتب، و يجرى على أهل المساجد فى كلّ شهر ألف دينار، و حمل إلى بغداد فى مدّة أيامه، و ما فرّق على العلماء و الصالحين ألفى ألف دينار و مائتى ألف دينار، و كان خراج مصر فى أيامه أربعة آلاف دينار و ثلثمائة ألف دينار، و كان لابن طولون ما بين رحبة مالك بن طوق إلى أقصى المغرب.

و استمرّ ابن طولون أميرا بمصر إلى أن مات بها ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة سبعين و مائتين، و خلّف سبعة عشر ابنا. قال بعض الصوفيّة: و رأيته فى المنام بعد وفاته بحال حسنة، فقال: ما ينبغى لمن سكن الدّنيا أن يحقر حسنة فيدعها و لا سيئة فيأتيها، عدل

بی عن النار إلی الجنّة بتثبتی علی متظلّم عییّ اللّسان شدید التهیّب، فسمعت منه و صبرت علیه حتّی قامت حجّته، و تقدّمت بإنصافه، و ما فی الآخرة أشدّ علی رؤساء الدنیا من الحجاب لملتمس الإنصاف.

و ولی بعه ابنه أبو الجیش خمارویه، و أقام أیضا مدّة طویلة، ثمّ فی ذی الحجّة سنة اثنتین و ثمانین قدم البرید فأخبر المعتضد باللّه أنّ خمارویه ذبحه بعض خدمه علی فراشه و ولّوا بعده ولده جیش فأقام تسعة أشهر، ثمّ قتلوه و نهبوا داره، و ولّوا هارون بن خمارویه، و قد التزم فی کلّ سنة بألف ألف دینار و خمسمائة ألف دینار، تحمل إلی باب الخلیفة، فأقرّه المعتضد علی ذلک، فلم یزل إلی صفر سنة اثنتین و تسعین، فدخل علیه عمّاه شیبان و عدیّ ابنا أحمد بن طولون، و هو ثمل فی مجلسه، فقتلاه ، و ولی عمّه أبو المغانم شیبان، فورد بعد اثنی عشر یوما من ولایته من قبل المکتفی ولایة محمد بن سلیمان الواثقیّ، فسلّم إلیه شیبان الأمر، و استصفی أموال آل طولون، و انقضت دولة الطولونیة عن الدیار المصریة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸

و أقام محمد بن سلیمان بمصر أربعة أشهر، و ولی علیها بعده عیسی بن محمد الوشریّ فأقام والیا علیها خمس سنین و شهرین و نصفا، و مات سنة سبع و تسعین و مائتین، فولّی المقتدر أبا منصور تکین الخاصة ، ثمّ صرف فی سنة ثلاث و ثلثمائة، و ولی ذکاء أبو الحسن، ثمّ صرف و أعید تکین ثمّ صرف سنة تسع.

و ولی هلال بن بدر ثمّ صرف فی سنة إحدی عشرة.

و ولی أحمد بن کیغلغ ثم صرف من عامه، و أعید تکین الخاصّة، فأقام إلی أن مات سنة إحدی و عشرین و ثلثمائة، و ورد الخبر بموته إلی بغداد، و أنّ ابنه محمدا قد قام بالأمر من بعده، فسیّر إلیه القاهر الخلع بتنفیذ الولایة و استقرارها، ثمّ صرف.

و ولی أبو بکر محمر بن طغج الملقّب بالإخشید ، ثمّ صرف من عامه، و أعید أحمد بن کیغلغ، ثمّ صرف سنة ثلاث و عشرین.

و أعید محمد بن طغج الإخشیدیّ، و فی هذا الوقت کان تغلّب أصحاب الأطراف علیها لضعف أمر الخلافة و بطل معنی الوزارة، و صارت الدواوین تحت حکم الأمراء محمد بن رائق، و صارت الدّنیا فی أیدی عمّالها؛ فکانت مصر و الشام فی ید الإخشید؛ و الموصل و دیار بکر و دیار ربیعة و مضر فی أیدی بنی حمدان؛ و فارس فی ید علیّ بن بویه، و خراسان فی ید نصر بن أحمد، و واسط و البصرة و الأهواز فی ید الیزیدیّ ، و کرمان فی ید محمد بن الیاس، و الرّیّ و أصفهان و الجبل فی ید الحسن بن بویه، و المغرب و إفریقیّة فی ید أبی عمرو الغسّانیّ، و طبرستان و جرجان فی ید الدّیلم، و البحرین و الیمامة و هجر فی ید أبی طاهر القرمطیّ؛ فأقام محمد بن طغج فی مصر إلی أن مات فی ذی الحجّة سنة أربع و ثلاثین و ثلثمائة .

و قام ابنه أبو القاسم أنوجور- قال الذهبیّ فی العبر: و معناه بالعربیة: محمود مقامه- و کان صغیرا، فأقیم کافور الإخشید الخادم الأسود أتابکا، فکان یدبّر المملکة فاستمرّ إلی سنة تسع و أربعین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹

فمات أنوجور، و قام بعده أخوه علیّ، فاستمرّ إلی أن مات سنة خمس و خمسین؛ فاستقرّت المملکة باسم کافور یدعی له علی المنابر بالبلاد المصریة و الشامیّة و الحجاز، فأقام سنتین و أربعة أشهر، و مات بمصر فی جمادی الأولی سنة سبع و خمسین. قال الذهبیّ: کان کافور خصیّا حبشیّا، اشتراه الإخشید من بعض أهل مصر بثمانیة عشر دینارا ثمّ تقدّم عنده لعقله و رأیه إلی أن صار من کبار القوّاد، ثم لمّا مات أستاذه کان أتابک ولده أنوجور، و کان صبیّا؛ فغلب کافور علی الأمور، و صار الاسم للولد، و الدّست لکافور، ثمّ استقلّ بالأمر، و لم یبلغ أحد من الخصیان ما بلغ کافور و مؤنس المظفّریّ الذی ولی سلطنة العراق، و مدحه المتنبیّ بقوله:

قواصد کافور توارک غیرهو من قصد البحر استقلّ السواقیا

فجاءت بنا إنسان عین زمانهو خلّت بیاضا خلفها و مآقیا

و هجاه بقوله:

من علّم الأسود المخصيّ مكرمةأقومه البيض أم آباؤه الصّيد؟

و ذاك أنّ الفحول البيض عاجزةعن الجميل، فكيف الخصية السّود!!

و قال محمد بن عبد الملك الهمدانيّ: كان بمصر واعظ يقصّ على الناس، فقال يوما فى قصصه: انظروا إلى هوان الدنيا على اللّه تعالى، فإنّه أعطاها لمقصوصين ضعيفين: ابن بويه ببغداد و هو أشلّ، و كافور عندنا بمصر و هو خصيّ؛ فرفعوا إليه قوله و ظنّوا أنّه يعاقبه، فتقدّم له بخلعة و مائة دينار، و قال: لم يقل هذا إلّا لجفائى له، فكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه: ما أنجب من ولد حام إلّا ثلاثة: لقمان، و بلال المؤذّن، و كافور.

و قال أبو جعفر مسلم بن عبد اللّه بن طاهر العلويّ: كنت أساير كافور يوما، و هو فى موكب خفيف، فسقطت مقرعته من يده، فبادرت بالنزول، و أخذتها من الأرض و دفعتها إليه، فقال: أيّها الشريف؛ أعوذ بالله من بلوغ الغاية، ما ظننت أنّ الزمان يبلغنى حتّى يفعل بى هذا- و كاد يبكى- أنا صنيعة الأستاذ، و وليّه، فلمّا بلغ باب داره ودّعته و سرت، فإذا أنا بالبغال و الجنائب بمراكبها، و قال أصحابه: أمر الأستاذ بحمل هذا إليك، و كان ثمنها يزيد على خمسة عشر ألف دينار.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰

و لمّا مات كافور ولّى المصريّون مكانه أبا الفوارس أحمد بن علىّ بن الإخشيد و هو ابن اثنتين و عشرين سنة، فأقام شهورا حتّى أتى جوهر القائد من المغرب فانتزعها منه.

ذكر أمراء مصر من بنى عبيد

لما توفّى كافور الإخشيديّ لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه، و أصابهم غلاء شديد أضعفهم؛ فلمّا بلغ ذلك المعزّ أبا تميم معدّ بن المنصور إسماعيل، و هو ببلاد إفريقيّة بعث مولى أبيه جوهر ؛ و هو القائد الرومىّ، فى مائة ألف مقاتل، فدخلوا مصر فى يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، فهرب أصحاب كافور، و أخذ جوهر مصر بلا ضربة و لا طعنة و لا ممانعة، فخطب جوهر للمعزّ يوم الجمعة على منابر الديار المصرية و سائر أعمالها، و أمر المؤذنين بجامع عمرو و بجامع ابن طولون أن يؤذّنوا بحىّ على خير العمل، فشقّ ذلك على الناس، و ما استطاعوا له ردّا، و صبروا لحكم اللّه، و شرع فى بناء القاهرة و القصرين و الجامع الأزهر، و أرسل بشيرا إلى المعزّ يبشّره بفتح الديار المصرية و إقامة الدعوة له بها، و طلبه إليها. ففرح المعزّ بذلك، و امتدحه شاعره محمد بن هانىء الأندلسى بقصيدة أوّلها:

يقول بنو العبّاس: هل فتحت مصر؟فقل لبنى العبّاس: قد قضى الأمر

و ابن هانىء هذا قد كفّره غير واحد من العلماء، منهم القاضى عياض فى الشفاء لمبالغاته فى مدائحه، من ذلك قوله فى المعزّ:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارفاحكم فأنت الواحد القهّار

و قوله:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱ أ مديرها من حيث دار لطالمازاحمت تحت ركابه جبريلا

ثم توجّه المعزّ من المغرب فى شوّال سنة إحدى و ستين، فوصل الإسكندرية فى شعبان سنة اثنتين و ستين، و تلقّاه أعيان مصر إليها، فخطب هناك خطبة بليغة، و جلس قاضى مصر أبو الطّاهر الذّهلىّ إلى جنبه، فسأله: هل رأيت خليفة أفضل منّى؟ فقال: لم أر أحدا من الخلائف سوى أمير المؤمنين؛ فقال له: أحججت؟ قال:

نعم، قال: وزرت قبر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؟ قال: نعم، قال: و قبر أبى بكر و عمر؟ قال:

فتحيّرت ما ذا أقول! ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء، فقلت: شغلنى عنهما رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على وليّ العهد، و نهضت إليه فسلّمت عليه، و رجعت فانفسح المجلس إلى غيره، ثمّ صار من الإسكندرية إلى

مصر، فدخلها فی خامس رمضان ، فنزل بالقصرین، فکان أوّل حکومة انتهت إلیه أنّ امرأة کافور الإخشیدیّ تقدّمت إلیه، فذکرت له أنّها کانت أودعت رجلا من الیهود الصوّاغ قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، و أنّه جحد ذلک، فاستحضره و قرّره، فأنکر الیهودیّ، فأمر أن تفتّش داره، فوجد القباء قد جعله فی جرّة، و دفنها فیها. فدفعه المعزّ إلیها، فقدّمته إلیه، و عرضته علیه، فأبی أن یقبله منها، و ردّه علیها، فاستحسن ذلک منه الحاضرون من مؤمن و کافر، و سار إلیه الحسن بن أحمد القرمطیّ فی جیش کثیف، و أنشد یقول:

زعمت رجال الغرب أنّی هبتهمفدمی إذن ما بینهم مطلول

یا مصر إن لم أسق أرضک من دمیروی ثراک فلا سقانی النّیل

و التفّت معه أمیر العرب ببلاد الشام، و هو حسّان بن الجرّاح الطائی فی عرب الشام، لینزعوا مصر منه، و ضعف جیش المعزّ عن مقاومتهم. فراسل حسّان، و وعده بمائة ألف دینار، إن هو خذّل بین الناس، فأرسل إلیه؛ أن ابعث إلیّ بما التزمت، و تعال بمن معک، فإذا التقینا انهزمت بمن معی. فأرسل إلیه المعزّ مائة ألف دینار فی أکیاس أکثرها زغل ضرب النحاس، و لبّسه الذهب، و جعله فی أسفل الأکیاس و وضع فی رؤوس الأکیاس الدّنانیر الخالصة، و رکب فی أثرها بجیشه، فالتقی النّاس، فلمّا نشبت الحرب بینهم، انهزم حسّان بالعرب، فضعف جانب القرمطیّ، و قوی علیه المعزّ

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲

فکسره، و استمرّ المعزّ بالقاهرة إلی أن مات فی ربیع الآخر سنة خمس و ستین. و کان منجّمة قال له فی فی السنة التی قبلها: إنّ علیک قطعا فی هذه السنة فتوار عن وجه الأرض حتّی تنقضی هذه المدّة؛ فعمل له سردابا، و دعا الأمراء و أوصاهم بولده نزار، و لقّبه العزیز، و فوّض إلیه الأمر حتّی یعود، فبایعوه علی ذلک، و دخل ذلک السرداب، فتواری فیه سنة، فکانت المغاربة إذا رأی الفارس منهم سحابا ساریا ترجّل عن فرسه، و أومی إلیه بالسلام، ظانّین أنّ المعزّ فی ذلک الغمام. ثمّ برز إلی النّاس بعد مضیّ سنة، و جلس للحکم علی عادته، فعاجله اللّه فی هذه السنة. و ولی بعده ابنه العزیز أبو منصور نزار، فأقام إلی أن مات سنة ستّ و ثمانین و ثلاثمائة.

و من غرائبه أنّه استوزر رجلا نصرانیّا یقال له عیسی بن نسطورس، و آخر یهودیّا اسمه میشا ، فعزّ بسببهما الیهود و النصاری علی المسلمین فی ذلک الزمان، حتّی کتبت إلیه امرأة فی قصّة فی حاجة لها تقول: بالذی أعزّ النصاری بعیسی بن نسطورس، و الیهود بمیشا، و أذلّ المسلمین بک؛ لما کشفت عن ظلامتی ! فعند ذلک أمر بالقبض علی هذین، و أخذ من النّصرانیّ ثلثمائة ألف دینار، و ولّی بعده ابنه الحاکم ، فکان شرّ الخلیقة، لم یل مصر بعد فرعون شرّ منه؛ رام أن یدّعی الإلهیّة کما ادّعاها فرعون، فأمر الرعیّة إذا ذکره الخطیب علی المنبر أن یقوموا علی أقدامهم صفوفا إعظاما لذکره، و احتراما لاسمه؛ فکان یفعل ذلک فی سائر ممالکه حتّی فی الحرمین الشریفین. و کان أهل مصر علی الخصوص إذا قاموا خرّوا سجّدا؛ حتّی أنّه یسجد بسجودهم فی الأسواق الرّعاع و غیرهم. و کان جبّارا عنیدا، و شیطانا مریدا، کثیر التلوّن فی أقواله و أفعاله، هدم کنائس مصر ثمّ أعادها، و خرّب قمامة ثمّ أعادها، و لم یعهد فی ملّة الإسلام بناء کنیسة فی بلد الإسلام قبله و لا بعده إلا ما سنذکره.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳

و قد نقل السّبکیّ الإجماع علی أنّ الکنیسة إذا هدمت و لو بغیر وجه لا تجوز إعادتها.

و من قبائح الحاکم أنّه ابتنی المدارس، و جعل فیها الفقهاء و المشایخ، ثمّ قتلهم و خرّبها، و ألزم الناس بإغلاق الأسواق نهارا و فتحها لیلا؛ فامتثلوا ذلک دهرا طویلا حتّی اجتاز مرّة بشیخ یعمل التجارة فی أثناء النهار، فوقف علیه، و قال: أ لم ننهکم عن هذا! فقال: یا سیّدی، أما کان الناس یسهرون لما کانوا یتعیشون بالنّهار؟ فهذا من جملة السهر. فتبسّم و ترکه. و أعاد النّاس إلی أمرهم الأوّل. و کان یعمل الحسبة بنفسه یدور فی الأسواق علی حمار له، و کان لا یرکب إلّا حمارا، فمن وجده قد غشّ فی معیشته أمر عبدا أسود معه یقال له مسعود أن یفعل به الفاحشة العظمی. و کان منع النساء من الخروج من منازلهنّ، و أن یطلعن من الطاقات أو الأسطحة، و منع الخفّافین من عمل الأخفاف لهنّ، و منعهنّ من دخول الحمّامات، و قتل خلقا من النساء علی مخالفته فی ذلک، و هدم بعض

الحمامات علیهنّ، و منع من طبخ الملوخیا. و له رعونات کثیرة لا تنضبط، فأبغضه الخلق، و کتبوا له الأوراق بالشتم له و لأسلافه فی صورة قصص، حتّی عملوا صورة امرأة من ورق بخفّها و إزارها، و فی یدها قصّة فیها من الشّتم شیء کثیر، فلمّا رآها ظنّها امرأة، فذهب من ناحیتها و أخذ القصّة من یدها، فلمّا رأی ما فیها غضب، و أمر بقتلها؛ فلمّا تحقّقها من ورق، ازداد غضبا إلی غضبه، و أمر العبید من السّود أن یحرقوا مصر و ینهبوا ما فیها من الأموال و الحریم، ففعلوا، و قاتلهم أهل مصر قتالا عظیما ثلاثة أیام، و النار تعمل فی الدّور و الحریم. و اجتمع النّاس فی الجوامع، و رفعوا المصاحف، و جأروا إلی اللّه و استغاثوا به، و ما انجلی الحال حتّی احترق من مصر نحو ثلثها، و نهب نحو نصفها، و سبی حریم کثیر و فعل بهنّ الفواحش. و اشتری الرّجال من سبی لهم من النساء و الحریم من أیدی العبید.

قال ابن الجوزیّ: ثمّ زاد ظلم الحاکم، و عنّ له أن یدّعی الربوبیّة، فصار قوم من الجهّال إذا رأوه یقولون: یا واحد، یا أحد یا محیی یا ممیت!

قلت: کان فی عصرنا أمیر یقال له أزدمر الطویل، اعتقاده قریب من اعتقاد الحاکم هذا، و کان یروم أن یتولّی المملکة، فلو قدّر اللّه له بذلک فعل نحو ما فعله الحاکم و قد أطلعنی علی ما فی ضمیره، و طلب منّی أن أکون معه علی هذا الاعتقاد فی الباطن إلی أن یؤول إلی السلطنة، فیقوم فی الخلق بالسیف حتّی یوافقوه علی الاعتقاد. فضقت

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴

بذلک ذرعا، و ما زلت أتضرّع إلی اللّه تعالی فی هلاکه، و ألّا یولیه علی المسلمین، و استغاث بالنبیّ صلی اللّه علیه و سلم، و أسأل فیه أرباب الأحوال حتّی قتله اللّه فللّه الحمد علی ذلک!

ثمّ کان من أمر الحاکم أن تعدّی شرّه إلی أخته یتّهمها بالفاحشة، و یسمعها أغلظ الکلام، فعملت علی قتله ، فرکب لیلة إلی جبل المقطّم ینظر فی النجوم، فأتاه عبدان فقتلاه ، و حملاه إلی أخته لیلا فدفنته فی دارها، و ذلک سنة إحدی عشرة و أربعمائة.

و ولی بعده ابنه أبو الحسن علیّ، و لقّب الظاهر لإعزاز دین اللّه، فأقام إلی أن توفّی فی سنة سبع و عشرین و أربعمائة، و کانت سیرته جیّدة .

و ولی بعده ابنه أبو تمیم معدّ، و لقّب المستنصر و عمره سبع سنین، فطالت مدّته جدا فإنه أقام ستّین سنة، و لم یقم هذه المدّة خلیفة و لا ملک فی الإسلام قبله و لا بعده، و کانت وفاته سنة سبع و ثمانین و أربعمائة.

و ولی بعده ابنه أبو القاسم أحمد، و لقّب المستعلی، فأقام إلی أن توفّی فی ذی الحجّة سنة خمس و تسعین و أربعمائة.

و ولی بعده ابنه أبو علیّ منصور، و لقّب الآمر بأحکام اللّه. قال ابن میسر فی تاریخه: و لمّا توفّی المستعلی أحضر الأفضل أبا علیّ، و بایعه بالخلافة، و نصّ به مکان أبیه، و لقّبه بالآمر بأحکام اللّه، و کان له من العمر خمس سنین و شهر و أیام، فکتب ابن الصّیرفیّ الکاتب السجلّ بانتقال المستعلی و ولایة الآمر، و قرئ علی رؤوس کافة الأجناد و الأمراء، و أوّله:

من عبد اللّه و ولیّه أبی علیّ الآمر بأحکام اللّه أمیر المؤمنین بن الإمام المستعلی باللّه، إلی کافة أولیاء الدولة و أمرائها و قوّادها و أجنادها و رعایاها، شریفهم و مشروفهم، و آمرهم و مأمورهم، مغربیّهم و مشرقیّهم، أحمرهم و أسودهم، کبیرهم و صغیرهم؛ بارک اللّه فیهم. سلام علیکم فإنّ أمیر المؤمنین یحمد إلیکم اللّه الذی لا إله إلا هو، و یسأله أن یصلّی علی جدّه محمد خاتم النبیین، صلّی اللّه علیه و علی آله الطیّبین الطاهرین

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵

الأئمة المهدیین، و سلّم تسلیما. أمّا بعد، فالحمد للّه المنفرد بالثّبات و الدوام الباقی علی تصرّم اللیالی و الأیّام، القاضی علی أعمار خلقه بالتقضّی و الانصرام، الجاعل نقض الأمور معقودا بکمال الإتمام، جاعل الموت حکما یستوی فیه جمیع الأنام، و منهلا لا یعتصم من ورده کرامة نبیّ و لا إمام، و القائل معزیّا لنبیّه و لکافة أمته: کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ وَ یَبْقی وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ [الرحمن:

۲۷]، الذى استرعى الأئمة هذه الأمّة، و لم تخل الأرض من أنوارهم لطفا بعباده و نعمة، و جعلهم مصابيح الشّبه إذا غدت داجية مدلهمّة، لتضيء للمؤمنين سبل الهداية، و لا يكون أمرهم عليهم غمّة يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإنافة، و نقله إليه من ميراث الخلافة، صابر على الرّزيّة التى أطار هجومها الباب، و الفجيعة التى أطال طروقها الأسف و الاكتئاب، و يسأله أن يصلّى على جدّه محمد خاتم أنبيائه و سيّد رسله و أمنائه، و مجلى غياهيب الكفر و مكشف عمائه، الذى قام بما استودعه اللّه من أمانته، و حمّله من أعباء رسالته، و لم يزل هاديا إلى الإيمان، داعيا إلى الرحمن؛ حتّى أذعن المعاندون و أقرّ الجاحدون. و جاء الحق و ظهر أمر اللّه و هم كارهون؛ فحينئذ أنزل اللّه عليه إتماما لحكمته التى لا يعترضها المعترضون: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ [المؤمنون: ۱۵- ۱۶] صلّى اللّه عليه و على أخيه و ابن عمّه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، الذى أكرمه اللّه بالمنزلة العليّة، و انتخبه للإمامة رأفة بالبريّة، و خصّه بغوامض علم التنزيل، و جعل له مبرّة التعظيم و مزيّة التفضيل، و قطع بسيفه دابر من زلّ عن القصد، و ضلّ عن سواء السبيل، و على الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آبائنا الأبرار المصطفين الأخيار، ما تصرّفت الأقدار، و توالى الليل و النهار.

و إنّ الإمام المستعلى باللّه أمير المؤمنين قدّس اللّه روحه، كان ممّن أكرمه اللّه بالاصطفاء، و خصّه بشرف الاجتباء، و خصّه بشرف الاجتباء، و مكّن له فى بلاده، فامتدّت أفياء عدله، و استخلفه فى أرضه، كما استخلف أباه من قبله، و أيّده بما استرعاه إيّاه بهدايته و إرشاده، و أمدّه بما استحفظه عليه بموادّ توفيقه و إسعاده، ذلك هدى اللّه يهدى به من يشاء من عباده. فلم يزل لأعلام الدين رافعا، و لشبه المضلّين دافعا، و لراية العدل ناشرا، و بالندى غامرا و للعدوّ قاهرا. إلى أن استوفى المدّة المحسوبة، و بلغ الغاية الموهوبة؛ فلو كانت الفضائل تزيد فى الأعمار، أو تحمى من ضروب الأقدار، أو تؤخّر ما سبق تقديمه فى علم الواحد القهّار، لحمى نفسه النفيسة كريم مجدها و شريف سمتها، و كفاها خطير منصبها، و عظيم هيبتها، و وقتها أفعالها التى تستقى من منبع الرسالة، و صانتها خلالها الّتى ترتقى إلى مطلع الجلالة؛ لكنّ الأعمار محرّرة مقسومة، و الآجال مقدّرة معلومة، و اللّه تعالى يقول، و بقوله يهتدى المهتدون: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶

فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ [يونس: ۴۹] فأمير المؤمنين يحتسب عند اللّه هذه الرزيّة التى عظم أمرها و فدح، و جرح خطبها و قدح، و غدت لها القلوب واجفة، و الآمال كاسفة، و مضاجع السكون منقضّة، و مدامع العيون مرفضّة، فإنّ للّه و إنّا إليه راجعون! صبرا على بلائه، و تسليما لأمره و قضائه، و اقتداء بمن أثنى عليه فى الكتاب: إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [ص: ۴۴].

و قد كان الإمام المستعلى باللّه قدّس اللّه روحه عند نقلته، جعل لى عقد الخلافة من بعده، و أودعنى ما حازه من أبيه عن جدّه، و عهد إلىّ أن أخلفه فى العالم، و أجرى الكافّة فى العدل و الإحسان على منهجه المتعالم، و أطلعنى من العلوم على السرّ المكنون، أفضى إلىّ من الحكمة بالغامض المصون، و أوصانى بالعطف على البريّة، و العمل فيهم بسيرتهم المرضيّة، على علمى بما جبلنى اللّه عليه من الفضل، و خصّنى به من إيثار العدل، و إنّنى فيما استرعيته سالك منهاجه، عامل بموجب الشرف الذى عصب اللّه لى تاجه، و كان ممن ألقاه إلىّ، و أوجبه علىّ، أنّ أعلى محلّ السيّد الأجلّ (الأفضل) ، من قلبه الكريم، و ما يجب له من التبجيل و التكريم. و إنّ الإمام المستنصر باللّه كان عندما عهد إليه، و نصّ بالخلافة عليه، أوصاه أن يتّخذ هذا السيد الأجلّ خليفة و خليلا، و يجعله للإمامة زعيما و كفيلا، و يغدق به أمر النّظر و التقرير، و يفوّض إليه تدبير ما وراء السرير، و إنّه عمل بهذه الوصيّة، و حذى على تلك الأمثلة النبويّة، و أسند إليه أحوال العساكر و الرعيّة، و ناط أمر الكافّة بعزمته الماضية، و همّته العليّة؛ فكان قلمه بالسّداد يرجف و لا يجفّ، و سيفه من دماء ذوى العناد يكف و لا يكفّ، و رأيه فى حسم مواد الفسّاد يرجح لا يخفّ، فأوصانى أن أجعله لى كما كان له صفيّا و ظهيرا، و أن لا أستر عنه فى الأمور صغيرا و لا كبيرا، و أن أقتدى به فى ردّ الأحوال إلى تكلّفه، و إسناد الأسباب إلى تدبيره و الناهض بباهظ الخطب و منتقله، إلى غير ذلك ممّا استودعنى إيّاه، و ألقاه إلىّ من النّص الذى يتضوّع نشره و ريّاه، نعمة من اللّه قضت لى بالسّعد

العمیم، و منّة شهدت بالفضل المتین و الحظ الجسیم، و اللّه یؤتی ملکه من یشاء و اللّه واسع علیم. فتعزّوا معاشر الأولیاء و الأمراء و القوّاد و الأجناد و الرعایا و الخدّام، حاضرکم و غائبکم، و دانیکم و قاصیکم، عن الإمام المنقول إلی جنّات الخلود، و استبشروا بإمامکم هذا الإمام الحاضر الموجود؛ و ابتهجوا بکریم نظره المطلع لکم کواکب السعود. و لکم من أمیر المؤمنین ألّا یغمض جفنا عن مصابکم، و أن یتوخّی ما عاد بمیامنکم و مناجحکم، و أن یحسن السّیرة فیکم، و یرفع أذی من یعادیکم، و یتفقّد مصلحة حاضرکم و بادیکم،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷

و لأمیر المؤمنین علیکم أن تعتقدوا موالاته بخالص الطویّة، و تجمعوا له فی الطاعة بین العمل و النیّة، و تدخلوا فی البیعة بصدور منشرحة و آمال منفسحة و ضمائر یقینیّة و بصائر فی الولاء قویّة، و أن تقوموا بشروط بیعته، و تنهضوا بفروض نعمته، و تبذلوا الطارف و التالد فی حقوق خدمته، و تتقرّبوا إلی اللّه سبحانه بالمناصحة لدولته. و أمیر المؤمنین یسأله اللّه أن تکون خلافته کافلة بالإقبال، ضامنة ببلوغ الأمانی و الآمال، و أن یجعل دیمها دائمة بالخیرات، و قسمتها نامیة علی الأوقات إن شاء اللّه تعالی.

و أقام الآمر بأحکام اللّه خلیفة إلی أن قتل فی ذی القعدة سنة أربع و عشرین و خمسمائة، عدّی إلی الرّوضة فی فئة قلیلة، فخرج علیه منها قوم بالسّیوف فأثخنوه.

و کان سیّیء السیرة.

و لما قتل تغلّب علی الدیار المصریة غلام أرمنیّ من غلمانه، فاستحوذ علی الأمور ثلاثة أیام و رام أن یتأمّر، فحضر الوزیر أبو علیّ أحمد بن الأفضل بدر الجمالیّ، فأقام الخلیفة الحافظ لدین اللّه أبا المیمون عبد المجید بن الأمیر أبی القاسم بن المستنصر باللّه، و استحوذ علی الأمور دونه، و حصره فی مجلس لا یدخل إلیه أحد إلا من یریده، و خطب لنفسه علی المنابر، و نقل الأموال من القصر إلی داره، و لم یبق للحافظ سوی الاسم فقط، فلم یزل کذلک حتّی قتل الوزیر ، فعظم أمر الحافظ من حینئذ، و جدّد له ألقاب لم یسبق إلیها، و خطب له بها علی المنابر، فکان یقول: أصلح اللّه من شیّدت به الدین بعد دثوره، و أعززت به الإسلام بأن جعلته سببا لظهوره؛ مولانا و سیّدنا إمام العصر و الزّمان أبا المیمون عبد المجید الحافظ لدین اللّه!

قال ابن خلّکان: و کان الحافظ کثیر المرض بعلّة القولنج، فعمل له سرماه الدیلمیّ طبل القولنج رکبة من المعادن السبعة و الکواکب السبعة فی أشرافها کلّ واحد منها فی وقته، فکان من خاصّیته أنّه إذا ضرب به أحد خرج الریح من مخرجه، فکان هذا الطبل فی خزائنهم إلی أن ملک السلطان صلاح الدین بن أیّوب. أخذ الطبل المذکور کردیّ و لا یدری ما هو! فضرب به، فضرط، فخجل، فألقی الطبل من یده فانکسر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸

و استمرّ الحافظ علی الولایة إلی أن مات فی جمادی الآخرة سنة أربع و أربعین و خمسمائة.

و ولی بعده ولده الظافر باللّه أبو المنصور إسماعیل، فأقام إلی أن قتل فی المحرّم سنة تسع و أربعین.

و ولی بعده ولده الفائز بنصر اللّه أبو القاسم عیسی، و هو صبیّ صغیر ابن خمس سنین؛ فإنّ مولده فی المحرّم سنة أربع و أربعین، فأقام إلی أن توفّی فی صفر سنة خمس و خمسین؛ و عمره یومئذ إحدی عشرة سنة، و کان مدبّر دولته أبو الغارات طلائع بن رزّیک .

و ولی بعده العاضد لدین اللّه أبو محمد عبد اللّه بن یوسف بن الحافظ ، و هو آخر العبیدیین. و مات یوم عاشوراء سنة سبع و ستّین، و زالت دولتهم علی ید السلطان الملک الناصر صلاح الدین یوسف بن أیّوب؛ رحمه اللّه تعالی.

قال ابن کثیر: و من الغریب أنّ العاضد فی اللغة، القاطع، و منه الحدیث: «لا یعضد شجرها»، فبالعاضد قطعت دولة بنی عبید.

و قال ابن خلّکان: سمعت جماعة من المصریّین یقولون: إنّ هؤلاء القوم فی أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: اکتب لنا ألقابا فی ورقة تصلح للخلفاء؛ حتّی إذا تولّی واحد لقّبوه ببعض تلک الألقاب، فکتب لهم ألقابا، و آخر ما کتب فی الورقة:

«العاضـد». فاتّفق أنّ آخر من ولی منهم العاضـد. و لم یکن للمستنصـر و من بعده من الخلافة سوی الاسم فقط؛ لاستیلاء وزرائهم علی الأمور و حجرهم علیهم، و تلقّبهم بألقاب الملوک؛ فکانوا معهم کخلفاء عصرنا مع ملوکهم، و کخلفاء بغداد مع بنی بویه، و أشباههم.

و من قصیدة ابن فضل اللّه التی سمّاها: حسن الوفاء لمشاهیر الخلفاء:

و الخلفاء من بنی فاطمةإلی عبید اللّه درّ فاخر

أبناء إسماعیل فی نجل جعفر الصادق فی القول أبوه الباتر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹ بالغرب مهدیّ تلاه قائمو الثالث المنصور و هو الآخر

ثمّ المعزّ قائد الجیش الّذیسار إلی مصر، و نعم السائر

ثمّ ابنه العزیز عزّ مشبهاو الحاکم المعروف ثمّ الظّاهر

و بعده المستنصر النّائی الّذیتلاه مستعل و جاء الآمر

و حافظ و ظافر و فائزو عاضد ثمّ المملیک النّاصر

قالوا: لقد ساء لهم معتقدو اللّه عند علمه السّرائر

لکنّما الحاکم ممّن لجّ فیطغیانه فکافر أو فاجر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰

ذکر أمراء مصر من حین ملکها بنو أیوب إلی أن اتخذها الخلفاء العباسیون دار الخلافة

لما قتل صاحب مصـر الظافر، وصـلت الأخبار إلی بغـداد، بأن مصـر قتل صاحبها، و لم یبق فیهم إلّا صبیّ صـغیر، ابن خمس سـنین، قد ولّوه علیهم، و لقبوه الفائز. فکتب الخلیفـة المقتفی عهـدا للملک نور الدین محمود بن زنکی علی البلاد الشامیة و المصـریة، و أرسـله إلیه، فسار حتّی أتی دمشق، فحاصـرها و انتزعها من یـد ملکها مجیر الـدین بن طغتکین، و شـرع فی فتـح بلاد الشام بلدا بلدا، و أخذها من أیدی من استولی علیها من الفرنج.

فلما کان فی سـنة اثنتین و ستّین أقبلت الفرنـج فی محافل کثیرة إلی الـدور المصـریة، فأرسل نور الدین حمود أسد الدین شـیرکوه بن شادی، و معه ابن صـلاح الـدین یوسف بن أیّوب، فسار إلیها فی ربیع الآخر، و قد وقع فی النفوس کأن صـلاح الدین سـیملک الدیار المصریة، و فی ذلک یقول عرقلة الشاعر:

أقول و الأتراک قد أزمعتمصر إلی حرب الأعاریب

ربّ کما ملّکتها یوسف الصّدّیق من أولاد یعقوب

یملکها فی عصرنا یوسف الصّادق من أولاد أیّوب

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱ من لم یزل ضرّاب هام العداحقّا و ضرّاب العراقیب

و سار إلی الفرنـج، فاقتتلوا قتالا عظیما، فهزم الفرنـج و للّه الحمـد ، و سار أسـد الـدین بعـد کسـر الفرنج إلی الإسـکندریّة، فملکها، و استناب علیها ابن أخیه صلاح الدین، و عاد إلی الصعید، فملکه.

ثمّ إنّ الفرنـج و المصـریین اجتمعوا علی حصار الإسـکندریّة، فصالـح شاور وزیر العاضـد أسد الدین عن الإسـکندریة بخمسـین ألف دینار، فأجابه إلی ذلک. و خرج صـلاح الدین منها، و سـلّمها إلی المصریین، و عاد إلی الشام فی ذی القعدة، و قرّر شاور للفرنج علی مصـر فی کلّ عام مائة ألف دینار، و أن یکون لهم شـحنة بالقاهرة. و سـکن القاهرة أکثر شـجعان الفرنج، و تحکّموا فیها بحیث کادوا یسـتحوذون علیها، و یخرجون المسـلمین منها. فلمّا کانت سـنة أربع و ستّین، قـدم أمداد الفرنج فی محافل هائلة، فأخذوا مدینة بلبیس، فقتلوا و أسـروا و نزلوا بهـا ، و ترکوا فیهـا أثقـالهم، و جعلوها موئلا و معقلا. ثمّ جاءوا فنزلوا علی القاهرة من ناحیـة باب الشـرقیّة، فأمر

الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر ، و أن ينتقلوا إلى القاهرة. فنهب البلد، و ذهب للناس أموال كثيرة، و بقيت النّار تعمل فى مصر أربعة و خمسين يوما؛ فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد يستغيب بالملك نور الدين، و بعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركنى؛ و استنقذ نسائى من أيدى الفرنج. و التزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين مقيما عندهم، و لهم إقطاعات زائدة على الثلث.

فجهّز نور الدين الجيوش و عليهم أسد الدين و معه صلاح الدين، فدخلوا القاهرة و قد رجع الفرنج لمّا سمعوا بوصولهم. و عظم أمر أسد الدين بالديار المصرية، و قتل الوزير شاور، قتله صلاح الدين . و فرح المسلمون بقتله، لأنّه الذى كان يمالئ الفرنج على المسلمين، و أقيم أسد الدين مكانه فى الوزارة، و لقّب الملك المنصور؛ فلم يلبث إلا شهرين و خمسة أيّام، و مات فى السادس و العشرين من جمادى الآخرة .

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲

فأقام العاضد مكانه فى الوزارة صلاح الدين يوسف، و لقّبه الملك الناصر. قال أبو شامة: و صفة الخلعة التى لبسها صلاح الدين يومئذ عمامة بيضاء تنّيسىّ بطرف ذهب، و ثوب دبيقى بطراز ذهب، و جبّة بطراز ذهب، و طيلسان بطراز ذهب، و عقد جوهر بعشرة آلاف دينار، و سيف محلّى بخمسة آلاف دينار، و حجره بثمانية آلاف دينار، و عليها سرج ذهب و سريسار ذهب مجوهر، و فى رأسها مائتا حبّة جوهر، و فى قوائمها أربعة عقود جوهر، و فى رأسها قصبة بذهب، و فيها شدّة بيضاء بأعلام بيض، و مع الخلعة عدة بقج ، و خيل و أشياء أخر، و منشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض؛ و كان ذلك يوم الاثنين الخامس و العشرين من جمادى الآخرة سنة أربع و ستين؛ و كان يوما مشهودا، و ارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصريّة، و ائتلفت عليه القلوب، و خضعت له النفوس، و اضطهد العاضد فى أيامه غاية الاضطهاد .

فلمّا كان سنة خمس و ستّين حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما، فقاتلهم صلاح الدين حتّى أجلاهم، و أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسىّ بمصر؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه فى ذلك؛ فلمّا كان سنة ستّ و ستّين، اتّفق موت المستنجد ، و قام المستضىء، و شرع صلاح الدين فى تمهيد الخطبة لبنى العباس، و قطع الأذان بحىّ على خير العمل من ديار مصر كلّها، و عزل قضاة مصر لأنّهم كلّهم كانوا شيعة، و ولّى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعىّ، استناب فى سائر الأعمال شافعيّة.

فلما دخل سنة سبع و ستّين أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبنى العبّاس بمصر فى أوّل جمعة من المحرّم و بالقاهرة فى الجمعة الثانية، و كان ذلك يوما مشهودا؛ و العجب أنّ أوّل من خطب للمعزّ حين أخذت مصر عمر بن عبد السميع العباسىّ الخطيب بجامع عمرو و بجامع ابن طولون؛ فكان أوّل من خطب لبنى العباس هذه النّوبة شريف علوىّ، يقال له محمد بن الحسن بن أبى الضياء البعلبكىّ . و لما بلغ الخبر

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳

نور الدين أرسل إلى الخليفة المستضىء يعلمه بذلك، فزيّنت بغداد، و غلّقت الأسواق و عملت القباب، و فرح المسلمون فرحا شديدا، قال ابن الجوزىّ: و قد ألّفت فى ذلك كتابا سميته: «النصر على مصر». و كتب العماد الكاتب عن السلطان صلاح الدين إلى الملك نور الدين يبشّره بذلك:

قد خطبنا للمستضىء بمصرنائب المصطفى إمام العصر

فى أبيات ذكرتها فى تاريخ الخلفاء.

و قال بعض شعراء بغداد فى ذلك:

ليهنك يا مولاى فتح تتابعتإليك به خوص الرّكائب توجف

أخذت به مصرا و قد حال دونهامن الشّرك ناس فى لها الحقّ تقذف

فعادت بحمد اللّه باسم إمامناتتيه على كلّ البلاد و تشرف

و لا غرو أن ذلّت ليوسف مصرهو كانت إلى عليائه تتشوّف

تملّكها من قبضة الكفر يوسفو خلّصها من عصبة الرفض يوسف

كشفت بها عن آل هاشم سيّئاو عارا أبى إلّا بسيف يكشف

و هى طويلة.

قال أبو شامة: أنشدت هذه القصيدة للخليفة قبل موته، عند تأويل منام رئى فى هذا المعنى، و أراد بيوسف الثانى الخليفة المستنجد، فلم يخطب إلّا لولده المستضىء، فجرى الفأل باسم الملك النّاصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب، و أرسل الخليفة المستضىء بأمر اللّه إلى الملك صلاح الدين خلعة سنيّة، و معها أعلام سود، و لواء معقود، ففرّقت على الجوامع بالشام و بلاد مصر.

و كتب له تقليدا؛ و هذه صورته:

كتاب تقليد الخليفة لصلاح الدين

اشارة

أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين يبدأ بحمد اللّه الذى يكون لكلّ خطبة قيادا، و لكلّ أمر مهادا، و يستزيده من نعمه التى جعلت التقوى لها زادا، و حمّلته أعباء الخلافة فلم يضعف عنه طوقا و لم يأل فيه اجتهادا، و صغّرت لديه أمر الدنيا فما تسوّرت له محرابا و لا عرضت عليه جيادا، و حقّقت فيه قوله تعالى: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً [القصص: ۸۳].

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴

ثمّ يصلّى على من أنزلت الملائكة لنصره إمدادا، و أسرى به إلى السماء حتّى ارتقى سبعا شدادا، و تجلّى له ربّه فلم يزغ منه بصر و لا كذّب فؤادا.

ثمّ من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا و أعوادا، و ورثت النّور المبين بلادا، و وصفت بأنّها أحد الثّقلين هداية و إرشادا؛ و خصوصا عمّة العباس المدعوّ له بأن يحفظ نفسا و أولادا، و أن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا و لا تخشى نفادا.

و إذا استوفى العلم مراده من هذه الحمدلة، و أسند القول فيها عن فصاحته المرسلة فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفا لقرطاسه، و استدام سجوده على صفحته حتّى يرفع من رأسه؛ و ليس ذلك إلّا قاضية فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الإكثار، و اشتبه التطويل فيها بالاختصار، و هى التى لا يفتقر واضعها إلى القول المعاد، و لم يستوعر سلوك أطوادها؛ و من العجب وجود السهل فى سلوك الأطواد.

و تلك هى مناقبك أيّها الملك الناصر السيّد الأجلّ الكبير، العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفّر يوسف بن أيّوب .

و الديوان العزيز يتلوها عليك تحدّثا بشكرك، و يباهى أولياءه تنويها بذكرك، و يقول: أنت الذى نستكفى فتكون للدّولة سهمها الصائب، و شهابها الثاقب، و كنزها الذى تذهب الكنوز و ليس بذاهب. و ما ضرّها و قد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب؛ فاشكره إذا مساعيك التى أهّلتك لما أهّلتك، و فضّلتك على الأولياء بما فضّلتك. و لئن شوركت فى الولاء بعقيدة الإضمار، فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار. و فرق بين من أمدّ بقلبه و بين من أمدّ بيده فى درجات الإمداد، و ما جعل اللّه القاعد كالذى قال: لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى برك الغماد.

و قد كفاك من المساعى أنّك كفيت الخلافة أمر منازعيها، و طمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدّعيها. و لقد مضى عليها زمن و محراب حقّها محفوف من الباطل بمحرابين، و رأت ما رآه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من السّوارين اللّذين أولهما كذابين؛

فبمصر منهما واحد تجری أنهارها من تحته؛ و دعا الناس إلی عبادة طاغوته و جبته ، و لعب بالدّین حتی لم یدر یوم جمعته من یوم أحده و لا سبته.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵

و أعانه علی ذلک قوم رمی اللّه بصائرهم بالعمی و الصّمم؛ و اتّخذوه صنما و لم تکن الضّلالة هناک إلا بعجل أو صنم؛ فقمت أنت فی وجه باطله حتّی قعد، و جعلت فی جیده حبلا من مسد؛ و قلت لیده: تبّت، فأصبح و لا یسعی بقدم و لا یبطش بید.

و کذلک فعلت بالآخر الذی نجمت بالیمن ناجمته، و سامت فیه سائمته؛ فوضع بیته موضع الکعبة الیمانیّة، و قال هذا ذو الخلصة الثانیة. فأیّ مقامک یعترف الإسلام بسبقه، أم أیّهما یقوم بأداء حقّه؟!

و هاهنا فلیصبح القلم للسیف من الحسّاد، و لیقصر مکانته عن مکانته و قد کان له من الأنداد، و لم یحط بهذه المزیّة إلا أنّه أصبح لک صاحبا، و فخر بک حتّی طال فخرا کما عزّ جانبا، و قضی بولایتک فکان بها قاضیا، لمّا کان حدّه ماضیا.

و قد قلّدک أمیر المؤمنین البلاد المصریّة و الیمنیّة غورا و نجدا، و ما اشتملت علیه رعیّة و جندا، و ما انتهت إلیه أطرافها برّا و بحرا، و ما یستنقذ من مجاوریها مسالمة و قهرا. و أضاف إلیها بلاد الشام و ما تحتوی علیه من المدن الممدّنة، و المراکز المحصّنة مستثنیا منها ما هو بید نور الدّین إسماعیل بن نور الدین محمود رحمه اللّه و هو حلب و أعمالها؛ فقد مضی أبوه عن آثار فی الإسلام ترفع ذکره فی الذاکرین؛ و تخلفه فی عقبه فی الغابرین، و ولده هذا قد هذّبته الفطرة فی القول و العمل، و لیست هذه الرّبوة إلّا من ذلک الجبل؛ فلیکن له منک جار یدنو منه ودادا کما دنا أرضا، و تصبح و هو له کالبنیان یشدّ بعضه بعضا؛ و الذی قدّمناه من الثناء علیک ربّما تجاوزتک درجة الاقتصاد و ألقتک عن فضیلة الازدیاد. فإیّاک أن تنظر إلی سعیک نظر الإعجاب، فتقول: هذه بلادنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها کثیر من الأضراب. و لکن اعلم أنّ الأرض للّه و لرسوله، ثمّ لخلیفته من بعده، و لا منّة للعبد بإسلامه، بل المنّة للّه بهدایة عبده. و کم سلف قبلک ممّن لو رام ما رمته لدنا شاسعه و أجاب مانعه؛ و لکن ذخره اللّه لک لتحظی فی الآخرة بمفازه، و فی الدنیا برقم طرازه، فألق بیدک عند هذا القول إلقاء التّسلیم، و قل: لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ [البقرة: ۳۲].

و قد قرن تقلیدک هذا بخلعة تکون لک فی الإسلام شعارا، و فی الرّسم فخارا، و تناسب محلّ قلبک و بصرک؛ و خیر ملابس الأولیاء ما ناسب قلوبا و أبصارا، و من جملتها طوق یوضع فی عنقک موضع العهد و المیثاق، و یشیر إلیک بأنّ الإنعام قد أطاق بک إطاقة الأطواق بالأعناق.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶

ثمّ إنّک خوطبت بالملک، و ذلک خطاب یقضی لصدرک بالانشراح، و لأملک بالانفساح، و تؤمر معه بمدّ یدک العلیا لا تضمّها إلی الجناح.

و هذه الثلاثة المشار إلیها هی التی تکمل بها أقسام السیادة، و هی الّتی لا مزید علیها فی الإحسان فیقال إنّها الحسنی و زیادة؛ فإن صارت إلیک فانصب لها یوما یکون فی الأیّام کریم الأنساب، و اجعله لها عیدا و قل هذا عید الخلعة و التقلید و الخطاب.

هذا و لک عند أمیر المؤمنین مکانة بجعلک إلیه حاضرا و أنت ناء عن الحضور، و تضنّ أن تکون مشترکة بینک و بین غیرک و الضّنّة من شیم الغیوب؛ و هذه المکانة قد عرّفتک نفسها و ما کنت تعرفها؛ و ما نقول إلّا أنّها لک صاحبة و أنت یوسفها، فاحرسها علیک حراسة تقضی بتقدیمها، و اعمل لها فإنّ الأعمال بخواتیمها.

و اعلم أنّک تقلّدت أمرا یفتن به تقیّ الحلوم، و لا ینفکّ صاحبه عن عهدة الملوم، و کثیرا ما تری حسناته یوم القیامة و هی مقسومة بأیدی الخصوم؛ و لا ینجو من ذلک إلّا من أخذ أهبة الحذار، و أشفق من شهادة الأسماع و الأبصار. و اعلم أنّ الولایة میزان، إحدی کفّتیه فی الجنّة و الأخری فی النار؛ قال النبی صلی اللّه علیه و سلم: «یا أبا ذرّ، إنّی أحبّ لک ما أحبّ لنفسی، لا تأمّرنّ علی اثنین، و لا تولینّ مال یتیم». فانظر إلی هذا القول النبویّ نظر من لم یخدع بحدیث الحرص و الآمال، و مثّل الدنیا و قد سیقت إلیک بحذافیرها،

أليس مصيرها إلى زوال؟! و السعيد من إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لا أرب الجسوم، و اتّخذ منها و هى السمّ دواء و قد تتّخذ الأدوية من السموم.

و ما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء و الصباح، و هو كما أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرّياح.

و اللّه يعصم أمير المؤمنين، و ولاة أمره من تبعاتها التّى لابستهم و لابسوها، و أحصاها اللّه و نسوها، و لك أنت من اللّه هذا الدعاء حظّ على قدر محلّك من العنابة التى حدثت بصنعك، و محلّك من الولاية التى بسطت من ذرعك.

فخذ هذا الأمر الذى تقلّدته أخذ من لم يتعقّبه بالنّسيان، و كن فى رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان؛ و ملاك ذلك كلّه فى إسباغ العدل الذى جعله اللّه ثالث الحديث و الكتاب، و أغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب؛ و قدّر يوما منه بعبادة ستّين عاما فى الحساب، و لم يأمر به آمر إلّا زيد قوّة فى أمره، و تحصّن به من عدوّه و من دهره. ثمّ يجاء به يوم القيامة و فى يده كتاب أمان، و يجلس على منبر من نور عن يمين

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷

الرحمن؛ و مع هذا فإنّ مركبه صعب لا- يستوى على ظهره إلّا من أمسك عنان نفسه قبل إمساك عنانه، و غلبت لمّة ملكه على لمّة شيطانه. و من آكد فروضه أن تمحى السّير السّيئة التى طالت مدد أيامها، و يئس الرّعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمدا لانحسار ظلامها؛ تلك السّير هى المكوس التى أنشأتها الهمم الحقيرة، و لا غنى للأيدى الغنيّة إذا كانت ذا نفوس فقيرة؛ و كلّما زيدت الأموال الحاصلة منها قدرا، زادها اللّه محقا؛ و قد استمرّت عليها العوائد حتّى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسمّوها حقّا، و لو أنّ صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ فى عقابه، و مثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه؛ و هى أشقى ممّن يكون السواد الأعظم له خصما، و يصبح و هو مطالب بما يعلم و بما لم يحط به علما؛ و أنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن إجرائها، و تلحق أسماءها فى المحو بإهمالها؛ حتّى لا يبقى لها فى العيان صورة منظورة، و لا فى الألسنة أحاديث مذكورة.

و إذا فعلت ذلك كنت أزلت عن الماضى سنّة سوء سنّتها يداه، و عن الآتى متابعة ظلم وجده طريقا مسلوكا فجرى على بداه، فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذراعا، و نظر إلى الحياة الدنيا بعينها فرآها فى الآخرة متاعا. و احمد اللّه على أن قيّض لك إمام هدى يقف بك على هداك، و يأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك؛ و هذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة، و تفتقر فى سياستها إلى أيد متساعدة؛ و لهذا يكثر بها قضاة الأحكام و أولو تدابيرات السيوف و الأقلام؛ و كلّ من هؤلاء ينبغى أن يفتن على نار الاختبار، و يسلّط عليه شاهد عدل من أمانة الدرهم و الدينار فما أضلّ الناس شىء كحبّ المال الذى فورقت من أجله الأديان، و هجرت بسببه الأولاد و الإخوان؛ و كثيرا ما يرى الرّجل الصائم القائم و هو عابد له عبادة الأوثان؛ فإذا استعنت بأحد منهم على شىء من أمرك، فاضرب عليه بالأرصاد، و لا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإنّ الأحوال تنقل بنقل الأجساد. و إيّاك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد.

و كذلك نأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر محاسبين؛ و يعلموا أنّ ذلك من دأب حزب اللّه الذين جعلهم الغالبين، و ليبدءوا أوّلا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها، و يأمروها بما يأمرون به سواها، و لا يكونوا ممّن هدى إلى طريق البرّ و هو عنها حائد، و انتصب لطبّ المرضى و هو محتاج إلى طبيب و عائد؛ فما تنزل بركات السماء إلّا على من خاف مقام ربّه، و ألزم التقوى أعمال يده و لسانه و قلبه؛ فإذا صلحت الولاة صلحت الرعيّة بصلاحهم؛ و هم لهم بمنزلة المصابيح، و لا يتضىء كلّ قوم إلّا بمصباحهم. و ممّا يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا فى

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۸

الأصحاب، و جيرانا فى الاقتراب، و أعوانا فى توزّع الحمل الذى يثقل على الرقاب؛ فالمسلم أخو المسلم و إن كان عليه أميرا، و أولى

النـاس باسـتعمال الرفق من كان فضل اللّه عليه كثيرا؛ و ليست الولايـة لمن يسـتجد بها كثرة اللّفيف، و يتولّاها بالوطء العنيف؛ و لكنّها لمن يمال عن جوانبه، و يؤكل من أطايبه، و لمن إذا غضب لم ير للغضب عنـده أثر، و إذا ألحف فى سؤاله تخلّق بخلق الضّـجر، و إذا حضـر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسـمة القول و النظر؛ فذلك الذى يكون لصاحبه فى أصـحاب اليمين، و الذى يدعى بالحفيظ العليم و القوىّ الأمين.

و من سـعادة المرء أن تكون ولاته متأدّبين بآدابه، و جارين على نهـج صوابه؛ و إذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسـنات مثبتة فى كتابه.

و بعـد هـذه الوصـيّة، فإنّ هاهنا حسـنة هى للحسـنات كالأمّ الولود؛ و لطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجود، و تيقظت لنصـره و العيون رقود؛ و هى التى تسـبغ لها الآلاء، و لا يتخطّاها البلاء، و لأمير المؤمنين عنايـة تبعثها الرحمـة الموضوعة فى قلبه، و الرغبة فى المغفرة و الرحمة لما تقدّم و تأخّر من ذنبه. و تلك هى الصدقة التى فضّل اللّه بعض عباده بمزيّة إفضالها، و جعلها سـببا إلى التعويض عنها بعشر أمثالهـا؛ و هو يـأمرك أن تتفقّـد أحوال الفقراء الّـذين قـدرت عليهم مـادة الأرزاق، و ألبسـهم التعفّف ثوب الغنى و هم فى ضـيق من الإملاق؛ فأولئـك أوليـاء اللّه الـذين مسّـتهم الضـرّاء فصبروا، و كثرت الـدنيا فى يـد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا. و ينبغى لك أن تهيّىء لهم من أمرهم مرفقا، و تضرب بينهم و بين الفقر موبقا.

و ما أطلنا لك القول فى هذه الوصـيّة إلّا إعلاما بأنّها من المهمّ الذى يسـتقبل و لا يسـتدبر، و يسـتكثر منه و لا يسـتكبر؛ و هذا يعدّ من جهـاد النفس فى بـذل المـال، و يتلوه جهـاد العـدوّ الكـافر فى مواقف القتـال؛ و أمير المؤمنين يعرّفـك من ثوابه مـا يجعل السّـيف فى ملاـزمته أخـا، و تسـخو له بنفسك إن كان أحـد بنفسه سـخا. و من صـفاته أنّ العمل المحبوب بفضل الكرامـة، الـذى ينمو أجره بعد صـاحبه إلى يـوم القيامـة، و به يمتحن طاعـة الخـالق على المخلـوق، و كـلّ الأعمـال عاطلـة لاـ خلوق لهـا و هى المختصّ دونهـا بزينة الخلوق، و لو لا فضـله لما كان محسوبا بشطر الإيمان؛ و لما جعل اللّه الجنّة له ثمنا و ليست لغيره من الأثمان، و قد علمت أنّ العدوّ هو جاركك الأدنى؛ و الـذى يبلغك و تبلغه عينا و أذنا، و لا تكون للإسـلام نعم الجار؛ حتّى تكون له بئس الجار. و لا عذر لك فى ترك جهـاده بنفسـك و مالـك إذا قـامت لغيرك الأعـذار. و أمير المؤمنين لاـ يرضـى منـك بـأن تلقاه مصافحا، أو تطرق أرضه مماسـيا أو مصابحا، بل يريد أن تقصد البلاد الّتى فى يده

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۹

قصد المسـتغير لا قصد المغير، و أن تحكم فيها بحكم اللّه الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة و النّضير، و على الخصوص البيت المقدّس فإنّه بلاد الإسـلام القديم، و أخو البيت الحرام فى شـرف التعظيم، و الّذى توجّهت إليه الوجوه من قبل بالسـجود و التسـليم. و قد أصبح و هو يشـكو طول المدّة فى أسـر رقبته، و أصـبحت كلمة التوحيد و هى تشكو طول الوحشة فى غربتها عنه و غربته. فانهض إليه نهضـة متوغّل فى فرحه، و تبـدل صـعب قياده بسـمحه؛ و إن كان له عام حديبيّـة فاتّبعه بعام فتح. و هذه الاستزادة بعد سداد ما فى اليـد من ثغر كان مهملا فحميت موارده، أو مسـتهدما فرفعت قواعـده، و من أهمّها ما كان حاضـر البحر كأنّه أعمه عورته مكشوفـة، و خطّـة مخوفـة، و العـدوّ قريب منه على بعـده. و كثيرا مـا يـأتيه فجـاءة حتّى يشقّ برقه برعـده؛ فينبغى أن ترتّب بهـذه الثغور رابطـة يكثر شجعانهـا، و يقـلّ أقرانهـا، و يكون قتالهـا لأن تكون كلمـة اللّه هى العليا لا لأن يرى مكانها، و حينئـذ يصـبح كلّ منها و له من الرجال أسوار، و يعلم أهله أن بناء السـيف أمنع من بناء الأحجار؛ و مع هـذا فلا بدّ له من أسـطول يكثر عدده، و يقوى مدده، فإنه العمدة التى يسـتعين بها على كشف العماء، و الاسـتكثار من سـبايا العبيد و الإماء، و جيشه أخو الجيش السـليمانىّ، فذاك يسرى على متن الريح و هذا يجرى على متن الماء.

و من صـفات خيله أنّهـا جمعت بين العوم و المطار، و تساوت أقـدار خلقها على اختلاف مـدّة الأعمار، فإذا أشـرعت قيل جبال متلفّعة بقطع من الغيوم، و إذا نظر إلى أشـكالها قيل أهلّة غير أنّها تهتدى فى مسيرها بالنجوم، و مثل هذه الخيل ينبغى أن يغالى من جيادها، و

یستکثر من قیادها، و لیؤمّر علیها أمیر یلقی البحر بمثله من سعة صدره، و یسلک طرقه سلوک من لم تقتله بجهلها، و لکن قتلها بخبره؛ و کذلک فلیکن ممّن أفنت الأیّام تجاربه، و رحمتها مناکبه، و ممّن بذل الصّعب إذا هو ساسه و إن سیس لان جانبه، و هذا هو الرجل الذی یرأس علی القوم فلا یجد هذه بالرئاسة، فإن کان فی الساقة ففی الساقة أو کان فی الحراسة ففی الحراسة. و لقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه، و أیقنت بالنصر من رایته کما أیقنت بالنجح من رأیه.

و اعلم أنّه قد أخلّ من الجهاد برکن یقدح فی علمه، و هو تمامه الذی یأتی فی آخره کما أنّ صدق النیّة تأتی فی أوّله؛ و ذلک هو قسم الغنائم، فإنّ الأیدی قد تناولته بالإجحاف، و خلطت جهادها فیه بفلولها، فلم ترجع بالکفاف. و اللّه قد جعل الظلم فی تعدّی حدوده المحدودة، و جعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة؛ و نحن نعوذ به أن یکون زماننا هذا شرّ زمان و ناسه شرّ ناس، و لم یستخلفنا علی حفظ أرکان دینه ثمّ نهمله إهمال مضیع و لا إهمال ناس.

و الذی نأمرک به أن تجری هذا الأمر علی المنصوص من حکمه، و تبرّئ ذمّتک

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۰

ممّا یکون غیرک الفائز بفوائده و أنت المطالب بإثمه، و فی أرزاق المجاهدین بالدیار المصریة و الشامیّة ما یغنیهم عن هذه الأکلة التی تکون غدا نکالا و جحیما، و طعاما ذا غصّة و عذابا ألیما.

فتصفّح ما سطّرناه لک من هذه الأساطیر التی هی عزائم مبرمات، بل آیات محکمات، و تحبّب إلی اللّه و إلی أمیر المؤمنین باقتفاء کتابها، و ابن لک بها مجدا یبقی فی عقبک إذا أصیبت البیوت فی أعقابها؛ و هذا الذی ینطق علیک بأنّه لم یأل فی الوصایا التی أوصاها، فإنّه لا یغادر صغیرة و لا کبیرة إلّا أحصاها.

ثمّ إنّه قد ختم بدعوات دعا بها أمیر المؤمنین عند ختامه، و سأل فیها خیرة اللّه التی تتنزّل من کلّ أمر منزلة نظامه. ثمّ قال: إنّی أشهدک علی من قلّدته شهادة تکون علیه رقیبة و له حسیبة، فإنی لم آمره إلا بأوامر الحقّ التی فیها موعظة و ذکری، و لمن تبعها هدی و رحمة و بشری، و إذا أخذ بها فلج بحجّته یوما یسأل فیه عن الحجج، و لم یختلج دون رسوله علی الحوض فی جملة من یختلج، و قیل له: لا حرج علیک و لا إثم إذ نجوت من ورطات الإثم و الحرج. و السلام.

قال الفقیه عمارة الیمنی - یرثی العاضد- و کان من خواصّهم:

یا عاذلی فی هوی أبناء فاطمةلک الملامة إن قصّرت فی عذلی

بالله زر ساحة القصرین و ابک معیعلیهما لا علی صفّین و الجمل

و قال بعض الشعراء یمدح بنی أیّوب علی ما فعلوه:

أ لستم مزیلی دولة الکفر من بنیعبید بمصر، إنّ هذا هو الفضل

زنادقة شیعیّة باطنیّةمجوس و ما فی الصالحین لهم أصل

یسرّون کفرا، یظهرون تشیّعالیستروا شینا، و عمّهم الجهل

و قال حسان عرقلة :

أصبح الملک بعد آل عبیدمشرفا بالملوک من آل شاذی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۱ و غدا الشرق یحسد الغرب للقوم و مصر تزهو علی بغداذ

ما حووها إلّا بعزم و حزمو صلیل الفؤاد فی الفولاذ

لا کفرعون و العزیز و من کان بها کالخصیب و الأستاذ

قال أبو شامة: یعنی بالأستاذ کافور الإخشیدیّ.

قال: و قد أفردت کتابا سمّیته: «کشف ما کان علیه بنو عبید، من الکفر و الکذب و المکر و الکید». و کذا صنّف العلماء فی الردّ

علیهم کتبا کثیرة من أجلّها کتاب القاضی أبی بکر الباقلّانیّ الّذی سمّاه «کشف الأسرار و هتک الأستار».

صلاح الدین فی مصر

و لما استقلّ السلطان صلاح الدین بأرض مصر، أسقط عن أهلها المکوس و الضرائب، و قرأ المنشور بذلک علی رؤوس الأشهاد یوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع و ستّمائة . و استولی علی القصر و خزائنه و فیها من الأموال ما لا یحصی؛ من ذلک سبعمائة یتیمة من الجوهر، و قضیب زمرّد طوله أکثر من شبر و سمکه نحو الإبهام، و عقد من یاقوت، و إبریق عظیم من الحجر المائع إلی غیر ذلک من التّحف، و وجد خزانة کتب لیس فی الإسلام لها نظیر، تشتمل علی نحو ألفی ألف مجلّد منها بالخطوط المنسوبة مائة ألف مجلّد، فأعطاها القاضی الفاضل. و أخذ السّلطان صلاح الدین فی نصر السنّة و إشاعة الحقّ، و إهانة المبتدعة و الانتقام من الروافض، و کانوا بمصر کثیرین.

صلاح الدین و الفرنج

ثمّ تجرّدت همّته إلی الفرنج و غزوهم؛ فکان من أمره معهم ما ضاقت به التواریخ، و استردّ منهم ما کانوا استولوا علیه من بلاد الإسلام بالشام. من ذلک القدس الشریف، فتحه، بعد أن کان فی ید الفرنج ... و أجلی ما بین الشام و مصر من الفرنج.

ثمّ افتتح الحجاز و الیمن من ید متغلّبیها و تسلّم دمشق بعد موت نور الدین، فصار سلطان مصر و الشام و الیمن و الحجاز.

قال ابن السبکی فی الطبقات الکبری: له من الفتوحات التی خلّصها من أیدی الفرنج قلعة أیلة، طبریّة، عکّا، القدس، الخلیل، الکرک، الشّوبک، نابلس، عسقلان،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۲

بیروت، صیداء، بیسان، غزّة، لدّ، حیفا صفّوریه، معلیا، الفولة، الطّور، إسکندرونة، هفوس ، یافا، أرسوف، قیساریّة، جبل نبل معلیکة ، عفربلا ، اللّجّون، لستمة ، یاقون ، مجدل یابا، تلّ الصافیة، بیت نوبا، الطّرون ، الجیب، البیرة، بیت لحم، ریحاء، قرا و احصر، الدّیر ، دمرا، قلقیلیة، صریر ، الزّیت ، الوعر ، الهرمس ، تفلیسا ، العازریّة، تفرع ، الکرک، مجدل، الحارغیر فی جبل عاملة، الشّقیف، سبسطیة و یقال: بها قبر زکریاء، و جبیل، و کوکب، و أنطرطوس، و اللّاذقیّة، و بکسرائیل ، صهیون، جبلة، قلعة العبد ، قلعة الجماهریة، بلاطنس ، الشّغر، بکاس، و سمر سامیة ، برزیة، و دربساک، و بغراس، و صفد.

و له مصافّات یطول شرحها.

و افتتح کثیرا من بلاد النّوبة من ید النصاری، و کانت مملکته من المغرب إلی تخوم العراق و معها الیمن و الحجاز، فملک دیار مصر بأسرها مع ما انضمّ إلیها من بلاد المغرب و الشام بأسرها مع حلب و ما والاها، و أکثر دیار ربیعة و بکر و الحجاز بأسره و الیمن بأسره، و نشر العدل فی الرعیّة، و حکم بالقسط بین البریّة، و بنی المدارس و الخوّانق، و أجری الأرزاق علی العلماء و الصّلحاء، مع الدّین المتین و الورع و الزهد و العلم، و کان یحفظ القرآن و التنبیه و الحماسة. و هو الّذی ابتنی قلعة القاهرة علی جبل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۳

المقطّم التی هی الآن دار السلاطین، و لم یکن السلاطین یسکنون قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة، و فتح من بلاد المسلمین حرّان، و سروج، و الرّها و الرّقّة، و البیرة، و سنجار، و نصیبین، و آمد. و ملک حلب، و المواریخ و شهرز. و حاصر الموصل إلی أن دخل صاحبها تحت طاعته، و فتح عسکره طرابلس الغرب و برقة من بلاد المغرب، و کسر عسکر تونس، و خطب بها لبنی العباس. و لو لم یقع الخلف بین عسکره الذین جهّزهم إلی المغرب لملک الغرب بأسره، و لم یختلف علیه مع طول مدّته أحد من عسکره علی کثرتهم. و کان النّاس یأمنون ظلمه لعدله. و یرجون رفده لکثرته، و لم یکن لمبطل و لا لصاحب هزل عنده نصیب. و کان إذا قال

صدق، و إذا وعد وفى، و إذا عاهد لم يخن.

صفات صلاح الدين و وفاته

كان رقيق القلب جدّا، و رحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل و العزيز لسماع الحديث من السّلفىّ ، و لم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد، فإنّه رحل بولديه الأمين و المأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطّأ. هذا كلّه كلام السبكى فى الطبقات.

قال: و من الكتب و المراسيم عنه فى النّهى عن الخوض فى الحرف و الصوت؛ و هو من إنشاء القاضى الفاضل: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ...

[الأحزاب: ۶۰]، الآية، خرج أمرنا إلى كلّ قائم فى صفّ، أو قاعد فى أمام و خلف؛ ألّا نتكلم فى الحرف بصوت، و لا فى الصّوت بحرف، و من تكلّم بعدها كان الجدير بالتّكليم، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ [النور: ۶۳]، و يسأل النواب القبض على مخالفى هذا الخطاب، و بسط العذاب، و لا يسمع لمتفقّه فى ذلك تحرير جواب، و لا يقبل عن هذا الذنب متاب. و من رجع إلى هذا الإيراد بعد الإعلان؛ و ليس الخبر كالعيان، رجع أخسر من صفقة أبى غبشان ، و ليعلن بقراءة هذا الأمر على المنابر، و ليعلم به الحاضر و البادى ليستوى فيه البادى و الحاضر، و اللّه يقول الحقّ و هو يهدى السبيل.

و من صنائع السلطان صلاح الدين أنّ أسقط المكوس و الضرائب عن الحجّاج

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۴

بمكّة، و قد كان يؤخذ منهم شىء كثير، و من عجز عن أدائه حبس، فربّما فاته الوقوف بعرفة، و عوّض أميرها ثمال إقطاعا بديار مصر، يحمل إليه منه فى كلّ سنة ثمانية آلاف أردبّ غلّة، لتكون عونا له و لأتباعه، و قرّر للمجاورين أيضا غلّات تحمل إليهم و صلات، فرحمة اللّه عليه فى سائر الأوقات، فلقد كان إماما عادلا، و سلطانا كاملا لم بل مصر بعد الصّحابة مثله، لا قبله و لا بعده!

و قد كان الخليفة المستضىء أرسل إليه فى سنة أربع و سبعين خلعا سنيّة جدّا، و زاد فى ألقابه «معزّ أمير المؤمنين». ثمّ لمّا ولى الخليفة الناصر فى سنة ستّ و سبعين أرسل إليه خلعة الاستمرار، ثم أرسل إليه فى سنة اثنتين و ثمانين يعاتبه فى تلقيبه بالملك الناصر، مع أنّه لقب أمير المؤمنين، فأرسل يعتذر إليه بأنّ ذلك كان من أيّام الخليفة المستضىء، و أنّه إن لقّبه أمير المؤمنين بلقب، فهو لا يعدل عنه، و تأدّب مع الخليفة غاية الأدب.

قال العماد: و قد كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون، فاتّفق أنّ بعضهم أخذ صبيّا رضيعا من مهده ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمّه وجدا شديدا، و اشتكت إلى ملوكهم؛ فقالوا لها: إنّ سلطان المسلمين رحيم القلب، فاذهبى إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكت، و شكت أمر ولدها، فرقّ لها رقّة شديدة، و دمعت عيناه، فأمر بإحضار ولدها، فإذا هو بيع فى السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشترى، و لم يزل واقفا حتّى جىء بالغلام، فدفعه إلى أمّه، و حملها على فرس إلى قومها مكرّمة.

و استمرّ السلطان صلاح الدين على طريقته العظيمة؛ من مثابرة الجهاد للكفّار، و نشر العدل، و إبطال المكوس و المظالم، و إجراء البرّ و المعروف إلى أن أصيب به المسلمون، و انتقل بالوفاة إلى رحمة اللّه تعالى ليلة الأربعاء سادس عشرى صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة، و له من العمر سبع و خمسون سنة. و عمل الشعراء فيه مراثى كثيرة، من ذلك قصيدة للعماد الكاتب، مائتان و ثلاثون بيتا أوّلها:

شمل الهدى و الملك عمّ شتاتهو الدّهر ساء و أقلعت حسناته

باللّه أين النّاصر الملك الّذىللّه خالصة صفت نيّاته؟

أين الّذى ما زال سلطانا لنايرجى نداه و تتّقى سطواته؟

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۵ أين الذى شرف الزمان بفضلهوسمت على الفضلاء تشريفاته؟

أین الّذی عنت الفرنج لبأسهذلّا و منها أدرکت ثاراته؟

أغلال أعناق العدا أسیافهأطواق أجیاد الوری منّاته

قال العماد و غیره: لم یترک فی خزانته من الذهب سوی دینار واحد صوریّ و ستهٔ و ثلاثین درهما، و لم یترک دارا و لا عقارا و لا مزرعهٔ، و لا شیئا من أنواع الأملاک، و ترک سبعهٔ عشر ولدا ذکرا و ابنهٔ واحدهٔ.

و کان متدینا فی مأکله و مشربه و مرکبه و ملبسه، فلا یلبس إلا القطن و الکتّان و الصّوف، و کان یواظب فی الجماعهٔ، و یواظب سماع الحدیث، حتّی أنّه سمع فی بعض المصافّات جزءا و هو بین الصّفین و یتبجّح بذلک، و قال: هذا موقف لم یسمع فیه أحد حدیثا.

و بالجملهٔ فمناقبه الحمیدهٔ کثیرهٔ لا تستقصی إلا فی مجلّدات، و قد أفرد سیرته بالتصنیف جماعهٔ من العلماء و الزّهاد و الأدباء، و کان به عرج فی رجله، فقال فیه ابن عنّین الشاعر:

سلطاننا أعرج و کاتبهذو عمش و الوزیر منحدب

قال ابن فضل اللّه فی المسالک: و من غرائب الاتّفاق أنّ الشیخ علم الدین السخاویّ مدح السلطان صلاح الدین، و مدحه الأدیب رشید الدین الفارقیّ، و بین وفاتیهما مائهٔ سنهٔ.

و ذکر الیافعیّ فی روض الریاحین أنّ السلطان صلاح الدین کان من الأولیاء الثلاثمائهٔ، و أنّ السلطان محمودا کان من الأولیاء الأربعین.

*** [مصر بین العزیز و المنصور و الأفضل و العادل]

و قام بمصر من بعده ولده الملک العزیز عماد الدین أبو الفتح عثمان، و کان نائب أبیه بها فی حیاته مدّهٔ اشتغاله بفتح البلاد الشامیّهٔ، فاستقلّ بها بعد وفاته، فسار سیرهٔ حسنهٔ بعفّهٔ عن الفرج و الأموال، حتّی إنه ضاق ما بیده، و لم یبق فی الخزانهٔ لا درهم و لا دینار، فجاءه رجل یسعی فی قضاء الصّعید بمال فامتنع، و قال: و اللّه لا بعت دماء المسلمین و أموالهم بملک الأرض. و سعی آخر فی قضاء الإسکندریّهٔ بأربعین ألف

حسن المحاضرهٔ فی أخبار مصر و القاهرهٔ، ج۲، ص: ۴۶

دینار، و حملها إلیه فلم یقبلها، و لم یزل إلی أن مات فی المحرّم سنهٔ خمس و تسعین، و له سبع أو ثمان و عشرون سنهٔ، و دفن فی قبّهٔ الإمام الشافعیّ.

فأقیم ولده ناصر الدین محمد، و لقّب المنصور، فاستمرّ إلی رمضان سنهٔ ستّ و تسعین، ثمّ استفتی عمّ أبیه العادل سیف الدین أبو بکر بن أیّوب بن شاذی الفقهاء فی عدم صحّهٔ مملکته لکونه صغیرا ابن عشر سنین، فأفتوا بأن ولایته لا تصحّ، فنزع، و أقیم الملک العادل.

و قیل إنّ العادل أخذها من الأفضل علیّ بن السلطان صلاح الدین، و کان الأفضل غلب علیها، و انتزعها من المنصور، و أرسل العادل إلی الخلیفهٔ یطلب التقلید بمصر و الشام، فأرسله إلیه مع الشهاب السّهروردیّ، فکان یصیف بالشام و یشتی بمصر، و ینتقل فی البلاد إلی أن مات یوم الجمعهٔ سابع جمادی الآخرهٔ سنهٔ خمس عشرهٔ و ستّمائهٔ.

و من قول ابن عنّین فیه:

إنّ سلطاننا الذی نرتجیهواسع المال ضیّق الإنفاق

هو سیف کما یقال و لکنقاطع للرّسوم و الأرزاق

و العادل أوّل من سکن قلعهٔ الجبل بمصر من الملوک، سکنها فی سنهٔ أربعین و ستّمائهٔ، و نقل إلیها أولاد العاضد و أقاربه فی بیت فی صورهٔ حبس، و کان ابنه الملک الکامل ناصر الدین أبو المعالی محمد ینوب عنه بمصر فی أیام غیبته، فاستقلّ بها بعد وفاته.

[الفرنج فی دمیاط]

و فی هذه السنة نزلت الفرنج علی دمیاط ، و أخذ برج السّلسلة، و کان حصنا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۷

منیعا، و هو قفل بلاد مصر، و صفته أنّه فی وسط جزیرة فی النیل عند انتهائه إلی البحر؛ و من هذا البرج إلی دمیاط و هی علی شاطیء البحر و حافّة النّیل سلسلة، و منه إلی الجانب الآخر و علیه الجسر سلسلة أخری، لیمنع دخول المراکب من البحر إلی النیل، فلا یتمکن من البلاد، فلمّا ملکت الفرنج هذا البرج شقّ ذلک علی المسلمین بدیار مصر و غیرها، و وصل الخبر إلی الملک العادل و هو بمرج الصّفراء ، فتأوّه تأوّها شدیدا، و دقّ بیده علی صدره أسفا و حزنا، و مرض من ساعته مرض الموت.

ثمّ فی سنة ستّ عشرة استحوذ الفرنج علی دمیاط، و جعلوا الجامع کنیسة لهم، و بعثوا بمنبره و بالرّبعات و رؤوس القتلی إلی الجزائر، فإنّا للّه و إنّا إلیه راجعون! و استمرّت بأیدیهم إلی سنة سبع عشرة.

و کان الکامل عرض علیهم أن یردّ إلیه بیت المقدس و جمیع ما کان صلاح الدین فتحه من بلاد السواحل و یترکوا دمیاط؛ فامتنعوا من ذلک؛ فقدّر اللّه أنّ ضاقت علیهم الأقوات، فقدمت علیهم مراکب فیها میرة، فأخذها الأسطول البحریّ، و أرسلت المیاه إلی أراضی دمیاط من کلّ ناحیة، فلم یمکنهم بعد ذلک أن یتصرّفوا فی أنفسهم، و حصرهم المسلمون من الجهة الأخری؛ حتّی اضطرّوهم إلی أضیق الأماکن، فعند ذلک أنابوا إلی المصالحة بلا معارضة، و کان یوما مشهودا، و وقع الصّلح علی ما أراد الکامل، و مدّ سماطا عظیما، و قام راجح الحلّیّ فأنشد:

هنیئا فإنّ السّعد أضحی مخلّداو قد أنجز الرّحمن بالنّصر موعدا

حبانا إله الخلق فتحا بدا لنامبینا و إنعاما و عزّا مؤیّدا

إلی أن قال:

أعبّاد عیسی إنّ عیسی و حزبهو موسی جمیعا یخدمون محمّدا

و کان حاضرا حینئذ الملک المعظّم عیسی و الملک الأشرف موسی ابنا الملک العادل.

قال أبو شامة: و بلغنی أنّه لما أنشد هذا البیت، أشار إلی الملک المعظّم عیسی و الأشرف موسی و الکامل محمد؛ فکان ذلک من أحسن شیء اتّفق، و تراجعت الفرنج إلی عکّا و غیرها من البلدان. قال الحافظ شرف الدین الدمیاطی فی معجمه: أنشدنا أبو

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۸

زکریا یحیی بن یوسف الصّرصریّ لنفسه ببغداد، و قد ورد کتاب من دیار مصر إلی الدیوان بانتصار المسلمین علی الرّوم و فتح ثغر دمیاط:

أتانا کتاب فیه نسخة نصرةألخّص معناها لذی فطن جلد

یقول ابن أیّوب المعظّم حامدالربّ السماء الواحد الصمد الفرد

أمرنا بحمد اللّه جلّ ثناؤهو عز أری دفریس فی طالع السّعد

ترکنا من الأعلاج بالسیف مطعناثلاثین ألفا للقشاعم و الأسد

و منهم ألوف أربعون بأسرنافکم ملک فی قبضنا صار کالعبد

و دمیاط عادت مثل ما بدأت لناو یافا ملکناها، فیا لک من جدّ!

و نحن علی أن نملک السّیف کلّهعلی ثقة ممّن له خالص الحمد

ألا یا بن أیّوب لقد نلت غایةمن النّصر ضاهت ما بلغت من المجد

قهرت فرنج الرّوم قهرا سماعه‌یقسم ذلّ الرعب فی التّرک و السّغد حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۴۸

و ما نلت أسباب العلا عن کلالةو لم یأتک المجد المؤثّل من بعد

و لکن ورثت الملک و الفضل عن أب‌جلیل و عن عمّ نبیل و عن جدّ

لجأت إلی رکن شدید و معقل‌منیع و کنز جامع جوهر المجد

إلی فاتح باب الرشاد ببعثهو خاتم میثاق النبوّة و العهد

إلی الشافعی المنجی الوجیه محمدفأحسنت فی صدق التوجّه و القصد

فمهما تجد من کید ضدّ مضاغن‌بوجه به تظفر و تنصر علی الضدّ

فلا صدّ عن عزّ سوابق مجدکم‌کلال و لا غالی الکلول سبا الحدّ

إلی أن تذیق الرّوم فی عقر دارهم‌زعافا و تسقی المؤمنین جنی الشّهد

*** و لما تولّی المستنصر الخلافة أرسل إلی الکامل محی الدین یوسف بن الشیخ

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۴۹

أبی الفرج بن الجوزیّ، و معه کتاب عظیم فیه تقلیده الملک، و فیه أوامر کثرة ملیحة من إنشاء الوزیر نصیر الدین أحمد بن الناقد؛ رأیت بخطّ قاضی القضاة عزّ الدین بن جماعة، قال: وقفت علی نسخة تقلید من الخلیفة المنصور أبی جعفر المستنصر بالله أمیر المؤمنین بخطّ وزیره أبی الأزهر أحمد بن الناقد فی رجب سنة نیّف و عشرین و ستمائة للملک الکامل:

الحمد للّه الذی اطمأنّت القلوب بذکره، و وجب علی الخلائق جزیل حمده و شکره و وسعت کلّ شیء رحمته، و ظهرت فی کلّ أمر حکمته، و دلّ علی وحدانیّته بعجائب ما أحکم صنعا و تدبیرا، و خلق کلّ شیء فقدّره تقدیرا، ممدّ الشاکرین بنعمائه التی لا تحصی عددا، و عالم الغیب الّذی لا یظهر علی غیبه أحدا؛ لا معقّب لحکمه فی الإبرام و النقض، و لا یؤده حفظ السماوات و الأرض، تعالی أن یحیط به الضّمیر، و جلّ أن یبلغ وصفه البیان و التفسیر؛ لیس کمثله شیء و هو السمیع البصیر.

و أحمد اللّه الذی أرسل محمد صلی اللّه علیه و سلم بالحق بشیرا و نذیرا، و داعیا إلی اللّه بإذنه و سراجا منیرا، و ابتعثه هادیا للخلق، و أوضح به مناهج الرّشد و سبل الحقّ، و اصطفاه من أشرف الأنساب و أعزّ القبائل، و جعله أعظم الشّفعاء و أقرب الوسائل، فقذف صلی اللّه علیه و سلم بالحقّ علی الباطل، و حمل النّاس بشریعته علی المحجّة البیضاء و السّنن العادل؛ حتّی استقام اعوجاج کلّ زائغ، و رجع إلی الحقّ کلّ حائد عنه و مائل، و سجد للّه کلّ شیء تتفیّأ ظلاله علی الیمین و الشمائل؛ صلی اللّه علیه و علی آله و صحبه الکرام الأفاضل، صلاة مستمرّة بالغدوات و الأصائل، خصوصا علی عمّه و صنو أبیه العبّاس بن عبد المطلب الّذی اشتهرت مناقبه فی المجامع و المحافل، و درّت ببرکة استسقائه أخلاف السّحب الهواطل، و فاز من تنصیص الرسول صلی اللّه علیه و سلم فی الخلافة المعظّمة بما لم یفز به أحد من الأوائل.

و الحمد للّه الذی حاز مواریث النبوّة و الإمامة، و وفّر من جزیل الأقسام من الفضل و الکرامة، لعبده و خلیفته، و وارث نبیّه و محیی شریعته و سنّته.

و لمّا وفّق اللّه نصیر الدین محمد بن سیف الدین أبی بکر بن أیّوب من الطاعة المشهورة، و الخدم المشکورة، أنعم علیه بتقلید شریف إمامیّ، فقلّده علی خیرة اللّه الرّعایة و الصلاة و أعمال الحرب و المعاون و الأحداث و الخراج و الضیاع و الصّدقات و الجوالی و سائر وجوه الجبایات، و القرض و العطاء، و النفقة فی الأولیاء، و المظالم و الحسبة فی بلاده، و ما یفتتحه و یستولی علیه من بلاد الفرنج الملاعین، و بلاد من تبرز إلیه الأوامر الشریفة بقصده من المارقین عن الإجماع المنعقد بین علماء المسلمین. و منه

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۰

أمره بتقوی اللّه تعالی الّتی هی الجنّة الواقیة؛ و النعمة الباقیة، و الملجأ المنیع، و العماد الرفیع، و الذّخیرة النافعة فی السرّ و النّجوی، و

الجذوة المقتبسة من قوله تعالى:

وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى [البقرة: ۱۹۷]، و أن يدرع شعارها فى جميع الأقوال، و يهتدى بأنوارها من مشكلات الأمور و الأحوال، و أن يعمل بها سرّا و جهرا، و يشرح للقيام بحدودها الواجبة صدرا، قال اللّه تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً [الطلاق: ۵]، و أمره بتلاوة كتاب اللّه تعالى، متدبّرا غوامض عجائبه، سالكا سبيل الرشاد، و الهداية فى العمل به، و أن يجعله مثالا يتّبعه و يقتفيه، و دليلا يهتدى بمراشده الواضحة فى أوامره و نواهيه؛ فإنّه النّفل الأعظم، و سبب اللّه المحكم، و الدّليل الذى يهدى للتى هى أقوم؛ ضرب اللّه فيه لعباده جوامع الأمثال، و بيّن لهم بهداه مسالك الرّشد و الضّلال، و فرّق بدلائله الواضحة و نواهيه الصادقة بين الحرام و الحلال، فقال عزّ من قائل: هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران: ۱۳۸]، و قال تعالى:

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ [ص: ۲۹].

و أمره بالمحافظة على مفروض الصّلوات و الدخول فيها على أكمل هيئة من قوانين الخشوع و الإخبات ، و أن يكون نظره فى موضع نجواه من الأرض، و أن يمثل لنفسه فى ذلك موقفه بين يدى اللّه تعالى يوم العرض، و قال تعالى: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ [المؤمنون: ۲]، و قال سبحانه: إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً [النساء: ۱۰۳]، و ألّا يشتغل بشاغل عن أداء فروضها الواجبة، و لا يلهو بسبب عن إقامة سنّتها الراتبة، فإنّها عماد الدّين التى سمت أعاليه، و مهاد الشّرع الذى رست قواعده و مبانيه، و قال تعالى: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ [البقرة: ۴۳۸]، و قال تعالى: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ [العنكبوت: ۴۵].

و أمره أن يسعى إلى صلاة الجمع و الأعياد، و يقوم فى ذلك بما فرضه اللّه عليه و على العباد، و أن يتوجّه إلى المساجد و الجوامع متواضعا، و يبرز إلى المصلّيات الضاحية فى الأعياد خاشعا، و أن يحافظ فى تشييد قواعد الإسلام على الواجب و المندوب، و يعظّم باعتماده ذلك شعائر اللّه الّتى هى من تقوى القلوب.

و أن يشمل بوافر اهتمامه و اعتنائه، و كمال نظره و إرعائه، بيوت اللّه التى هى محالّ

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۱

البركات، و مواطن العبادات، و المساجد التى تأكّد فى تعظيمها و إجلالها حكمه، و البيوت التى أذن اللّه أن ترفع و يذكر فيها اسمه، و أن يرتّب لها من الخدم من يتبتّل لإزالة أدناسها، و يتصدّى لإذكاء مصابيحها فى الظلام و إيناسها، و يقوم لها بما يحتاج إليه من أسباب الصلاح و العمارات، و يحضر إليها ما يليق من الدّهن و الكسوات.

و أمره باتّباع سنّة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الّتى أوضح جددها، و ثقّف عليه السلام أودها، و أن يعتمد فيها على الأسانيد التّى نقلتها الثقات، و الأحاديث الّتى صحّت بالطرق السليمة و الروايات، و أن يقتدى بما جاءت به من مكارم الأخلاق التّى ندب صلى اللّه عليه و سلم إلى التمسك بسببها، و رغّب أمته فى الأخذ بها و العمل بأدبها، قال اللّه تعالى: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا [الحشر: ۷]، و قال سبحانه و تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ [النساء: ۸۰].

و أمره بمجالسة أهل العلم و الدين، و أولى الإخلاص فى طاعة اللّه و اليقين، و الاستشارة بهم فى عوارض الشكّ و الالتباس، و العمل بآرائهم فى التمثيل و القياس؛ فإنّ فى الاستشارة بهم عين الهداية، و أمنا من الضلال و الغواية و ألّا يلقح عقم الأفهام و الألباب، و يقتدح زناد الرشد و الصواب، قال اللّه تعالى فى الإرشاد إلى فضلها، و الأمر فى التمسك بحبلها: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران: ۱۵۹].

و أمره بمراعاة أحوال الجند و العسكر فى ثغوره، و أن يشملهم بحسن نظره و جميل تدبيره، مستصلحا شأنهم بإدامة التلطّف و التعهّد، مستوضحا أحوالهم بمواصلة التفحّص عنها و التفقّد، و أن يسوسهم بسياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم، و يهديهم فى انتظامها و اتّساقها إلى الصراط المستقيم، و يحملهم على القيام بشرائط الخدم، و التّمسّك منها بأقوى الأسباب و أمتن العصم، و يدعوهم إلى

مصلحة التواصل و الائتلاف، و يصدّهم عن موجبات التخاذل و الاختلاف، و أن يعتمد فيهم شرائط الحزم فى الإعطاء و المنع، و ما تقتضيه مصلحة أحوالهم من أسباب الخفض و الرفع؛ و أن يثيب المحسن منهم على إحسانه، و يسبل على المسيء ما وسعه العفو و احتمل الأمر ذيل صفحه و امتنانه، و أن يأخذ برأى ذوى التجارب منهم و الحنكة، و يجتنى بمشاورتهم ثمر البركة؛ إذ فى ذلك أمن من خطأ الانفراد، و تزحزح عن مقام الزّيغ و الاستبداد.

و أمره بالتبتّل لما يليه من البلاد، و يتّصل بنواحيه من ثغور أولى الشّرك و العناد؛ و أن يصرف مجامع الالتفات إليها، و يخصّها بوفور الاهتمام بها و التطلّع عليها، و أن يشمل ما ببلاده من الحصون و المعاقل بالإحكام و الإتقان، و ينتهى فى أسباب مصالحها إلى غاية الوسع و الإمكان، و أن يشحنها بالميرة الكثيرة و الذخائر، و يمدّها من الأسلحة و الآلات بالعدد المستصلح الوافر، و أن يتخيّر لحراستها من الأمناء الثّقات، و يسدّها بمن

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۲

ينتخبه من الشجعان الكماة، و أن يؤكّد عليهم فى استعمال أسباب الحيطة و الاستظهار، و يوقظهم إلى الاحتراس من غوائل الغفلة و الاغترار، و أن يكون المشار إليهم ممن تربّوا فى ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد، و تدرّبوا فى نصب الحبائل للمشركين و الأخذ عليهم بالمراصد، و أن يعتمد هذا القبيل بمواصلة المدد، و كثرة العدد، و التّوسعة فى النفقة و العطاء، و العمل معهم بما يقتضيه حالهم و تفاوتهم فى التقصير و العناء، إذ فى ذلك حسم لمادة الأطماع فى بلاد الإسلام، و ردّ لكيد المعاندين من عبدة الأصنام؛ فمعلوم أنّ هذا الفرض أول ما وجّهت إليه العنايات و صرفت، و أحقّ ما قصرت عليه الهمم و وقفت؛ فإنّ اللّه تعالى جعله من أهمّ الفروض التى لزم القيام فيها بحقّه، و أكبر الواجبات التى كتب العمل بها على خلقه، فقال سبحانه و تعالى هاديا فى ذلك إلى سبيل الرشاد، و محرّضا لعباده على قيامهم له بفرض الجهاد: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ ... [التوبة: ۱۲۰]، إلى قوله تعالى: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ [التوبة: ۲۱]، و قال تعالى: وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ [البقرة: ۱۹۱]، و قال النبى صلى اللّه عليه و سلم: «من نزل منزلا يخيف فيه المشركين و يخيفونه، كان له كأجر ساجد لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة، و أجر قائم لا يقعد إلى يوم القيامة، و أجر صام لا يفطر» .. و قال صلى اللّه عليه و سلم: «غدوة فى سبيل اللّه أو روحة خير ممّا طلعت عليه الشمس»، هذا قوله صلى اللّه عليه و سلم فى حقّ من سمع هذه المقالة فوقف لديها، فكيف بمن كان قال عليه السّلام: «ألا أخبركم بخير النّاس! ممسك بعنان فرسه فى سبيل اللّه، كلّما سمع هيعة طار إليها».

و أمره باقتفاء أوامر اللّه تعالى فى رعاياه، و الاهتداء إلى رعاية العدل و الإنصاف و الإحسان بمراشده الواضحة و وصاياه؛ و أن يسلك فى السياسة به سبيل الصّلاح و يشملهم بلين الكنف و خفض الجناح، و يمد ظلّ رعايتهم على مسلمهم و معاهدهم، و يزحزح الأقذاء و الشوائب عن مناهلهم فى العدل و مواردهم، و ينظر فى مصالحهم نظرا يساوى فيه بين الضعيف و القوىّ، و يقوم بأودهم قياما تهتدى به و يهديهم إلى الصراط السوىّ؛ قال اللّه تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ ... [النحل: ۹۰].

و أمره باعتماد أسباب الاستظهار و الأمنة و استقصاء الطاقة المستطاعة و القدرة الممكنة، فى المساعدة على قضاء تفث حجّاج بيت اللّه الحرام، و زوّار نبيّه عليه أفضل الصلاة و السلام، و أن يمدّهم بالإعانة فى ذلك على تحقيق الرجاء و بلوغ المرام،

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۳

و يحرسهم من التخطّف و الأذى فى حالتى الظّعن و المقام؛ فإنّ الحجّ أحد أركان الدين المشتدة، و فروضه الواجبة المؤكّدة، قال تعالى: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا [الحج: ۹۷].

و أمره بتقوية أيدى العاملين بحكم الشّرع فى الرّعايا، و تنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام و القضايا، و العمل بأقوالهم فيما يثبت لذوى الاستحقاق، و الشدّ على أيديهم فيما يرونه من المنع و الإطلاق، و أنّه متى تأخّر أحد الخصمين عن إجابة داعى الحكم، أو تقاعس فى ذلك لما يلزم من الأداء و الغرم، جذبه بعنان القسر إلى مجلس الشّرع، و اضطره بقوّة الأنصار إلى الأداء بعد المنع، و أن يتوخّى عمّال

الوقوف الّتى تقرّب المتقربون بهـا، و استمسـكوا فى ظلّ ثواب اللّه بمتين سـببها، و أن يمـدّهم بجميل المعاونـة و المساعـدة، و حسـن المؤازرة و المعاضـدة، فى الأسـباب التى تؤذن بالعمارة و الاسـتنماء، و يعود عليها بالمصـلحة و الاسـتخلاص و الاستيفاء، قال تعالى: وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى [المائدة: ۲].

و أمره أن يتخيّر من أولى الكفاية و النزاهة من يستخلصه للخدم و الأعمال، و القيام بالواجب؛ من أداء الأمانة و الحراسة و التمييز لبيت المال، و أن يكونوا من ذوى الاطّلاع بشرائط الخدم المعيّنة و أمورها، و المهتدين إلى مسالك صلاحها.

[شعر] قال الصلاح الصّفدىّ فى تاريخه: حكى صاحب كتاب الإشعار بما للملوك من النوادر و الأشعار، قال: كان الملك الكامل ليلة جالسا فدخل عليه مظفّر الأعمى، فقال له أجزيا مظفّر:

قد بلغ الشوق منتهاه فقال مظفّر:

و ما درى العاذلون ما هو فقال السّلطان:

ولى حبيب رأى هوانى حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۴

فقال مظفّر:

و ما تغيّرت عن هواه فقال السّلطان:

رياضة النفس فى احتمال فقال مظفّر:

و روضة الحسن فى حلاه فقال السلطان:

أسمر لدن القوام ألمى فقال مظفّر:

يعشقه كلّ من يراه فقال السّلطان:

و ريقه كلّه مدام فقال مظفّر:

ختامه المسك من لماه فقال السّلطان:

ليلته كلّها رقاد فقال مظفّر:

و ليلتى كلّها انتباه فقال السلطان:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۵ و ما يرى أن أكون عبدا فقام مظفّر على قدميه، و قال:

بالملك الكامل احتماه العالم العامل الذى فى كل صلاة ترى إياه

ليث و غيث و بدر تمّو منصب جلّ مرتقاه

قال الحافظ عبد العظيم المنذرىّ: أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة، و عمر القبّة على ضـريح الشافعىّ، و أجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل و السّقاية على باب القبّة المذكورة، و وقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البرّ، و له المواقف المشهودة بـدمياط، و كان معظّما للسّنّة و أهلها، قال الـذهبىّ: و كانت له إجازة من السّلفىّ، و خرّج له أبو القاسم بن الصّفراوىّ أربعين حـديثا سمعها من جماعة.

و قال ابن خلكان: اتّسـعت المملكة للملك الكامل، حتّى قال خطيب مكّة مرّة عند الدعاء له: سلطان مكّة و عبيدها، و اليمن و زبيدها، و مصـر و صـعيدها، و الشـام و صـناديدها، و الجزيرة و وليـدها، سـلطان القبلتين، و ربّ العلامتين، و خادم الحرمين الشـريفين، الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين.

و كانت وفاته بدمشق يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس و ثلاثين و ستّمائة.

*** [الملك العادل سيف الدين أبو بكر، ثمّ الملك الصالح نجم الدين أيوب]

و أقيم بعده ولده الملك العادل أبو بكر، و كان نائب أبيه بمصر مدّة غيبته، فبلغ أخاه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن الكامل صاحب حصن كيفا ، فقدم،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۶

و برز العادل إلى بلبيس قاصدا للقتال، فاختلفت عليه الأمراء، فقيّدوه و اعتقلوه، و أرسلوا إلى الصالح أيّوب فوصل إليهم، فملّكوه، و ذلك فی صفر سنة سبع و ثلاثين. فأقام فی الملك عشر سنين إلّا أربعة أشهر. و كان مهيبا جدّا، دبر المملكة على أحسن وجه، و بنى المدارس الأربعة بين القصرين، و عمّر قلعة بالروضة، و اشترى ألف مملوك و أسكنهم بها، و سمّاهم البحريّة، و هو الذى أكثر من شراء الترك و عتقهم و تأميرهم، و لم يكن ذلك قبله، فقام الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام القومة الكبرى فی بيع أولئك الأمراء، و صرف ثمنهم فی مصالح المسلمين، و قال بعض الشعراء:

الصالح المرتضى أيّوب أكثر من ترك بدولته، يا شرّ مجلوب!

قد آخذ اللّه أيّوبا بفعلتهفالنّاس كلّهم فی ضرّ أيّوب

و لما تولّى الخليفة المستعصم أنفذ الصالح إليه رسوله، يطلب تقليدا بمصر و الشام، فجاءه التشريف و الطّوق الذهب و المركوب، فلبس التشريف الأسود و العمامة و الجبّة، و ركب الفرس، و كان يوما مشهودا.

[هجوم الفرنج و وفاة الملك الصالح]

فلما كان سنة سبع و أربعين، هجمت الفرنج على دمياط، فهرب من كان فيها، و استحوذوا عليها، و الملك الصالح مقيم بالمنصورة لقتالهم، فأدركه أجله و مرض و مات بها ليلة النصف من شعبان، فأخفت جاريته شجرة الدرّ موته، و بقيت تعلم بعلامته سواه، و أعلمت أعيان الأمراء، فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظّم توران شاه و هو بحصن كيفا، فقدم فی ذی القعدة ، و ملّكوه، فركب فی عصائب الملك، و قاتل الفرنج و كسرهم، و قتل منهم ثلاثين ألفا، و للّه الحمد.

و كان فی عسكر المسلمين الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، و كانت النّصرة أوّلا للفرنج، و قويت الرّيح على المسلمين، فقال الشيخ عزّ الدين بأعلى صوته مشيرا بيده إلى الريح: يا ريح خذيهم، عدّة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، و كان الفتح، و غرق أكثر الفرنج، و صرخ من المسلمين صارخ: الحمد للّه الذى أرانا فی أمة محمّد صلى اللّه عليه و سلم رجلا سخّر له الريح، و كان ذلك فی يوم الأربعاء ثالث المحرّم. و أسر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۷

الفرنسيس ملك الفرنج، و حبس مقيّدا بدار ابن لقمان، و وكل بحفظه طواشی يقال له صبيح. ثمّ نفرت قلوب العسكر من المعظّم لكونه قرّب مماليكه، و أبعد مماليك أبيه، فقتلوه فی يوم الاثنين سابع عشر المحرّم و داسوه بأرجلهم، و كانت مملكته شهرين.

قال ابن كثير و قد رئی أبوه الصالح فی النوم بعد قتل ابنه، و هو يقول:

قتلوه شرّ قتلهصار للعالم مثله

لم يراعوا فيه إلّالا و لا من كان قبله

ستراهم عن قريبلأقلّ الناس أكله

فكان كذلك، وقع بعد ذلك قتال بين المصريين و الشاميّين، و عدم من المصريين طائفة كثيرة.

[شجرة الدر]

و اتفقوا بعد قتل المعظّم على تولية شجر الدرّ أمّ خليل جارية الملك الصالح، فملّكوها، و خطب لها على المنابر، فكان الخطباء

يقولون بعد الدعاء للخليفة: و احفظ اللهمّ الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدّنيا و الدّين، أمّ خليل المستعصميّة، صاحبة السلطان الملك الصالح. و نقش اسمها على الدينار و الدرهم، و كانت تعلم على المناشير و تكتب: والدة خليل. و لم يل مصر فی الإسلام امرأة قبلها.

و لمّا وليت تكلّم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام فی بعض تصانيفه على ما إذا ابتلی المسلمون بولاية امرأة، و أرسل الخليفة المستعصم يعاتب أهل مصر فی ذلك و يقول: إن كان ما بقی عندكم رجل تولّونه، فقولوا لنا نرسل إليكم رجلا.

ثم اتّفقت شجر الدّرّ و الأمراء على إطلاق الفرنسيس ، بشرط أن يردّوا دمياط إلى المسلمين، و يعطوا ثمانمائة ألف دينار عوضا عمّا كان بدمياط من الحواصل، و يطلقوا أسراء المسلمين. فأطلق على هذا الشّرط، فلمّا سار إلى بلاده أخذ فی الاستعداد و العود إلى دمياط، فندمت الأمراء على إطلاقه؛ و قال الصاحب جمال الدين بن مطروح- و كتب بها إليه:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۸ قل للفرنسيس إذا جئتهمقال صدق من قؤول نصيح

آجرك اللّه على ما جریمن قتل عبّاد يسوع المسيح

أتيت مصر تبتغی ملكهاتحسب أن الزّمر بالطّبل ريح

فساقك الحين إلى أدهمضاق به عن ناظريك الفسيح

و كلّ أصحابك أودعتهمبحسن تدبيرك بطن الضّريح

تسعين ألفا لا ترى منهمإلّا قتيلا أو أسيرا جريح

وفّقك اللّه لأمثالهالعلّ عيسى منكم يستريح

إن كان باباكم بذا راضيافرب غشّ قد أتى من نصيح

و قل لهم إن أضمروا عودةلأخذ ثأر أو لعقد صحيح:

دار ابن لقمان على حالهاو القيد باق و الطّواشی صبيح

فلم ينشب الفرنسيس أن أهلكه اللّه، و كفی المسلمين شرّه، و أقامت شجر الدرّ فی المملكة ثلاثة أشهر، ثمّ عزلت نفسها. و اتّفقوا على أن يملّكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل، فملّكوه و له ثمان سنين ، و ذلك فی يوم الأربعاء ثالث جمادی الأولى سنة ثمان و أربعين. و جعل عزّ الدين أيبك التركمانیّ مملوك الصالح أتابكه، و خطب لهما، و ضربت السكّة باسمهما، و عظم شأن الأتراك من يومئذ، و مدّوا أيديهم إلى العامّة، و أحدث وزيره الأسعد الفائزیّ ظلامات و مكوسا كثيرة.

[الملك المعزّ عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانی]

ثمّ إنّ عز الدين خلع الملك الأشرف و استقلّ بالسلطنة فی سنة اثنتين و خمسين، و لقّب الملك المعزّ؛ و هو أوّل من ملك مصر من الأتراك، و ممّن جرى عليه الرّقّ، فلم يرض النّاس بذلك حتى أرضى الجند بالعطايا الجزيلة، و أمّا أهل مصر فلم يرضوا بذلك، و لم يزالوا يسمعونه ما يكره إذا ركب و يقولون: لا نريد إلا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة، و كان المعزّ تزوّج شجر الدرّ.

ثم إنه خطب ابنة صاحب الموصل، فغارت شجر الدر فقتلته فی أواخر ربيع

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۵۹

الأوّل سنة خمس و خمسين، و أقيم بعده ولده علیّ و لقّب المنصور، و عمره نحو خمس عشرة سنة، فأقام سنتين و ثمانية أشهر، و فی أيامه أخذ التتار بغداد، و قتل الخليفة.

[الملك المظفر سيف الدين قطز]

ثم إنّ الأمير سيف الدين قطز مملوك المعزّ قبض على المنصور، و اعتقله فى أواخر ذى القعدة سنة سبع و خمسين؛ و تملّك مكانه، و لقّب بالملك المظفّر بعد أن جمع الأمراء و العلماء و الأعيان، و أفتوا بأنّ المنصور صبىّ لا يصلح للملك، لا سيّما فى هذا الزمان الصعب الذى يحتاج إلى ملك شهم مطاع لأجل إقامة الجهاد، و التتار قد وصلوا البلاد الشاميّة، و جاء أهلها إلى مصر يطلبون النّجدة؛ و أراد قطز أن يأخذ من الناس شيئا ليستعين به على قتالهم؛ فجمع العلماء، فحضر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام فقال: لا يجوز أن يؤخذ من الرعيّة شىء حتّى لا يبقى فى بيت المال شىء، و تبيعوا مالكم من الحوائص و الآلات، و يقتصر كلّ منكم على فرسه و سلاحه، و تتساووا فى ذلك أنتم و العامة. و أما أخذ أموال العامة مع بقاء ما فى أيدى الجند من الأموال و الآلات الفاخرة فلا. و لم يكن قطز هذا مرقوق الأصل، و لا من أولاد الكفر.

فقال الجزرىّ فى تاريخه: كان قطز فى رقّ ابن الزعيم، فضربه أستاذه فبكى، فقيل له: تبكى من لطمة؟! فقال: إنّما أبكى من لعنة أبى و جدّى، و هما خير منه، فقيل: من أبوك! واحد كافر. قال: ما أنا إلّا مسلم، أنا محمود بن مودود بن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك.

و خرج المظفّر بالجيوش فى شعبان سنة ثمان و خمسين [و ستمائة] متوجّها إلى الشام لقتال التتار و شاويشه ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، فالتقوا هم و التتار عند عين جالوت، و وقع المصافّ يوم الجمعة خامس عشرى رمضان، فهزم التتار شرّ هزيمة، و انتصر المسلمون و للّه الحمد، و جاء كتاب المظفّر إلى دمشق بالنصر، فطار الناس فرحا، ثم دخل المظفّر إلى دمشق مؤيّدا منصورا، فأحبّه الخلق غاية المحبّة، و قال بعض الشعراء فى ذلك:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۰ هلك الكفر فى الشآم جميعاو استجدّ الإسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفّر الملك الأروع سيف الإسلام عند نهوضه

و قال الإمام أبو شامة رحمه اللّه فى ذلك شعرا:

غلب التّتار على البلاد فجاءهممن مصر تركىّ يجود بنفسه

بالشّام أهلكهم و بدّد شملهمو لكلّ شىء آفة من جنسه

و ساق بيبرس وراء التتار إلى حلب، و طردهم عن البلاد، و وعده السلطان بحلب.

ثمّ رجع عن ذلك، فتأثّر بيبرس و وقعت الوحشة بينهما، فأضمر كلّ لصاحبه الشرّ، فاتّفق بيبرس مع جماعة من الأمراء على قتل المظفّر، فقتلوه فى الطريق فى سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان و خمسين بين العرابى و الصالحيّة، و تسلطن بيبرس ، و لقّب بالملك القاهر، و دخل مصر و أزال عن أهلها ما كان المظفّر أحدثه عليهم من المظالم، و أشار عليه الوزير زين الدين أن يغيّر هذا اللقب، و قال: ما تلقّب به أحد فأفلح؛ فأبطل السلطان هذا اللقب، و تلقّب بالملك الظّاهر.

[أرجوزة الجزّار فى الأمراء المصرية]

و قد نظم الأديب جمال الدين المصرى المعروف بالجزّار الشاعر المشهور أرجوزة سمّاها «العقود الدرّية فى الأمراء المصرية»، ضمّنها أمراء مصر من عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر هذا، فقال:

الحمد للّه العلىّ ذكرهو من يفوق كلّ أمر أمره

أحمده و هو ولىّ الحمدعلى توالى برّه و الرّفد

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۱ ثمّ الصّلاة بعد هذا كلّهعلى أجلّ خلقه و رسله

محمّد خير بنى عدنانو من أتاه الوحى بالتّبيان

دامت عليه صلوات ربّهثمّ على عترته و صحبه

یا سائلی عن أمراء مصرمنذ حباها عمر لعمرو

خذ من جوابی ما یزیل اللّبساو احفظه حفظ ذاکر لا ینسی

أوّل من کان إلیه الأمرمفوّضا بعد الفتوح عمرو

و ابن أبی سرح تولّی أمرهاو قیس ساس نفعها و ضرّها

ثمّ تولّی النّخعیّ الأشترو ابن أبی بکر کما قد ذکروا

ثمّ أعیدت بعده لعمروثانیهٔ و عتبهٔ فی الإثر

و عقبهٔ ثمّ الأمیر مسلمهو ابن یزید و هو نجل علقمه

ثمّ تولّی الأمر عبد الرّحمنو بعده تأمّر ابن مروان

إذ کان ولّاها له أبوهو هو بمصر حوله ذووه

ثمّ لعبد اللّه تعزی الإمرهو بعده نجل شریک قرّه

ثمّ تولی بعده عبد الملکنقلا صحیحا غیر نقل مؤتفک

و ابن شرحبیل الأمیر أیّوبو بشر فالأمر إلیه منسوب

ثمّ أخو بشر الأمیر حنظلهٔثم غدا محمد و الأمر له

و الحرّ نجل یوسف و حفصمن بعده جاء بذاک النّصّ

ثمّ فتی رفاعهٔ عبد الملکثمّ الولید صنوه کلّ ملک

ثم ابن خالد بعد تالیهثمّ ابن صفوان تولّی ثانیه

و حفص قد عاد إلیها والیاو قام حسّان الأمیر تالیا

ثمّ تولّی حفص و هی الثالثهو ابن سهیل جاء فیها وارثه

و ابن عبید و اسمه المغیرهدبّر إقلیما غدا أمیره

ثمّ ابن مروان ولیّ لخمو کان للدولهٔ أیّ ختم

و صالح أوّل من تولّیثمّ ابن عون و هو نعم المولی

ثمّ أبو عون لها أعیداثانیهٔ و أدرک المقصودا

و جاء موسی بعده ابن کعبمحکّما فی سلما و الحرب

ثمّ أتی محمد بن الأشعثفاسمع لما حدثته و حدّث

ثمّ حمید و هو ابن قحطبهثمّ یزید نال أیضا منصبه

و قام عبد اللّه فیها یحمدثمّ أخوه بعده محمّد

ثمّ غدا الأمیر موسی بن علیو بعد عیسی بن لقمان ولی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۲ و واضح و کان مولی المنصورو بعد ذاک ابن یزید منصور

و جاء یحیی بعده ابن ممدودو سالم فی الأمراء معدود

و بعده ابراهیم نجل صالحو لم یزل ینظر فی المصالح

و جاء موسی و هو نجل مصعبو بعده أسامهٔ بها حبی

و الفضل نجل صالح أیضا ولیو بعده نجل سلیمان علی

ثمّ حوی موسی بن عیسی حرمهثمّ تولّاها ابن یحیی مسلمه

و ابن زهیر و اسمه محمّدو جاء داود و هذا مسند

و جاء موسی نجل عیسی ثانیهو نال فی إمرتها أمانیه

کذاک إبراهیم أیضا ولّی‌فیها کما قد قیل بعد العزل

و حاز عبد اللّه منها الآفاقو ابن سلیمان المسمّی إسحاق

ثمّ أتی هرثمة و هو الملکو بعده ابن صالح عبد الملک

ثمّ عبید اللّه نجل المهدیو کان ربّ حلّها و العقد

و بعده موسی بن عیسی ثالثهحتّی رأی من دهره حوادثه

ثمّ عبید اللّه نجل المهدیثانیة فی حلّها و العقد

و جاء إسماعیل نجل صالحیأمر فی الغادی بها و الرّائح

و بعده سمیّه ابن عیسیتحدو إلیه القاصدون العیسا

ثمّ تولّی اللیث نجل الفضلو أحمد من بعده ذو الفضل

و جاء عبد اللّه یقفو جندهثمّ الحسین بن جمیل بعده

ثمّ تولّی مالک ثمّ الحسن کلاهما أوضح فی العدل السّنن

ثمّ غدا الأمیر فیها حاتمو جابر بالأمر فیها قائم

ثمّ لعبّاد غدت تنتسبو بعده أمیرها المطّلب

ثمّ تولّی أمرها العبّاسو فوّض الأمر إلیه الناس

ثمّ أعید الأمر للمطّلبثانیة ثمّ السّریّ فاعجب

ثمّ سلیمان له الأمر حصلثمّ السریّ بعد ما کان انفصل

ثمّ تولّی ابن السریّ الأمراو طالما ساء بها و سرّا

ثمّ عبید اللّه و هو ابن السّریو بعده ابن طاهر فحرّر

و بعده عیسی فتی یزیدثمّ عمیر من بنی الولید

قد کان ولّاها له لمّا قدمعلی البلاد ابن الرشید المعتصم

و عاد عیسی و هو فیها والیو عبدویه ذو المحلّ العالی

و قد تولّی بعده ابن منصورعیسی و هذا الأمر أمر مشهور

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۳ و عند ذاک قدم المأمونلمصر و الدّنیا له تدین

فی سنة تعدّ سبع عشرةو مائتین بعد عام الهجره

ثمّ تولّی ابن أبی العبّاسموسی بلا شکّ و لا التباس

و مالک بن کیدر ثمّ علیو بعده عیسی بن منصور ولی

و بعده هرثمة بن النّضرو حاکم و کان ربّ الأمر

ثمّ علیّ نجل یحیی ثانیهو حاء إسحاق بن یحیی تالیه

و بعده الأمیر عبد الواحدو هو ابن یحیی فارض بالفوائد

و بعده عنبسة بن اسحاقثم یزید حاز منها الآفاق

ثمّ تولّی أمرها مزاحمثمّ ابنه أحمد فیها القائم

و نال أرجوز بها ما يقصدثمّ ابن طولون الأمير أحمد

ثمّ أبو الجيش ابنه من بعدهثمّ أتى جيش وليّ عهده

ثمّ تولّى بعده هارونو بعده من جدّه طولون

و بعده عيسى فتى محمّدثم تكين صار ربّ السّؤدد

ثمّ تولّاها ذكا الأعورثمّ تكين و هو وقت آخر

ثمّ هلال و هو ابن بدرأصبح فيها و هو ربّ الأمر

ثمّ تولّى أحمد بن كيغلغثمّ تكين إذ له الأمر بلغ

ثمّ أتى محمّد بن طغجو أحمد ثانيه فى النّهج

ثمّ تولّاها ابن طغج ثانيهثمّ أبو القاسم جاء تاليه

ثمّ أتى الإخشيد من بعد علىو بعد ذاك الأمر كافور ولى

و بعد كافور تولّى أحمدثمّ أتى جوهر و هو أيد

ثمّ تولّاها المعزّ إذ أتىثمّ العزيز نجله خير فتى

ثمّ ابنه الحاكم ثم الظّاهرو كلّهم فى المأثرات باهر

ثمّ تولى أمرها المستنصرو هو لعمرى يقظ مستبصر

ثمّ تولّى أمرها المستعلىو كان ربّ عقدها و الحل

و بعد ذاك قد حواها الآمرو لم تكد تعصى له أوامر

ثمّ تولّاها الإمام الحافظو هو على تدبيرها محافظ

و جاء إسماعيل و هو الظافرثمّ ابنه الفائز و هو الآخر

أعنى بمن قلت الإمام العاضدامحرّرا فاغتنم الفوائدا

و شيركوه مدّة يسيرهتناهز الشهرين منه السّيره

ثم تولاها الصلاح يوسفثم العزيز و ابنه مستضعف

ثمّ أتى الأفضل نور الدّينو بعده العادل ذو التّمكين

ثمّ ابنه الكامل ثم العادلكلاهما بالحكم فيها عادل

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۴ ثمّ أتى الصّالح و هو الأعظمثمّ تولّاها ابنه المعظّم

و بعده أمّ خليل ملكتو طابت الأفعال فيها و زكت

و الملك الأشرف كان طفلافلم يدبّر عقدها و الحلّا

ثمّ استبدّ الملك المعزّثم ابنه و وافقته الغزّ

ثم حواها الملك المظفّرو حظّه من نصره موفّر

ثمّ حوى الأمر المليك الظاهرلا زال للأعداء و هو قاهر!

[ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين]

اشارة

کان لانقراض الخلافة ببغداد و ما جری علی المسلمین بتلک البلاد مقدّمات نبّه علیها العلماء:

منها، أنّه فی یوم الثلاثاء ثامن عشر ربیع الآخر سنة أربع و أربعین و ستّمائة هبّت ریح عاصفة شدیدة بمکّة، فألقت ستارة الکعبة المشرّفة، فما سکنت الریح إلّا و الکعبة عریانة، قد زال عنها شعار السواد، و مکثت إحدی و عشرین یوما لیس علیها کسوة.

و قال الحافظ عماد الدین بن کثیر: و کان هذا فألا علی زوال دولة بنی العبّاس؛ و منذرا بما سیقع بعد هذا من کائنة التّتار، لعنهم اللّه.

و منها، قال ابن کثیر فی حوادث سنة سبع و أربعین: طغی الماء ببغداد، حتّی أتلف شیئا کثیرا من المحالّ و الدّور الشهیرة، و تعذّرت إقامة الجمعة بسبب ذلک.

و فی هذه السنة هجمت الفرنج علی دمیاط ؛ فاستحوذوا علیها و قتلوا خلقا من المسلمین.

و فی سنة خمسین وقع حریق بحلب احترق بسببه ستّمائة دار؛ فیقال: إنّ الفرنج لعنهم اللّه ألقوه فیها قصدا.

و فی سنة اثنتین و خمسین، قال سبط ابن الجوزی فی مرآة الزمان: وردت الأخبار من مکّة شرّفها اللّه، بأنّ نارا ظهرت فی أرض عدن فی بعض جبالها، بحیث أنه یطیر شررها إلی البحر فی اللیل، و یصعد منها دخان عظیم فی أثناء النهار، فتاب الناس و أقلعوا عمّا کانوا علیه من المظالم و الفساد، و شرعوا فی أفعال الخیر و الصّدقات.

و فی سنة أربع و خمسین زادت دجلة زیادة مهولة، فغرق خلق کثیر من أهل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۵

بغداد، و مات خلق تحت الهدم، و رکب النّاس فی المراکب، و استغاثوا باللّه، و عاینوا التّلف، و دخل الماء من أسوار البلاد، و انهدمت دار الوزیر و ثلثمائة و ثمانون دارا، و انهدم مخزن الخلیفة، و هلک شیء کثیر من خزانة السلاح.

قال ابن السّبکی فی الطبقات الکبری: و کان ذلک من جملة الأمور، التی هی مقدّمة لواقعة التّتار.

و فی هذه السنة، فی یوم الاثنین مستهلّ جمادی الآخرة، وقع بالمدینة الشریفة صوت یشبه صوت الرّعد البعید تارة و تارة، و أقام علی هذه الحالة یومین، فلمّا کان لیلة الأربعاء تعقّب الصوت زلزلة عظیمة، رجفت منها الأرض و الحیطان، و اضطرب المنبر الشریف، و استمرّت تزلزل ساعة بعد ساعة إلی یوم الجمعة خامس الشهر، ظهر من الحرّة نار عظیمة، و سالت أودیة منها سیل الماء، و سالت الجبال نارا، و سارت نحو طریق الحاجّ العراقیّ، فوقفت و أخذت تأکل الأرض أکلا ، و لها کلّ یوم صوت عظیم من آخر اللیل إلی الضحوة، و استغاث النّاس بنبیّهم صلی اللّه علیه و سلم، و أقلعوا عن المعاصی، و استمرّت النار فوق الشهر، و خسف القمر لیلة الاثنین منتصف الشهر، و کسفت الشمس فی غدوة، و بقیت أیاما متغیّرة اللون ضعیفة النور، و اشتدّ فزع الناس، و صعد علماء البلد إلی الأمیر یعظونه، فطرح المکوس، و ردّ علی الناس ما کان تحت یده من أموالهم.

و قال سیف الدین علیّ بن عمر بن قذل المشدّ فی هذه النار:

ألا سلّما عنّی علی خیر مرسلو من فضله کالسّیل ینحطّ من عل

و أشرف من شدّت إلیه رحالنالتورد هیم الشّوق أعذب منهل

تحمّلن منّا کلّ أشعث أغبرفیا عجبا من رحلها المتحمّل!

إلی سیّد جاءت بعالی محلّهو معجزه آی الکتاب المنزّل

نبیّ هدانا للهدی بأدلّةفهمنا معانیها بحسن التأوّل

محمّد المبعوث، و الغیّ مظلمفأصبح وجه الرّشد مثل السّجنجل

و قولا له: إنّی إلیک لشیّقعسی اللّه یدنی من محلّک محملی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۶ فتخمد أشواقی و تسکن لوعتیو أصبح عن کلّ الغرام بمعزل

و لمّا نفی عنّی الکری خبر التیأضاءت بإذن ثمّ رضوی و یذبل

و لاح سناها من جبال قريظةلسكان تيما فاللّوى فالعقنقل

و أخبرت عنها فی زمانک منذرابيوم عبوس قمطرير مطوّل

فقلت كلاما لا يدين لقائلسواک و لا يسطيعه ربّ مقول:

ستظهر نار بالحجاز مضيئةكأعناق عيس نحو بصری لمخيّل

فكانت كما قد قلت حقّا بلا مریصدقت و كم كذبت كلّ معطّل

لها شرر كالبرق لكن شهيقهافكالرّعد عند السامع المتأمّل

و أصبح وجه الشمس كالليل كاسفاو بدر الدّجی فی ظلمة ليس تنجلی

و غابت نجوم الجوّ قبل غروبهاو كدّرها دور الدخان المسلسل

و هبّت سموم كالحميم فأذبلتمن الباسقات الشّمّ كلّ مذلّل

و أبدت من الآيات كلّ عجيبةو زلزلت الأرضون أیّ تزلزل

و أيقن كلّ النّاس أنّ عذابهمتعجّل فی الدّنيا بغير تمهّل

و أعولت الأطفال مع أمّهاتهافيا نفس جودی، يا مدامعی اهملی

جزعت فقام النّاس حولی و أقبلوايقولون: لا تهلک أسی و تجمّل

لعلّ إله الخلق يرحم ضعفهمو ما أظهروه من عظيم التذلّل

و تاب الورى و استغفروا لذنوبهمو لاذوا بمنوال الكريم المبجّل

شفعت لهم عند الإله فأصبحوامن النار فی أمن و بر معجّل

أغاثهم الرحمن منک بنفحةألذّ و أشهی من جنی و معسّل

طفی النار نور من ضريحک ساطعفعادت سلاما لا تضرّ بمصطلی

و عاش رجاء الناس بعد مماتهمفيا لک من يوم أغرّ محجّل!

فيا راحلا عن طيبة إنّ طيبةهی الغاية القصوی لكلّ مؤمّل

قفا نبک ذكراها فإنّ الذی بهاأجلّ حبيب و هی أشرف منزل

دخلت إليها محرما و ملبّياو أضربت عن سقط الدّخول فحومل

مواقف أمّا تربها فهی عنبرو أمّا كلاها فهو نبت القرنفل

يفوح شذاها ثمّ يعقب نشرهالما راوحتها من جنوب و شمأل

فيا خير مبعوث و أكرم شافعو أنجح مأمول و أفضل موئل

عليک سلام اللّه بعد صلاتهكما شفع المسک العبيق بمندل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۷

و قال بعضهم فی ذلک:

يا كاشف الضرّ صفحا عن جرائمنالقد أحاطت بنا يا ربّ بأساء

نشكو إليک خطوبا لا نطيق لهاحملا و نحن بها حقّا أحقّاء

زلازلا تخشع الصّمّ الصّلاب لهاو كيف يقوی علی الزلزال شمّاء

أقام سبعا ترجّ الأرض فانصدعتعن منظر منه عين الشمس عشواء

بحر من النار تجری فوقه سفنمن الهضاب لها فی الأرض إرساء

كأنّما فوقه الأجبال طافيةموج عليه لفرط الهيج وعثاء

ترى لها شررا كالقصر طائشةكأنّها ديمة تنصبّ هطلاء

تنشقّ منها قلوب الصخر إن زفرترعبا، و ترعد مثل السّعف أضواء

منها تكاثف فى الجوّ الدّخان إلىأن عادت الشمس منه و هى دهماء

قد أثّرت سفعة فى البدر لفحتهافليلة التّمّ بعد النّور ليلاء

و قال آخر فى هذه النار، و غرق بغداد:

سبحان من أصبحت مشيئتهجارية فى الورى بمقدار

أغرق بغداد بالمياه كماأحرق أرض الحجاز بالنار

قال أبو شامة: و الصواب أن يقال:

فى سنة أغرق العراق و قدأحرق أرض الحجاز بالنّار

و ذكر ابن الساعى أنّ النجاب لمّا جاء إلى بغداد بخبر هذه النار، قال له الوزير:

إلى أىّ الجهات ترمى شررها؟ قال: إلى جهة الشرق.

قال أبو شامة: و فى ليلة الجمعة مستهلّ رمضان من هذه السنة، احترق المسجد الشريف النبوىّ، ابتدأ حريقه من زاويته الغربيّة من الشّمال، و كان دخل أحد القومة إلى خزانة ثمّ، و معه نار فعلقت فى الآلات، و اتّصلت بالسقف بسرعة، ثمّ دبّت فى السقوف، فأعجلت النار عن قطعها، فما كان إلّا ساعة حتّى احترقت سقوف المسجد أجمع، و وقعت بعض أساطينه، و ذاب رصاصها، و كلّ ذلك قبل أن ينام الناس، و احترق سقف الحجرة النبويّة الشريفة ، و احترق المنبر الذى كان النبى صلى اللّه عليه و سلم يخطب عليه.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۸

قال أبو شامة: و عدّ ما وقع من تلك النار الخارجة و حريق المسجد من الآيات، و كأنّها كانت منذرة بما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات.

قال أبو شامة فى ذلك:

نار أرض الحجاز مع حرق المسجد مع تغريق دار السلام

بعد ستّ من المئين و خمسين لدى أربع جرى فى العام

ثمّ أخذ التتار بغداد فى أوّل عام من بعد ذاك و عام

لم يعن أهلها، و للكفر أعوان عليهم يا ضيعة الإسلام!

و انقضت دولة الخلافة منهاصار مستعصم بغير اعتصام

فحنانا على الحجاز و مصرو سلاما على بلاد الشّآم

و فى تاريخ ابن كثير عن الشيخ عفيف الدّين يوسف بن البقّال أحد الزهاد، قال:

كنت بمصر، فبلغنى ما وقع ببغداد من القتل الذريع، فأنكرته بقلبى، و قلت: يا ربّ كيف هذا و فيهم الأطفال و من لا ذنب له؟! فرأيت فى المنام رجلا و فى يده كتاب فأخذته فإذا فيه:

دع الاعتراض فما الأمر لكو لا الحكم فى حركات الفلك

و لا تسأل اللّه عن فعلهفن خاض لجّة بحر هلك

قلت أجرى اللّه تعالى عادته أنّ العامة إذا زاد فسادها و انتهكوا حرمات اللّه، و لم تقم عليهم الحدود أرسل اللّه عليهم بية فى إثر بية، فإن لم ينجح ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده، و سلّط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا؛ و قد وقع فى هذه السنين ما يشبه الآيات

الواقعة فى مقدّمات واقعة التّتار، و أنا خائف من عقبى ذلك، فاللّهم سلّم سلّم! فأوّل ما وقع فى سنة ثلاث و ثمانين حصول قحط عظيم بأرض الحجاز.

و فى سنة خمس و ثمانين لم يزد النّيل القدر الذى يحصل به الرّىّ، و لا ثبت المدّة التى يحتاج إلى ثبوته فيها، فأعقب ذلك غلاء الأسعار فى كلّ شىء.

و فى سنة ستّ و ثمانين فى سابع عشر المحرم زلزلت مصر زلزلة منكرة لها دوىّ شديد، وقع بسببها قطعة من المدرسة الصالحية على قاضى الحنفيّة شمس الدين بن عيد، و كان من خيار عباد اللّه فقتلته.

و فى ليلة ثالث عشر رمضان من هذه السنة، نزلت صاعقة من السماء على

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۶۹

المسجد الشريف النبوىّ فأحرقته بأسره و ما فيه من خزائن و كتب، و أحرقت الحجرة الشريفة و المنبر و السّقوف، و لم يبق سوى الجدران، و احترقت فيه جماعة من أهل الفضل و الخير؛ و كان أمرا مهولا.

و فى هذه السّنة وقع بالغربيّة برد كبار بحيث قتل كثيرا من الطير؛ و قيل إنّ وزن البردة سبعون درهما.

و فى سنة سبع و ثمانين ورد الخبر بأن صاعقة نزلت بحلب، و بأنّ الفناء وقع ببغداد و بلاد الشرق عظيما جدّا حتّى قيل إنّه عدّ ببغداد من تأخّر من الرجال؛ فكانوا مائتين و اثنين و أربعين نفسا.

و فى ذى الحجة وردت الأخبار بأنّه حصل بمكّة فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى القعدة سيل عظيم بحيث دخل البيت الشريف، فكان فيه قامة، و أخرب بيوتا كثيرة، و هدم جملة من أساطين الحرم، و وجد فى المسجد من الغرقاء سبعين إنسانا و خارج المسجد خمسمائة نفس، و استمرّ الماء فى المسجد إلى يوم السبت، و لم تصلّ الجمعة.

و كتب القاضى برهان الدين بن ظهيرة إلى مصر كتابا بذلك يقول فيه: إنّ هذا السّيل لم يعهد مثله لا فى جاهلية و لا فى إسلام، و إنّه ذرع موضع وصوله فى المسجد؛ فكان سبع أذرع و ثلث ذراع؛ و قد قلت فى ذلك هذه الأبيات:

فى عام ستّ أتى المدينة فى المسجد نارا أفنته بالحرق

و عام سبع أتى لمكّة فى المسجد سيل قد عمّ بالغرق

و قبلها القحط بالحجاز فشاو مصر قد زلزلت من الفرق

و انهبط النيل غير منتفع‌به و ضاقت معايش الفرق

فهذه جملة أتت نذرامستوجبات للخوف و القلق

فليحذر الناس أن يحلّ بهم‌ما حلّ بالأوّلين من حنق

*** و لما أخذ التتار بغداد، و قتل الخليفة ، و جرى ما جارى، أقامت الدّنيا بلا خليفة ثلاث سنين و نصف سنة؛ و ذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ستّ و خمسين، و هو يوم قتل الخليفة المستعصم رحمه اللّه إلى أثناء سنة تسع و خمسمائة؛

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۰

فلمّا كان فى رجب من هذه السنة قدم أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظّاهر بأمر اللّه و هو عمّ الخليفة المستعصم و أخو المستنصر، و قد كان معتقلا ببغداد ثمّ أطلق، فكان مع جماعة الأعراب بالعراق، ثمّ قصد الملك الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم عليه الدّيار المصريّة صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنّا- و كان دخوله إلى القاهرة فى ثانى رجب- فخرج السّلطان للقائه، و معه القاضى تاج الدين و الوزير و العلماء و الأعيان و الشهود و المؤذنون فتلقّوه، و كان يوما مشهودا، و خرج اليهود بتوراتهم و النصارى بإنجيلهم، و دخل من باب النّصر بأبّهة عظيمة.

فلمّا كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب، جلس السلطان و الخليفة فى الإيوان بقلعة الجبل و القاضى و الوزير و الأمراء على طبقاتهم، و

أثبت نسب الخليفة على القاضى تاج الدين؛ فلمّا ثبت قام قاضى القضاة قائما، و أشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة. ثمّ كان أوّل من بايعه شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام، ثمّ السلطان الملك الظاهر، ثمّ القاضى تاج الدين، ثمّ الأمراء و الدولة، و ركب فى دست الخلافة بمصر و الأمراء بين يديه، و النّاس حوله، و شقّ القاهرة، و كان يوما مشهودا، و لقب المستنصر بالله بلقب أخيه، و خطب له على المنابر، و ضرب اسمه على السّكة، و كتبت بيعته إلى الآفاق، و أنزل بقلعة الجبل هو و حشمه و خدمه، فلمّا كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، ركب فى أبهة السواد، و جاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر، و خطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العبّاس، و دعا للسلطان، ثمّ نزل فصلّى بالناس، و كان وقتا حسنا و يوما مشهودا.

ثمّ فى يوم الاثنين رابع شعبان ركب الخليفة و السلطان و القاضى و الوزراء و الأمراء و أهل الحلّ و العقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة؛ فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء و عمامة سوداء، و طوقا فى عنقه من ذهب، و قيدا من ذهب فى رجليه.

و فوّض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية و ما سيفتحه من بلاد الكفر، و لقّبه بقسم أمير المؤمنين؛ و صعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتّاب منبرا، فقرأ عليه تقليد السلطان، و هو من إنشائه و صورته:

الحمد للّه الذى أضفى على الإسلام ملابس الشّرف، و أظهر بهجة درره، و كانت خافية بما استحكم عليها من الصّدف، و شيّد ما و هى من علائه حتّى أنسى به ذكر من سلف، و قيّض لنصره ملوكا اتّفق عليهم من اختلف.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۱

أحمده على نعمه التى رتعت الأعين منها فى الرّوض الأنف، و ألطافه التى وقف الشاكر عليها فليس له عنها منصرف. و أشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، شهادة توجب من المخاوف أمنا، و تسهّل من الأمور ما كان حزنا.

و أشهد أنّ سيّدنا محمدا عبده و رسوله الذى جبر من الدين وهنا، و الذى أظهر من المكارم فنونا لا فنّا، صلّى اللّه عليه و على آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى، و أصحابه الّذين أحسنوا فى الدين فاستحقّوا الزّيادة بالحسنى، و بعد:

فإنّ أولى الأولياء بتقديم ذكره، و أحقّهم أن يصبح القلم راكعا و ساجدا فى تسطير مناقبه و برّه، من سعى فأضحى سعيه للحمد متقدّما، و دعا إلى طاعته فأجاب من كان منجدا و متهما، و ما بدت يد فى المكرمات إلّا كان لها زندا و معصما، و لا استباح بسيفه حمى و غى إلا أضرم منه نارا و أجرى منه دما.

و لمّا كانت هذه المناقب الشريفة مختصّة بالمقام العالى المولوىّ السلطانىّ الملكىّ الظاهرىّ الركنىّ شرّفه اللّه و أعلاه. ذكره الديوان العزيز النبوىّ الإمامىّ المستنصرىّ أعز اللّه سلطانه تنويها بشريف قدره، و اعترافا بصنيعه الذى تنفد العبارة المسهبة و لا تقوم بشكره.

و كيف لا، و قد أقام الدولة العباسيّة، بعد أن أقعدتها زمانة الزّمان، و أذهبت ما كان لها من محاسن و إحسان، و عتب دهرها المسىء لها فأعتب، و أرضى عنها زمنها.

و قد كان صال عليها صولة مغضب، فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا، و صرف إليها اهتمامه فرجع كلّ متضايق من أمورها واسعا رحبا.

و منح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوّا و عطفا، و أظهر من الولاء رغبة فى ثواب اللّه ما لا يخفى، و أبدى من الاهتمام بأمر الشريعة و البيعة أمرا لو رامه غيره لا متنع عليه، و لو تمسّك بحبله متمسّك لا نقطع به قبل وصوله إليه، و لكنّ اللّه ادّخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه، و يخفّف بها يوم القيامة حسابه، و السعيد من خفّف من حسابه. فهذه منقبة أبى اللّه إلا أن يخلّدها فى صحيفة صنعه، و مكرمة تضمّنت لهذا البيت الشريف بجمعه، فعد أن حصل الإياس من جمعه. و أمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع؛ و يعترف أنّه لولا اهتمامك لا تّسع الخرق على الراقع و قد قلّدك الديار المصرية و البلاد الشاميّة، و الديار البكريّة و الحجازيّة و اليمنيّة و الفراتيّة، و ما يتجدّد من الفتوحات

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۲

غورا و نجدا، و فوّض أمر جندها و رعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا، و لا جعل منها بلدا من البلاد و لا حصنا من الحصون يستثنى، و لا جهة من الجهات تعدّ فى الأعلى و لا فى الأدنى.

فلاحظ أمور الأمّة فقد أصبحت لها حاملا، و خلّص نفسك من التّبعات اليوم ففى غد تكون مسئولا لا سائلا، و دع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا و ما رآها أحد بعين الحقّ إلا رآها حائلا زائلا؛ فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، و قدّم لنفسه زاد التقوى؛ فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة. و أبسط يدك بالإحسان و العدل فقد أمر اللّه بالعدل و حثّ على الإحسان، و كرّر ذكره فى مواضع القرآن، و كفّر به عن المرء ذنوبا كتبت عليها و آثاما، و جعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستّين عاما. و ما سلك أحد سبيل العدل إلّا و اجتنبت ثماره من أفنان، و رجع الأمر به بعد تداعى أركانه و هو مشيّد الأركان، و تحصّن به من حوادث زمانه؛ و السعيد من تحصّن من حوادث الزمان.

و كانت أيّامه فى الأيّام أبهى من الأعياد، و أحسن فى العيون من الغرر فى أوجه الجياد، و أحلى من العقود إذا حلّى بها عاطل الأجياد. و هذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نوّاب و حكّام، و أصحاب رأى من أصحاب السيوف و الأقلام؛ فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقّب عليه تنقيبا، و اجعل عليه فى تصرّفاته رقيبا، و اسأل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا، و بما اجترم مطلوبا. و لا تولّ منهم إلّا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا.

و أمرهم بالأناة فى الأمور و الرّفق، و مخالفة الهوى إذا ظهرت أدلّة الحقّ، و أن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم و الوجه الطلق؛ و ألّا يعاملوا أحدا على الإحسان و الإساءة إلا بما يستحقّ، و أن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا، و أن يوسعوهم برّا و إحسانا، و ألّا يستحلّوا حرماتهم إذا استحلّ الزمان لهم حرمانا، فالمسلم أخو المسلم و لو كان أميرا عليه و سلطانا. و السعيد من نسج ولاته فى الخير على منواله، و استنّوا بسنّته فى تصرّفاته و أحواله، و تحمّلوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله؛ و مما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيّيء السّنن، و جدّد من المظالم التى هى من أعظم المحن، و أن يشترى بإبطالها المحامد، فإنّ المحامد رخيصة بأغلى ثمن.

و مهما جبى منها من الأموال فإنّما هى باقية فى الدم حاصلة، و أجياد الخزائن و إن

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۳

أضحت بها حالية؛ فإنّما هى على الحقيقة منها عاطلة؛ و هل أشقى ممّن احتقب إثما، و اكتسب بالمساعى الذميمة ذمّا، و جعل السّواد الأعظم له يوم القيامة خصما، و تحمّل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله، و قد خاب من حمل ظلما! و حقيق بالمقام الشريف المولوىّ السلطان الملكىّ الظاهرىّ الركنىّ أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله، و عزائمه تخفّف ثقلا لا طاقة له بحمله؛ فقد أضحى على الإحسان قادرا، و صنعت له الأيّام ما لم تصنعه لغيره ممّن تقدم من الملوك و إن جاء آخرا.

فاحمد اللّه على أن وصل إلى جانبك إمام هدى أوجب لك مزيّة التعظيم، و نبّه الخلائق على ما فضّل اللّه به من هذا الفضل العظيم. و هذه أمور يجب أن تلاحظ و ترعى، و أن يوالى عليها حمد اللّه؛ فإنّ الحمد يجب عليها عقلا و شرعا، و قد تبيّن أنّك صرت فى الأمور أصلا و صار غيرك فرعا. و ممّا يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمّة فرضا، و هو العمل الذى يرجع به مسوّد الصحائف مبيضا.

و قد وعد اللّه المجاهدين بالأجر العظيم، و أعدّ لهم عنده المقام الكريم، و خصّهم بالجنّة التى لا لغو فيها و لا تأثيم.

و قد تقدّمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرعت فى سواد الجهاد، و عرفت منك عزيمة هى أمضى ممّا تجنّه ضمائر الأغماد، و أشهى إلى القلوب من الأعياد، و بك صان اللّه حمى الإسلام من أن يبتذل، و بعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول؛ و سيفك أثّر فى قلوب الكافرين قروحا لا تندمل، و بك يرجى أن يرجع من الخلافة ما كان عليه فى الأيّام الأول.

فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا و لا هاجعا، و كن فى مجاهدة أعداء اللّه إماما متبوعا لا تابعا، و أيّد كلمة التوحيد فما تجد فى

تأييدها إلّا مطيعا سامعا، و لا تخل الثّغور من اهتمام بأمرها تبسم لك الثغور، و احتفال يبدّل ما دجى من ظلماتها بالنور، و اجعل أمرها على الأمور مقدّما، و شيّد منها كلّ ما غادره العدوّ منهدما؛ فهذه حصون بها يحصل الانتفاع، و هى على العدوّ داعية الافتراق و الاجتماع، و أولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا، و العدوّ له ملتفتا ناظرا؛ لا سيما ثغور الديار المصريّة، فإنّ العدوّ وصل إليها و أتى و راح خاسرا، و استأصلهم اللّه فيها حتّى ما أقال منها عاثرا. و كذلك أمر الأسطول الذى تزجى خيله كالأهلّة، و ركائب سائقه بغير سائق مستقلّة، و هو أخو الجيش السّليمانىّ فإنّ ذاك غدت الرياح له حاملة، و هذا تكفّلت بحمله المياه السائلة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۴

و إذا لحظها جارية فى البحر كانت كالأعلام، و إذا شبّهها قال: هذه ليال تقلع بالأيام.

و قد ساق اللّه لك من السعادة كلّ مطلب، و آتاك من أصالة الرّأى الذى يريك المغيّب، و بسط بعد القبض منك الأمل، و نشّط بالسعادة ما كان من كسل. و هداك إلى مناهج الحقّ و ما زلت مهتديا إليها، و ألزمك المراشد و لا تحتاج إلى تنبيه عليها. و اللّه يمدّك بأسباب نصره، و يوزعك شكر نعمه، فإنّ النعمة تستتمّ بشكره!

ثمّ ركب السلطان بهذه الأبّهة و القيد فى رجليه، و الطوق فى عنقه، و الوزير بين يديه، على رأسه التقليد، و الأمراء و الدّولة مشاة سوى القاضى و الوزير. فشقّ القاهرة و قد زيّنت له؛ و كان يوما عظيما.

ثمّ طلب الخليفة من السلطان أن يجهّزه إلى بغداد، فرتّب له جندا، و أقام له كلّ ما يحتاج إليه، و عزم عليه ألف ألف دينار. و سار السلطان صحبته إلى دمشق، فدخلاها يوم الاثنين سابع ذى القعدة، و صلّيا فيها الجمعة. ثمّ رجع السلطان إلى مصر و سار الخليفة و معه ملوك الشرق، ففتح الحديثة ثم هيت، فجاءه عسكر من التّتار فتصافّوا، فقتل من المسلمين جماعة و عدم الخليفة، فلا يدرى: أقتل أم هرب! و ذلك فى ثالث المحرّم سنة ستّين. فكانت خلافته دون ستّة أشهر.

و كان ممّن شهد الوقعة معه و هرب فيمن هرب أبو العبّاس أحمد بن الأمير أبى على الحسن القبّى بن الأمير علىّ بن الأمير أبى بكر بن أمير المؤمنين المسترشد باللّه فقصد الرّحبة ، و جاء إلى عيسى بن مهنّا، فكاتب فيه الملك الظاهر فطلبه، فقدم القاهرة و معه ولده و جماعة، فدخلها فى سابع عشرى ربيع الآخر فتلقّاه السلطان، و أظهر السرور به، و أنزله بقلعة الجبل، و أغدق عليه، و استمرّ بقيّة العام بلا مبايعة، و السّكة تضرب باسم المستنصر المقتول أوّل العام.

فلما كان يوم الخميس ثامن المحرم سنة إحدى و ستّين جلس السّلطان مجلسا عاما، و جاء أبو العبّاس المذكور راكبا إلى الإيوان الكبير، و جلس مع السلطان، و ذلك بعد ثبوت نسبه، فقرىء نسبه على الناس، ثمّ أقبل عليه السلطان و بايعه بإمرة

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۵

المؤمنين. ثمّ أقبل هو على السلطان، و قلّده الأمور، ثمّ بايعه الناس على طبقاتهم، و لقّب الحاكم بأمر اللّه و كان يوما مشهودا.

فلمّا كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس، فقال فى خطبته:

الحمد للّه الذى أقام لآل العبّاس ركنا و ظهيرا، و جعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا.

أحمده على السرّاء و الضرّاء، و أستعينه على شكر ما أسبغ من النّعماء، و أستنصره على الأعداء، و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، و أنّ محمدا عبده و رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، و على آله و صحبه نجوم الاهتداء، و أئمة الاقتداء لا سيما الأربعة الخلفاء، و على العبّاس عمّه، و كاشف غمّه، و على السّادة الخلفاء الراشدين، و الأئمة المهديّين، و على بقيّة الصحابة و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيّها الناس، اعلموا أنّ الإمامة فرض من فروض الإسلام، و الجهاد محتوم على جميع الأنام، و لا يقوم علم الجهاد، إلا باجتماع كلمة العباد، و لا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، و لا سفكت الدّماء إلّا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السّلام، و استباحوا الدماء و الأموال، و قتلوا الرّجال و الأطفال و سبوا الصبيان و البنات، و أيتموهم من الآباء و الأمهات، و هتكوا حرم

الخلافة و الحريم، و أذاقوا من استبقوا العذاب الأليم؛ فارتفعت الأصوات بالبكاء و العويل، و علت الضجّات من هول ذلك اليوم الطويل؛ فكم من شيخ خضّبت شيبته بدمائه، و كم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه! فشمّروا ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد.

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا، وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الحشر: ۹]، فلم تبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين، و المحاماة عن المسلمين.

و هذا السلطان الملك الظاهر، السيّد الأجلّ العالم العادل المجاهد المؤيّد، ركن الدنيا و الدين، قد قام بنصر الإمامة عند قلّة الأنصار، و شرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، و الدولة العباسيّة به متكاثرة الجنود.

فبادروا عباد اللّه إلى شكر هذه النعمة، أخلصوا نيّاتكم تنصروا، و قاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، و لا يرد عنكم ما جرى؛ فالحرب سجال و العاقبة للمتّقين. و الدهر يومان و الآخر للمؤمنين؛ جمع اللّه على التقوى أمركم، و أعزّ بالإيمان نصركم، و أستغفر اللّه العظيم لى و لكم و لسائر المسلمين. فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۶

ثمّ خطب الثانية، و نزل فصلّى بالناس، و كتب بيعته إلى الآفاق ليخطب له، و تكتب السكّة باسمه.

قال أبو شامة: فخطب له بجامع دمشق و بسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرّم.

قال ابن فضل اللّه: و نقش اسمه على السّكّة، و ضرب بها الدينار و الدرهم. قال:

ثمّ خاف الظّاهر عاقبة أمره، فأسكنه عنده فى القلعة، و عند حريمه و خدمه و غلمانه، موسّعا عليه فى النفقات و الكساوى، يتردّد إليه العلماء و القرّاء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام، و ملاحظة جانب الإجلال و المهابة، ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة.

ثمّ أسقط اسمه من سكّة النقود، و أبقاه على المنابر.

ثمّ لاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتمّ من تلك الملاحظة، و رعى لودّ نعمة الخلافة فيه حقّها، من جميل المحافظة. انتهى.

قال غيره: و قد خطب بالقلعة مرّة ثانية يوم الجمعة رابع شوّال سنة تسعين بسؤال الملك الأشرف له فى ذلك، و ذكر فى خطبته توليته السّلطنة للأشرف. ثمّ خطب مرّة ثالثة بالمنصورية بحضرة السلطان و القضاة، و حضّ على غزو التتار و استنقاذ بلاد العراق من أيديهم؛ و ذلك فى ذى القعدة سنة تسعين . ثمّ خطب مرّة رابعة فى التاسع و العشرين من ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعين، و حثّ على الجهاد و النّفير، و صلّى بالناس الجمعة، و جهر بالبسملة.

قال الذهبى فى العبر: آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله، و لم يخطب بعده خليفة إلى الحاكم العبّاسىّ هذا، فإنّه خطب فى خلافته. انتهى.

قال ابن فضل اللّه: ثمّ لمّا ملك المنصور لاجين زاد فى إكرامه و صرفه فى

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۷

الركوب و النزول، فبرز إلى قصر الكبش ، و سكن به. ثمّ إنه حجّ فى سنة سبع و تسعين، فأعطاه المنصور لاجين سبعمائة ألف درهم، و رجع من الحجّ، فأقام بمنزله إلى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى و سبعمائة ، و دفن بجوار السيدة نفيسة فى قبّة بنيت له؛ و هو أوّل خليفة مات بها من بنى العباس. و أرسل نائب السلطنة الأمير سلار خلف كلّ من فى البلد من الأمراء و القضاة و العلماء و الصّوفيّة و مشايخ الزوايا و الرّبط و غيرهم؛ حتّى حضروا الصلاة عليه.

*** و ولى الخلافة بعده بعهد منه ولده أبو الربيع سليمان، و لقّب المستكفى بالله، و خطب له على المنابر بالبلاد المصريّة و الشاميّة و سارت البشارة بذلك إلى جميع الأقطار و الممالك الإسلامية.

قال ابن كثير: قدم البريد من القاهرة سادس جمادى الآخرة، فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم و مبايعة المستكفى، و أنّه حضر جنازته الناس كلّهم مشاة.

فخطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة المستكفى بجامع دمشق، و كتب له تقليد بالخلافة، و قرىء بحضرة السلطان و الدولة يوم الأحد العشرين من ذى الحجّة، و لم يكن السلطان أمضى له عهد والده؛ حتّى سأل الشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد- و هو قاضى القضاة يومئذ-: هل يصلح للخلافة أم لا؟ فقال الشيخ تقيّ الدين: نعم يصلح، و إنّما احتيج إلى ذلك لأنّه كان صغير السنّ، لم يبلغ عشرين سنة، فإنّ مولده فى أربع و ثمانين و ستّمائة، و كان له ابن أخ أسنّ منه، فكان ينازعه الأمر، فلمّا أشار الشيخ باستخلافه، أمضى عهد والده، و هذه صورة العهد:

الحمد للّه الذى رفع المستكفى به لمّا انتصب بشريف همّته للمحلّ الأسمى، و منح الأمّة به ربيع خفض العيش، و جزم أمرهم على الصّلاح و التوفيق جزما، و أدام الأئمة من قريش و نظم لآلىء حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما، و جعل النّاس تبعا لهم فى هذا الأمر، فغيرهم بالخلافة المعظّمة لا يدعى و لا يسمّى، فالحاكم الحسن المسترشد المستظهر بذخيرة الدّين القائم بأمر اللّه القادر المقتدر المعتضد الموفّق المتوكّل المعتصم الرشيد المهدى الكامل. من اقتفى لسنن سنّتهم رسما، استودع

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۸

الخلافة فى بنى العباس الّذى كان لنبيّه الكريم عمّا، و فرّج عنه ليلة العقبة بمبايعة الأنصار كربة و غمّا، فبشّره بأنّ الخلافة فى عقبه فعمّه بالسرور عمّا. فلمّا انتهى ذلك السرّ فى العوالم إلى الحاكم قيل و قد أمسكت هيبة الخلافة عن معرفة حقوقها العظيمة من كلّ عظيم فما فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً [الأنبياء: ۷۹].

أحمده حمد من لم يثن عن طاعته و طاعة رسوله و أولى الأمر عزما، و يورّثها من يشاء من خلقه اختيارا و رغما، و أشهد أنّ محمدا عبده و رسوله الّذى دعا إلى مودّة أولى القربى و من أفضل من قرابته زكاة و أقرب رحما، صلّى اللّه عليه و آله و صحبه و خلفائه و عترته، الذين هم أعدل البريّة حكما، و بعد:

فإنّ الملك السّلام منذ أسجد لآدم ملائكته الكرام فى سالف الزمان قدما، جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عباده حتما، كيف لا و بهم يعمر الوجود، و تقام الحدود و تهدّم أركان الجحود هدما! فبحياتهم تأمن البلاد، و ربّما صادف قرب وفاتهم أن لبس القمر ليلة التّمّ حلّة السّواد و أخفى جرما. و لمّا كان سنّة من تقدّم من الأئمة الخلفاء إذا خاف أن يهجم عليه الحمام هجما، أو تهدى إليه الأيّام ألما و سقما، تفويض الأمر بولاية العهد على الخلق لخير ذويه و بنيه نجدة و حزما، أشهد على نفسه الشريفة مولانا الإمام الحاكم- و الحاكم عليه تقواه- المراقب للّه فى سرّه و نجواه، الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين و خليفة رب العالمين، ابن عمّ سيّد المرسلين، وارث الخلفاء الراشدين، أبو العبّاس أحمد بن الأمير الحسن بن الأمير أبى بكر بن الأمير على القبّى بن أمير المؤمنين الرّاشد بالله بن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن أمير المؤمنين أبى القاسم عبد اللّه ابن المرحوم الذّخيرة للدّين ولىّ عهد المسلمين محمد بن الإمام القائم بأمر اللّه أبى عبد اللّه محمد بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقتدر بالله بن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى العباس بن الأمير محمد الموفّق بالله أبى طلحة ولىّ عهد المسلمين بن أمير المؤمنين جعفر المتوكّل بن أمير المؤمنين أبى إسحاق محمد المعتصم بن أمير المؤمنين هارون الرّشيد بن أمير المؤمنين محمد المهدىّ بن أمير المؤمنين عبد اللّه بن المنصور بن محمد الكامل بن علىّ السجّاد بن عبد اللّه حبر الأمّة ابن العبّاس بن عبد المطلب عمّ النبى صلى اللّه عليه و سلم، أعزّ اللّه به الدين، و أمتع ببقاء نسله الشريف الإسلام و المسلمين؛ و هو فى حالة يسوغ معها الشهادة عليه، و يرجع فى الأمور المنوطة للخلافة الشريفة إليه:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۷۹

أنّه عهد إلى ولده لصلبه الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان، شيّد اللّه به أركان الإيمان، و نصر ببركة سلفه العصابة المحمديّة على أهل الكفر و الطغيان، و جعله ولىّ عهد، و استخلفه، من بعده، لما علمه من أهليّته و عدالته و كفالته، و صلاحه لذلك و كفايته، و شخصه لشهود هذا المكتوب الشريف، و نبّه على استحقاقه لذلك و محلّه العالى المنيف، عهدا صحيحا شرعيّا، معتبرا تاما مرعيّا، و

فوّض إليه أمر الخلافة المعظّمة تفويضا شرعيّا صريحا، و عقد له ولاية العهد على الأمّة عقدا صحيحا، و قبل ذلك منه القبول الشرعيّ المعتبر المرضيّ، فاللّه تعالى يجمع به كلمة الإسلام، و يصحبه فى خلافته الشريفة رأيا موفّقا، و يقمع ببركة سلفه الكرام أهل الطغيان، و يهيّئ له من أمره مرفقا؛ بمنّه و كرمه آمين.

و الحمد للّه ربّ العالمين، و صلاته على سيّد المرسلين نبيّه و آله و صحبه أجمعين.

و به شهد فى اليوم المبارك السابع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى و سبعمائة، أحسن اللّه العقبى فى ختامها، و أجرى الخيرات فيما بقى من شهورها و أيامها، و شهد عليه بذلك أربعة شهود، و رسموا خطوطهم تحت نسخة العهد بما نصّه:

أشهدنى مولانا الإمام جامع كلمة الإيمان، ناظم شمل الإسلام، سيّد الخلفاء الأعلام، إمام المسلمين، و المناضل عن شريعة سيّد المرسلين- الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين، أعزّ اللّه به الدّين، و أمتع ببقائه الإسلام و المسلمين، على نفسه الزكيّة الشريفة، و هو على الحالة التى يسوغ معها تحمّل الشهادة عليه بما نسب إليه أعلاه و شخّص، إلى مولانا و سيّدنا الإمام المستكفى باللّه أمير المؤمنين فى التاريخ المذكور فيه، و ثبت هذا العهد على قاضى القضاة شمس الدين الحنفيّ.

و كتب صورة الإسجال بما نصّه:

ثبت إشهاد مولانا الإمام الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين، سليل الأئمة المهديّين، بركة الإسلام و المسلمين، المنتظم به عقد جواهر زواهر أحكام الدين، ابن عمّ سيّد المرسلين، أبى العباس بن أحمد الرّاقى بهمّة شرفه أعالى الدّرجات، المنقول برحمة اللّه و منّه و حسن سيرته إلى روضات الجنّات، المشار إليه بأعاليه، قرن اللّه بمن خلّفه خلفه تأييدا و تسديدا و توفيقا، و قرّب له إلى مشاهدة ابن عمّه و الخلفاء الراشدين فى دار كرامته طريقا، مع الذين أنعم عليهم من النبيّين و الصدّيقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا.

و إشهاد ولده لصلبه وليّ عهده المختار للخلافة الشريفة المعظّمة من بعده مولانا الإمام المستكفى باللّه أبى الربيع سليمان، ثبت اللّه به أركان الإيمان، و سلك به مسالك الخلفاء الراشدين و آبائه الطاهرين التابعين له بإحسان، و بارك للأمّة المحمّدية فيه،

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۰

و نصرهم ببركة سلفه على أهل الطغيان، على أنفسهما الشريفة المكرّمة، الطاهرة الزاكية المعظّمة، بجميع ما نسب إليهما فى كتاب العهد الشريف المسطّر بأعاليه، على ما نصّ و شرح فيه المؤرّخ بالسابع عشر من جمادى الأولى سنة تارخ هذا الإسجال، ثبوتا صحيحا شرعيّا، معتبرا تامّا مرعيّا، عند سيدنا و مولانا العبد الفقير إلى اللّه تعالى الكريم، الحامد فيض فضله العميم، قاضى القضاة، حاكم الحكّام، مفتى الأنام، حجّة الإسلام، عمدة العلماء الأعلام، شمس الدين، خالصة أمير المؤمنين، أبى العباس أحمد بن الشيخ الصالح الورع الزاهد برهان الدين أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الغنى الحنفيّ، عامله اللّه بلطفه الخفيّ، الناظر فى الحكم بالقاهرة و مصر المحروستين، و سائر أعمال الديار المصريّة بالتولية الصحيحة الشرعية. أدام اللّه أيّامه الزاهرة، و جمع له بين خيرى الدنيا و الآخرة؛ و ذلك بشهادة الشهود المعلم لهم بالأداء أعلاه، بعد أن أقام كلّ واحد منهم شهادته بذلك بشروط الأداء المعتبرة، و ذلك أنّه شهد على مولانا الإمام الحاكم بأمر اللّه المشار إليه، تغمّده اللّه بالرحمة و الرضوان، و أسكنه فسيح الجنان؛ و هو على الحالة التى تسوغ معها الشهادة عليه أحسن اللّه فى آخرته إليه. فقبل ذلك منه، و أعلم له ما جرت به العادة من علامة الأداء و القبول على الرسم المعهود فى مثله.

و حكم مولانا قاضى القضاة شمس الدين الحاكم المذكور، وقاه اللّه كلّ محظور، بذلك كلّه الحكم الشرعيّ، المعتبر المرعيّ، و أجاز ذلك و أمضاه، و اختاره و ارتضاه، و ألزم ما اقتضاه مقتضاه، بسؤال من جازت مسألته، و سوّغت فى الشريعة المطهّرة إجابته، و ذلك بعد استيفاء الشرائط الشرعيّة، و القواعد المحرّرة المرعيّة، و تقدّم الدعوى المعتبرة المرضيّة. و تقدّم هذا الحاكم وفّقه اللّه لمراضيه، و أعانه على ما هو متولّيه، بكتابة هذا الإسجال، فكتب عن إذنه الكريم على هذا المنوال، بعد قراءته و قراءة ما يحتاج إلى

قراءته من كتابه العهد الشريف المسطّر أعلاه، على شهود هذا الإسجال، و هو و هم يستمعون لذلك فى اليوم المبارك من العشر الأخير من جمادى الأولى سنة إحدى و سبعمائة، أحسن اللّه تقضّيها فى خير و عافية.

و بايعه السلطان و القضاة و الأعيان، و ألبس جبّة سوداء و طرحة سوداء، و خلع على أولاد أخيه خلع الأمراء، و أشهد عليه أنه ولّى الملك الناصر جميع ما ولّاه والده، و فوّضه إليه.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۱

ثمّ نزل إلى داره بالكبش، و نقش اسمه على سكّة الدينار و الدرهم. ثمّ رسم السلطان فى جمادى الآخرة بأن ينتقل الخليفة و أولاده و جميع من يلوذ به إلى القلعة إكراما لهم. فنزلوا فى دارين، و أجرى عليهم الرواتب الكثيرة، و استمرّ دهرا و هو و السلطان كالأخوين يلعبان بالأكرة، و يخرجان إلى السّرحات، و سافرا معا إلى غزوة التّتار نوبة غازيين، حتّى وشى الواشى بينهما، فتغيّر خاطر الناصر منه، و ذلك فى سنة ستّ و ثلاثين.

فأمره أن ينتقل من القلعة إلى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكنا، ثمّ أمره أن يخرج إلى قوص، فيقيم بها و ذلك فى ثامن عشر ذى الحجّة سنة سبع و ثلاثين، فخرج إليها هو و أولاده و أهله، و هم قريب من مائة نفس، و رتّب له على واصل المكارم أكثر ممّا كان له بمصر، و توجّع الناس لذلك كثيرا.

قال الحافظ ابن حجر: و كان بطول مدّته يخطب له على المنابر؛ حتّى فى مدة إقامته بقوص، و استمرّ بها إلى أن مات فى شعبان سنة أربعين و سبعمائة ، و دفن بها و قد عهد بالخلافة إلى ابنه أحمد و أشهد عليه أربعين عدلا، و أثبت ذلك على قاضى قوص.

فلمّا بلغ الناصر ذلك لم يلتفت إلى ذلك العهد، و طلب ابن أخى المستكفى إبراهيم ابن وليّ العهد المستمسك بالله أبى عبد اللّه محمد بن الحاكم بأمر اللّه أبى العبّاس أحمد، و كان جدّه الحاكم عهد إلى ابنه محمد، و لقّبه المستمسك بالله، فمات فى حياته.

فعهد إلى ابنه إبراهيم هذا ظنّا أنه يصلح للخلافة، فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك فى اللّعب و معاشرة الأرذال، فنزل عنه، و عهد إلى ولد صلبه المستكفى، و هو عمّ إبراهيم؛ و كان إبراهيم قد نازعه لما مات الحاكم، فلم يلتفت إلى منازعته اعتمادا على قول الشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد، فأقام على ضغينته حتّى كان هو السبب فى الوقعة بين عمّه و بين الناصر، و جرى ما جرى.

فلم يمض الناصر عهد المستكفى لولده، و بايع إبراهيم هذا فى يوم الاثنين ثالث رمضان، و لقّب الواثق بالله، و راجع الناس السلطان فى أمره، و وسموه بسوء السّيرة،

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۲

خصوصا قاضى القضاة عزّ الدين بن جماعة، فإنّه جهد كلّ الجهد فى صرف السلطان عنه، فلم يفعل؛ و ما زال بهم حتّى بايعوه.

ثمّ إنّ اللّه فجع النّاصر بموت أعزّ أولاده الأمير أنوك، فكان ذلك أوّل عقوباته و لم يمتّع بالملك بعد وفاة المستكفى، فأقام بعده سنة و أياما، و أهلكه اللّه .

و قد قيل: إنّ وفاة المستكفى كانت سنة إحدى و أربعين، فعلى هذا لم يتمّ الحول على الناصر، حتّى مات بعد ثلاثة أشهر؛ سنّة اللّه فيمن مسّ أحدا من الخلفاء بسوء، فإنّ اللّه يقصمه عاجلا، و ما يدّخره له فى الآخرة من العذاب أشدّ.

*** ثم إنّ اللّه انتقم من النّاصر فى أولاده فسلّط عليهم الخلع و الحبس و التّشريد فى البلاد و القتل، فجميع من تولّى الملك من ذريّته؛ إمّا أن يخلع عاجلا، و إمّا أن يقتل؛ فأوّل ولد تولّى بعده، عوجل بخلعه و نفيه إلى قوص، حيث كان سيّر الخليفة، ثمّ قتل بها. و غالب من تولّى من ذريته لم تطل مدّته كما سيأتى.

و قد أقام النّاصر فى السلطنة نيّفا و أربعين سنة، و تولّى من ذريّته اثنا عشر نفرا، لم يتمّوا هذه المدّة، بل عجّلوا واحدا فى إثر واحد، فما أشبههم إلا بملوك الفرس حيث قال الكاهن لكسرى لمّا سقطت من إيوانه أربع عشرة شرفة ليلة ولد النبى صلى اللّه عليه و سلم: يملك منكم أربعة عشر ملكا؛ ثمّ يذهب الملك منكم، فقال كسرى: إلى أن يمضى أربعة عشر ملكا تكون أمور و أمور! فانقرضوا فى

أقصر مدّة، و كان آخرهم فى زمن عثمان بن عفّان رضى اللّه عنه.

ثمّ إنّ اللّه نزع الملك من ولد قلاوون، و أعطاه بعض مماليكهم، و لم يعد إليهم إلى وقتنا هذا، و بعض ذرّيته أحياء إلى الآن فى أسواء حال، دينا و دنيا. و من تأمّل بدائع صنع اللّه رأى العجب العجاب؛ و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون، و إنّما يتذكر أولو الألباب!

و لما حضر الناصر الوفاة ندم على ما فعل من مبايعة إبراهيم، فأوصى الأمراء بردّ العهد إلى وليّ عهد المستكفى، فلمّا تسلطن ولده أبو بكر المنصور عقد مجلسا يوم

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۳

الخميس حادى عشر ذى الحجّة سنة إحدى و أربعين ، و طلب الواثق إبراهيم و وليّ العهد أحمد بن المستكفى و القضاة، و قال: من يستحقّ الخلافة شرعا؟ فقال ابن جماعة: إنّ الخليفة المستكفى المتوفّى بمدينة قوص أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد، و أشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص، و ثبت ذلك عندى بعد ثبوته على نائبى بمدينة قوص.

فخلع السلطان الواثق حينئذ و بايع أحمد، و بايعه القضاة.

قال الحافظ ابن حجر: و لقّب أولا المستنصر، ثم لقّب الحاكم بأمر اللّه لقب جدّه و كتب له ابن فضل اللّه صورة المبايعة؛ و هى هذه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ: إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً [الفتح: ۱۰]، هذه بيعة رضوان و بيعة إحسان، و بيعة رضا يشهدها الجماعة و يشهد عليها الرحمن. بيعة يلزم طائرها العنق، و يحوم بسائرها و كلّ أنبائها البرارى و البحار مشحونة الطرق، بيعة يصلح اللّه بها الأمّة، و يمنح بسببها النعمة، و يتجارى الرّفاق، و يسرى الهناء فى الآفاق، و تتزاحم زهر الكواكب على حوض المحرّة الدّقاق.

بيعة سعيدة ميمونة، بها السّلامة فى الدين و الدنيا مضمونة، بيعة صحيحة شرعيّة، بيعة ملحوظة مرعيّة، تسابق إليها كلّ نية، و تطاوع كلّ طويّة، و يجمع عليها شتات البريّة.

بيعت يستهلّ بها العام، و يتهلّل البدر التمام، بيعة متّفق على الإجماع عليها، و الإجماع يبسط الأيدى إليها، انعقد عليها الإجماع فاعتقد صحّتها من سمع للّه و أطاع، و بذل فى تمامها كلّ امرئ ما استطاع، حصل عليها اتّفاق الأبصار و الأسماع، و وصل بها الحقّ إلى مستحقّه و أقرّ الخصم و انقطع النزاع. تضمّنها كتاب مرقوم يشهده المقرّبون، و تلقّاه الأئمة الأقربون.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدانا لِهذا، وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ [الأعراف: ۴۳]، ذلك من فضل اللّه علينا و على الناس، و إلينا بحمد اللّه و إلى بنى العباس. أجمع على هذه البيعة أرباب العقد و الحلّ، من أصحاب الكلام فيما قلّ و جلّ و ولاة الأمور و الحكّام، و أرباب المناصب و الأحكام، حملة العلم و الأعلام، و حماة السيوف

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۴

و الأقلام، و أكابر بنى عبد مناف، و من انخفض قدره و أناف، و سروات قريش و وجوه بنى هاشم، و البقيّة الطاهرة من بنى العباس، و خاصة الأئمة و عامّة الناس، بيعة ترى بالحرمين خيامها، و يخفق بالمأزمين أعلامها، و تتعرّف عرفات بركاتها، و تعرف بمنّى و يؤمّن عليها يوم الحجّ الأكبر، و يوم ما بين الركن و المقام و المنبر، و لا يبتغى بها إلّا وجه اللّه الكريم. بيعة لا يحلّ عقدها، و لا ينبذ عهدها، لازمة جازمة، دائبة دائمة، تامّة عامّة شاملة كاملة، صحيحة صريحة، متعبة مريحة، و لا من يوصف بعلم و لا قضاء، و لا من يرجع إليه فى اتّفاق و لا- إمضاء، و لا- إمام مسجد و لا خطيب، و لا ذو فتوى يسأل فيجيب، و لا من حشى المساجد، و لا من تضمّهم أجنحة المحاريب، و لا من يجتهد فى رأى فيخطىء أو يصيب، و لا مجادل بحديث، و لا متكلّم فى قديم و حديث، و لا معروف بدين و صلاح، و لا- فرسان حرب و كفاح، و لا- راشق بسهام و لا طاعن برماح، و لا ضارب بصفاح، و لا ساع بقدم و لا طائر بجناح، و لا مخالط الناس و لا قاعد فى عزلة، و لا جمع تكسير و لا قلّة، و لا من يستقلّ بالجوزاء لواؤه، و لا من يعلو فوق الفرقدين ثواؤه، و لا باد و لا- حاضر، و لا مقيم و لا سائر، و لا أوّل و لا آخر، و لا مسرّ فى باطن و لا معلن فى ظاهر، و لا عرب و لا عجم، و لا راعى إبل و لا

غنم، و لا- صاحب أناة و لا بدار، و لا ساكن فی حضر و بادیة بدار، و لا صاحب عمد و لا جدار، و لا ملجّج فی البحار الزاخرة و البرارى القفار، و لا من یعتلی صهوات الخیل، و لا من یسبل علی العجاجة الذّیل، و لا من تطلع علیه شمس النهار و نجوم اللیل، و لا من تظلّه السماء و تقلّه الأرض، و لا من تدلّ علیه الأسماء علی اختلافها و ترفع درجات بعضهم علی بعض؛ حتّی آمن بهذه البیعة و أمّن علیها، و آمن بها و منّ اللّه علیه و هداه إلیها، و أقرّ بها و صدّق، و خفض لها بصره خاشعا و أطرق، و مدّ إلیها یده بالمبایعة، و معتقده بالمتابعة، و رضی بها و ارتضاها، و أجاز حکمها علی نفسه و أمضاها، و دخل تحت طاعتها. و عمل بمقتضاها، وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِیلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ [الزمر: ۷۵].

و إنّه لمّا استأثر اللّه بعبده سلیمان أبی الربیع الإمام المستکفی باللّه أمیر المؤمنین کرّم اللّه مثواه، و عوّضه عن دار السلام بدار السلام، و نقله مزکّی به عن شهادة الإسلام، بشهادة الإسلام حیث آثره بقربه، و مهّد لجنبه، و أقدمه علی ما قدّمه من مرجوّ عمله و کسبه، و حاز له فی جواره فریقا، و أنزله مع الّذین أنعم اللّه علیهم من النبیّین و الصدّیقین و الشهداء و الصالحین و حسن أولئک رفیقا.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۵

اللّه أکبر لیومه لو لا مخلفة کانت تضیق الأرض بما رحبت، و تجزی کلّ نفس بما کسبت، و تنبیء کلّ سریرة ما ادّخرت و ما خبّأت. لقد اضطرم سعیر إلا أنّه فی الجوانح، لقد اضطرب منبر و سریر لولا خلفه الصالح، لقد اضطرب مأمور و أمیر لولا الفکر بعده فی عاقبة المصالح؛ و لم یکن فی النسب العباسیّ و لا- فی البیت المسترشدیّ، و لا- فی غیره من بیوت الخلفاء من بقایا آباء و جدود، و لا من تلده أخری اللیالی و هی عاقر غیر ولود؛ من تسلّم إلیه أمّة محمد عقد نیّاتها، و سرّ طویّاتها، إلا واحد و أین ذلک الواحد؟! هو و اللّه من انحصر فیه استحقاق میراث آبائه الأطهار، و تراث أجداده الأخیار، و لا شیء هو إلّا ما اشتمل علیه رداء اللیل و النهار؛ و هو ولد المنتقل إلی ربّه، و ولد الإمام الذاهب لصلبه، المجمع علی أنّه فی الأیّام فرد الأنام، و واحد و هکذا فی الوجود الإمام، و أنّه الحائز لما زرّت علیه جیوب المشارق و المغارب، و الفائز لملک ما بین المشارق و المغارب، الرامی فی صفیح السماء هذه الذّروة المنیفة، الراقی بعد الأئمة الماضین و نعم الخلیفة، المجتمع فیه شروط الإمامة، المتّضع للّه و هو ابن بیت لا یزال الملک فیهم إلی یوم القیامة، الّذی یفضح السحائب نائله، و الذی لا یعزّه عادله و لا یغیّره عاذله، و الذی ما ارتقی صهوة المنبر بحضرة سلطان زمانه، إلا قال ناصره و قام قائمه، و لا قعد علی سریر الخلافة إلا و عرف أنّه ما خاب مستکفیه و لا غاب حاکمه، نائب اللّه فی أرضه، و القائم مقام رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و خلیفته و ابن عمّه، و تابع عمله الصالح و وارث علمه، سیّدنا و مولانا عبد اللّه، و ولیّه أبو العباس الإمام الحاکم بأمر اللّه، أمیر المؤمنین، أیّد اللّه ببقائه الدّین، و طوّق سیفه رقاب الملحدین، و کبت تحت لوائه المعتدین، و کتب له النّصر إلی یوم الدین، و کبّ بجهاده علی الأذقان طوائف المفسدین، و أعاذ به الأرض ممّن لا یدین بدین، و أعاد بعدله أیّام آبائه الخلفاء الراشدین، و الأئمة المهذّبین، الذین قضوا بالحق و به کانوا یعدلون، و نصر أنصاره، و قدّر اقتداره، و أسکن فی القلوب سکینته و وقاره، و مکّن له فی الجود و جمع له أقطاره.

و لمّا انتقل إلی اللّه ذلک السیّد و لقی أسلافه، و نقل إلی سریر الجنّة عن سریر الخلافة، و خلا العصر من إمام یمسک ما بقی من نهاره، و خلیفة یغالب مزید اللیل بأنواره، و وارث نبیّ بمثله و مثل آبائه استغنی الوجود بعد ابن عمّه خاتم الأنبیاء عن نبیّ یقتفی علی آثاره، و مضی و لم یعهد فلم یبق إذ لم یوجد النصّ إلا الإجماع، و علیه

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۶

کانت الخلافة بعد رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بلا نزاع، اقتضت المصلحة الجامعة عقد مجلس کلّ طرف منه معقود، و عقد بیعة علیها اللّه و الملائکة شهود، و جمع الناس له و ذلک یوم مجموع له الناس و ذلک یوم مشهود؛ فحضر من لم یعبأ بعده بمن تخلّف، و لم یر بائعه و قد مدّ یده طائعا لمزیدها و قد تکلّف، و أجمعوا علی رأی واحد استخاروا اللّه فیه فخار، و أخذ یمین تمدّ لها الأیمان، و یشدّ بها الإیمان، و تعطی علیها المواثیق، و تعرض أمانتها علی کلّ فریق؛ حتّی تقلّد کلّ من حضر فی عنقه هذه الأمانة، و حطّ علی

المصحف الكريم يده و حلف بالله و أتمّ أيمانه، و لم يقطع و لا استثنى و لا تردّد، و من قطع عن غير قصد أعاد و جدّد، و قد نوى كلّ من حلف أنّ النية فى يمينه نيّة من عقدت له هذه البيعة و نيّة من حلف له، و تذمّم بالوفاء له فى ذمّته و تكفله، على عادة أيمان البيعة و شروطها، و أحكامها المردّدة، و أقسامها المؤكّدة بأن يبذل لهذا الإمام المفترض الطاعة الطاعة، و لا يفارق الجمهور و لا يفرّ عن الجماعة الجماعة، و غير ذلك مما تضمّنته نسخ الأيمان المكتتب فيها أسماء من حلف عليها ممّا هو مكتوب بخطوط من يكتب منهم، و خطوط العدول الثّقات عمّن لم يكتبوا و أذنوا أن يكتب عنهم، حسبما يشهد به بعضهم على بعض، و تتصادق عليه أهل السماء و الأرض، بيعة تمّ بمشيئة اللّه تمامها، و عمّ بالصّوب المغدق غمامها؛ و قالوا: الحمد للّه الذى أذهب عنّا الحزن، و وهب لنا الحسن، ثمّ الحمد للّه الكافى عبده، الوافى لمن تضاعف على كلّ موهبة حمده، ثمّ الحمد للّه على نعمة يرغب أمير المؤمنين فى ازديادها، و يرهب إلّا أن يقاتل أعداء اللّه بإمدادها، و يرأب بها من أثر فى منابر ممالكه ما بان من مباينة أضدادها؛ نحمده و الحمد للّه، ثمّ الحمد للّه، كلمة لا يملّ من ترادها، و لا تخلّ بما تفوّق السهام من سدادها، و لا تبطل إلّا على ما يوجب تكثير أعدادها، و تكبير أقدار أهل و دادها، و تصغير التحقير لا التحبيب لأندادها.

و نشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، شهادة تتقايس بدماء الشّهداء و إمداد مدادها، و تتنافس طرر الشباب و غرر السحاب على استمدادها، و تتجانس رقومها المدبّجة و ما تلبسه الدولة العباسيّة من شعارها و الليالى من دثارها و الأعداء من حدادها؛ صلّى اللّه عليه و على جماعة أهله، و من خلف من أبنائها و سلف من أجدادها، و رضى اللّه عن الصحابة أجمعين، و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

و بعد؛ فإنّ أمير المؤمنين لمّا ألبسه اللّه من ميراث النبوّة ما كان لجدّه، و وهبه من الملك السليمانىّ ما لا ينبغى لأحد من بعده، و علّمه منطق الطّير بما تحمّله حمائم النطائق من بدائع البيان، و سخّر له من البريد على متون الخيل ما سخّره من الريح لسليمان، و آتاه من خاتم الأنبياء ما امتدّ به أبوه سليمان و تصرّف، و أعطاه من الفخار به

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۷

ما أطاعه كل مخلوق و لم يتخلّف، و جعل له من لباس العبّاس ما يقضى سواده بسؤدد الأجداد، و ينفض على ظلّ الهدب ما فضل عن سويداء القلب و سواد البصر من السواد، و يمدّ ظلّه على الأرض و كلّ مكان دار ملك و كلّ مدينة بغداد، و هو فى ليله السجّاد، و فى نهاره العسكرى و فى كرمه جعفر و هو الجواد؛ يديم الابتهال إلى اللّه فى توفيقه، و الابتهاج بما يغصّ كلّ عدوّ بريقه.

و تبدأ بعد المبايعة بما هو الأهمّ من مصالح الإسلام، و صالح الأعمال فيما تتحلّى به الأيّام، و يقدّم التقوى أمامه، و يقرّر عليها أحكامه، و يتّبع الشرع الشريف و يقف عنده و يوقف الناس، و من لا يحمل أمره طائعا على العين يحمله غصبا على الرأس، و يعجّل أمير المؤمنين بما استقرّت به النفوس، و يردّ به كيد الشيطان إنّ يؤوس، و يأخذ بقلوب الرعايا و هو غنىّ عن هذا و لكنه يسوس.

و أمير المؤمنين يشهد اللّه و خلقه عليه، أنّه أقرّ ولىّ كلّ أمر من ولاة أمور الإسلام على حاله، و استمرّ به فى مقيله تحت كنف ظلاله، على اختلاف طبقات ولاة الأمور، و طرقات الممالك و الثغور، برّا و بحرا، و سهلا و وعرا، شرقا و غربا، بعدا و قربا، و كلّ جليل و حقير، و قليل و كثير، و صغير و كبير، و ملك و مملّك و أمير، و جندىّ يرى له سيف شهير، و رمح ظهير، و من مع هؤلاء من وزراء و قضاة و كتّاب، و من له تدقيق فى إنشاء و تحقيق فى حساب، و من يتحدّث فى بريد و خراج، و من يحتاج إليه و من لا يحتاج، و من فى التّدريس و المدارس، و الرّبط و الزّوايا و الخوانق، و من له أعظم التعلّقات و أدنى العلائق، و سائر أرباب المراتب، و أصحاب الرواتب، و من له من اللّه رزق مقسوم، و حقّ مجهول أو معلوم، استمرارا لكلّ امرئ على ما هو عليه، حتّى يستخير اللّه و يتبيّن له ما بين يديه، فمن ازداد تأهيله زاد تفضيله، و إلّا فأمير المؤمنين لا يريد إلا وجه اللّه، و لا يحابى أحدا فى دين اللّه، و لا يحابى حقّا فى حقّ؛ فإنّ المحاباة فى الحقّ مداجاة على المسلمين، و كلّ ما هو مستمرّ إلى الآن مستقرّ على حكم اللّه ممّا فهّمه اللّه له، و فهّمه سليمان، لا يغيّر أمير المؤمنين فى ذلك و لا فى بعضه شكرا للّه على نعمه، و هكذا يجازى من شكر، و لا يكدّر على أحد موردا نزّه

اللّه نعمه الصافیة عن الکدر، و لا یتأوّل فی ذلک متأوّل إلا من جحد النّعمة أو کفر، و لا یتعلّل متعلل؛ فإنّ أمیر المؤمنین یعوذ باللّه و یعیذ أیامه الغرر من الغیر، و أمر أمیر المؤمنین- أعلی اللّه أمره- أن یعلن الخطباء بذکره، و ذکر سلطان زمانه علی المنابر فی الآفاق، و أن تضرب باسمهما النقود و تسیر بالإطلاق، و یوشّح بالدّعاء لهما عطف اللیل و النهار، و یصرّح منه بما یشرق به وجه الدرهم و الدینار.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۸

و قد أسمع أمیر المؤمنین فی هذا المجمع المشهود ما یتناقله کلّ خطیب، و یتداوله کلّ بعید و قریب، و مختصره أنّ اللّه أمر بأوامر و نهی عن نواه و هو رقیب، و سیفرغ لها الأولیاء السّجایا، و یفرع الخطباء لها شعوب الوصایا، و تتصّل بها المزایا، و تخرج من المشایخ الخبایا من الزوایا، و یسمر بها السّمّار و یترنّم بها الحادی و الملّاح، و یرقّ شجوها فی اللیل المقمر و یرقم علی جبین الصباح، و تعظ بها مکّة بطحاءها، و یحیا بحدائها فناه، و یلقّنها کلّ أب فهمه ابنه و یسأل کلّ ابن نجیب أباه؛ و هو لکم أیّها الناس من أمیر المؤمنین من سدّد علیکم سنّة، و إلیکم ما دعاکم به إلی سبیل ربّه من الحکمة و الموعظة الحسنة. و لأمیر المؤمنین علیکم الطاعة. و لو لا قیام الرعایا ما قبل اللّه أعمالها، و لا أمسک بها البحر و دحی الأرض و أرسی جبالها، و لا اتّفقت الآراء علی من یستحقّ و جاءت إلیه الخلافة تجرّ أذیالها، و أخذها دون بنی أبیه:

و لم تک تصلح إلّا لهو لم یک یصلح إلّا لها

و قد کفاکم أمیر المؤمنین السؤال بما فتح لکم من أبواب الأرزاق و أسباب الارتزاق، و آجرکم علی وفاقکم و علّمکم مکارم الأخلاق، و أجراکم علی عوائدکم، و لم یمسک خشیة الإنفاق، و لم یبق لکم علی أمیر المؤمنین إلا أن یسیر فیکم بکتاب اللّه و سنّة رسوله صلی اللّه علیه و سلم، و یعمل بما یسعد به من یجیء- أطال اللّه بقاء أمیر المؤمنین- من بعده، و یزید علی من تقدّم، و یقیم فروض الحجّ و الجهاد، و یقیم الرعایا بعدله الشامل فی مهاد.

و أمیر المؤمنین یقیم علی عادة آبائه موسم الحجّ فی کلّ عام، و یشمل برّه سکّان الحرمین الشریفین و سدنة بیت اللّه الحرام، و یجهّز السبیل علی حالته، و یرجو أن یعود علی حاله الأوّل فی سالف الأیّام، و یتدفّق فی هذین المسجدین بحره الزاخر و یرسل إلی ثالثهما فی البیت المقدّس ساکب الغمام، و یقیم بعدله قبور الأنبیاء صلّی اللّه علیهم و سلّم أینما کانوا و أکثرهم فی الشام.

و الجمع و الجماعات هی فیکم علی قدیم سنّتها و قویم سننها ، و ستزید فی أیّام أمیر المؤمنین لمن تضمّ إلیه، و فیما یتسلّم من بلاد الکفر و یسلم منهم علی یدیه.

و أمّا الجهاد فکفی باجتهاد القائم عن أمیر المؤمنین بمأموره، المقلّد عنه جمیع ما وراء سریره. و أمیر المؤمنین قد وکّل منه- خلّد اللّه ملکه و سلطانه- عینا لا تنام، و قلّد

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۸۹

سیفا لو أغفت بوارقه لیلة واحدة عن الأعداء سلّت خیاله علیهم الأحلام؛ و سیؤکّد أمیر المؤمنین فی ارتجاع ما غلب علیه العدا.

و قد قدّم الوصیّة بأن یوالی غزو العدوّ المخذول برّا و بحرا. و لا یکفّ عمّن ظفر به منهم قتلا و لا أسرا، و لا یفکّ أغلالا و لا إصرا ، و لا ینفکّ یرسل علیهم فی البرّ من الخیل عقبانا و فی البحر غربانا ، تحمل کلّ منهما من کلّ فارس صقرا، و یحمی الممالک مما یتخرّق أطرافها بإقدام، و یتحوّل أکنافها بأقدام، و ینظر فی مصالح القلاع و الحصون و الثغور، و ما یحتاج إلیه من آلات القتال و أمهات الممالک التی هی مرابط البنود، و مرابض الأسود، و الأمراء و العساکر و الجنود، و ترتیبهم فی المیمنة و المیسرة و الجناح الممدود، و یتفقّد أحوالهم بالعرض، بما لم من خیل تعقد ما بین السماء و الأرض، و ما لهم من زرد موضون ، و بیض مسّها ذائب ذهب فکانت کأنّها بیض مکنون، و سیوف قواضب، و رماح بسبب دوامها من الدماء خواضب، و سهام تواصل القسیّ و تفارقها، فتحنّ حنین مفارق و تزمجر القوس زمجرة مغاضب.

و هذه جملة أراد بها أمير المؤمنين إطابة قلوبكم، و إطالة ذيل التطويل على مطلوبكم، و دماؤكم و أموالكم و أعراضكم فی حماية إلّا ما أباح الشرع المطهّر، و يزيد الإحسان إليكم على مقدار ما يخفى منكم و يظهر. و أما جزئيّات الأمور فقد علمتم بأنّ من بعد عن أمير المؤمنين غنی عن مثل هـذه الذكرى، و أنتم على تفاوت مقاديركم وديعة أمير المؤمنين، و كلّكم سواء فی الحقّ عند أمير المؤمنين، و له عليكم أداء النصيحة، و إبداء الطاعة بسريرة صحيحة؛ فقد دخل كلّ منكم فی كنف أمير المؤمنين و تحت رقّه، و لزمه حكم بيعته و ألزم طائره فی عنقه؛ و سيعلم كلّ منكم فی الوفاء بما أصبح به عليما، و من أوفی بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجرا عظيما.

هـذا قول أمير المؤمنين؛ و قال و هو من يعمل فی ذلك كلّه بما تحمـد عاقبته من الأعمال، و على هـذا عهد إليه و به يعهد، و ما سوى ذلـك فجور لاـ يشـهد به عليه و لا يشـهد؛ و أمير المؤمنين يسـتغفر اللّه على كلّ حال، و يسـتعيذ به من الإهمال، و يسأله أن يمـدّه لما يحبّ من الآمال، و لا يمدّ له حبل الإهمال.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۰

و يختم أمير المؤمنين قوله بما أمر اللّه به من العدل و الإحسان، و الحمد للّه و هو من الخلق أحمد، و قد آتاه اللّه ملك سـليمان، و اللّه يمتّع أمير المؤمنين بما وهبه، و يملّكه أقطار الأرض و يورثه بعد العمر الطويل عقبه، فلا يزال على سدّة العلياء قعوده، و لدست الخلافة به أبّهة الجلالة كأنّه ما مات منصوره و لا أودى مهديه و لا رشيده.

*** و من قصيدة ابن فضل اللّه التی سمّاها حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء:

و طار منهم نحو مصر قشعمقد جاءها كما يجیء الطائر

قال أخی مستنصر و والدیوالده و هو الإمام الظاهر

فلقّبوه مثله مستنصراو ذاك أنّ جدّ هذا الناصر

و كان منه الظاهر السلطان ذاخوف و من بأسائه يحاذر

فبايعوا الحاكم بعد أن أتیوفر فالتفّت به العشائر

و هو أبو العبّاس أحمد الرضامن ولد الرّاشد نجم زاهر

و قام مستكف كفاه ربّهجميع ما يخاف ناه آمر

و بعده الواثق إبراهيم لاعاد و لا دارت له الدوائر

و الحاكم الآن إمام عصرنابشری لنا إنّا له نناصر

ثمّ فی يوم الاثنين ثانی محرم سـنة اثنتين و أربعين حضر الخليفة الحاكم و السلطان المنصور و القضاة بدار العدل، فجلس الخليفة على الدرجة العلياء، و عليه خلعة خضـراء، و فوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب، و جلس السـلطان دونه، فقام الخليفة و خطب خطبة افتتحها بقوله:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِی الْقُرْبی وَ يَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْیِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ [النحل: ۹۰]، و بقوله: وَ أَوْفُوا بِعَهْـدِ اللَّهِ إِذا عاهَـدْتُمْ وَ لاـ تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْـدَ تَوْكِيـدِها وَ قَـدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ [النحل: ۹۱] ثمّ أوصـی الأمراء بالرفق بالرعيّة و إقامة الحقّ، و تعظيم شـعائر الإسـلام و نصـرة الدين، ثمّ قال: فوّضت إليك جميع أحكام المسـلمين، و قلّدتك جميع ما تقلّدته من أمور الدين فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ [الفتح: ۱۰] و قرأ الآية، و جلس. حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۹۰

ّ جیء بخلعـة سوداء ألبسـها الخليفـة السـلطان بيـده، ثمّ قلّده سـيفا عربيّا، ثمّ أخـذ علاء الدين بن فضل اللّه كاتب السر فی قراءة عهد الخليفة للسلطان، حتّى فرغ منه، ثمّ قدّمه إلى الخليفة، فكتب عليه ثمّ كتب بعده القضاة الأربعة بالشهادة عليه و استمرّ الخليفة فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۱

منصبه الشريف إلى أن مات بالطاعون شهيدا فى منتصف سنة ثلاث و خمسين ، و لم يعهد بالخلافة لأحد.

*** فجمع الأمراء شيخو و رفقته القضاة، و طلب جماعة من بنى العباس، فوقع الاختيار على أخيه أبى بكر بن المستكفى، فبايعوه و لقّب المعتضد بالله ، و كنّى أبا الفتح، و ضمّ إليه نظر المشهد النفيسىّ، فأقام إلى أن مات ليلة الأربعاء ثامن عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث و ستّين.

قال بدر الدين بن حبيب فى ترجمته: أمير المؤمنين، و قائد المذعنين، و إمام الأئمة، و قدوة المتكلّمين، فى براءة الذمّة، علت أركانه، و بسقت أغصانه، و تجمّلت به ديار مصره، و صغت إلى رأيه ملوك عصر، رأس و ساد، و منح و أفاد، و رفل فى حلل النعيم، و هدى إلى سلوك الطريق المستقيم، و اعتضد بالله فى أموره، و لم يختف عن الناس بحجبه و لا ستوره، و استمرّ سائرا فى منهاج عزّه و بقائه، إلى أن لحق بعد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه.

*** و عهد بالخلافة لولده أبى عبد اللّه محمد، فقام بعده و لقّب المتوكّل على اللّه؛ هذه صورة العهد:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. الحمد للّه الذى ميّز أبناء الخلفاء برتب العدالة، و ألبس من نشأ منهم على ستر العفاف خلعها المذالة ، و رفع قدره على أقرانه حين سلك سبل الرشاد التى أوضحها له.

أحمده على نعمه الّتى هى على عبده منهالة، و أشكره شكرا أستزيد به نعمه و أفضاله. و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له شهادة امرئ أخلص بها نيّته

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۲

و مقاله، و أشهد أنّ محمدا عبده و رسوله المخصوص بعموم الرسالة، و المبعوث بأوضح حجّة و دلالة، و الصّادق الأمين الذى أخلص للّه أقواله و أفعاله؛ صلّى اللّه عليه و على آله و أصحابه أولى الصّدر و الأصالة، و المفاخر الباهرة و الجلالة، و سلّم تسليما كثيرا.

و رضى اللّه عن أوّل الخلفاء بعد نبيّنا محمد المصطفى الذى صحبه بوفاء شيخ الوقار، و معدن الجود و الافتخار، و أنيس سيّد المرسلين فى الغار، ذى الكرم العريق، و الرأى الوثيق، و الإخلاص و التّصديق. السابق للنبوّة و الرسالة بالتّصديق، المكنّى بعتيق؛ هو الإمام أبو بكر الصدّيق. و عن عمّى نبيّه حمزة و العبّاس، المطهّرين من الدّنس و الأرجاس.

و بعد، فالخلافة أشرف ملابس أهل الديانة، و أزهى حلل الصّيانة، و هى أصل كلّ سيادة يتوصّل إليها، و رئاسة جلّ الاعتماد عليها؛ إذ هى أجلّ المناصب و أنماها، و أشرفها و أرفعها و أسناها، و أنفسها و أعلاها و أغلاها، و من لوازمها ألّا يؤتى تقليدها إلّا من اتّصف بصفاتها المرضيّة، و تحلّى بحلاها المرعيّة، و رقى بجميل سيرته إلى مراتبها العليّة. و لمّا كان من يأتى اسمه فى هذا المكتوب ممّن هو حقيق بها لا محالة، و جدير بأن يبلغه حسن الظنّ منها آماله؛ إذ كان متّصفا بصفاتها الحميدة، متقيّدا بآرائها السديدة؛ و قد لاحت عليه آثار الخلافة و ظهرت، و ذاعت محامده و اشتهرت، و قامت الأدلّة بأهليّته لتقليدها، و أنّه كفء لتناول طريفها و تليدها؛ استخار اللّه سيّدنا و مولانا الإمام المعتضد بالله، المستمسك بتقواه، المراقب له فى سرّه و نجواه، أمير المؤمنين، خليفة ربّ العالمين، ابن عمّ سيّد المرسلين أبو الفتح أبو بكر بن سيّدنا و مولانا المستكفى بالله أبى الرّبيع سليمان أمير المؤمنين، أعزّ اللّه به الدين، و أمتع ببقائه الإسلام و المسلمين، و أشهد على نفسه الكريمة، أسبغ اللّه عليه نعمه العميمة، إنّه عهد إلى ولده لصلبه الإمام المتوكّل على اللّه أبى عبد اللّه محمد، نصر اللّه به الإسلام و أيّده، و نفع به نفعا مستمرّا مؤبّده، و جعله ولىّ عهده، و رضيه خلفة على الرعيّة من بعده؛ لما علم من ديانته و عدالته و كفالته و كفايته و مروءته و حسن قصده، عهدا صحيحا شرعيّا، تامّا معتبرا مرضيّا، و فوّض إليه أمر الخلافة تفويضا صريحا، و عقد له ولاية العهد على الرعيّة عقدا صحيحا و قبل ذلك قبولا شرعيّا، جعله اللّه لشريعة نبيّه محمد ناصرا مؤيّدا، و جمع به كلمة الإسلام.

و صدّر الإشهاد بذلك فى اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الأوّل سنة ثلاث و ستّين و سبعمائة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۳

فاستمرّ إلى أن قتل الأشرف شعبان و أقيم ولد المنصور علىّ و كان أينبك البدرىّ مدبّر دولته، و قد حقد على المتوكّل أمورا، فطلب نجم الدين زكريا بن إبراهيم ابن ولىّ العهد المستمسك بن الخليفة الحاكم يوم الاثنين رابع ربيع الأوّل سنة تسع و سبعين، فخلع عليه، و استقرّ خليفة بغير مبايعة و لا- إجماع، و لقّب المعتصم بالله. ثمّ فى العشرين من الشهر كلّم الأمراء أينبك فيما فعله مع المتوكّل، و رغّبوه فى إعادته إلى الخلافة، فأعاده و خلع زكريّا، فكانت خلافته خمسة عشر يوما. ثمّ لم يتمّ الشهر على أينبك حتّى اتّفق العساكر على خلافه و الخروج عليه، فهرب، ثمّ ظفر به فى تاسع ربيع الآخر، فقيّد و سجن بالإسكندريّة و كان آخر العهد به.

و قال فيه الأديب شهاب الدين بن العطار:

من بعد عزّ أذلّ أينبكاو انحطّ بعد السموّ من فتكا

و راح يبكى الدّماء منفرداو النّاس لا يعرفون أين بكى

*** و استمرّ المتوكّل فى الخلافة إلى رجب سنة خمس و ثمانين. فبلغ الظاهر برقوقا أنّه واطأ جماعة أن يقتلوه إذ لعب الأكرة، و يقوموا بنصرة الخليفة و استبداده بالأمر، و أنّ الخليفة ذكر أنّه ما فوّض إليه السلطنة إلا كرها، و أنّه لم يسر فى ملكه بالعدل. فاستدعى برقوق بالقضاة ليفتوه فى الخليفة بشىء فامتنعوا، و قاموا عنه، فخلع هو الخليفة بقوّته و سجنه بالقلعة. ثم طلب عمر بن إبراهيم بن المستمسك بن الحاكم، و بايعه بالخلافة و لقّب الواثق بالله. ثمّ فى ذى القعدة من السّنة، أخرج المتوكّل من السجن، و أقام بداره مكرّما، و استمر الواثق فى الخلافة إلى أن مات يوم الأربعاء تاسع عشرى شوّال سنة ثمان و ثمانين.

فكلّم الناس برقوقا فى إعادة المتوكّل، فأبى و أحضر أخا عمر زكريّا الذى كان أينبك ولّاه تلك الأيام اليسيرة، فبايعه و لقّب المعتصم بالله، فاستمرّ إلى يوم الخميس

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۴

ثانى جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين. فندم برقوق على ما صنع بالمتوكّل، فخلع زكريّا و أعاد المتوكّل إلى الخلافة، و حلّف القضاة كلا من الخليفة و السلطان للآخر على الموالاة و المناصحة. و أقام زكريّا بداره إلى أن مات مخلوعا فى جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانمائة. و قرىء تقليد المتوكل بالمشهد النفيسىّ فى ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة و الأمراء، و قرّر له السلطان دارا بالقلعة يسكنها، و يركب إلى داره بالمدينة متى شاء.

و استمرّ المتوكّل فى خلافته هذه إلى أن مات ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة ثمان و ثمانمائة.

قال المقريزى: و هو أوّل من أثرى من خلفاء مصر، و كثر ماله، و رزق أولادا كثيرة، يقال إنّه جاء له مائة ولد، ما بين مولود و سقط، و مات عن عدّة أولاد ذكور و إناث، ولى الخلافة منهم خمسة، و لا نظير لذلك؛ و أكثر إخوته و لوا الخلافة فيما تقدّم، أربعة. و اتّفق للمتوكّل هذا أنّه عاد إلى الخلافة بعد خلعه مرّتين، و لم يقع ذلك لأحد فيما تقدّم إلا للمقتدر فقط.

و رأيت فى تاريخ عالم حلب المحبّ أبى الوليد بن الشّحنة أنّه فى سنة سبع و تسعين و سبعمائة، أرسل أبو يزيد بن عثمان إلى الخليفة المتوكّل بهدايا و تحف فى طلب تشريف منه بأن يكون سلطان الروم؛ فجهّز له ذلك.

و ذكر الحافظ ابن حجر فى إنباء الغمر، أنّ مولد المتوكل هذا فى سنة نيّف و أربعين و سبعمائة ، و أنّه لمّا تسلطن برقوق المرّة الأولى حسّن له جماعة من أهل الدولة و غيرهم طلب الملك؛ فكاتب الأمراء و العربان مصرا و شاما و عراقا، و بثّ الدعاة فى الآفاق. فبلغ ذلك برقوقا، فخلعه و سجنه، فخرج يلبغا الناصرىّ على برقوق بسبب ذلك، فأفرج عنه برقوق، و أعاده إلى الخلافة، و فرح الناس به فرحا كثيرا. فلمّا انتصر الناصرىّ، و زالت دولة برقوق قال الناصرىّ للخليفة بمحضر من الأمراء: يا مولانا أمير المؤمنين ما ضربت بسيفى هذا إلّا فى نصرتك؛ و بالغ فى تعظيمه و تبجيله، فتبرّم المتوكّل من الدخول فى الملك، و أشار بإعادة حاجى بن شعبان.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۵

و كان المتوكّل عهد بالخلافة لولده أحمد، و لقّبه المعتمد على اللّه، ثمّ خلعه و عهد إلى ابنه أبى الفضل العباسى؛ فاستقرّ فى الخلافة

بعده، و لقّب المستعین بالله، فأقام إلی أن خرج شیخ علی الناصر فرج، و ظفر به، و ذلک فی المحرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فأشهد علی الخلیفة بخلع الناصر من الملک، لما ثبت علیه من الکفریّات و الانحلال و الزندقة، و حکم ناصر الدین بن العدیم بسفک دمه.

و اتّفق رأی الأمراء علی سلطنة الخلیفة و استقلاله بالأمر، فلم یوافقهم الخلیفة إلا بعد شدّة و توثّق منهم بالأیمان، فبایعه الأمراء کلّهم، و حلفوا له علی الوفاء، و لم یغیّر لقبه، و جلس علی کرسیّ الملک، و قام الکلّ بین یدیه؛ و ذلک بالشام، و قرّر بکتمر جلّق فی نیابة الشام و قرقماس فی نیابة حلب و سودون الجلب فی نیابة طرابلس، و شیخ و نوروز فی رکابه، یدبّران الأمر، و نادی منادی الخلیفة: إلا إنّ فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة، و من حضر إلی أمیر المؤمنین و ابن عم سیّد المرسلین فهو آمن، فتسلّل الناس من الناصر. و کتب المستعین إلی القاهرة باجتماع الکلمة له. و عزل الجلال البلقینیّ عن قضاة الشافعیّة، و ولّی بدله شهاب الدین الباعونیّ، فحقدها علیه البلقینیّ، حتّی فعل معه بعد ذلک ما فعل.

ثمّ أرسل المستعین کتابا ثانیا إلی من بالقاهرة من الأعیان، فأرسل إلی الجامع الطولونیّ، فقرأه خطیبه ابن النّقاش علی المنبر، ثمّ أرسل إلی الجامع الأزهر، فقرأه خطیبه الحافظ ابن حجر علی المنبر، ثمّ فرّ الناصر إلی حلب، فقام ناس علی الأسواق، فنادوا: نصر اللّه أمیر المؤمنین، فلمّا سمع الرّماة ذلک تخوّفوا علی أنفسهم و لم یغیثوه، ثمّ قبض علی الناصر و قتل بحکم ابن العدیم.

ثمّ إن المستعین صرف بکتمر جلّق عن نیابة الشام و قرّر فیها نوروز، و قرّر بکتمر أمیرا کبیرا بالقاهرة، و صدرت الکتب من المستعین إلی أمراء التر کمان و العربان و العشیر. و مفتتحها: من عبد اللّه و ولیّه الإمام المستعین بالله أمیر المؤمنین و خلیفة ربّ العالمین و ابن عمّ سیّد المرسلین المفترضة طاعته علی الخلق أجمعین، أعزّ اللّه ببقائه

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۶

الدین، إلی فلان. ثمّ توجّه هو و العسکر إلی القاهرة، فدخلوا فی یوم الثلاثاء ثانی ربیع الآخر بعد أن تلقّاهم النّاس إلی قطیا و إلی الصالحیّة و إلی بلبیس، و حصل للناس من الفرح بذلک ما لا مزید علیه، و نادی فی الناس برفع المظالم و المکوس.

و عمل الحافظ أبو الفضل بن حجر فی المستعین قصیدته المشهورة و هی:

الملک أصبح ثابت الأساس‌بالمستعین العادل العبّاسی

رجعت مکانة آل عمّ المصطفی‌لمحلّها من بعد طول تناس

ثانی ربیع الآخر المیمون فی‌یوم الثلاثا حفّ بالأعراس

بقدوم مهدیّ الأنام أمینهم‌مأمون غیب طاهر الأنفاس

ذو البیت طاف به الرجاء فهل یری‌من قاصد متردّد فی الیاس

فرع نما من هاشم فی روضة‌زاکی المنابت طیّب الأغراس

بالمرتضی و المجتبی، و المشتری‌للحمد للحالی به و الکاسی

من أسرة أسروا الخطوب و طهّروامّا بغیرهم من الأدناس

أسد إذا حضروا الوغی و إذا خلواکانوا بمجلسهم ظباء کناس

مثل الکواکب نورهم ما بینهم‌کالبدر أشرق فی دجی الأغلاس

و بکفّه عند العلامة آیة‌قلم یضیء إضاءة المقباس

فلبشره للوافدین مباسم‌تدعی و للإجلال بالعبّاسی

فالحمد للّه المعزّ لدینه‌من بعد ما قد کان فی إبلاس

بالسادة الأبرار أرکان العلامن بین مدرک ثاره و مواس

نهضوا بأعباء المناقب و ارتقوافی منصب العلیا الأشمّ الراسی

ترکوا العدی صرعی بمعترک الردیفاللّه یحرسهم من الوسواس

و إمامهم بجلاله متقدّمتقدیم «بسم اللّه» فی القرطاس

لولا نظام الملک فی تدبیرهلم یستقم فی الملک حال الناس

کم من أمیر قبله خطب العلاو بجهده رجعته بالإفلاس

حتّی إذا جاء المعالی کفؤهاخضعت له من بعد فرط شماس

طاعت له أیدی الملوک و أذعنتمن نیل مصر أصابع المقیاس

فهو الذی قد ردّ عنّا البؤس فیدهر به لولاه کلّ الباس

و أزال ظلما عمّ کلّ معمّممن سائر الأنواع و الأجناس

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۷ بالخاذل المدعوّ ضد فعالهبالنّاصر المتناقض الأساس

کم نعمة للّه کانت عندهفکأنّها فی غربة و تناس

منا زال سرّ الشرّ بین ضلوعه کالنار أو صحبته للأرماس

کم سنّ سیئة علیه أثامهاحتّی القیامة ماله من آس

مکرا بنی أرکانه، لکنّهاللغدر قد بنیت بغیر أساس

کلّ امرئ ینسی و یذکر تارةلکنّه للشرّ لیس بناس

أملی له ربّ الوری حتّی إذاأخذوه لم یفلته مرّ الکاس

و أدالنا منه المملیک بمالکأیّامه صدرت بغیر قیاس

فاستبشرت أمّ القری و الأرض منشرق و غرب کالعذیب و فاس

آیات مجد لا یحاول جحدهافی النّاس غیر الجاهل الخنّاس

و مناقب العبّاس لم تجمع سویلحفیده ملک الوری العبّاس

لا تنکروا للمستعین ریاسةفی الملک من بعد الجحود النّاسی

فبنو أمیّة قد أتی من بعدهمفی سالف الدّنیا بنو العبّاس

و أتی أشجّ بنی أمیّة ناشراللعدل من بعد المبیر الخاسی

مولای عبدک قد أتی لک راجیامنک القبول فلا تری من باس

لولا المهابة طوّلت أمداحهلکنّها جاءته بالقسطاس

فأدام ربّ النّاس عزّک دائماالحقّ محروسا بربّ الناس

و بقیت تستمع المدیح لخادملولاک کان من الهموم یقاسی

عبد صفا ودّا و زمزم حادیاو سعی علی العینین قبل الرّاس

أمداحه فی آل بیت محمّدبین الوری مسکیّة الأنفاس

و لما دخل الخلیفة القاهرة شقّها و الأمراء بین یدیه، فاستمرّ إلی القلعة، فنزل بها و نزل شیخ الإصطبل بباب السّلسلة.

ثمّ فی ثامن ربیع الآخر صعد شیخ و الأمراء إلی القصر، و جلس الخلیفة علی تخت الملک، فخلع علی شیخ خلعة عظیمة بطراز لم یعهد مثلها، و فوّض إلیه أمر المملکة بالدیار المصریة فی جمیع الأمور، و کتب له أن یولّی و یعزل من غیر مراجعة، و أشهد علیه بذلک؛ و لقّب نظام الملک؛ فکانت الأمراء إذا فرغوا من الخدمة بالقصر،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۸

نزلوا فی خدمة شیخ إلی الإصطبل؛ فأعیدت الخدمة عنده، و یقع عنده الإبرام و النقض، ثم یتوجّه دواداره إلی المستعین، فیعلم علی المناشیر و التواقیع. ثمّ إنّ تقدّم إلیه بألّا یمکّن الخلیفة من کتابة العلامة إلا بعد عرضها علیه، فاستوحش الخلیفة علیه، و ضاق صدره، و کثر قلقه، فلمّا کان فی شعبان سأل شیخ الخلیفة أن یفوّض إلیه السلطنة علی العادة، فأجاب بشرط أن ینزل من القلعة إلی بیته، فلم یوافقه شیخ علی النزول، بل استنظره أیاما.

ثمّ إنه نقل المستعین من القصر إلی دار من دور القلعة، و معه أهله، و وکّل به من یمنعه الاجتماع بالنّاس، فبلغ ذلک نوروز، فجمع القضاة و العلماء فی سابع ذی القعدة، و استفتاهم عمّا صنعه شیخ بالخلیفة، فأفتوه بعدم جواز ذلک؛ فأجمع علی قتال شیخ، و استمرّ المستعین فی القلعة إلی ذی الحجّة سنة ستّ عشرة، و هو باق علی الخلافة، فلمّا عزم شیخ إلی الشام خشی من غائلته، و أراد خلعه فراجع البلقینیّ فی ذلک. و کان فی نفسه من المستعین شیء لکونه عزله، فرتّب له دعوی شرعیّة، و حکم بخلعه من الخلافة، و بایع بالخلافة أخاه أبا الفتح داود، و لقّب المعتضد بالله، و سیّر المستعین إلی الإسکندریة، فأقام بها إلی أن مات شهیدا بالطاعون، فی جمادی الآخرة سنة ثلاث و ثلاثین .

و استقرّت الخلافة باسم المعتضد، و کان من سروات الخلفاء، نبیلا ذکیا فاضلا، یجالسه العلماء و الفضلاء، و یستفید منهم و یشارکهم فیما هم فیه، جوادا سمحا، و طالت مدّته فی الخلافة نحو ثلاثین سنة، فلمّا حضرته الوفاة عهد بالخلافة إلی شقیقه أبی الربیع سلیمان، و لقّب المستکفی بالله؛ و کان والدی خصیصا به، فکتب له العهد بیده و هذه صورته:

بسم اللّه الرحمن الرحیم؛ هذا ما أشهد علی نفسه الشّریفة حرسها اللّه و حماها، و صانها من الأکدار و رعاها، سیّدها و مولانا ذو المواقف الشریفة الطاهرة الزکیّة الإمامیّة الأعظمیّة العبّاسیة النبویّة المعتضدیّة، أمیر المؤمنین و ابن عمّ سید المرسلین، و وارث الخلفاء الراشدین، المعتضد بالله تعالی أبو الفتح داود، أعزّ اللّه به الدین، و أمتع ببقائه

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۹۹

الإسلام و المسلمین؛ أنّه عهد إلی شقیقه المقرّ العالی المولویّ الأصیلیّ العریقیّ الحسیبیّ النسیبیّ السلیلیّ سیّدی أبی الربیع سلیمان المستکفی بالله، عظّم اللّه شأنه، بالخلافة المعظّمة، و جعله خلیفة بعده، و نصّبه إماما علی المسلمین، عهدا شرعیّا، معتبرا مرضیّا، نصیحة للمسلمین، و وفاء بما یجب علیه من مراعاة مصالح الموحّدین، و اقتداء بسنّة الخلفاء الراشدین، و الأمة المهدیّین.

و ذلک لما علم من دینه و خیره، و عدالته و کفالته و أهلیّته، و استحقاقه بحکم أنه اختبر حاله، و علم طویّته، و أنه الذی یدین اللّه به أنّه أتقی للّه ممّن رآه، و أنه لا یعلم صدر منه ما ینافی استحقاقه لذلک، و إنّه إن ترک الأمر هملا من غیر تفویض للمشار إلیه أدخل إذ ذاک المشقّة علی أهل الحلّ و العقد فی اختیار من ینصّبونه للإمامة، و یرتضونه لهذا الشأن، فبادر إلی هذا الشأن، شفقة علیهم، و قصدا لبراءة ذمّتهم و وصول الأمر إلی من هو أهله، لعلمه أنّ العهد کان غیر محوج إلی رضا سائر أهله، و وجب علی من سمعه و تحمّل ذلک منه أن یعلم به، و یأمر بطاعته عند الحاجة إلیه، و یدعو النّاس إلی الانقیاد له، فسجّل ذلک علی من حضره حسب إذنه الشریف، و سطّر عن أمره قبل ذلک سیّدی المستکفی أبو الربیع سلیمان، المسمّی فیه، عظّم اللّه شأنه قبولا شرعیّا:

و مات المعتضد یوم الأحد رابع ربیع الأول سنة خمس و أربعین و استقرّ المستکفی، و کان من صلحاء الخلفاء و عبّادهم، صالحا دیّنا عابدا، کثیر التعبّد و الصلاة و التلاوة، کثیر الصمت، حسن السیرة. و کان الظاهر جقمق یعتقده، و یعرف له حقّه، فأقام إلی أن مات لیلة الجمعة، سلخ ذی الحجّة سنة أربع و خمسین ، و لم یعهد بالخلافة لأحد.

و کان والدی خصیصا به جدّا، فلم یعش بعده إلا أربعین یوما، و مشی السلطان فی جنازة المستکفی إلی تربته، و حمل نعشه بنفسه.

*** و بایع بعده بالخلافة أخاه أبا البقاء حمزة، و لقّب القائم بأمر اللّه، و کان سهما

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۰

صارما، أقام أبّهة الخلافة قليلا. ثمّ إنّ الجند خرجوا على الأشرف إينال ، فقام معهم، و حدّثته نفسه بطلب الملك، فانهزم الجند، فلم يحصل من يدهم شيء. فغضب عليه الأشرف، و طلبه إلى القلعة، و عاتبه فی ذلك؛ فحكى أنّ الخليفة قال: خلعت نفسی و عزلتك، و كان غلطة منه؛ فقال شيخنا قاضی القضاة علم الدين البلقينیّ- و كان حريصا على جرّ الخلافة إلى أخی الخليفة يوسف، لكون زوج ابنته؛ فقال: قد بدأ بخلع نفسه فانخلع، و ثنّى بخلع السلطان و هو غير خليفة؛ فلم ينفذ عزله. و حكم بصحّة خلعه؛ و ذلك فی جمادی الآخرة سنة تسع و خمسين، و بايع أخاه أبا المحاسن يوسف و لقّب المستنجد بالله، و سيّر القائم إلى الإسكندرية إلى أن مات بها سنة ثلاث و ستّين و دفن عند شقيقه المستعين. و من الاتّفاق الغريب أنّهما شقيقان، كلّ منهما رام السلطنة، و كلّ منهما خلع؛ و سكن الإسكندريّة، و دفنا معا؛ و حكم بخلعهما قاضيان أخوان؛ ذلك خلعه الجلال البلقينیّ؛ و هذا أخوه العلم البلقينیّ.

و استمرّ المستنجد فی الخلافة ساكنا بمنزل إخوته، إلى أن توفّی الظاهر خشقدم ، فدعاه إلى أن يسكن عنده فی القلعة، و استمرّ ساكنا بها إلى أن مات يوم السبت رابع عشری المحرّم سنة أربع و ثمانين و ثمانمائة .

*** و عهد بالخلافة إلى ابن أخيه سيّدی عبد العزيز أبی العزّ يعقوب بن المتوكّل على اللّه، فلمّا كان يوم الاثنين سادس عشری المحرّم طلع إلى القلعة، و حضر القضاة و الأعيان، فأمضوا عهد عمّه، و لبس تشريف الخلافة، و نزل إلى داره، و القضاة و الأعيان بين يديه، و كان يوما مشهودا. و كان أراد أن يتلقّب بالمستعزّ بالله، ثمّ وقع التردّد بينه و بين المستعين أو المتوكّل، و استقرّ الحال على أن لقب: «المتوكل على اللّه»، و هو الآن عين بنی العباس و شامتهم؛ لم يزل مشارا إليه، محبوبا فی صدور الناس، و له اشتغال على والدی و غيره من المشايخ، و أجاز له باستدعائی جماعة من المسندين، و قد خرّجت لهم عنه جزءا حدّث به. و ألّفت برسمه كتاب «الأساس فی فضل بنی العباس»، و كتاب «رفع الباس عن بنی العباس». أبقاه اللّه بقاء جميلا، و أدامه على رباع المسلمين

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۱

ظلّا ظليلا! و تعفّف عن أخذ ما يتحصّل من مشهد السيّدة نفيسة من النّذور من شمع و زيت و غيرهما، و صرفه إلى مصالح المكان من عمارة و غيرها. و كان الخلفاء قبله يأخذون لأنفسهم غالبه، و الباقی يفرّقونه على من شاؤوا من ألزامهم ، فرفع ذلك من أصله.

*** فصل

قال ابن فضل اللّه فی المسالك: إنّ قاعدة الخلافة أوّل ما كانت المدينة شرّفها اللّه مدّة أبی بكر و عمر و عثمان، فلمّا انتهت الخلافة إلى علیّ انتقل من المدينة إلى الكوفة، و اتّخذها قاعدة خلافته، و ربّما استوطن البصرة، و جاء ابنه الحسن و الكوفة قاعدة خلافته على ما كان عليه أبوه، فلمّا ولی معاوية انتقلت قاعدة الخلافة إلى دمشق، و استقرّت قاعدة لبنی أميّة؛ و إن كان هشام قد سكن الرّصافة ، و عمر بن عبد العزيز خناصرة ، فإنّهما لم يكونا قاعدتی خلافة، لأنّهما سكناهما غير مفارقين لدمشق، بل هی القاعدة و المعتمدة بأنّها مستقرّ الخلافة، و لم تزل كذلك إلى آخر الدولة الأمويّة. فلمّا ملك السفّاح سكن الأنبار، فلما ولی المنصور بنی الهاشميّة و سكنها، ثمّ بغداد، فصارت قاعدة الخلافة له و لبنيه إلى المعتصم؛ فبنی سرّ من رأی، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها.

ثمّ بنی ابنه هارون الواثق إلى جانبها الهارونيّة، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها. ثمّ بنی أخوه جعفر المتوكّل إلى جانبها الجعفريّة، فانتقلت الخلافة إليها، ثمّ عادت قاعدة الخلافة إلى بغداد فی زمن المعتمد إلى المستعصم الّذی قتلته التتار، فانتقلت قاعدة الخلافة إلى مصر.

قال: فانظر كيف تنقّلت قواعد الخلافة من بلد إلى بلد بتنقّل الزمان، و قد كانت بخارى قاعدة السلطنة زمن بنی ساسان، ثمّ صارت غزنة مكان محمود بن سبكتكين و بنيه، ثمّ همدان زمان الدولة السلجوقيّة، ثم خوارزم مكان الملوك الخوارزميّة، ثم

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۲

دمشق زمان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكی، ثمّ مصر من زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب و إلى اليوم.

*** و إذ اعتبرت أحوال البلاد تجد السعادة قد نظرت هذه مرّة، ثمّ تلك أخرى كما قال الشاعر:

و إذا نظرت إلى البقاع رأيتهاتشقى كما تشقى الرجال و تسعد

و اعلم أنّ مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، و كثرت شعائر الإسلام فيها، و علت فيهما السنّة، و عفت منها البدعة، و صارت محلّ سكن العلماء، و محطّ رحال الفضلاء، و هذا سرّ من أسرار اللّه أودعه فى الخلافة النبويّة حيث ما كانت يكون معها الإيمان و الكتاب، كما أخرج .....

. .....

دلّ هذا الحديث على أنّ الإيمان و العلم يكونان مع الخلافة أينما كانت، فكانا أوّلا بالمدينة زمن الخلفاء الراشدين، ثمّ انتقلا إلى الشام زمن خلفاء بنى أمية، ثمّ انتقلا إلى بغداد زمن خلفاء بنى العباس، ثم انتقلا إلى مصر حين سكنها خلفاء بنى العباس؛ و لا يظنّ أن ذلك بسبب الملوك، فقد كانت ملوك بنى أيّوب أجلّ قدرا، و أعظم خطرا من ملوك جاءت بعدهم بكثير، و لم تكن مصر فى زمنهم كبغداد، و فى أقطار الأرض الآن من الملوك من هو أشدّ بأسا، و أكثر جندا من ملوك مصر، كالعجم و العراق و الروم و الهند و المغرب، و ليس الدّين قائما ببلادهم كقيامه بمصر، و لا شعائر للإسلام فى أقطارهم ظاهرة كظهورها فى مصر، و لا نشرت السنّة و الحديث و العلم فيها كما فى مصر، بل البدع عندهم فاشية، و الفلسفة بينهم مشهورة، و السنّة و الأحاديث دائرة و المعاصى و الخمور و اللّواط متكاثرة.

ذكر سلاطين مصر الذين فوض إليهم خلفاء مصر العبّاسيون فاستبدوا بالأمر دونهم

أوّلهم الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداريّ . و لما فوّض إليه

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۳

خليفة مصر لقّبه قسيم أمير المؤمنين و هو أوّل من لقّب بها، و كان الملوك قديما يكتب أحدهم من جهة الخليفة: «مولى أمير المؤمنين» أى عتيقه، و يكتب هو إلى الخليفة «خادم أمير المؤمنين» فإن زيد فى تعظيمه لقّب «وليّ أمير المؤمنين»، ثمّ «صاحب أمير المؤمنين»، ثمّ «خليل أمير المؤمنين»، و هو أعلى ما لقّب به ملوك بنى أيّوب، فلقب الظّاهر هذا قسيم أمير المؤمنين؛ و هو أجلّ من تلك الألقاب، و كان فى الظاهر محاسن و غيرها، و ظلم أهل الشام غير مرّة، و أفتاه جماعة بموافقة هواه، فقام الشيخ محيى الدين النّووىّ فى وجهه، و أنكر عليه، و قال: أفتوك بالباطل! و كان بمصر منقمعا تحت كلمة الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج عن أمره، حتّى إنّه قال لما مات الشيخ: ما استقرّ ملكى إلّا الآن.

و من محاسنه ما حكاه ابن كثير فى تاريخه أنّه حضر فى يوم الثلاثاء تاسع رجب سنة ستّين إلى دار العدل فى محاكمة فى بئر بين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعزّ، فقام الناس سوى القاضى، فإنّه أشار إليه ألّا يقوم، فقام هو و غريمه بين يدى القاضى و تداعيا، و كان الحقّ بيد السلطان، و له بيّنة عادلة به، فانتزعت البئر من يد الغريم و هو أحد الأمراء.

و الظاهر هو الذى أكمل عمارة المسجد النبوىّ من الحريق، و كان الخليفة المستعصم شرع فيه بعد أن احترق، فقتل قبل أن يتمّ، فجهّز الظاهر فى رمضان سنة إحدى و ستّين صنّاعا و أخشابا و آلات، و طيف بها بالديار المصرية فرحة بها، و تعظيما لشأنها، ثمّ ساروا بها إلى المدينة الشريفة، و أرسل منبرا فنصب هنالك، و حجّ فى سنة سبع و ستّين، فغسل الكعبة بيده بماء الورد ، و زار المدينة الشريفة، فرأى النّاس يلتصقون بالقبر النبوىّ، فقاس ما حوله بيده، و أرسل فى العام الذى يليه دارابزيا من خشب، فأدير حول القبر الشريف.

و للظاهر فتوحات كثيرة، و ملك الرّوم، و جلس بقيساريّة على تخت آل سلجوق، و لبس التاج، و ضرب باسمه الدينار و الدرهم، و هو الذى جعل القضاة أربعة من كلّ مذهب قاض، و لم يعهد ذلك قبله فى ملّة الإسلام، و هو الذى جدّد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر و بجامع الحاكم، و كانا مهجورين من زمن العبيديين، فأساء فى ذلك كلّ الإساءة كما سنبيّنه بعد هذا.

و أمر فى أيامه بإراقة الخمور ، و إبطال المفسدات و الخواطىء و إسقاط المكوس المرتّبة عليها، فأحسن فى ذلك كلّ الإحسان.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۴

و فی أیامه طیف بالمحمل و بکسوة الکعبة المشرّفة بالقاهرة و ذلک فی سنة خمس و سبعین، و کان یوما مشهودا، و هو أوّل من فعل ذلک بالدیار المصریة. و کان له صدقات کثیرة؛ من ذلک کلّ سنة عشرة آلاف اردبّ قمح للفقراء و المساکین و أرباب الزوایا، و کان یخرج کلّ سنة جملة مستکثرة یستفکّ بها من حبس القاضی من المفلسین، و کان یرتّب فی أوّل رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة برسم الفقراء و المساکین، و وقف وقفا علی تکفین أموات الغرباء، و أجری علی أهل الحرمین و طرق الحجاز ما کان انقطع فی أیام غیره من الملوک، و له أنواع من المعروف و أوقاف البرّ.

نقلت من خطّ شیخنا الإمام تقی الدین الشّمنیّ؛ قال: نقلت من خطّ الشیخ کمال الدین الدّمیریّ، نقل من خط الشیخ جمال الدین بن هشام، قال: من غریب ما رأیت علی کراریس من تسهیل الفوائد بخط الشیخ جمال الدین بن مالک، فی أواخرها صورة قصة رفعها الفقیر إلی رحمة ربّه محمد بن مالک: یقبّل الأرض و ینهی إلی السلطان أیّد اللّه جنود و أیّد سعوده، أنّه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات و النحو و اللغة و فنون الأدب، و أمله أن یعینه نفوذا من سیّد السلاطین، و مبید الشیاطین، خلّد اللّه ملکه، و جعل المشارق و المغارب ملکه، علی ما هو بصدده من إفادة المستفیدین، و إفادة المسترشدین؛ بصدقة تکفیه همّ عیاله، و تغنیه عن التسبّب فی صلاح حاله؛ فقد کان فی الدّولة الناصریّة عنایة تتیسّر بها الکفایة؛ مع أنّ الدولة، من الدولة الظاهریّة کجدول من البحر المحیط، و الخلاصة من الوسیط و البسیط؛ و قد نفع اللّه بهذه الدولة الظاهریّة الناصریّة خصوصا و عموما، و کشف بها عن الناس أجمعین غموما؛ و لمّ بها من شعث الدین ما لم یکن ملموما، فمن العجائب کون المملوک من مزید خیراتها و عن یمین عنایتها غائبا محروما؛ مع أنه من ألزم المخلصین للدعاء بدوامها، و أقوم الموالین بمراعاة زمامها؛ لا برحت أنوارها زاهرة، و سیوف أنصارها قاهرة ظاهرة، و أیادیها مبذولة موفورة، و أعادیها مخذولة مقهورة، بمحمد و آله!

و کان الشیخ محیی الدین النوویّ یکثر المکاتبات إلیه، و یعظه فی أمور المسلمین.

قال الشیخ علاء الدین بن العطار: کتب الشیخ محیی الدین ورقة إلی الظاهر بیبرس، تتضمّن العدل فی الرعیّة، و إزالة المکوس. و کتب فیها معه جماعة، و وضعها فی ورقة کتبها إلی الأمیر بدر الدین بیلیک الخازندار بإیصال ورقة العلماء إلی السّلطان، و صورتها:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۵

بسم اللّه الرحمن الرحیم. من عبد اللّه یحیی النوویّ، سلام اللّه تعالی و رحمته و برکاته علی المولی المحسن، ملک الأمراء بدر الدین. أدام اللّه الکریم له الخیرات، و تولّاه بالحسنات، و بلّغه من أقصی الآخرة و الأولی کلّ آماله، و بارک له فی جمیع أحواله؛ آمین. و ینهی إلی العلوم الشریفة، أنّ أهل الشام فی هذه السنة فی ضیق عیش و ضعف حال، بسبب قلّة الأمطار و غلاء الأسعار، و قلّة الغلّات و النبات، و هلاک المواشی و غیر ذلک؛ و أنتم تعلمون أنّه تجب الشفقة علی الرعیّة و نصیحته فی مصلحته و مصلحتهم؛ فإنّ الدین النصیحة. و قد کتب خدمة الشرع الناصحون للسلطان المحبوبون له کتابا یذّکره النّظر فی أحوال رعیّته، و الرّفق بهم؛ و لیس فیه ضرر، بل هو نصیحة محضة، و شفقة و ذکری لأولی الألباب. و المسؤول من الأمیر أیّده اللّه تعالی تقدیمه إلی السلطان، أدام اللّه له الخیرات. و یتکلّم عنده من الإشارة بالرّفق بالرعیّة بما یجده مدّخرا له عند اللّه تعالی یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَها وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً وَ یُحَذِّرُکُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ [آل عمران: ۳۰].

و هذا الکتاب أرسله العلماء أمانة و نصیحة للسلطان أعزّ اللّه أنصاره، فیجب علیکم إیصاله للسلطان أعزّ اللّه أنصاره، و أنتم مسئولون عن هذه الأمانة، و لا عذر لکم فی التأخّر عنها، و لا حجّة لکم فی التقصیر عنها عند اللّه تعالی و تسألون عنها یوم القیامة، یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ [الشعراء: ۸۸]، یَوْمَ یَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِیهِ. وَ أُمِّهِ وَ أَبِیهِ. وَ صاحِبَتِهِ، وَ بَنِیهِ. لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ یَوْمَئِذٍ شَأْنٌ یُغْنِیهِ [عبس: ۳۴- ۳۷].

و أنتم بحمد اللّه تحبّون الخیر و تحرصون علیه، و تسارعون إلیه، و هذا من أهمّ الخیرات و أفضل الطاعات، و قد أهّلتم له، و ساقه اللّه

إليكم، و هو فضل من اللّه و نحن خائفون أن يزداد الأمر شدّة، إن لم يحصل النظر فى الرفق بهم، قال اللّه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ [الأعراف: ۲۰۱]، و قال اللّه تعالى: وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ [البقرة: ۲۱۵].

و الجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، فإذا فعلتم هذا فأجركم على اللّه إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [النحل: ۱۲۸]؛ و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

فلما وصلت الورقتان إليه، أوقف عليهما السلطان، فردّ جوابهما ردّا عنيفا مؤلما، فتكدّرت خواطر الجماعة الكاتبين، فكتب رضى اللّه عنه جوابا لذلك الجواب و هذه صورته:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. الحمد للّه ربّ العالمين، و صلّى اللّه على سيّدنا محمد

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۶

و على آل محمد. من عبد اللّه يحيى النووىّ، ينهى أنّ خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعزّ اللّه أنصاره، فجاء الجواب بالإنكار و التوبيخ و التهديد، و فهمنا منه أن الجهاد ذكر فى الجواب على خلاف حكم الشرع، و قد أوجب اللّه إيضاح الكلام عند الحكّام عند الحاجة إليه، فقال تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ [آل عمران: ۱۸۷]، فوجب علينا حينئذ بيانه، و حرم علينا السكوت. و قال تعالى: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة: ۹۰].

و ذكر فى الجواب أنّ الجهاد ليس مختصّا بالأجناد؛ و هذا أمر لم ندعه، و كان الجهاد فرض كفاية، فإذا قرّر السلطان له أجنادا مخصوصين، و لهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع، تفرّغ باقى الرعية لمصالحهم و مصالح السلطان و الأجناد و غيرهم من الزراعة و الصنائع و غيرهما، ممّا يحتاج النّاس كلّهم إليه، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقرّرة لهم، و لا يحلّ أن يؤخذ من الرعيّة شىء ما دام فى بيت المال شىء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك؛ و هؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعزّ اللّه أنصاره، متّفقون على هذا، و بيت المال بحمد اللّه معمور، زاده اللّه عمارة وسعة و خيرا و بركة فى حياة السلطان، المقرونة بكمال السعادة و التوفيق و التسديد، و الظهور على أعداء الدين، و ما النصر إلّا من عند اللّه.

و إنّما يستعان فى الجهاد و غيره بالافتقار إلى اللّه تعالى، و اتّباع آثار النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و ما لزمه أحكام الشّرع. و جميع ما كتبناه أولا و ثانيا، هو النصيحة التى نعتقدها، و ندين اللّه بها، و نسأل اللّه الدّوام عليها حتّى نلقاه. و السلطان يعلم أنّها نصيحة له و للرعيّة، و ليس فيها ما يلام عليه. و لم نكتب هذا للسلطان إلّا لعلمنا أنّه يحبّ الشرع و متابعة أخلاق النبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى الرّفق بالرعيّة، و الشفقة عليهم و إكرامه لآثار النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و كلّ ناصح للسلطان موافق على هذا الذى كتبناه.

و أمّا ما ذكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفّار كيف كانوا فى البلاد؛ فكيف يقاس ملوك الإسلام و أهل الإيمان و القرآن بطغاة الكفّار؟! و بأىّ شىء كنّا نذكر طغاة الكفّار و هم لا يعتقدون شيئا من ديننا؟!

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۷

و أمّا تهديد الرعيّة بسبب نصيحتنا و تهديد طائفة العلماء؛ فليس هذا المرجوّ من عدل السلطان و حمله؛ و أىّ حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان و لهم، و لا علم لهم به! و كيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟!

و أما أنا فى نفسى فلا يضرّنى التهديد، و لا أكثر منه، و لا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان؛ فإنّى أعتقد أنّ هذا واجب علىّ و على غيرى، و ما ترتّب على الواجب فهو خير و زيادة عند اللّه تعالى، إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ [غافر: ۳۹]، وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ [غافر: ۴۴]، و قد أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نقول الحقّ حيثما كنّا، و ألّا نخاف فى اللّه لومة لائم. و نحن نحبّ السلطان فى كلّ الأحوال، و ما ينفعه فى آخرته و دنياه، و يكون سببا لدوام الخيرات له، و يبقى ذكره

على ممرّ الأيّام، و يخلّد به فى الجنّة، و يجد نفسه يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً [آل عمران: ۳۰].

و أما ما ذكر من تمهيد السلطان البلاد، و إدامته الجهاد، و فتوح الحصون، و قهر الأعداء؛ فهذا بحمد اللّه من الأمور الشائعة التى اشترك فى العلم بها الخاصّة و العامّة، و طارت فى أقطار الأرض، فللّه الحمد، و ثواب ذلك مدّخر للسلطان إلى يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا، و لا حجّة لنا عند اللّه تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا، و عليكم السلام و رحمة اللّه و بركاته.

و كتب إلى الملك الظاهر لمّا احتيط على أملاك دمشق:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. قال اللّه تعالى: وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [الذاريات: ۵۵]. و قال اللّه تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ [آل عمران: ۱۸۷]، و قال تعالى: وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ [المائدة: ۲]. و قد أوجب اللّه على المكلّفين نصيحة السلطان أعزّ اللّه أنصاره و نصيحة عامّة المسلمين، ففى الحديث الصحيح عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «الدّين النّصيحة للّه و كتابه و أئمّة المسلمين و عامّتهم»؛ و من نصيحة السّلطان وفّقه اللّه تعالى لطاعته، و أولاه كرامته، أن ننهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام، و أوجب اللّه تعالى الشفقة على الرعيّة، و الاهتمام بالضعفة و إزالة الضّرر عنهم، قال اللّه تعالى: وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: ۲۱۵]. و فى الحديث الصحيح: «إنما تنصرون و ترزقون بضعفائكم»، و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «من كشف عن مسلم كربة من كرب الدّنيا كشف اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة، و اللّه فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۸

و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «من ولى أمر أمّتى شيئا فرفق بهم، فارفق اللّهم به، و من شقّ عليهم، فاشقق اللّهم عليه»، و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «كلّكم راع و كلّكم مسئول عن رعيّته»، و قال صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إنّ المقسطين على منابر من نور عن يمين الرّحمن؛ الذين يعدلون فى حكمهم و أهليهم و ما ولوا».

و قد أنعم اللّه علينا و على سائر المسلمين بالسّلطان أعزّ اللّه أنصاره، فقد أقامه لنصرة الدّين، و الذبّ عن المسلمين، و أذلّ له الأعداء من جميع الطوائف، و فتح عليه الفتوحات المشهورة فى المدّة اليسيرة، و أوقع الرّعب منه فى قلوب أعداء الدّين و سائر الماردين، و مهّد له البلاد و العباد، و قمع بسيفه أهل الزيغ و الفساد، و أمدّه بالإعانة و اللطف و السداد، فللّه الحمد على هذه النّعم المتظاهرة، و الخيرات المتكاثرة، و نسأل اللّه الكريم دوامها لنا و للمسلمين، و زيادتها فى خير و عافية. آمين. و قد أوجب اللّه شكر نعمه، و وعد الزّيادة للشاكرين، فقال تعالى: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [ابراهيم: ۷].

و قد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها، و طلب منهم إثبات ما لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحلّ عند أحد من علماء المسلمين، بل من فى يده شىء فهو ملكه، لا يحلّ الاعتراض عليه، و لا يكلّف بإثبات، و قد اشتهر من سيرة السلطان أنّه يحبّ العمل بالشرع فيوصى نوّابه، فهو أوّل من عمل به، و المسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة، و الإفراج عن جميعهم.

فأطلقهم أطلقك اللّه من كلّ مكروه، فهم ضعفة و فيهم الأيتام و الأرامل و المساكين و الضّعفة و الصالحون، و بهم تنصر و تغاث و ترزق، و همن سكّان الشام المبارك، جبران الأنبياء صلاة اللّه و سلامه عليهم، و سكّان ديارهم، فلهم حرمات من جهات. و لو رأى السلطان ما يلحق النّاس من الشدائد لاشتدّ حزنه عليهم، و أطلقهم فى الحال، و لم يؤخّرهم؛ و لكن لا تنهى إليه الأمور على جهتها.

فباللّه أغث المسلمين يغثك اللّه، و ارفق بهم يرفق اللّه بك، و عجّل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار و تلف غلّاتهم، فإنّ غالبهم ورثوا هذه الأملاك عن أسلافهم، و لا يمكنهم تحصيل كتب شراء و قد نهبت كتبهم. و إذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لمن رفق بأمّته، و نصره على أعدائه، فقد قال اللّه تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ [محمد: ۷]، و يتوفّر له من رعيّته الدعوات، و تظهر فى مملكته البركات، و يبارك له فى جميع ما يقصده من الخيرات، و فى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

سلّم قال: «من سنّ سنّة حسنة، فله أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة، و من سنّ سنة سيّئة، فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة». و نسأل اللّه الكريم، أن يوفّق

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۰۹

السلطان للسّنن الحسنة الّتى يذكر بها إلى يوم القيامة، و يحميه من السّنن السيّئة.

فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان، و نرجو من فضل اللّه تعالى أن يلهمه فيها القبول. و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

و كتب إليه لمّا رسم بأنّ الفقيه لا يكون منزلا فى أكثر من مدرسة واحدة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. خدمة الشرع ينهون أنّ اللّه تعالى أمر بالتعاون على البرّ و التقوى، و نصيحة ولاة الأمور و عامة العلماء، و أخذ على العلماء العهد، و تبليغ أحكام الدّين و مناصحة المسلمين، و حثّ على تعظيم حرماته، و إعظام شعائر الدّين، و إكرام العلماء و أتباعهم. و قد بلغ الفقهاء أنّه رسم فى حقّهم بأن يغيّروا عن وظائفهم، و يقطعوا عن بعض مدارسهم، فتنكّدت بذلك أحوالهم، و تضرّروا بهذا التضييق عليهم، و هم محتاجون، و لهم عيال، و فيهم الصّالحون و المشتغلون بالعلوم، و إن كان فيهم طائفة لا يلحقون مراتب غيرهم؛ فهم منتسبون إلى العلم و يشاركون فيه. و لا يخفى مراتب أهل العلم و ثناء اللّه تعالى عليهم و بيانه مزيّتهم على غيرهم، و أنّهم ورثة الأنبياء صلوات اللّه عليهم؛ فإنّ الملائكة عليهم السلام تضع أجنحتها لهم، و يستغفر لهم كلّ شىء حتّى الحوت فى الماء.

و اللائق بالجناب العالى إكرام هذه الطائفة و الإحسان إليهم و معاضدتهم، و رفع المكروهات عنهم، و النظر بما فيه من الرّفق بهم، فقد ثبت فى صحيح مسلم عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أنّه قال: «اللّهم من ولى من أمور أمّتى شيئا فرفق بهم فارفق به». و روى أبو عيسى التّرمذىّ بإسناده عن أبى سعيد الخدرىّ رضى اللّه عنه، أنّه كان يقول لطلبة العلم: مرحبا بوصيّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ رجالا يأتونكم يتفقّهون، فاستوصوا بهم خيرا».

و المسؤول ألّا يغيّر على هذه الطائفة شىء، و تستجاب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، و قد ثبت فى صحيح البخارى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «هل تنصرون و ترزقون إلا بضعفائكم؟!». و قد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرفه الأموال الكثيرة فى جهة طلب العلم، فقال: أقمت لك جندا لا تردّ سهامهم بالأسحار؛ فاستصوب فعله، و ساعده عليه. و اللّه الكريم يوفّق الجناب دائما لمرضاته، و المسارعة إلى طاعته و الحمد للّه رب العالمين، و صلى اللّه على سيّدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

و قال بعضهم: لمّا خرج السلطان الظاهر بيبرس إلى قتال التّتار بالشام، أخذ

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۰

فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعيّة ليستنصر به على قتال العدوّ، فكتب له فقهاء الشام بذلك، فقال: هل بقى أحد؟ فقيل: نعم، بقى الشيخ محيى الدين النووىّ، فطلبه فحضر، فقال: اكتب خطّك مع الفقهاء، فامتنع، فقال: ما سبب امتناعك؟ فقال:

أنا أعرف أنّك كنت فى الرّقّ للأمير بندقدار و ليس لك مال. ثم منّ اللّه عليك، و جعلك ملكا. و سمعت أنّ عندك ألف مملوك، كلّ مملوك له حياصة من ذهب، و عندك مائتا جارية، لكلّ جارية حقّ من الحلىّ، فإذا أنفقت ذلك كلّه، و بقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا عن الحوائص، و بقيت الجوارى بثيابهنّ دون الحلىّ، أفتيتك بأخذ المال من الرعية. فغضب الظاهر من كلامه، و قال: اخرج من بلدى- يعنى دمشق- فقال: السمع و الطاعة! و خرج إلى نوى، فقال الفقهاء: إنّ هذا من كبار علمائنا و صلحائنا، و ممّن يقتدى به، فأعده إلى دمشق، فرسم برجوعه. فامتنع الشيخ، و قال:

لا أدخلها و الظاهر بها. فمات الظاهر بعد شهر .

قال الذهبىّ: كان الظاهر خليقا بالملك، لولا ما كان فيه من الظلم. قال: و اللّه يرحمه و يغفر له؛ فإنّ له أيّاما بيضاء فى الإسلام، و مواقف مشهودة و فتوحات معدودة.

و استمرّ الملک الظاهر إلی أن مات یوم الخمیس سابع عشری المحرّم سنهٔ ستّ و سبعین و ستّمائهٔ بدمشق.

*** و قام بعده فی الملک ولده الملک السعید ناصر الدین أبو المعالی محمد، و سنّه ثمانی عشرهٔ سنهٔ، و کان أبوه عقد له فی حیاته، و لقّبه هذا اللقب، و استنابه علی مصر أیّام سفره، فاستقلّ بالسلطنهٔ من یوم موته، و استمرّ إلی سنهٔ ثمان و سبعین، فاختلف علیه الأمراء و قاتلوه، فخلع نفسه من السّلطنهٔ، و أشهد علی نفسه بذلک، و ذلک فی یوم سابع عشر ربیع الآخر .

و أقیم مقامهٔ أخوه بدر الدین سلامش؛ و لقّب الملک العادل، و عمره سبع سنین، و جعل أتابکه الأمیر سیف الدین قلاوون الصالحیّ الألفیّ- سمّی بذلک لأنه اشتری بألف

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۱

دینار- و ضربت السّکّهٔ باسمه علی وجه، و باسم أتابکه علی وجه. و دعی لهما معا فی الخطبهٔ، فأقام إلی یوم الثلاثاء حادی عشر رجب من هذه السنهٔ، فاجتمع الأمراء بالقلعهٔ، و خلعوا العادل . قال صاحب السّکردان: و هو السادس من دولهٔ الأتراک؛ فإنّ أوّلهم المعزّ أیبک، و کلّ سادس من الخلفاء و الملوک لا بدّ أنه یخلع. و أقاموا بعده قلاوون الصالحی ، ففوّض إلیه الخلیفهٔ، و لقّب الملک المنصور، و کتب له تقلید هذه صورته، من إنشاء القاضی محیی الدین عبد الظاهر:

الحمد للّه الذی جعل آیهٔ السّیف ناسخهٔ لکثیر من الآیات، و ناسخهٔ لعقود أولی الشّک و الشّبهات، الذی رفع بعض الخلق علی بعض درجات، و أهلّ لأمور البلاد و العباد من جاءت خوارق تملّکه بالّذی إن لم یکن من المعجزات فمن الکرامات.

ثمّ الحمد للّه الذی جعل الخلافهٔ العباسیّهٔ بعد القطوب حسنهٔ الابتسام، و بعد الشّجوب جمیلهٔ الاتّسام، و بعد التشرید لها دار سلام أعظم من دار السلام. و الحمد للّه علی أن أشهدها مصارع أعدائها، و أحمد لها عواقب نصرتها و إبدائها، و ردّ شبیبتها بعد أن ظنّ کلّ أحد أن شعارها الأسود ما بقی منه إلا ما أصابته العیون فی جفونها و القلوب فی سویدائها.

و نشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له، شهادهٔ یتلذّذ بذکرها اللسان، و تتعطّر بنفحاتها الأفواه و الآذان، و تتلقّاها ملائکهٔ القبول فترفعها إلی أعلی مکان.

و نشهد أنّ محمدا عبده و رسوله الذی أکرمنا به و شرّف لنا الأنساب، و أعزّنا به حتّی نزل فینا محکم الکتاب؛ صلی اللّه علیه و آله الذین انجاب الدّین منهم عن أنجاب، و رضی اللّه عن صحابته الذین هم أعزّ صحاب؛ صلاهٔ توفی قائلها أجره بغیر حساب یوم الحساب.

و بعد حمد اللّه علی أن أحمد عواقب الأمور، و أظهر الإسلام سلطانا اشتدّت به من الأمهٔ الظهور، و شفیت الصدور، و أقام الخلافهٔ العباسیهٔ فی هذا الزمن المنصور، کما أقامها فیما مضی بالمنصور، و اختار لإعلان دعوتها من یحیی معالمها بعد العفاء و رسومها بعد الدثور، و جمع لها الآن ما کان جمح علیها فیما قبل من خلاف کلّ ناجم، و منحها ما کانت تبشّرها به الملاحم، و أنفذ کلمتها فی ممالک الدولهٔ العلویّهٔ

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۲

بخیر سیف مشحوذ ماضی العزائم، و مازج بین طاعتهما فی القلوب و ذکرهما فی اللسان؛ و کیف لا و المنصور هو الحاکم. و أخرج لحیاطهٔ الأمّهٔ المحمّدیهٔ ملکا تنقسم البرکات من یمینه، و تقسم السعادات بنور جبینه، و یقهر الأعداء بفتکاته، و تمهر عقائل العقائل بصفر راباته؛ ذی السّعد الّذی ما زال سعده یشفّ حتّی ظهر، و مفخره یرفّ إلی أن بهر، و جوهره ینتقل من جید إلی جید حتّی یملأ الجبین، و سرّه یکمن فی کلّ قلب حتّی علم العلم الیقین.

و الحمد للّه الّذی جعل بنا تمکینه فی الأرض بعد حین، فاختاره اللّه علی علم، و اصطفاه من بین عباده بما جبله اللّه علیه من کرم و شجاعهٔ و حلم، و أتی اللّه به الأمّهٔ المحمّدیهٔ فی وقت الاحتیاج غوثا، و فی إبّان الاستمطار غیثا، و فی حین عبث الأشبال فی غیر وقت الافتراش لیثا، فوجب علی کلّ من له فی أعناق الأمّهٔ المحمدیّهٔ بیعهٔ الرضوان، و عند إیمانهم مصافحهٔ الأیمان، و من حیث وجبت

البیعة باستحقاقه لمیراث منصب النبوّة، و من تصحّ به کلّ رسمیة شرعیة یؤخذ کتابها قوّة، و من هو خلیفة الزمان و العصر، و من بدعواته تنزل علیکم معاشر کماة المسلمین ملائکة النصر، و من نسبه بنسب نبیّکم صلی اللّه علیه و سلم منتسج، و حسبه بحسبه ممتزج- أن یفوّض له ما فوّض اللّه إلیه من أمر الخلق، لیقوم عنه بفرض الجهاد و العمل بالحقّ، و أن یولّیه ولایة شرعیّة تصحّ بها الأحکام، و تنضبط أمور الإسلام، و تأتی هذه العصبة الإسلامیة یوم تأتی کلّ أمّة بإمامها من طاعة خلیفتها بخیر إمام. و خرج أمر مولانا أمیر المؤمنین شرّفه اللّه أن یکون المقرّ العالی المولویّ السلطانیّ الملکیّ المنصوریّ أجلّه اللّه و نصره، و أظفره و أقدره و أیّده و أبّده، کلّما فوّضه مولانا أمیر المؤمنین من حکم فی الوجود، و فی التّهائم و النجود، و فی الجیوش و الجنود، و فی الخزائن و المدائن، و فی الظّواهر و البواطن، و فیما فتحه اللّه تعالی و فیما سیفتحه، و فیما فسد بالکفر و الرّجا من اللّه أن سیصلحه، و فی کلّ جود و منّ و کلّ عطاء، و فی کلّ تعاهد و نبذ، و فی کلّ عطاء و أخذ، و فی کلّ عزل و تولیة، و فی کلّ تسلیم و تخلیة و فی کلّ إرفاق و إنفاق، و فی کلّ إنعام و إطلاق، و فی کلّ استرقاق و إعتاق، و فی کلّ تقلیل و تکثیر، و فی کلّ تأثیل و تأثیر، و فی کلّ تقلید و تفویض، و فی کلّ تجدید و تعویض، و فی کلّ حمد و تقریض ، ولایة تامّة محکمة، منضّدة منظّمة، لا یعقبهما نسخ من بین یدیها و لا من خلفها، و لا یعتریها فسخ یطرأ علیها،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۳

یزیدها مرّ اللیالی جدّة یعقبها حسن شباب، و لا ینتهی عن الأعوام و الأحقاب، و نعم تنتهی إلی ما نصبه اللّه تعالی للإرشاد، و من سنّة و کتاب؛ و ذلک من شرع اللّه، أقامه للهدایة علما، و جعله إلی اختیار الثواب سلّما.

فالواجب أن یعمل بجزئیّات أمره و کلّیاته، و ألّا یخرج أحد عن مقدّماته.

و العدل، فهو الغرس المثمر، و السحاب الممطر، و الروض المزهر، و به تنزل البرکات، و تخلف الهبات، و تربو الصدقات، و به عمارة الأرض، و به تؤدّی السنّة و الفرض؛ فمن زرع العدل اجتنی الخیر، و من أحسن کفی الضّرر و الضّیر.

و الظلم، فعاقبته و خیمة، و ما یطول عمر الملک إلا بالمعدلة الرحیمة.

و الرعیّة، هم الودیعة عند أولی الأمر، فلا یختصّ منهم زید دون عمر.

و الأخوال، فهی ذخائر العاقبة و المآل، فالواجب أن تؤخذ بحقّها، و تنفق فی مستحقّها.

و الجهاد برّا بحرا، فمن کنانة اللّه أن یفوّق سهامه، و تؤرّخ أیّامه، و ینتضی حسامه، و تجری منشآته فی البحر کالأعلام و تنشر أعلامه، و فی عقر دار الحرب یحطّ رکابه، و یخطّ کتابه، و ترسل أرسانه، و تجوس خلالها فرسانه، فیلزم منه دنیا دیدنا ، و یستصحب منه فعلا حسنا.

و جیوش الإسلام و کماته، و أمراؤه و حماته، فمنهم من قد علمت قدم هجرته، و عظم نصرته، و شدة بأسه، و قوّة مراسه. و ما منهم إلا من شهد الفتوحات و الحروب، و أحسن فی المحاماة عن الدین الدؤوب، و هم بقایا الدّول، و سجایا الملوک الأول، و لا سیّما أولی السعی الناجح، و الرأی الراجح، و من له نسبة صالحیّة؛ فإذا فخروا بها قیل لهم: نعم السلف الصالح! فأوسعهم برّا، و کن بهم برّا، فهم ممّا یجب من خدمتک أعلم، و أنت بما یجب من حقّهم أدری.

و الحصون و الثغور، فهی ذخائر الشدة، و خزائن العدید و العدّة، و مقاعد القتال، و کنائن الرّجا و الرجال؛ فأحسن لها التحصین، و فوّض أمرها إلی کلّ قویّ أمین، و إلی کل ذی دین متین، و إلی کلّ ذی عقل رصین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۴

و نوّاب الممالک و نوّاب الأمصار، فأحسن لهم الاختیار، و أجمل لهم الاختبار، و تفقّد لهم الأخبار.

و أمّا ما سوی ذلک فهو داخل فی حدود هذه الوصایا، و لو لا أنّ اللّه تعالی أمر بالتذکیر لکان ذلک سجایا المقرّ الأشرف السلطانیّ الملکیّ المنصور مکتفیة بأنواره المضیئة الساطعة.

و زمام كلّ صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته، و هو تقوى اللّه تعالى، قال اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ [آل عمران: ۱۰۲]، فليكن ذلك نصب العين، و شغل القلب و الشفتين.

و أعداء الدّين من أرمن و تتار، فأذقهم وبال أمرهم فى كلّ إيراد و إصدار، و خذ للخلفاء العباسيين و لجميع المسلمين منهم الثار. و اعلم أنّ اللّه ينصرك على ظلمهم و ما للظالمين من أنصار.

و أمّا غيرهم من مجاوريهم من المسلمين، فأحسن لهم باستنقاذك من العلاج، و طبّهم باستصلاحك، فبالطّبّ المنصوريّ و الملكى ما زال يصلح المزاج، و اللّه الموفّق بمنّه و كرمه إن شاء اللّه تعالى.

و استمرّ قلاوون فى السلطنة، فكان له مشاهد حسنة، و فتوحات، فمنها طرابلس و قد كانت فى أيدى الفرنج من سنة ثلاث و خمسمائة و إلى الآن. و هو الذى أحدث وظيفة كتابة السرّ، و أحدث اللعب بالرّمح أيّام إدارة المحمل و كسوة الكعبة، و غيّر ملابس الدولة عمّا كانوا عليه فى دولة بنى أيّوب.

قال الصلاح الصفدى: كان الجند يلبسون فيما تقدّم كلّوتات صفر مضرّبة بكلبندات بغير شاشات، و شعورهم مضفورة دبابيق فى أكياس حرير ملوّنة، و فى خواصرهم موضع الحوائص بنود ملوّنة، و أكمام أقبيتهم ضيّقة و أخفافهم برغالى،

و من فوق قماشهم بحلق و إبزيم و جلواز كبير، يسع نصف و يبة أو كثر؛ فأبطل المنصور ذلك كلّه بأحسن منه؛ و أقام فى السّلطنة إلى أن توفّى يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع و ثمانين .

*** و أقيم بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، فلمّا كان يوم الجمعة رابع عشر شوّال سنة تسعين، سأل الأشرف الخليفة الحاكم بأمر اللّه، أن يخطب بنفسه النّاس، و أن يذكر فى خطبته أنّه قد ولّى السلطنة الأشرف خليل بن المنصور. فلبس الخليفة خلعة سوداء، و خطب الناس بجامع القلعة ، و رسم لقاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة من ثمّ أن يخطب بالقلعة عند السلطان، فخطب يوم الجمعة التى خطب فيها الخليفة، و استمرّ يخطب و يستنيب فى الجامع الأزهر. ثمّ أمر الأشرف بقراءة ختمة عند قبر الملك المنصور فى ليلة الاثنين رابع ذى القعدة، فحضرها القضاة و الأمراء و الأعيان، و نزل السلطان و معه الخليفة إليهم وقت السّحر، و خطب الخليفة بعد الختمة خطبة بليغة، حرض الناس فيها على غزو بلاد العراق، و استنقاذها من أيدى التتار، و استمر الأشرف فى السلطنة إلى أن قتل بتروجة فى ثالث المحرم سنة ثلاث و تسعين، و نقل فدفن فى مدرسته التى أنشأها بالقرب من السيدة نفيسة، و قال ابن حبيب يرثيه:

تبّا لأقوام لمالك رقّهمقتلوا و ما رقّوا لحالة مترف

وافوه غدرا ثمّ صالوا جملةبالمشرفيّ على المليك الأشرف

و أقيم أخوه ناصر الدين أبو الفتوح محمد، و لقّب الملك الناصر، و عمره يومئذ تسع سنين ، و استمرّ إلى حادى عشر المحرّم سنة أربع و تسعين، فخلع.

و تسلطن زين الدين كتبغا المنصورى من سبى التّتار و لقّب الملك العادل، فأقام

إلى صفر سنة ستّ و تسعين، فخلع و تسلطن حسام الدّين لاجين المنصوريّ، و شقّ القاهرة، و عليه الخلعة الخليفيّة، و الأمراء بين يديه مشاة، و جاء فى تلك السنة غيث عظيم، بعد ما كان تأخّر فقال الوادعى فى ذلك:

يا أيّها العالم بشراكم‌بدولة المنصور ربّ الفخار

فاللّه قد بارك فيها لكم‌فأمطر اللّيل و أضحى النّهار

إلى أن قتل ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان و تسعين، و أعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان منفيّا بالكرك، فأحضر، و قلّده الخليفة يوم السبت رابع جمادى الأولى، و شقّ القاهرة و عليه خلعة الخليفة، و الجيش مشاة بين يديه، فأقام إلى سنة

ثمان و سبعمائة، فخرج فى رمضان قاصدا للحجّ، فاجتاز بالكرك، فأقام بها، ثمّ كتب كتابا إلى الدّيار المصرية، يتضمّن عزل نفسه عن المملكة، فأثبت ذلك على القضاة بمصر، ثمّ نفّذ على قضاة الشام.

و أقيم فى السلطنة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورىّ، و ذلك يوم السبت الثالث و العشرين من شوّال ، و لقّب الملك المظفّر، و قلّده الخليفة، و ألبسه الخلعة السوداء و العمامة المدوّرة، و ركب بذلك و شقّ القاهرة، و الدّولة بين يديه و الصاحب ضياء الدين النّشائىّ حامل التقليد من جهة الخليفة فى كيس أطلس أسود و أوّله: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ [النمل: ۳۰].

ثم نفذ التقليد إلى الشام، فقرىء هناك، ثم عاد الملك الناصر من الكرك طالبا عوده إلى ملكه، و بايعه على ذلك جماعة من الأمراء، فبلغ ذلك المظفّر بيبرس، فاستدعى بالشيخ زين الدين بن المرحّل و بالشيخ شمس الدين بن عدلان، و استشارهما، فأشارا عليه بتجديد العهد من الخليفة و تخليف الأمراء ففعل ذلك، و كتب له عهد من الخليفة، صورته:

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، من عبد اللّه و خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أبى الرّبيع سليمان العباسىّ لأمراء المسلمين و جيوشها، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ [النساء: ۵۹]. و إنّى رضيت لكم بعبد اللّه تعالى الملك المظفّر ركن الدّين بيبرس نائبا عنّى لملك الديار المصرية و البلاد الشاميّة، و أقمته مقام نفسى لدينه و كفايته و أهليّته، و رضيته للمؤمنين، و عزلت من كان قبله، بعد علمى بنزوله عن الملك، و رأيت ذلك متعيّنا علىّ، و حكمت بذلك الحكّام الأربع. و اعلموا

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۷

رحمكم اللّه أنّ الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف، و لا- كابر عن كابر، و قد استخرت اللّه تعالى و ولّيت عليكم الملك المظفّر، فمن أطاعه فقد أطاعنى، و من عصاه فقد عصانى، و من عصانى فقد عصى أبا القاسم ابن عمّى صلى اللّه عليه و سلم. و بلغنى أنّ الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شقّ العصا على المسلمين، و فرّق كلمتهم، و أطمع عدوّهم فيهم، و عرّض البلاد الشامية و المصريّة إلى سبى الحريم و الأولاد، و سفك الدماء، فتلك دماء قد صانها اللّه تعالى من ذلك، و أنا خارج إليه و محاربه إن استمرّ على ذلك، و أدافع عن حريم المسلمين و أنفسهم و أولادهم بهؤلاء الأمراء و الجيش العظيم، و أقاتله حتّى يفىء إلى أمر اللّه. و قد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائى، اللواء الشريف، فقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه و قتاله إن استمرّ على ذلك، و أنا أستصحب معى الملك المظفّر، فجهزوا أرواحكم. و السلام.

و قرىء هذا العهد على منابر الجوامع بالقاهرة، و أمّا النّاصر فإنه سار من الكرك بمن معه فى أوّل شعبان سنة ثمان و سبعمائة، فأتى دمشق فانتظم أمره، ثمّ توجّه إلى مصر، فلمّا بلغ ذلك المظفّر بيبرس، أخذ جميع ما فى الخزائن من الأموال، و توجّه إلى جهة أسوان، فدخل النّاصر إلى مصر يوم عيد الفطر، و صعد القلعة و جلس على سرير الملك، و حلفت له العساكر، ثمّ وجّه إلى المظفّر من أحضره و اعتقله، ثمّ خنقه فى خامس عشر شوال.

و قال العلاء الوداعى فى عود الناصر إلى ملكه:

الملك الناصر قد أقبلتدولته مشرقة الشّمس

عاد إلى كرسيّه مثل ماعاد سليمان إلى الكرسى

و قال الصلاح الصفدىّ:

تثنّى عطف مصر حين وافىقدوم النّاصر الملك الخبير

فذلّ الجشنكير بلا لقاءو أمسى و هو ذو جأش نكير

إذا لم تعضد الأقدار شخصافأوّل ما يراع من النّصير

و شرع يعاتب الناس فى أمره، فقال للخليفة: هل أنا خارجىّ و بيبرس من سلالة بنى العباس؟!

و قال للقاضی علاء الدین بن عبد الظاهر- و کان هو الذی کتب عهد المظفّر عن الخلیفة-: یا أسود الوجه؛ و قال للقاضی بدر الدین بن جماعة: کیف تفتی المسلمین بقتالی؟! فقال: معاذ اللّه، أن تکون الفتوی کذلک! و إنّما الفتوی علی مقتضی کلام

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۸

المستفتی. ثمّ عزله عن القضاء، و عزل القاضیین: شمس الدین السّروجیّ الحنفیّ و الحنبلیّ، و أبقی المالکیّ، لکونه کان وصیّا علیه من جهة أبیه قلاوون.

و قال الشیخ صدر الدین بن المرحّل : کیف تقول فی قصیدتک:

ما للصّبیّ و ما للملک یکفلهشأن الصبیّ بغیر الملک مألوف؟!

فحلف ابن المرحّل ما قال هذا، و إنّما الأعداء زادوا هذا البیت فی القصیدة، و العفو من شیم الملوک؛ فعفا عنه.

و جاء الشیخ شمس الدین بن عدلان یستأذن، فقال الناصر للدوادار: قل له:

أنت أفتیت أنّه خارجیّ، و قتاله جائز، مالک عندی دخول! و لکن عرّفه أنّه و ابن المرحّل یکفیهما ما قال الشارمساحیّ فی حقّهما، و کان الأدیب شهاب الدین أحمد بن عبد الدائم الشارمساحیّ الماجن قال:

ولّی المظفّر لمّا فاته الظّفرو ناصر الحقّ وافی و هو منتصر

و قد طوی اللّه من بین الوری فتناکادت علی عصبة الإسلام تنتشر

فقل لبیبرس إنّ الدهر ألبسهأثواب عاریة فی طولها قصر

لمّا تولّی تولّی الخیر عن أممإن یحمدوا أمره فیها و لا شکروا

و کیف تمشی به الأحوال فی زمنإلا النیل أوفی، و لا وافاهم مطر

و من یقوم ابن عدلان بنصرتهو ابن المرحّل قل لی: کیف ینتصر؟!

و کان النیل لم یوفّ سنة تولّی المظفر، و ارتفع السعر.

قلت: الکلّ مظلومون مع النّاصر، فإنهم أفتوا بالحقّ، و لکن جبروت و ظلم و عسف، و شوکة و صبا و جهل، فمن یخاطب الإنسان!

و استمرّ الناصر فی السلطنة بلا منازع، فحجّ خفیفا فی سنة اثنتی عشرة من طریق الکرک، و عاد إلی دمشق، ثمّ حجّ من القاهرة سنة تسع عشرة و معه قاضی القضاة البدر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۱۹

ابن جماعة، و الأمراء و غالب أرباب الدولة، و کان خروجه فی سادس ذی القعدة، و أبطل فی هذه السنة مکوس الحرمین، و عوّض أمیری مکّة و المدینة عنها إقطاعات بمصر و الشام، و مهّد ما کان فی عقبة إیلیاء من الصخور، و وسّع طریقها.

و اتّفق فی هذه السنة أنّ کریم الدین ناظر الخاصّ حضر إلباس الکعبة الکسوة، فصعد الکعبة، و جلس علی العتبة یشرف علی الخیّاطین، فأنکر الناس استعلاءه علی الطائفین، فسقط لوقته علی رأسه، و صرخ الناس صرخة عظیمة تعجّبا من ظهور قدرة اللّه، و انقطع ظهره، و لولا تداراکه من تحته لهلک؛ و علم بذنبه، فتصدّق بمال جزیل.

ثمّ حجّ الناصر حجّة ثالثة فی سنة اثنتین و ثلاثین، و هو الذی حفر الخلیج الناصریّ الداخلی من قنطرة قدیدّار و عزم علی أن یجری النیل تحت القلعة، و یشقّ له من ناحیة حلوان، فثبّطه عن ذلک فخر الدین ناظر الجیش، و قال إنه یحتاج إلی ثلاث خزائن من المال، و لا یدری: هل یصح أو لا! فرجع عنه.

و استمرّ الناصر إلی أن مات یوم الأربعاء عاشر ذی الحجّة سنة إحدی و أربعین، و هو أطول ملوک الترک مدّة.

و أقیم بعده ولده سیف الدین أبو بکر، و لقّب الملک المنصور، فأقام دون الشهرین، ثمّ خلع فی یوم الأحد العشرین من صفر سنة اثنتین و أربعین، و نفی هو و إخوته إلی قوص، و تهتّکت حریم أبیه الناصر، و کثر البکاء و العویل بالقاهرة. و کان یوما من أشنع

الأيّام، ثمّ قتل بقوص، و أقيم بعده أخوه علاء الدين كجك و لقّب الملك الأشرف، و عمره دون ستّ سنين، فقال بعض الشعراء فی ذلك:

سلطاننا اليوم طفل و الأكابر فیخلف و بينهم الشّيطان قد نزغا

فكيف يطمع من تغشاه مظلمةأن يبلغ السؤل و السلطان ما بلغا

فأقام خمسة أشهر، ثمّ خلع فی أوّل شعبان، و اعتقل بالقلعة إلى أن مات سنة ستّ و أربعين. قال صاحب السكردان: و اللّه أعلم كيف موته.

و أقيم أخوه شهاب الدين أحمد و لقّب الملك الناصر، و كان قدم من الكرك، و كان الذی عقد المبايعة بينه و بين الخليفة الشيخ تقی الدين السبكیّ، و قد حضر من الشام إلى مصر، قال فی السّكردان:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۰

فأقام فی الملك بمصر أربعين يوما، ثمّ رجع إلى الكرك، و لم يزل هناك حتى خلع يوم الخميس ثانی عشر المحرم سنة ثلاث و أربعين، ثمّ قتل فی أوّل سنة خمس و أربعين، و أقيم بعده أخوه عماد الدين إسماعيل و لقّب الملك الصالح، فأقام إلى أن مات فی رابع ربيع الآخر سنة ستّ و أربعين و عمره نحو عشرين سنة.

و قال الصلاح الصفدی يرثيه:

مضى الصالح المرجوّ للباس و النّدیو من لم يزل يلقى المنى بالمنائح

فيا ملك مصر كيف حالك بعدهإذا نحن أثنينا عليك بصالح

و أقيم بعده أخوه زين الدين شعبان ، و لقب الملك الكامل. و قال الجمال بن نباته فی ذلك:

طلعة سلطاننا تبدّتبكامل السّعد فی الطلوع

فأعجب لها منه كيف أبدتهلال شعبان فی ربيع

و قال أيضا:

شعبان سلطاننا المرجّیمبارك الطّالع البديع

يا بهجة البدر إذ تبدّیهلال شعبان فی ربيع

فأقام سنة و أياما، ثمّ خلع فی جمادی الأولى سنة سبع و أربعين، و سجن و قتل. و كان من شرار الملوك ظلما و عسفا و فسقا، فقال فيه الصلاح الصفديّ:

بيت قلاوون سعاداتهفی عاجل كانت و فی آجل

حلّ على أملاكه للرّدیدين قد استوفاه بالكامل

و أقيم بعده أخوه زين الدين حاجی، و لقّب الملك المظفّر؛ فأقام سنة و ثلاثة أشهر، ثمّ خلع فی يوم الأحد ثانی عشر رمضان سنة ثمان و أربعين و ذبح من ساعته، و قال فيه الصلاح الصفديّ:

أيّها العاقل اللبيب تفكّرفی المليك المظفّر الضّرغام

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۱ كما تمادى فی البغی و الغیّ حتّیكان بعث الحمام حدّ الحمام

و قال أيضا:

حان الردى للمظفّرو فی التراب تعفّر

كم قد أباد أميراعلى المعالى توفّر

و قاتل النفس ظلماذنوبه ما تكفّر

و أقیم بعده أخوه ناصر الدین أبو المحاسن حسن؛ و لقّب الملک الناصر، و عمره یومئذ إحدی عشرة سنة؛ فأقام إلی أن خلع فی جمادی الآخرة سنة اثنتین و خمسین، و سجن بالقلعة، و أقیم بعده أخوه صالح، و لقب الملک الناصح ، و جعل شیخو أتابکه، فأقام إلی أن خلع فی شوّال سنة خمس و خمسین، و حبس بالقلعة، و أعید الناصر حسن، فأقام إلی أن قتل لیلة الأربعاء تاسع جمادی الأولی سنة اثنتین و ستّین، و أقیم بعده ابن أخیه ناصر الدین أبو المعالی محمد بن المظفر حاجی، و لقّب الملک المنصور، فأقام إلی أن خلع فی شعبان سنة أربع و ستّین و سجن بالقلعة إلی أن مات سنة إحدی و ثمانین، و أقیم بعده ابن عمّة أبو المفاخر شعبان بن الأمیر حسین بن الملک الناصر محمد بن قلاوون، و لقّب الملک الأشرف و عمره یومئذ عشر سنین و استقرّ أتابکه یلبغا العمریّ. ثمّ إنّ یلبغا قتل بأیدی ممالیکه فی سنة ثمان و ستّین، و کان ساکنا بالکبش، فقال فیه بعض الشعراء:

بدا شقا یلبغا و عدّتعداه فی سفنه إلیه

و الکبش لم یفده و أضحتتنوح غربانه علیه

و أقیم أسندمر الناصر أتابکا، فاتفقت معه ممالیک یلبغا، فرکبوا علی الأشرف فهزموا، و نصر الأشرف، و قال بعض الشعراء فی ذلک:

هلال شعبان جهرا لاح فی صفربالنّصر حتّی أری عیدا بشعبان

و أهل کبش کأهل الفیل قد أخذوارغما و ما انتطحت فی الکبش شاتان

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۲

ثمّ أقیم الجائی الیوسفیّ أتابکا و هو زوج أمّ الأشرف، فاتفق موت أمّ الأشرف، فقال شهاب الدین السعدیّ متفائلا بالجائی:

فی مستهلّ العشر من ذی حجّةکانت صبیحة موت أمّ الأشرف

فاللّه یرحمها و یعظم أجرهو یکون فی عاشور موت الیوسفی

فاتّفق أن وقع الأمر کذلک، رکب الجائی علی الأشرف فی سابع المحرّم، فکسر، و طلب یوم الثامن، فساق حتّی أرمی نفسه فی البحر، فغرق، ثم أخرجه الغوّاصون و دفن فی تاسع المحرّم.

ثمّ إن الأشراف تأهّب للحجّ، و سافر فی شوّال سنة ثمان و سبعین، و صحبه الخلیفة و القضاة و الأمراء، فلمّا وصل إلی العقبة، رکب علیه من معه من الأمراء و الجند، فانکسر السلطان، و رجع هاربا إلی مصر، فاختفی بها.

قال الحافظ ابن حجر: أخبر الشیخ بدر الدین السلسولیّ أحد علماء المالکیّة و صلحائهم، أنّه رأی النبیّ صلی اللّه علیه و سلم لمّا تجهز الأشرف للحجّ، و عمر یقول له: شعبان بن حسین یرید أن یجیء إلینا، فقال: لا ما یأتینا أبدا! فلم یلبث الأشرف أن رجع من العقبة.

قال ابن حجر: و عرض طشتمر علی الخلیفة أن یتسلطن، فامتنع و قال: بل اختاروا من شئتم، و أنا أولّیه، و رجع هو و القضاة إلی مصر. ثمّ إنهم ظفروا بالأشرف، فخنقوه و أقیم بعده ولده علاء الدین علیّ و هو صبیّ ، و لقّب الملک المنصور، فأقام إلی أن مات فی صفر سنة ثلاث و ثمانین، و عمره یوم مات اثنتا عشرة سنة. و کان التدبیر فی أیّامه لأینبک البدریّ، ثمّ لقرطای، ثمّ لبرقوق.

و أقیم بعده أخوه صلاح الدین حاجی بن الأشرف شعبان، و لقّب الملک الصالح، و سنّه حینئذ تسع سنین، ثمّ خلع فی رمضان سنة أربع و ثمانین، و أقیم فی السلطنة سیف الدین أبو سعید برقوق بن أنص؛ و لقّب الملک الظاهر؛ و هو أوّل السلاطین من الجراکسة، و لیس فیهم من تسلطن و أبوه مسلم غیره؛ فإنّ أباه قدم إلی الدیار المصریّة، فأسلم و مات قبل سلطنة ولده بشهر. و کان الذی أشار بتلقیب برقوق بالظاهر شیخ الإسلام سراج الدین البلقینیّ؛ فإنّ ولایته کانت وقت الظهر، و خطب

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۳

الخلیفة قبل أن یفوّض إلیه خطبة بلیغة، ثم قلّده بحضرة البلقینیّ و القضاة، و استمرّ فی السلطنة إلی ثالث جمادی الآخرة سنة إحدی و تسعین، فخلع و سجن بالکرک، و أعید حاجی إلی السلطنة. و لقّب الملک المنصور، فأقام إلی صفر سنة اثنتین و تسعین و خلع.

و عاد برقوق إلی السّلطنة، فاستمرّ إلی أن مات فی شوال سنة إحدی و ثمانمائة، و أقیم بعده ولده زین الدین أبو السعادات فرج، و

لقّب الملك الناصر، و قال بعض الشعراء فی ولایته:

مضی الظّاهر السّلطان أکرم مالكإلی ربّه یرقی إلی الخلد فی الدّرج

و قالوا: ستأتی شدّة بعد موتهفأکذبهم ربّی و ما جا سوی فرج

فأقام إلی سادس ربیع الأول سنة ثمان و ثمانمائة، فخلع و أقیم أخوه عبد العزیز، و لقّب الملك المنصور، ثمّ خلع فی رابع جمادی الآخرة من السنة، و أعید النّاصر فرج، فأقام إلی أن خرج علیه شیخ المحمودیّ، و قاتله و حصره، و ظفر به و حکم ابن العدیم بسفك دمه و قتل بسیف الشرع؛ و ذلك فی المحرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و أقیم الخلیفة المستعین بالله أبو النّصر العباسیّ سلطانا مستقلا بالأمر، و حلف له الأمراء علی الوفاء، و لم یغیّر لقبه، فأقام یتصرّف بالولایة و العزل و غیرهما، ثم سأله شیخ أن یفوّض إلیه السلطنة علی العادة، فأجابه إلی ذلك فی شعبان من السنة، و بقیت الخلافة باسمه، و استقرّ شیخ فی السلطنة، و لقّب الملك المؤیّد و کان من خیار الملوك.

ترجمه الحافظ ابن حجر فی معجمه و أثنی علیه، و قال: أین مثله؟ بل أین أین مثله! و کان معه إجازة بصحیح البخاری من شیخ الإسلام سراج الدین البلقینیّ، فکانت لا تفارقه سفرا و لا حضرا، و أقام إلی أن توفّی فی ثامن محرّم سنة أربع و عشرین، و أقیم بعده ولده أحمد، و لقّب الملك المظفّر، و عمره یومئذ سنتان. و جعل ططر مدبّر المملکة، و لقّب نظام الملك، فلمّا کان سلخ شعبان من السنة خلع من الملك لصغره، و أقیم ططر، و لقّب الملك الظاهر، فأقام إلی أن مات فی سادس ذی الحجة من السنة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۴

و أقیم بعد ططر ولده محمد و لقّب الملك الصالح ، و جعل برسبای نظام الملك ، فلمّا کان فی ثامن ربیع الآخر خلع سنة خمس و عشرین و أقیم برسبای، و لقّب الملك الأشرف، فأقام إلی أن مات فی ذی الحجّة سنة إحدی و أربعین و ثمانمائة.

و أقیم ولده یوسف، و لقّب الملك العزیز، و جعل جقمق نظام الملك، فلمّا کان فی سنة اثنتین و أربعین خلع و أقیم جقمق، و لقّب الملك الظّاهر، فأقام إلی أن مات سنة سبع و خمسین.

و أقیم ولده عثمان، و لقّب الملك المنصور، فمکث شهرا و نصفا، ثمّ خلع فی ربیع الأول، و أقیم إینال العلائیّ؛ و لقّب الملك الأشرف، فأقام إلی أن مات فی جمادی الأولی سنة خمس و ستّین.

و أقیم ولده أحمد و لقّب الملك المؤیّد، ثمّ خلع فی رمضان من السنة ، و أقیم خشقدم الناصریّ، و لقّب الملك الظاهر، فأقام إلی أن مات فی ربیع الأول سنة اثنتین و سبعین.

و أقیم قایتبای العلائیّ ، و لقّب الملك الظاهر، فأقام نحو شهرین و خلع، و أقیم تمربغا ، و لقّب الملك الظاهر، فأقیم أیضا نحو شهرین، و خلع فی رجب. و أقیم سلطان العصر الملك الأشرف قایتبای المحمودیّ، فأقام إلی أن مات لیلة الاثنین ثانی عشر ذی القعدة سنة إحدی و تسعمائة.

و أقیم ولده محمد، و لقّب الملك الناصر أبو السعادات محمد .

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۵

و قد نظم بعضهم أسماء بعض السلاطین فی أرجوزة و هو حمزة بن علیّ الحسنیّ مذیّلا علی أرجوزة الجزّار عقب ذکر الملك الظاهر، فقال:

ثمّ تولّی الملك السعیدو کلّ یوم ذراه عید

ثمّ أخوه العادل استقلّابالملك أیاما بها و ولّی

ثمّ تولّی الملك المنصورو من جری بنصره المقدور

ثمّ تولّاها المليك الأشرفو من غدا بکلّ جود یعرف

ثمّ تولّاها المليك الناصرو ماله فی نصره موازر

ثمّ الأمير كتبغاء العادلو ما جری فی وقته فسائل

و بعده لاجين المنصورو دولة بلاؤها مشهور

ثمّ بها الناصر عاد ثانيهو لم ينل فی ملكه أمانيه

ثمّ حوی الأمر بها المظفّرليقض أمر ربّنا المقدّر

ثمّ بها الناصر عاد ثالثهو نجله المنصور كان وارثه

و بعده الأشرف و هو يافعفلا ممانع و لا مدافع

ثمّ تولّی الناصر بن الناصرو بعده الصالح ذو المماكر

أعنی أبا الفداء إسماعيلاطائره أضحی به جميلا

هذا آخر ما نظمه، و قد ذيّلت عليه فقلت:

و بعده شعبان و هو الكاملو بعده المظفّر المماحل

و بعده الناصر و اسمه حسنو بعده الصالح فی البرج سجن

ثمّ أعيد حسن و بعدهمحمد المنصور أوهی عهده

و بعده شعبان و هو الأشرفو هو ابن عشر أمره مستضعف

و بعده المنصور و اسمه علیو بعده الصالح حاجی قد ولی

و بعده برقوق و هو الظاهرثمّ أعيد الصالح المنافر

و لقّبوه الملك المنصوراثمّ أعادوا الظاهر المذكورا

و بعده الناصر و اسمه فرجو بعده عبد العزيز قد خرج

و لقّب المنصور ثمّ أمسكاو أحضر الناصر حتّی ملكا

و بعد هذا بويع الخليفةذو الرتبة العالية المنيفه

المستعين الأعظم العبّاسفاستوثق الأمر و سرّ الناس

و بعد هذا ملك المؤيّدشيخ و بعده المظفّر أحمد

و بعده الظاهر و اسمه ططرثمّ ابنه الصالح لما أن غبر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۶ ثمّ برسباى و ذاك الأشرفثمّ ابنه الملك العزيز يوسف

و بعده الظاهر و هو جقمقثمّ ابنه المنصور ثم أطلقوا

و بعده إينال و هو الأشرفثمّ ابنه المؤيّد المنصرف

و بعده خشقدم ليث الوغیو بعد يلباى أتی تمربغا

و الكلّ بالظاهر رسما يوصفو بعدهم جاء المليك الأشرف

أقام فی الملك ثلاثين سوىسبع شهور و حوی ما قد حوی

و سلطنوا ولده محمّداو لقّب الناصر رغما للعدا

ذكر الفرق بين الخلافة و الملك و السلطنة من حيث الشرع

قال ابن سعد فی الطبقات: أخبرنا محمد بن عمر، حدّثنی قيس بن الربيع، عن عطاء بن السائب، عن زادان، عن سلمان أنّ عمر بن

الخطاب، قال له: أملك أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقلّ أو أكثر، ثمّ وضعته فی غير حقّه فأنت ملك غير خليفة، فاستعبر عمر.

و قال: أخبرنا محمد بن عمر، حدّثنی عبد العزيز بن الحارث، عن أبيه سفيان بن أبی العوجاء، قال: قال عمر بن الخطاب: و اللّه ما أدری أ خليفة أنا أم ملك؟ فإن كنت ملكا، فهذا أمر عظيم، قال قائل: يا أمير المؤمنين، إنّ بينهما فرقا، قال: ما هو؟ قال:

الخليفة لا يأخذ إلّا حقّا و لا يضعه إلا فی حقّ، و أنت بحمد اللّه كذلك، و الملك يعسف الناس، فيأخذ من هذا، و لا يعطی هذا. فسكت عمر.

*** ذكر من يطلق عليه السلطنة من حيث المصطلح

قال ابن فضل اللّه فی المسالك: ذكر علیّ بن سعيد أنّ الاصطلاح ألّا تطلق هذه التسمية إلا على من يكون فی ولايته ملوك، فيكون ملك الملوك فيملك، مثل مصر، أو مثل الشام، أو مثل إفريقيّة، أو مثل الأندلس، و يكون عسكره عشرة آلاف فارس أو نحوها، فإن زاد بلادا أو عددا فی الجيش، كان أعظم فی السلطنة، و جاز أن يطلق عليه السلطان الأعظم، فإن خطب له فی مثل مصر و الشام و الجزيرة و مثل خراسان و عراق

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۷

العجم و فارس و مثل إفريقيّة و المغرب الأوسط و الأندلس، كان سمته سلطان السّلاطين كالسلجوقيّة.

*** ذكر ما يلقب به ملك مصر

قال الكندی: قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف: يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ [يوسف: ۸۸] فحكی أنّ اسم ملكها العزيز، و ذكر جماعة من المفسرين أنّ فرعون لقب لكلّ من ولی مصر، و لعلّ هذا خاص بملوك الكفر.

ذكر جلوس السلطان فی دار العدل للمظالم

قال ابن فضل اللّه: إذا جلس السلطان للمظالم، جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، الوكيل عن بيت المال، ثمّ الناظر فی الحسبة، و يجلس عن يساره كاتب السرّ، و قدّامه ناظر الجيش و جماعة الموقّعين تكملة حلقة دائرة، و إن كان ثمّ وزير من أرباب الأقلام كان بينه و بين كاتب السرّ، و إنّ كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفا على بعد، مع بقيّة أرباب الوظائف، و يقف من وراء السلطان صفّان عن يمينه و يساره من السلاح دائرة و الجمدارية و الخاصّكية ، و يجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعا من يمنة و يسرة، ذوو السنّ من أكابر أمراء المؤمنين، و هم أمراء المشورة، و يليهم من دونهم من أكابر الأمراء و أرباب الوظائف وقوفا و بقيّة الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، و يقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجّاب و الدواداريّة ، لإحضار قصص الناس و إحضار المساكين، و تقرأ عليه فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، و ما كان متعلّقا بالعسكر تحدّث مع الخاص و كاتب السرّ فيه.

قال: و هذا الجلوس يكون يوم الاثنين و يوم الخميس، إلا أنّ القضاة و كاتب السرّ لا يحضرون يوم الخميس.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۸

قال: و من عادته إذا ركب يوم العيدين و يوم دخول المدينة يركب، و على رأسه العصائب السلطانية و هی صفر مطرّزة بذهب بألقابه و اسمه، و ترفع المظلّة على رأسه، و هی قبّة مغشّاة بأطلس أصفر مزركش، عليها طائرة من فضة مذهّبة، يحملها بعض أمراء المئين الأكابر، و هو راكب فرسه إلى جانبه، و أمامه الطّبردارية مشاة، و بأيديهم الأطبار.

قلت: العصائب المذکورة حرام، و قد بطلت الآن و للّه الحمد.

ذکر عساکر مملکة مصر

قال ابن فضل اللّه فی المسالک: و أمّا عساکر هذه المملکة، فمنهم من هو بحضرة السلطان، و منهم من فرّق فی أقطار المملکة و بلادها، و منهم سکّان بادیة کالعرب و الترکمان و جندها مختلط من أتراک و جرکس و روم و أکراد و ترکمان، و غالبهم من المماليک المبتاعين، و هم طبقات أکابرهم من له إمرة مائة فارس، و تقدمة ألف فارس، و من هذا القبيل يکون أکابر النوّاب، و ربّما زاد بعضهم بالعشرة فوارس و العشرين. ثمّ أمراء الطبلخاناه ، و معظهم من تکون له إمرة أربعين فارسا و قد يزيد إلی السبعين، و لا تکون الطبلخاناه لأقلّ من أربعين، ثمّ أمراء العشرات و منهم من يکون له عشرون فارسا، و لا يعدّ إلا فی أمراء العشرات، ثمّ جند الحلقة، و هؤلاء لکلّ أربعين نفرا منهم مقدّم ليس له حکم عليهم إلا إذا خرج العسکر، کانت مرافقتهم معه، و ترتيبهم فی موقفهم إليه، و يبلغ بمصر إقطاع بعض أکابر الأمراء المئين المقرّبين من السلطان مائتی ألف دينار جيشيّة، و أما غيرهم فدون ذلک، و دون دونه إلی ثمانين ألف دينار و ما حولها، و أما العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلی ما دون ذلک.

و أما إقطاعات جند الخليفة فمنه ما يبلغ ألفا و خمسمائة دينار، و ما دون ذلک إلی مائتين و خمسين دينارا.

و أما إقطاعات أمراء الشام فعلی الثلاثين من مصر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۲۹

ذکر أرباب الوظائف فی هذه المملکة

قال ابن فضل اللّه: الوظائف الکبار من ذوی السيوف: إمرة سلاح الدّوادارية، الحجوبية، إمرة جاندار الأستاذدارية ، المهمندارية ، نقابة الجيوش .

و من ذوی الأقلام: الوزارة، کتابة السرّ، نظر الجيش، نظر الأموال، نظر الخزانة، نظر البيوت، نظر بيت المال، نظر الإسطبلات .

و من ذوی العلم: القضاة، الخطباء، وکالة بيت المال، الحسبة.

قال: و کانت وظيفة تسمّی نيابة السلطان، أبطلها الملک الناصر محمد بن قلاوون، و کان النائب أولا سلطانا مختصرا، و کان هو الذی يفرّق الإقطاعات و يعيّن الإمرة و الوظائف، و يتصرّف التصرّف المطلق فی کلّ أمر، إلا فی ولاية المناصب الجليلة، کالقضاء و الوزارة و کتابة السّر، لکن يعرض هو علی السلطان من يصلح، و قلّ ألّا يجاب، و کان يسمّی کافل الممالک و السلطان الثانی.

و أما الوزارة، فکان يليها من أرباب السيوف و الأقلام علی قدر ما يتّفق، و کان الوزير ثانی النائب فی المکانة.

قال: و قد أبطل الناصر الوزارة أيضا، و استقلّ هو بما کان يفعله النائب و الوزير، و استجدّ وظيفة يسمّی مباشرها ناظر الخاص، أصل موضوعها أن يکون مباشرها متحدّثا فيما هو خاصّ بمال السلطان يتحدث فی مجموع الأمر فی الخاصّ بنفسه، و فی العام بأخذ رأيه فيه، فيبقی بسبب ذلک کأنّه الوزير لقربه من السلطان.

و أوّل من ولی هذه الوظيفة کريم الدين عبد الکريم بن هبة اللّه بن السديد. و أمّا إمّرة سلاح فموضوعها أنّ صاحبها مقدّم السلاح داريه، و المتولّی بحمل سلاح السلطان

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۰

فی المجامع الجامعة، و هو المتحدّث فی السلاح خاناه و تعلّقاتها، و هو من أمراء المئين .

و الدواداريّة موضوعها أنّ صاحبها يبلّغ الرسائل عن السلطان، و يقدّم القصص إليه، و يشاور علی من يحضر إلی الباب، و يقدّم البريد إذا حضر، و يأخذ خطّ السلطان علی عموم المناشير و التواقيع و الکتب .

و الحجوبيّة موضوعها أنّ صاحبها يقف بين الأمراء و الجند و هو المشار إليه فى الباب بالقائم مقام البوّاب فى كثير من الأمور .

و إمرة جاندار: صاحبها كالمتسلّم للباب، و هو المتسلّم للزردخاناه ، و من أراد السلطان قتله، كان على يد صاحب هذه الوظيفة .

و الأستاذداريّة صاحبها إليه أمر بيوت السلطان كلّها من المصالح و النفقات و الكساوى، و ما يجرى مجرى ذلك، و هو من أمراء المئين .

و نقابة الجيش صاحبها كأحد الحجّاب الصغار، و له تحلية الجند فى عرضهم، و إذا أمر السلطان بإحضار أحد أو التّرسيم عليه فهو صاحب ذلك.

و الولاية صاحبها هو صاحب الشّرطة.

و أما الوزارة فصاحبها ثانى السلطان إذا أنصف، و عرف حقّه، و لكن فى هذه المدد تقدّمت عليها النيابة و تأخّرت الوزارة و تقهقرت، فصار المتحدّث فيها كناظر المال لا يتعدّى الحديث فى المال، و لا يتّسع له فى التصرّف بحال، و لا يمدّ يده فى الولاية و العزل كتطلّع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات الأحوال.

ثمّ إن السلطان أبطل هذه الوظيفة، و عطّل جيد الدولة من عقودها، و صار ما كان إلى الوزير منقسما إلى ثلاثة: إلى ناظر المال أو شادّ الدواوين، أمر تحصيل المال، و صرف النفقات و الكلف، و إلى ناظر الخاصّ تدبير جملة الأمور و تعيين المباشرين، و إلى كاتب السرّ التوقيع فى دار العدل ممّا يوقّع فيه الوزير مشاورة و استقلالا، ثمّ إن

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۱

كلّا من المتحدّثين الثلاثة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان.

و من وظيفة كتابة السرّ قراءة الكتب الواردة على السّلطان و كتابة أجوبتها و الجلوس لقراءة القصص بدار العدل، و التوقيع عليها و تصريف المراسيم ورودا أو صدورا.

و أمّا نظر الجيش فلصاحبه النّظر فى الإقطاعات و معه من المستوفين ما يحرّر كليّات المملكة و جزئياتها.

و أمّا نظر الخزانة فكانت وظيفة كبيرة الوضع لأنّها مستودع أموال المملكة ، فلما استحدثت وظيفة الخاص ضعف أمرها، و غالب ما يكون ناظرها من القضاة أو نحوهم.

و أما نظر البيوت فمنوط بالأستاذداريّة، فكل ما يتحدّث فيه الأستاذداريّة يشارك فيه .

و أما نظر بيت المال فوظيفة جليلة موضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال و التصرّف فيه تارة بالميزان و تارة بالتسبيب بالأقلام، و لا يلى هذه الوظيفة إلا من هو من ذوى العدالة المبرّزة.

و أمّا نظر الإصطبلات ، فلصاحبه الحديث فى أنواع الإصطبل و المناخات و علفها و أرزاق خدمها و ما يبتاع لها.

و أما وظائف أهل العلم فمعروفة مشهورة لا تخلو مملكة من ممالك الإسلام منها.

هذا كلّه كلام ابن فضل اللّه.

ذكر فى التاريخ أنّ الخليفة المقتفى باللّه نقل المظفّر بن جهير من الأستاذ داريّة إلى الوزيريّة فى سنة خمس و ثلاثين و خمسمائة، قال بعضهم: و ذلك أوّل ما سمع بوظيفة الأستاذداريّة فى الدول.

و قال بعض المؤرّخين: لما تولّى الظاهر بيبرس أحبّ أن يسلك فى ملكه بالديار المصريّة طريقة جنكزخان ملك التّتار و أموره؛ ففعل ما أمكنه، و رتّب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر، مثل ضرب البوقات و تجديد الوظائف، فأحدث أمير سلاح و أمير مجلس و رأس نوبة الأمراء و أمير أخور، و حاجب الحجاب و الدّوادار

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۲

و الجمدار و أمير شكار. و موضوع أمير سلاح أنه يتحدث على السلاح داريه، و يناول السلطان آلة الحرب و السلاح يوم القتال و يوم

الأضحی، و لم تکن رتبته فی زمن الظّاهر أن یجلس فی میسرة السلطان، إنّما کان یجلس فی هذا الموضع أتابک، ثمّ فی زمن الناصر بن قلاوون کان یجلس فیه رأس نوبة الأمراء.

و موضوع أمیر مجلس، أنّه یحرس مجلس السلطان و فرشه، و یتحدّث علی الأطبّاء و الکحّالین و نحوهم، و کانت وظیفة جلیلة أکبر قدرا من أمیر سلاح.

و رأس نوبة ، وظیفة عظیمة عند التتار و یفخّمون فیها السین، و لما أحدثها الظاهر بمملکة مصر کان صاحبها یسمّی رأس نوبة الأمراء؛ و معناه أکبر طائفة الأمراء، و هو أکبر من أمیر مجلس و أمیر سلاح، و هو فی مرتبة الأمیر الکبیر الآن، و لم یکن أحد یسمّی بالأمیر الکبیر إذ ذاک؛ إلی أن ولی هذه الوظیفة شیخو العمریّ فی زمن السلطان حسن، فلقّب بالأمیر الکبیر زیادة علی التلقیب برأس نوبة الأمراء، و هو أوّل من لقّب بالأمیر الکبیر کما ذکر.

و موضوع أمیر أخور النّظر فی علف الخیل، و أخور بالمعجمة المذود الذی یأکل فیه الفرس .

و الحاجب کان فی الزمن الأول من أیام الخلفاء للذی یحجب الناس عن الدخول علی الخلیفة، و کان یرفأ حاجب عمر بن الخطاب، ثمّ عظمت الحجوبیّة فی أیام الناصر ابن قلاوون.

و الدوادار کان فی زمن الخلفاء أیضا، و هو الذی یحمل الدواة و یحفظها، و معناه ماسک الدواة، و أول من أحدث هذه الوظیفة الملوک السلجوقیّة، و کانت فی زمنهم و زمن الخلفاء لرجل متعمّم، ثمّ صارت فی زمن الظاهر لأمیر عشرة .

و الجمدار : ماسک البقجة التی للقماش.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۳

ذکر قضاة مصر

اشارة

قال ابن عبد الحکم: أوّل قاض استقضی بمصر فی الإسلام- کما ذکر سعید بن عفیر- قیس بن أبی العاصی، فمات سنة أربع و عشرین، فکتب عمر بن الخطاب إلی عمرو بن العاص أن یستقضی کعب بن یسار بن ضنّة العبسیّ. قال ابن أبی مریم: و هو ابن بنت خالد بن سنان العبسیّ الذی تزعم عبس فیه أنّه تنبّأ فی الفترة بین عیسی ابن مریم و بین رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فأبی کعب أن یقبل القضاء، و قال: قضیت فی الجاهلیّة و لا أعود إلیه فی الإسلام.

حدثنا سعید بن عفیر، حدّثنا ابن لهیعة، قال: کان قیس بن أبی العاصی بمصر، ولّاه عمرو بن العاص القضاء. و قد قیل إن أوّل من استقضی بمصر کعب بن ضنّة بکتاب عمر بن الخطاب فلم یقبل.

حدثنا المقرئ عبد اللّه بن یزید، أنبأنا حیوة بن شریح، أنبأنا الضّحاک بن شرحبیل الغافقیّ، أنّ عمّار بن سعید التّجیبیّ أخبرهم أنّ عمر بن الخطاب کتب إلی عمرو بن العاص، أن یجعل کعب بن ضنّة علی القضاء، فأرسل إلیه عمرو، فأقرأه کتاب أمیر المؤمنین، فقال کعب: و اللّه لا ینجیه اللّه من أمر الجاهلیة و ما کان فیها من الهلکة، ثمّ یعود فیها أبدا إذا أنجاه اللّه منها، فأبی أن یقبل القضاء، فترکه عمرو. قال ابن عفیر: و کان حکما فی الجاهلیّة. فلما امتنع کعب أن یقبل القضاء ولّی عمرو بن العاص عثمان بن قیس بن أبی العاص القضاء، و قد کان عمر بن الخطاب قد کتب إلی عمرو بن العاص أن یفرض له فی الشّرف.

قال: و دعا عمرو خالد بن ثابت الفهمیّ لیجعله علی المکس، فاستعفاه منه، فکان شرحبیل بن حسنة علی المکس، و کان مسلمة بن مخلّد علی الطّواحین؛ طواحین البلقس.

و أقام عثمان علی القضاء إلی أن صرف سنة اثنتین و أربعین، ثمّ ولی سلیم بن عتر التّجیبیّ علی القضاء فی أیّام معاویة بن أبی سفیان،

و جعل إليه القصص و القضاء جميعا.

حدثنا عبد اللّه بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا الحجاج بن شدّاد الصنعانىّ، أن أبا صالح سعد بن عبد الرحمن الغفارىّ أخبره، أن سليم بن عتر كان

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۴

يقصّ على النـاس و هو قـائم، فقال له صـلة بن الحارث الغفارىّ- و هو من أصـحاب رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سـلم: و اللّه ما تركنا عهد نبيّنا، و لا قطعنا أرحامنا، حتّى قمت أنت و أصحابك بين أظهرنا! و كان سليم بن عتر أحد العبّاد المجتهدين، و كان يقوم فی ليله فيبتـدىء القرآن حتّى يختمه، ثمّ يـأتى أهله، ثمّ يقوم فيغتسل ثمّ يقرأ فيختم، ثمّ يأتى أهله فيقضـى منهم حاجته، و ربّما فعل ذلك فی الليل مرّات، فلمّا مات قالت امرأته: رحمك اللّه! فو اللّه لقد كنت ترضى ربّك و تسرّ أهلك.

ثمّ لمّا ولى مسـلمة بن مخلّد البلـد، ولّى السائب بن هشام بن عمرو أحد بنى مالك بن حسل شـرطه، و كان هشام بن عمرو أحد النّفر الذين قاموا فی نقض الصحيفة التى كانت فی قريش كتبت. و كان عمرو بن العاص ولّى السائب بن هشام شرطه بعد خارجة بن حذافة ، و كان أيضا على شـرطه عبد اللّه بن سـعد بن أبى سـرح، ثمّ عزل مسـلمة السائب و ولى عابس بن ربيعة المرادىّ الشرطة، ثمّ جمع له القضاء مع الشّرطة.

و سبب ذلك أنّ معاوية كتب إلى مسلمة يأمره بالبيعة ليزيد، فأتى مسلمة الكتاب و هو بالإسكندرية، فكتب إلى السائب بذلك، فبايع النّاس إلا عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فأعاد عليه مسلمة الكتاب فلم يفعل، فقال مسلمة: من لعبد اللّه بن عمرو؟

فقال عابس بن سـعيد: أنا، فقدم الفسطاط، فبعث إلى عبد اللّه بن عمرو فلم يأته، فدعا بالنّار و الحطب ليحرق عليه قصره، فأتى فبايع، و اسـتمرّ عابس على القضاء حتّى دخل مروان بن الحكم مصر فی سنة خمس و ستّين، فقال: أين قاضيكم؟ فدعى له عابس- و كان أمّيّا لا يكتب- فقـال له مروان: أجمعت كتـاب اللّه؟ قال: لا، قال: فأحكمت الفرائض؟ قال: لا، قال: فيم تقضـى؟ قال: أقضـى بما علمت، و أسأل عمّا جهلت، قال: أنت القاضى. فلم يزل عابس على القضاء إلى أن توفّى سنة ثمان و ثمانين.

فولّى عبد العزيز بن مروان بشير بن النّضر المزنىّ القضاء.

ثم ولى عبـد الرحمن بن حجيرة الخولانىّ و جمع له القضـاء و القصـص و بيت المـال، فكـان يأخـذ رزقه فی السّنة ألـف دينـار على القضاء؛ فلم يكن يحول عليه الحول و عنده ما تجب فيه الزكاة، فلم يزل على القضاء حتى مات سنة ثلاث و ثمانين .

و يقال: بل ولى فی سنة ثلاث و ثمانين، و مات فی سنة خمس و ثمانين.

ثمّ ولى القضاء مالك بن شراحيل الخولانىّ، فلم يزل على القضاء حتّى مات

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۵

فولى من بعده يونس بن عطيّة الحضرمىّ، و جمع له القضاء و الشرطة، فلم يزل حتّى مات سنة ستّ و ثمانين.

فولى بعده ابن أخيه أوس، ثم ولى عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الكندىّ و جمع له القضاء و الشرطة، فتوفّى عبد العزيز بن مروان، و ولى بعده عبد اللّه بن عبد الملك فأراد عزل ابن حديج فاسـتحيا من عزله عن غير شىء، و لم يجد عليه مقالا و لا متعلّقا فولّاه مرابطة الإسكندريّة. حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۱۳۵

ولى عمران بن عبـد الرحمن بن شـرحبيل بن حسـنة القضـاء و الشّـرطة فلم يزل إلى سـنة تسع و ثمـانين، فغضب عليه عبـد اللّه بن عبد الملك، فعزله و ولّى عبد الأعلى بن خالد بن ثابت الفهمىّ مكانه . ثمّ أتى عبد اللّه بن عبد الملك فعزله.

و ولى قرّة بن شـريك العبسـىّ الإمرة، فعزل عبد الأعلى، و ولّى عبد اللّه بن عبد الرحمن بن حجيرة، و هو ابن حجيرة الأصغر، ثم عزل فی سنة ثلاث و تسعين.

و ولى عياض بن عبد اللّه الأزدىّ ثمّ السّـلامىّ، ثمّ صـرف فی سـنة ثمان و تسـعين، و أعيد ابن حجيرة ثمّ صرف و أعيد، فلم يزل إلى

سنة مائة. ثمّ صرف و ولی عبد اللّه ابن خذامر ثمّ صرف سنة اثنتین و مائة.

و ولی یحیی بن میمون الحضرمیّ فأقام إلی سنة أربع عشرة و مائة، ثمّ صرف و لم یکن بالمحمود فی ولایته.

ثم ولی یزید بن عبد اللّه بن خذامر ثمّ صرف.

و ولی الخیار بن خالد المدلجیّ، فأقام نحو سنة، و مات سنة خمس عشرة و مائة، و کان محمودا جمیل المذهب.

ثم ولی توبة بن نمر الحضرمیّ، فأقام ما شاء اللّه، ثمّ استعفی، فقیل له: فأشر علینا برجل نولّیه، فقال: کاتبی خیر بن نعیم الحضرمیّ، فولّی خیر سنة إحدی و عشرین و مائة، فلم یزل حتّی صرف سنة ثمان و عشرین و مائة.

و ولی عبد الرحمن بن سالم بن أبی سالم الجیشانیّ، فلم یزل إلی ولایة بنی العباس سنة ثلاث و ثلاثین و مائة، فصرف عن القضاء و استعمل علی الخراج، و رد خیر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۶

بن نعیم؛ فلم یزل حتّی عزل نفسه فی سنة خمس و ثلاثین؛ و ذلک أنّ رجلا من الجند قذف رجلا، فخاصمه إلیه و ثبّت علیه بشاهد واحد، فأمر بحبس الجندیّ إلی أن یثبّت الرجل شاهدا آخر، فأرسل أبو عون عبد الملک بن یزید، فأخرج الجندیّ من الحبس، فاعتزل خیر و جلس فی بیته، و ترک الحکم، فأرسل إلیه أبو عون، فقال: لا، حتّی یردّ الجندیّ إلی مکانه! فلم یردّ، و تمّ علی عزمه، فقالوا له: فأشر علینا برجل نولّیه، فقال:

کاتبی غوث بن سلیمان.

فولی غوث بن سلیمان الحضرمیّ، فلم یزل حتّی خرج مع صالح بن علی إلی الصّائفة.

ثم ولی أبو خزیمة إبراهیم بن یزید الحمیریّ و ذلک أنّ أبا عون- و یقال صالح بن علیّ شاور فی رجل یولّیه القضاء، فأشیر علیه بثلاثة نفر: حیوة بن شریح، و أبو خزیمة، و عبد اللّه بن عیاش القتبانیّ، و کان أبو خزیمة یومئذ بالإسکندریة، فأشخص، ثم أتی بهم إلیه، فکان أوّل من نوظر حیوة بن شریح، فامتنع، فدعی له بالسّیف و النّطع، فلمّا رأی ذلک حیوة أخرج مفتاحا کان معه، فقال: هذا مفتاح بیتی، و لقد اشتقت إلی لقاء ربی. فلمّا رأوا عزمه ترکوه، فقال لهم حیوة: لا تظهروا ما کان من آبائی لأصحابی فیفعلوا مثلما فعلت، فنجا حیوة، ثمّ دعی بأبی خزیمة فعرض علیه القضاء فامتنع، فدعی له بالسیف و النّطع فضعف قلبه، و لم یحتمل ذلک، فأجاب إلی القبول فاستقضی. و کان أبو خزیمة یعمل الأرسان و یبیعها قبل أن یلی القضاء، فمرّ به رجل من أهل الإسکندریة، و هو فی مجلس الحکم، فقال: لأختبرنّ أبا خزیمة، فوقف علیه فقال له: یا أبا خزیمة، احتجت إلی رسن لفرسی، فقام أبو خزیمة إلی منزله، فأخرج رسنا فباعه منه، ثمّ جلس. و کان أبو خرشة المرادیّ صدیقا لأبی خزیمة، فمرّ به یوما، فسلّم علیه، فلم یر منه ما کان یعرف، و کان أبو خرشة قد خوصم إلیه فی جدار، فاشتدّ ذلک علی أبی خرشة، فشکاه إلی بعض قرابته، فسأل أبا خزیمة، فقال: ما کان ذلک إلا أن خصمک خفت أن یری سلامی علیک، فیکسره ذلک عن بعض حجّته، فقال أبو خرشة: فإنّی أشهدک أنّ الجدار له. ثمّ استعفی أبو خزیمة فأعفی.

و ولی مکانه عبد اللّه بن بلال الحضرمیّ، و یقال إنما هو غوث الذی کان استخلفه حین شخص غوث إلی أمیر المؤمنین أبی جعفر و ذلک فی سنة أربع و أربعین. ثمّ قدم غوث، فأقرّه خلیفة له یحکم بین الناس حتّی مات عبد اللّه بن بلال. قال یحیی بن بکیر: لم یزل أبو خزیمة علی القضاء، حتّی قدم غوث من الصائفة فعزل أبو خزیمة، و ردّ غوث علی القضاء. ثمّ إنّ غوثا شخص إلی العراق، فأعید أبو خزیمة إلی القضاء،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۷

فلم یزل حتّی توفّی سنة أربع و خمسین. و کان ابن حدیج إذ ذاک بالعراق، قال: فدخلت علی أمیر المؤمنین أبی جعفر، فقال لی: یا بن حدیج، لقد توفّی ببلدک رجل أصیبت به العامّة! قلت یا أمیر المؤمنین، ذاک إذا أبو خزیمة، قال: نعم.

ثمّ ولی مکانه ابن لهیعة، و أجری علیه فی کلّ شهر ثلاثین دینارا؛ و هو أوّل قاض بمصر أجری علیه ذلک، و أوّل قاض استقضاه بها خلیفة، و إنّما کان ولاة البلد هم الّذین یولّون القضاة، فلم یزل قاضیا حتّی صرف سنة أربع و ستّین.

و ولی إسماعیل بن الیسع الکوفیّ، و عزل سنة سبع و ستّین. و کان محمودا عند أهل البلد، إلّا أنه کان یذهب إلی قول أبی حنیفة، و لم یکن أهل البلد یومئذ یعرفونه. قال ابن عبد الحکم: حدّثنا أبی عبد اللّه قال: کتب فیه اللیث بن سعد إلی أمیر المؤمنین: یا أمیر المؤمنین: إنک ولّیتنا رجلا یکید سنّة رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم بین أظهرنا، مع أنّا ما علمنا فی الدینار و الدرهم إلا خیرا، فکتب بعزله.

و ردّ غوث بن سلیمان علی القضاء، فأقام حتّی توفّی فی جمادی الآخرة سنة ثمان و ستّین. حدثنا أبو رجاء حمّاد بن مسور، قال: قدمت امرأة من الرّیف، فرأت غوثا رائحا إلی المسجد، فشکت إلیه أمرها، فنزل عن دابّته، و کتب لها بحاجتها، ثم رکب إلی المسجد فانصرفت المرأة و هی تقول: أصابت و اللّه أمّک حتّی سمّتک غوثا، أنت غوث عند اسمک.

و قیل: إنه أوّل قاض رکب للهلال مع الشهود. و قیل: بل ابن لهیعة.

فلما مات غوث ولی المفضّل بن فضالة بن عبید القتبانیّ، ثمّ عزل سنة تسع و ستین، و هو أوّل القضاة بمصر طوّل الکتب، و کان أحد فضلاء الناس و خیارهم.

ثم ولی أبو طاهر الأعرج عبد الملک بن محمد بن أبی بکر بن حزم الأنصاریّ، و کان محمودا فی ولایته، ثمّ استعفی فأعفی فی سنة أربع و سبعین. قالوا: فأشر علینا برجل، فأشار بالمفضّل بن فضالة، فولّی المفضّل، فأقام إلی صفر سنة سبع و سبعین و عزل.

و ولی محمد بن مسروق الکندیّ من أهل الکوفة، و لم یکن بالمحمود فی ولایته، و کان فیه عتوّ و تجبّر، فلم یزل إلی سنة أربع و ثمانین، فخرج إلی العراق.

و استخلف إسحاق بن الفرات التّجیبیّ ، فعزل فی صفر سنة خمس و ثمانین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۸

و ولی عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحسین بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب؛ و هو أوّل من دوّن أسماء الشهود، فأقام إلی أن عزل فی جمادی الأولی سنة أربع و تسعین.

و ولی هاشم بن أبی بکر البکریّ من ولد أبی بکر الصدیق، و کان یذهب مذهب أبی حنیفة، فأقام حتّی توفّی فی أول یوم من المحرّم سنة ستّ و تسعین.

ثم ولی إبراهیم بن البکّاء؛ ولّاه جابر بن الأشعث، و جابر یومئذ والی البلد، فأقام إلی أن صرف جابر سنة ستّة و تسعین، و ولّی مکانه عبّاد بن محمد، فعزل ابن البکّاء.

و ولی لهیعة بن عیسی الحضرمیّ، فأقام حتّی قدم المطلب بن عبد اللّه بن مالک سنة ثمان و تسعین فعزل لهیعة.

و ولی الفضل بن غانم، و کان قدم مع المطّلب من العراق فأقام نحو سنة، ثمّ غضب علیه المطّلب فعزله.

و ولی لهیعة بن عیسی، فأقام حتّی توفّی فی ذی القعدة سنة أربع و مائتین.

فولّی السریّ بن الحکم بعد مشاورة أهل البلد إبراهیم بن إسحاق القارئ حلیف بنی زهرة، و جمع له القضاء و القصص؛ و کان رجل صدق، ثم استعفی لشیء أنکره فأعفی.

و ولی مکانه إبراهیم بن الجرّاح؛ و کان یذهب إلی قول أبی حنیفة، و لم یکن بالمذموم فی ولایته، حتّی قدم علیه ابنه من العراق، فتغیّرت حالته، و فسدت أحکامه؛ فلم یزل قاضیا إلی سنة اثنتی عشرة و مائتین، فدخل علیه عبد اللّه بن طاهر البلد فعزله.

و ولی عیسی بن المنکدر بن محمد بن المنکدر، و خرج إبراهیم بن الجرّاح إلی العراق و مات هناک. و أجری عبد اللّه بن طاهر علی عیسی بن المنکدر أربعة آلاف درهم فی الشهر؛ و هو أوّل قاض أجری علیه ذلک، و أجازه بألف دینار، فلمّا قدم المعتصم مصر فی

سنة أربع عشرة و مائتين كلّمه فيه ابن أبى دؤاد، فأمره فوقف عن الحكم، ثمّ أشخص بعد ذلك إلى العراق، فمات هناك.

و بقيت مصر بلا قاض حتّى قدم المأمون الخليفة مصر فى محرّم سنة سبع عشرة و ولّى القضاء يحيى بن أكثم فحكم بها ثلاثة أيام، و خرج المأمون إلى سخا ، و أصلح

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۳۹

أحوالها و توجّه إلى الإسكندرية و عاد إلى مصر، و خرج عنها فى الخامس من صفر.

و جعل القضاء بمصر إلى هارون بن عبد اللّه الزهرى المالكىّ، قلّده ذلك و هو بالشّام، فقدم فى رمضان سنة تسع عشرة و مائتين، و كان محمودا عفيفا محبّبا فى أهل البلد، فأقام إلى ربيع الأول سنة ستّ و عشرين، فكتب إليه أن يمسك عن الحكم، و قد كان ثقل مكانه على ابن ابى دؤاد.

و قدم أبو الوزير واليا على خرج مصر، و قدم معه بكتاب ولاية محمد بن أبى الليث الأصمّ على القضاء، فلم يزل قاضيا إلى شعبان سنة خمس و ثلاثين و مائتين، فعزل و حبس.

و بقيت مصر بلا قاض حتى ولى الحارث بن مسكين فى جمادى الأولى سنة سبع و ثلاثين، ثم صرف فى ربيع الآخر سنة خمس و أربعين.

و ولى دحيم بن اليتيم عبد الرحمن بن إبراهيم بن اليتيم الدّمشقى جاءته ولايته بالرّملة، فتوفّى قبل أن يصل إلى مصر فى العام المذكور.

و ولى بعده بكّار بن قتيبة أبو بكرة الثقفىّ من أهل البصرة من ولد أبى بكرة صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و دخل البلد فى جمادى الآخرة فأقام قاضيا، و أحمد بن طولون يصله فى كلّ سنة بألف دينار. ثمّ إنّ ابن طولون بلغه أنّ الموفّق خرج عن طاعة أخيه المعتمد، و كان المعتمد ولىّ عهد أخيه، فأراد ابن طولون خلع الموفّق من ولاية العهد، فوافقه فقهاء مصر، و خالف القاضى بكّار فحبسه أحمد بن طولون، و ذلك فى سنة سبع و خمسين و مائتين، و رتّب فى الحكم عوضا عنه و هو كالخليفة عنه محمد بن شاذان الجوهرى، و مات بكّار فى ذى الحجّة سنة خمس و سبعين و مائتين.

و أقامت مصر بعد بكار بلا قاض، حتى ولّى خمارويه بن أحمد بن طولون أبا عبد اللّه محمد بن عبدة بن حرب القضاء سنة سبع و سبعين و مائتين، فأقام إلى سنة ثلاث و ثمانين، فألزم منزله فى جمادى الآخرة.

و بقيت مصر بلا قاض حتى ولى أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقىّ، فأقام ثمانى سنين، و عزل فى صفر سنة اثنتين و تسعين.

و أعيد ابن عبدة، ثمّ صرف فى رجب من السنة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۰

و ولى أبو مالك بن أبى الحسن الصغير.

ثم ولى بعده أبو عبيد علىّ بن الحسين بن حرب المعروف بابن حربويه، فى شعبان سنة ثلاث و تسعين، ثم عزل فى سنة إحدى و ثلاثمائة.

قال ابن يونس فى تاريخ مصر: كان أبو عبيد بن حربوية شيئا عجبا، ما رأينا قبله و لا بعده مثله. و كان آخر قاض يركب إليه أمراء مصر و كان لا يقوم للأمير إذا أتاه، ثمّ أرسل موقّعه الإمام أبا بكر بن الحدّاد إلى بغداد سنة إحدى و ثلاثمائة فى طلب إعفائه عن القضاء فأعفى. انتهى. هذا ما ذكره ابن عبد الحكم.

و ولى مكانه أبو الذّكر محمد بن يحيى الأسوانىّ خلافة لأبى يحيى عبد اللّه بن إبراهيم بن مكرّم، إلى أن صرف فى صفر سنة اثنتين و ثلاثمائة.

و ولى أبو علىّ عبد الرحمن بن إسحاق بن محمد بن معتمر السّدوسىّ، و صرف فى ربيع الآخر سنة أربع عشرة.

و ولی أبو عثمان أحمد بن إبراهیم بن حماد، و صرف فی ذی الحجة سنة ست عشرة.

و ولی أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن ربیعة بن سلیمان الرّبعیّ الدّمشقی، و صرف فی جمادی الآخرة سنة سبع عشرة.

و أعید أبو عثمان بن حمّاد، و صرف فی ربیع الآخر سنة عشرین.

و أعید الرّبعیّ، و صرف فی صفر سنة إحدی و عشرین.

و ولی أبو هاشم إسماعیل بن عبد الواحد الرّبعیّ المقدسیّ الشافعیّ، و صرف فی ربیع الآخر من السنة.

و ولی أبو جعفر أحمد بن عبد اللّه بن مسلم بن قتیبة الدّینوریّ، و صرف فی رمضان سنة اثنتین و عشرین.

و ولی أبو عبد اللّه محمد بن موسی بن إسحاق السرخسیّ.

ثمّ ولی أبو بکر بن الحداد الإمام المشهور صاحب المولدات، بأمر أمیر مصر فی ربیع الأول سنة أربع و عشرین، فباشر مدّة لطیفة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۱

ثمّ ولی محمد بن بدر مولی أبی خیثمة خلافة لمحمد بن الحسن بن أبی الشوارب إلی أن مات سنة خمس و ثلاثین.

و ولی أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن شعیب بن الفضل بن مالک بن دینار، یعرف بابن أخت ولید، و صرف سنة ثلاث و ثلاثین.

و أعید ابن الحدّاد و ولی بعده عبد العزیز بن الحسن بن العزیز العباسیّ الهاشمیّ خلیفة لأخیه، ثمّ صرف فی ذی الحجة سنة تسع و ثلاثین و ثلاثمائة.

و ولی أبو بکر عبد اللّه بن محمد الخصیبیّ الشافعیّ سنة خمس و أربعین؛ فأقام إلی أن مات فی المحرّم سنة ثمان و أربعین.

و ولی بعده ابنه محمد، فأقام شهرا واحدا، ثم اعتلّ و مات فی سادس ربیع الأول من عامه.

فولّی کافور بعده أبا الطّاهر محمد بن أحمد بن عبد اللّه البغدادیّ الذّهلیّ المالکیّ فأقام ستّ عشرة سنة- و قیل ثمانی عشرة سنة- إلی أن قامت الدولة العبیدیة بالقاهرة، و قدم المعزّ و معه قاضیه أبو حنیفة النّعمان بن محمد بن منصور القیروانیّ، فاجتمع أبو الطاهر بالمعزّ، فأعجب به، و أقرّه علی ولایته. و أقام النعمان بمصر لا ینظر فی شیء، ثمّ إن أبا الطاهر استعفی قبل موته بیسیر فأعفی؛ و ذلک فی صفر سنة ستّ و ستین.

و ولی بعده أبو الحسن علیّ بن النعمان، و کان شیعیّا غالیا و شاعرا مجیدا، فأقام إلی أن مات فی رجب سنة أربع و سبعین؛ و هو أول من نعت بقاضی القضاة فی مصر؛ و لم یکن یدعی بذلک إلا ببغداد.

و ولی بعده أخوه أبو عبد اللّه محمد ، و کان شیعیّا أیضا. قال ابن زولاق: و لم نشاهد بمصر لقاض من الرّیاسة ما شاهدناه له، و لا بلغنا ذلک عن قاض بالعراق، و وافق ذلک استحقاقا؛ لما فیه من العلم و الصیانة و الهیئة و إقامة الحق، و قد ارتفعت رتبته لأنّ العزیز أجلسه معه یوم العید علی المنبر، و زادت عظمته فی دولة الحاکم، إلی أن مات فی صفر سنة تسع و ثمانین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۲

و ولی القضاء بعده ابن أخیه الحسین بن علیّ بن النّعمان، ثمّ صرف سنة أربع و تسعین.

و ولی أبو القاسم عبد العزیز بن محمّد بن النعمان، ثمّ صرف فی رجب سنة ثمان و تسعین.

و ولی بعده مالک بن سعد الفارقیّ، ثمّ صرف فی ربیع الآخر سنة خمس و أربعین.

و ولی أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن أبی العوّام، إلی أن مات فی ربیع الأول سنة ثمانی عشرة و أربعمائة.

و ولی أبو محمد قاسم بن عبد العزیز بن النعمان، ثمّ صرف فی رجب سنة تسع عشرة و أربعمائة.

و ولی أبو الفتح عبد الحاکم بن سعید الفارقیّ، ثمّ صرف فی ذی القعدة سنة تسع و عشرین .

و أعید أبو محمد القاسم بن عبد العزیز بن النّعمان، و لقّب بقاضی القضاة و داعی الدّعاة، و ثقة الدولة، و أمیر الأمراء، و شرف الحکام؛ و استخلف عنه القاضی یحیی الشهاب فأقام ثلاث عشرة سنة، ثم عزل فی المحرّم سنة إحدی و أربعین.

و أعید قاسم ثمّ صرف من عامه، و ولی مکانه أبو محمّد الحسن بن علیّ بن عبد الرحمن البازوریّ، ثمّ أضیف إلیه الوزارة أیضا، و هو أوّل من جمع بینهما، ثمّ صرف عنهما فی المحرّم سنة خمس و أربعین.

و ولی القضاء أبو علیّ أحمد بن قاضی القضاة عبد الحاکم بن سعید الفارقیّ ثم صرف فی ذی القعدة من السنة.

و ولی أبو القاسم عبد الحاکم بن وهب بن عبد الرحمن المالیجیّ، ثمّ صرف فی جمادی الآخرة سنة اثنتین و أربعین.

و ولی أبو عبد اللّه أحمد بن محمد أبو زکریا بن عمر بن أبی العوّام، إلی أن مات فی ربیع الأوّل سنة ثلاث و أربعین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۳

و أعید أبو علیّ أحمد بن الحاکم بن سعید، ثمّ صرف فی رجب.

و أعید أبو القاسم عبد الحاکم بن وهب ثمّ صرف فی رمضان.

و ولی أبو محمد عبد الکریم بن عبد الحاکم بن سعید، ثمّ صرف فی صفر سنة أربع و أربعین.

و أعید أبو القاسم عبد الحاکم بن وهب بن عبد الرحمن، ثمّ صرف فی المحرّم سنة أربع و أربعین.

و أعید أبو علیّ أحمد بن عبد الحاکم مضافا للوزارة، ثمّ صرف فی صفر.

و أعید أبو القاسم عبد الحاکم بن وهب، ثمّ صرف فی شعبان.

و ولی أبو محمد الحسن بن مجلی بن أسد بن أبی کدینة مضافا للوزارة، ثم صرف فی ذی الحجة.

و ولی جلال الملک أحمد بن عبد الکریم بن عبد الحاکم بن سعید مضافا للوزارة، ثمّ صرف فی المحرم سنة ست و أربعین.

و أعید الحسن بن مجلّی بن أبی کدینة، ثمّ صرف فی ربیع الآخر.

و أعید أبو القاسم الحاکم بن وهب، ثمّ صرف فی رمضان.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی ذی الحجة.

و أعید ابن الحاکم، ثمّ صرف فی نصف المحرّم سنة سبع و أربعین.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی السادس و العشرین منه.

و أعید جلال الملک أحمد بن عبد الکریم، ثمّ صرف فی جمادی.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی نصف رجب.

و أعید عبد الحاکم بن وهب، ثمّ صرف.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی صفر سنة ثمان و أربعین.

و أعید جلال الملک، ثمّ صرف.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی المحرّم سنة تسع و أربعین.

و ولی عبد الحاکم المالیجی، ثمّ صرف فی سابع جمادی الآخرة.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی ذی القعدة.

و أعید جلال الملک، ثمّ صرف فی صفر سنة خمس و ستین.

و أعید المالیجی، ثمّ صرف فی ربیع الأول.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۴

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی جمادی الأولی.

و أعید جلال الملک، ثمّ صرف فی رمضان.

و أعید المالیجی، ثمّ صرف فی ذی الحجة.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی صفر سنة إحدی و ستین.

و أعید المولیجی، ثمّ صرف بعد یوم.

و ولی خطیر الملک ابن قاضی القضاة الوزیر البازوری، ثم صرف فی شوال.

و أعید ابن أبی کدینة، ثمّ صرف فی ذی القعدة.

و أعید المولیجیّ، ثمّ صرف.

و أعید ابن أبی کدینة فی ربیع الأوّل سنة أربع و ستّین، ثمّ صرف سنة ستّ و ستین.

و ولی أبو یعلی حمزة بن الحسین بن أحمد العراقی، إلی أن مات فی اثنتین و سبعین.

و ولی أبو الفضل طاهر بن علی القضاعیّ.

ثمّ ولی بعده جلال الدولة أبو القاسم علیّ بن أحمد بن عمّار، ثمّ صرف.

و ولی سنة خمس و سبعین أبو الفضل هبة اللّه بن الحسین بن عبد الرحمن بن نباتة.

ثمّ ولی أبو الفضل بن عتیق.

ثمّ ولی أبو الحسن علیّ بن یوسف بن الکمال، ثمّ صرف.

و ولی سنة سبع و ثمانین فخر الحکّام أبو الفضل محمد بن الحاکم المولیجی.

ثمّ ولی الحسن بن علیّ بن أحمد المکرّمی، ثمّ صرف بعد شهر.

و ولی أبو الطاهر محمد بن رجاء إلی أن مات سنة ثلاث و تسعین.

و ولی أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذکاء النابلسیّ، ثمّ صرف فی ربیع الأوّل سنة أربع و تسعین، لکونه أحدث فی مجلس الحکم.

و ولی حسین بن یوسف بن أحمد الرّصافیّ، ثمّ صرف.

و ولی أبو النجم بدر بن بدر الحرّانیّ.

ثمّ ولی أبو الفضل نعمة بن بشیر النابلسیّ المعروف بالجلیس، ثمّ استعفی فأعفی سنة أربع و أربعین.

و ولی الرّشید أبو عبد اللّه محمد بن قاسم بن زید الصّقلّیّ إلی أن مات، فأعید الجلیس إلی أن مات.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۵

و ولی ثقة الملک أبو الفتح مسلم بن علیّ الرسعنیّ سنة ثلاث و أربعین. قال ابن میسّر فی تاریخ مصر: لما ولی الحکم رفع إلی الأفضل: إنی قد اعتبرت ما فی مودع الحکم من مال المواریث- و کان یقارب مائة ألف دینار- و رفعها إلی بیت المال أولی من ترکها فی المودع، و إنّ لها سنین طویلة لم یطلب شیء منها. فوقّع علی رقعته: إنّما قلّدناک الحکم و لا رأی لنا فیما لا نستحقّه، فاترکه علی حاله لمستحقّه، و لا تراجع فیه.

ثم اتّفق أنّه صلّی إماما فی مجلس صلاة الصبح، و خلفه الوزیر المأمون، فقرأ سورة الشمس و ضحاها، فأرتج علیه، و قرأ «ناقة اللّه و سقناها» بالنون، فعزل عن القضاء سنة ستّ و أربعین.

و ولی أبو الحجاج بن أیوب المغربیّ إلی أن مات سنة إحدی و عشرین.

و ولی أبو عبد اللّه محمد بن هبة اللّه بن المیسّر القیروانیّ، و لقّب القاضی الأمیر سناء الملک شرف الأحکام قاضی القضاة عمدة أمیر المؤمنین، قال فی تاریخ مصر:

و هو الّذی أخرج الفستق الملبّس بالحلوی، ثمّ صرف فی ربیع الأول سنة ستّ و عشرین.

و ولی أبو الفخر صالح بن عبد اللّه بن رجاء، ثمّ صرف فی جمادی الآخرة.

و ولی سراج الدّین نجم بن جعفر إلی أن قتل فی شوّال سنة ثمان و عشرین.

و أعيد ابن الميسّر، ثمّ صرف فى المحرّم سنة إحدى و ثلاثين.

و ولى الأعزّ أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى عقيل إلى أن مات فى شعبان سنة ثلاث و ثلاثين و أقام الحكم بعده شاغرا ثلاثة أشهر.

ثمّ اختير أبو العباس أحمد بن الحطيئة، فاشترط ألّا يحكم بمذهب الدولة، فلم يمكّن من ذلك.

و ولى فخر الأمناء هبة اللّه بن حسين الأنصارىّ؛ يعرف بابن الأزرق فى ذى القعدة سنة ثلاث و ثلاثين، ثمّ صرف فى جمادى الآخرة سنة أربع و ثلاثين.

و ولى أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة الأنصارىّ، ثمّ صرف فى المحرّم سنة ثلاث و أربعين.

و ولى أبو الفضل يونس بن محمد بن حسن المقدسىّ، ثمّ صرف سنة سبع و أربعين.

و ولى عبد المحسن بن محمد بن مكرّم، ثمّ صرف.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۶

ثمّ ولى أبو المنجم بدر بن غالى.

ثمّ ولى أبو المعالى مجلّى بن جميع الشافعىّ صاحب الذخائر، فأقام إلى سنة تسع و أربعين، ثمّ صرف.

و إعيد أبو الفضائل يونس ثمّ صرف.

و ولى المفضّل أبو القاسم جلال الدين هبة اللّه بن عبد اللّه بن كامل بن عبد الكريم الصورىّ، فى شعبان سنة سبع و أربعين، ثمّ صرف فى المحرّم سنة ثمان و أربعين.

و أعيد أبو الفضائل يونس، ثمّ صرف فى ذى الحجّة من السّنة.

و أعيد ابن كامل، ثمّ صرف فى ربيع الأوّل سنة تسع و أربعين.

و ولى الأعزّ أبو محمد الحسن بن على بن سلامة المصرىّ ثمّ صرف.

و ولى أبو الفتح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوىّ، ثمّ صرف.

و أعيد ابن كامل فى ذى الحجة سنة أربع و ستين، فلمّا استولى الملك الناصر صلاح الدين بن أيّوب على القاهرة وزيرا عن العاضد، أزال دولة الرّفض و الشّيعة و صرف ابن كامل.

و ولى صدر الدين عبد الملك بن درياس الكردىّ الشافعى قضاء القضاة بالقاهرة، و ذلك فى سنة ستّ و ستّين [و أربعمائة] ، فأقام إلى أن صرف بعد وفاة صلاح الدين فى ربيع الأول فى سنة تسعين فى أيام العزيز.

و ولى فى سنة خمس و تسعين [و أربعمائة] محيى الدين محمد أبو حامد بن الشيخ شرف الدين عبد اللّه بن هبة اللّه بن أبى عصرون؛ ثمّ صرف فى سنة إحدى و تسعين.

و ولى زين الدين علىّ بن يوسف بن عبد اللّه بن بندار الدمشقى، ثم عزل فى جمادى الأولى من السنة.

و أعيد ابن أبى عصرون، ثمّ عزل فى محرّم سنة اثنتين و تسعين.

و أعيد ابن بندار، ثمّ صرف فى محرّم سنة أربع و تسعين.

و أعيد صدر الدين، ثمّ صرف فى جمادى الأولى سنة خمس و تسعين.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۷

و أعيد زين الدين بن بندار؛ و ذلك لمّا انتزع الملك الأفضل علىّ بن السلطان صلاح الدين بن أيّوب مملكة مصر من ابن أخيه المنصور محمد العزيز عثمان ؛ و كتب له الصّاحب ضياء الدين نصر اللّه بن الأثير الجزرى تقليدا، هذه صورته:

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ، وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ

[النمل: ۱۹]. من السّنة أن تفتتح صدور التقليدات بدعاء يعمّ بفضله، و يكون وزانا للنعمة الشاملة من قبله، و خير الأدعية ما أجراه اللّه على لسان نبيّ من أنبيائه أو رسول من رسله، و كذلك جعلنا من هذا التقليد الذى أمضى اللّه قلمنا فى كتابه، و صرف أمرنا فى اختيار أربابه، ثمّ صلّينا على رسوله محمد الصادع بخطابه، الساطع بشهابه، الذى جعلت الملائكة من أحزابه، و ضرب له المثل بقاب قوسين فى اقترابه؛ و على آله و صحبه الّذين منهم من خلفه فى محرابه، و منهم من كملت به عدّة الأربعين من أصحابه، و منهم من جعل أثواب الحياء من أثوابه، و منهم من بشّر أنّه من أحباب اللّه و أحبّائه، أمّا بعد:

فإنّ منصب القضاء فى المناصب بمنزلة المصباح الّذى به يستضاء، أو بمنزلة العين التى عليها تعتمد الأعضاء؛ و هو خير ما رقّمت به الدول مسطور كتابها، و أجزلت به مذخور ثوابها، و جعلته بعد الأعقاب كلمة باقية فى أعقابها. و قد جعله اللّه ثانى النبوّة حكما، و وارثها علما؛ و القائم بتنفيذ شرعها ما دام الإسلام يسمّى، لا يستصلح له إلّا الواحد الذى يعدّ محفلا فى محفله، و إذ جاءت الدنيا بأسرها خفّت على أنمله، و قد أجلنا النظر مجتهدين، و عوّلنا على توفيق اللّه معتضدين، و قدّمنا قبل ذلك صلاة الاستخارة و هى سنّة متبوعة، و بركة فى الأعمال موضوعة؛ لا جرم أنّا أرشدنا فى أثرها إلى من صرّح الرشد فيه بآثاره، و قال الناس هذا هو الّذى جاء على فترة من وجود انتظاره؛ و هو أنت أيّها القاضى فلان، مهّد اللّه لجنبك، و جعل التوفيق من صحبك، و أنزل الحكمة على يدك و لسانك و قلبك؛ و قد قلّدناك هذا المنصب بمدينة مصر و أعمالها، و هى مصر من الأمصار تجمع وجوها و أعيانا، و قد رسم بأنّه كرسىّ مملكته عزّا و تبيانا و عظمت سلطانا، و لما قلّدناك هو علمنا أنه سيعود و هو بك غضّ طرىّ، و إنّ ولايته نيطت منك بكفء فهى بك حرّية و أنت بها حرىّ، ممن طلبها و من النّاس فإنّها لم تكن عندك مطلوبة، و من انتسب فى وجاهته إليها فليست وجاهتك إليها منسوبة، و ما أردت بها شيئا سوى تحمّل الأثقال، و بيع الراحة بالتعب فى الأشغال؛ و تعريض النّفس

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۸

لمضاضة الضيم و الحيف، و الوقوف على الصّراط الّذى هو أدقّ من الشعرة و أحدّ من السيف؛ و لكنك فى خلال ذلك تشترى الجنّة بساعة من ساعاتك، و إذا رعيت مقام ربّك فقد أرصدته لمراعاتك؛ و ليس فى الأعمال الصالحة أقوم من إحياء حقّ وضع فى لحده، أو ردّ حقّ مطلت الأيام بردّه.

فاستخر اللّه تعالى، و تولّ ما ولّيناك بعزيمة لأنّك بها شامة، و لا تأخذها فى اللّه ملامة. و هذا زمان قد تلاشت فيه العلوم، و عفت رسوم الشريعة حتّى صارت كالرّسوم، و مشت الأمّية المطيطى و خلفها ابنا فارس و الروم؛ و إذ نظر إلى دين اللّه وجد و قد خلط أمره خلطا، و تخطّى رقاب النّاس من هو جدير بأن يتخطّى، و آذنت الساعة بالاقتراب حتّى كاد أن يستوى ما بين السبابة و الوسطى؛ و المتصدّى لحفظه يعدّ ثقله بثقلين، و فضله بفضلين، و يؤتيه اللّه من رحمته كفلين، و حقّ له أن يتقدّم على السلف الصالح الّذى كان كثيرا رشده، حسنا هديه و قصده، و كان قريبا برسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ فإنّ أولئك لم يؤتوا من جهالة، و لا حرموا من مقالة، و لا حدث فى زمانهم بدعة و كلّ بدعة ضلالة، و نحن نرجو أن يكون ذلك الرّجل الذى وزن بالنّاس فرجح وزنه، و سبق القرون الأول و إن تأخّر قرنه. و لقد ألبسنا اللّه بك لباسا يبقى جديدا، و يسّرنا للعمل الذى يكون محضرا، لا للعمل الذ نودّ لو أنّ بيننا و بينه أمدا بعيدا. و إيّاك ثمّ إيّاك أن تقف معنا موقف الاعتذار، و ما نخشى عليك إلا الشيطان الناقل للطباع فى تقاليب الأطوار، و لطالما أقام عابدا من مصلّاه، و غرّه بامتساك حبله و دلّاه، و لمكانتك عندنا أضربنا عن وصيّتك صفحا، و توسّمنا أن صدرك قد شرحه اللّه فلم نزده شرحا؛ و الذى تضمّنه تقليد غيرك من الوصايا لم يسفر إلا عن نقاب خطأ الأقلام، و قصر أقوالها عن المماثلة من مراتب أولى التعليم و بين العلماء الأعلام، و لا يفتقر إلى ذلك إلّا من ثقل منصب القضاء على كاهله، و قضى جهله بتحريمه عليه، و فرق بين عالم أمر و جاهله.

و أمّا أنت فإنّ علم القضاء بعض مناقبك، و هو من أوانسك لا من غرائبك؛ لكن عندنا أربع من الوصايا لا بدّ من الوقوف فيها على سنن التوقيف، و إبرازها إلى الأسماع فى لباس التحذير و التخويف: فالأولى منهنّ، و هى المهمّ الذى زاغت عنه الأبصار، و هلك من

هلک فیه من الأبرار، و لربما سمعت هذا القول فظننته ممّا تجوّز فی مثله القائلون، و لیس کذلک بل هو نبأ عظیم أنتم غافلون، و سنقصّه علیک کما فوّضناه إلیک؛ و ذلک هو التسویة فی الحکم ین أقوالک و أفعالک، و الأخذ من صدیقک لعدوّک و من یمینک لشمالک. و قد علمت أنّه لم تخل دولة من الدولة من قوم یعرفون بطیش

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۴۹

الحلوم، و یغترّون بقرب السلطان و هو ظلّ علیهم لا یدوم، و إذا دعوا لمجلس الحکم حملهم البطر و الأشر علی الامتناع من مساواة الخصوم، و لا یفرق بین هؤلاء و بین ضعیف لا یرفع یدا و لا طرفا، و لا یملک عدلا و لا صرفا؛ و نحن نبرأ من مخالفة الدرجات فی حکم العزیز الحکیم، و لعن اللّه الیهود الّذین نسخوا آیة الرّجم بما أحدثوه من التجبیة و التحمیم، و قد بسطنا یدک بسطا لیس له انقباض، و لا علیه اعتراض؛ و أنت القاضی الذی لا یکون اسمک منقوصا فیقال فیه إنّک قاض. و إذا استقللت بهذه الوصیّة، فانظر فیما یلیها من أمر الوکلاء القائمین بمجلس الحکم الذین لا تردّ أحدا منهم إلا خلیّا لویّا، أو خادعا خلویّا، و إذا اعتبرت أحوالهم وجدوا عذابا علی الناس مصبوبا و لا یتمّ لهم إلا فی ستر القضایا و نعیمها، و لا ینحون فی شیء منها إلا نحو إمالتها و ترخیمها؛ فأرح الناس من هذه الطائفة العروفة بنصب الحبالة ، التی تأکل الرّشی و تخرجها فی مخرج الجعالة، و طهّر منها مجلسک الذی لیس بمجلس ظلم و زور و إنما هو مجلس عدل و عدالة؛ و من العدل أن یخلّی بین الخصوم حتی یکافح بعضهم بعضا، و المهل فی مثل هذا المقام لرعی الرعایة لما یقضی؛ و إن کان أحدهم ألحن بحجّته فکله إلی عالم الأسرار، و إذا حکمت له بشیء من حقّ أخیه فلا تبال أن تقطع له قطعة من النار.

و کذلک فانظر فی الوصیّة المختصّة بالشهداء؛ فإنهم قد تکاثرت أعدادهم و أهمل انتقادهم و صار منصب الشهادة یسأله و سؤاله من الحرام لا من الحلال، و أصبح و هو یورث عن الآباء و الأولاد و الوراثة تکون فی الأموال، و الشاهد دلیل یمشی القضاء علی منهاجه، و یستقیم باستقامته و یعوّج باعوجاجه؛ فانف کلّ من شانتک منه شائنة، أو رابتک منه رائبة، و علیک منهم بمن تخلّق بخلق الحیاء و الورع، و أخذ بالقول الّذی علی مثلها فاشهد أو فدع.

و أمّا الوصیّة الرابعة فإنّها مقصورة علی کاتب الحکم الّذی إلیه الإیراد و الإصدار، و هو المهیمن علی النقض و الإمرار؛ و ینبغی أن یکون عارفا بالحلی و الوسوم و الحدود و الرّسوم، و أن یکون فقیها فی البیوع و المعاملات، و الدعاوی و البیّنات؛ و من أدنی صفاته أن یکون قلمه سائحا، و خطّه واضحا؛ و إذا استکمل ذلک فلا یستصلح حتّی یکون العفاف شعاره، و الأمانة عیاره، و الحفظ و العلم سوره و سواره، و هذا الرّجل إن خلوت به فامض یده فیما یقول و یفعل، و استتمّ إلیه استتامة الواثق الذی لا یخجل؛ و اللّه یختار لنا ذلک فیما بیّناه من المراشد، و یجعل أقوالنا ثمارا یانعة إذا کانت الأقوال من الحصائد.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۰

و بعد أن بوّأناک هذه المکانة، و حمّلناک هذه الأمانة، فقد رأینا أن نجمع لک من تنفیذ الأحکام و حفظ أصولها، و ألّا نخلیک من النّظر فی دلیلها و مدلولها؛ فإنّ الترک یوحش العلوم من معهود أماکنها، و یذهب بها من تحت أقفال خزائنها، و منصب التّدریس کمنصب القضاء أخ یشدّ من عضده، و یکثر من عدده؛ فتولّ المدرسة الفلانیّة عالما أنّک قد جمعت بین سیفین فی قراب، و سلکت بابین إلی تحصیل الثواب، و رکبت أعزّ مکان و هو تنفیذ الحکم و جالست خیر جلیس و هو الکتاب.

و نحن نوصیک بطلبة العلم وصیّتین؛ إحداهما أعظم من الأخری؛ و کلتاهما ینبغی أن تصرف إلیهما من اهتمامک شطرا؛ فالأولی أن تتخوّلهم فی أوقات الاشتغال، و تکون لهم کالرّائض الذی لا یبسط لهم بساط الراحة و لا یکلّفهم مشقّة الکلال. و الثّانیة أن تدرّ علیهم أرزاقهم إدرار المسامح، و تنزلهم فیها علی قدر الأفهام و القرائح؛ و عند ذلک لا تعد منهم منبعا فی کلّ حین، و یسرّک فی حالتیه من دنیا و دین؛ و اللّه یتولّاک فیما تنویه صالحة، و یوفّقک للعمل بها لا لأن یکون فی قلبک سانحة. و قد فرضنا لک فی بیت المال قسما طیّبا مکسبه، هنیئا مأکله و مشربه؛ لا تعاقب غدا علی کثیره، و إن حوسبت علی فتیله و نقیره . و المفروض فی هذا المال

ینبغی أن یکون علی قدر الکفاف لا علی نسبة الأقدار، و ربّ متخوّض فیما شان نفسه من مال اللّه و مال رسوله لیس له فی الآخرة إلّا النار؛ و الدنیا حلوة خضرة تلعب بذوی الألباب، و علاقاتها بتجدّد الأیام فلا تنتهی الآراب منها إلّا إلی آراب. و من أراد اللّه به خیرا لم یسلک إلیها، و إن سلک کان کمن استظلّ بظلّ شجرة ثمّ راح و ترکها، و نحن نخلص الضراعة و المسألة فی السّلامة من تبعاتها، و أن نوفّق لرعی ولایة العدل و الإحسان إذ جعلنا من رعاتها.

و هذا التّقلید ینبغی أن یقرأ فی المسجد الجامع بعد أن یجمع له النّاس علی اختلاف المراتب، ما بین الأباعد و الأقارب، و العراقیب و الذوائب ، و الأشائب و غیر الأشائب؛ و لتکن قراءته بلسان الخطیب و علی منبره، و لیقل: هذا یوم رسم بجمیل صیته و اعتضاض محضره؛ ثمّ بعد ذلک فأنت مأخوذ بتصفّح مطلوبه علی الأیّام، و إثباته فی قلبک بالعلم الذی لا یمحی سطره إذا محیت سطور الأقلام.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۱

و اعلم أنّا غدا و إیّاک بین یدی الحکم العدل الّذی تکفّ لدیه الألسنة عن خطابها، و تستنطق الجوارح بالشهادة علی أربابها، و لا ینجو منه حینئذ إلا من أتی بقلب سلیم؛ و أشفق من قول نبیه: «لا تأمّرنّ علی اثنین و لا تولّین مال یتیم».

و اللّه یأخذ بناصیة کلّ منّا إلیه، و یخرجه من هذه الدّنیا کفافا لا له و لا علیه، و السلام.

فولی عماد الدین بن عبد الرحمن بن عبد العلی بن السکریّ- مصنف الحواشی علی الوسیط- ثمّ صرف فی المحرم سنة ثلاث عشرة، لأنّه طلب منه قرض شیء من مال الأیتام فامتنع.

قال القاضی تاج الدین السبکی فی الطبقات الکبری؛ و بلغنی أنّه کان فی زمانه رجل صالح یقال له الشیخ عبد الرحمن النویریّ، و کان کثیر المکاشفات و الحکم بها، و کان القاضی عماد الدین ینکر علیه؛ فبلغ القاضی أنّه أکثر الحکم بالمکاشفات، فعزله، فقال النویریّ: عزلته و ذرّیته. فکان کما قال.

و بلغنی عن الظّهیر التّزمنتیّ شیخ ابن الرفعة، قال: زرت قبر القاضی عماد الدین بعد موته بأیّام، فوجدت عنده فقیرا، فقال لی: یا فقیه، یحشر العلماء و علی رأس کلّ واحد منهم لواء، و هذا القاضی عماد الدین منهم؛ و طلبته فلم أره.

و ولی بعده شرف الدین محمد بن عبد اللّه الإسکندرانیّ المعروف بابن عین الدّولة قضاء القضاة بالقاهرة و الوجه البحری، و تاج الدین عبد السلام بن الخرّاط مصر و الوجه القبلی، ثمّ صرف ابن الخرّاط فی شعبان سنة سبع عشرة و ستّمائة، و جمع العملان لابن عین الدولة.

ثم صرف ابن عین الدولة عن مصر و الوجه القبلی بالقاضی بدر الدین یوسف ابن الحسن السّنجاریّ فی ربیع الآخر سنة تسع و ثلاثین و بقی قاضیا بالقاهرة و الوجه البحریّ فقط.

و فی زمنه اتّفقت الحکایة التی اتفقت فی زمان الإمام محمد بن جریر الطبریّ؛ و هو أنّ امرأة کادت زوجها، فقالت: إن کنت تحبّنی فاحلف بطلاقی ثلاثا: مهما قلت لک تقول مثله فی ذا المجلس؛ فحلف، فقالت له: أنت طالق ثلاثا، قل کما قلت لک.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۲

فأمسک، و ترافعا إلی ابن عین الدولة، فقال: خذ بعقصتها و قل: أنت طالق ثلاثا إن طلّقتک.

قال ابن السبکی: و کأنّهما ارتفعا إلیه فی المجلس؛ و کان بمصر مغنّیة تدعی عجیبة، قد أولع بها الملک الکامل، فکانت تحضر إلیه لیلا و تغنّیه بالجنک علی الدّفّ فی مجلس بحضرة ابن شیخ الشیوخ و غیره. ثمّ اتّفقت قضیّة شهد فیها الکامل عند ابن عین الدولة، و هو فی دست ملکه، فقال ابن عین الدولة: السلطان یأمر و لا یشهد، فأعاد علیه القول، فلمّا زاد الأمر، و فهم السلطان أنّه لا یقبل شهادته، قال: أنا أشهد، تقبلنی أم لا؟ فقال القاضی: لا ما أقبلک، و کیف أقبلک و عجیبة تطلع إلیک بجنکها کلّ لیلة؟! و تنزل ثانی یوم بکرة و هی تتمایل سکری علی أیدی الجواری، و ینزل ابن الشیخ من عندک! أ یحسن ما نزلت، فقال له السلطان: یا کیواج- و هی کلمة شتم بالفارسیة- فقال: ما فی الشرع یا کیواج، اشهدوا علیّ أنی قد عزلت نفسی و نهض. فقام ابن الشیخ إلی الملک الکامل، و قال:

المصلحة إعادته لئلا يقال: لأىّ شىء عزل القاضى نفسه؟ و تطير الأخبار إلى بغداد، و يشيع أمر عجيبة! و نهض إلى القاضى، و ترضّاه، و عاد إلى القضاء. و من شعره:

و ليت القضاء و ليت القضاء لم يك شيئا تولّيته

و قد ساقنى للقضاء القضاء و ما كنت قدما تمنّيته

و أقام إلى أن توفّى فى ذى القعدة سنة تسع و ثلاثين و ستّمائة.

فولى بعده قضاء القاهرة بدر الدين يوسف السّنجارىّ.

و ولى الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام قضاء مصر و الوجه القبلى، و كان قدم فى هذه السنة من دمشق بسبب أنّ سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالفرنج و أعطاهم مدينة صيدا و قلعة الشقيف. فأنكر عليه الشيخ عزّ الدين، و ترك الدّعاء له فى الخطبة، و ساعده فى ذلك الشّيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكىّ، فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية فأرسل السلطان إلى الشيخ عزّ الدين؛ و هو فى الطريق قاصدا يتلطّف به فى العود إلى دمشق، فاجتمع به و لاينه، و قال له: ما نريد منك شيئا إلّا أن تنكسر للسلطان، و تقبّل يده لا غير. فقال الشيخ له: يا مسكين، ما أرضاه يقبّل يدى فضلا عن أن أقبّل يده! يا قوم، أنتم فى واد و أنا فى واد! و الحمد للّه الّذى عافانا ممّا

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۳

ابتلاكم. فلمّا وصل إلى مصر، فاتّفق أن أستاداره فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ- و هو الذى كان إليه أمر المملكة- عمد إلى مسجد بمصر، فعمل على ظهره بناء طبلخاناه، و بقيت تضرب هناك، فلمّا ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدم ذلك البناء، و أسقط فخر الدين، و عزل نفسه من القضاء، و لم تسقط بذلك منزلة الشّيخ عند السلطان، و ظنّ فخر الدّين و غيره أنّ هذا الحكم لا يتأثّر به فى الخارج، فاتّفق أن جهّز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلمّا وصل الرسول إلى الديوان، و وقف بين يدى الخليفة، و أدّى الرسالة له، خرج إليه، و سأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، و لكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ أستاداره، فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته. فرجع الرّسول إلى السلطان حتّى شافهه بالرسالة، ثمّ عاد إلى بغداد، و أدّاها.

و لما تولّى الشيخ عزّ الدين القضاء تصدّى لبيع أمراء الدولة من الأتراك، و ذكر أنّه لم يثبت عنده أنّهم أحرار، و أنّ حكم الرّقّ مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم، و اجترم الأمر، و الشيخ مصمّم لا يصحّح لهم بيعا و لا شراء و لا نكاحا، و تعطّلت مصالحهم لذلك؛ و كان من جملتهم نائب السلطنة، فاستثار غضبا، فاجتمعوا و أرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلسا، و ننادى عليكم لبيت مال المسلمين، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه، فانزعج النائب، و قال: كيف ينادى علينا هذا الشيخ، و يبيعنا و نحن ملوك الأرض؟! و اللّه لأضربنّه بسيفى هذا، فركب بنفسه فى جماعته، و جاء إلى بيت الشيخ و السّيف مسلول فى يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، و شرح له الحال، فما اكترث لذلك، و قال: يا ولدى، أبوك أقلّ من أن يقتل فى سبيل اللّه، ثمّ خرج. فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب، و سقط السيف منها، و أرعدت مفاصله، فبكى و سأل الشيخ أن يدعو له، و قال: يا سيّدى إيش تعمل؟ قال: أنادى عليكم و أبيعكم، قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: فى مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا.

فتمّ ما أراد و نادى على الأمراء واحدا واحدا، و غالى فى ثمنهم و لم يبعهم إلّا بالثمن الوافى، و قبضه و صرفه فى وجوه الخير.

و اتّفق له فى ولايته القضاء عجائب و غرائب، و فيه يقول الأديب أبو الحسين يحيى ابن عبد العزيز الجزّار:

سار عبد العزيز فى الحكم سيرالم يسره سوى ابن عبد العزيز

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۴ عمّنا حكمه بعدل وسيطشامل للورى، و لفظ وجيز

و لما عزل الشيخ نفسه عن القضاء، تلطّف السلطان فى ردّه إليه، فباشره مدّة، ثمّ عزل نفسه منه مرّة ثانية، تلطّف مع السلطان فى إمضاء عزله، فأمضاه و أبقى جميع نوّابه من الحكّام، و كتب لكلّ حاكم تقليدا، ثمّ ولّاه تدريس مدرسته التى أنشأها بين القصرين.

و ولى بعده أفضل الدين محمد الخونجىّ صاحب المنطق و المعقولات، فأقام إلى أن مات فى رمضان سنة ستّ و أربعين و ستمائة، و رثاه العزّ الإربلىّ بقصيدة أولها:

قضى أفضل الدنيا، نعم و هو فاضلو ماتت بموت الخونجىّ الفضائل

و كان يخلفه على الأحكام الجمال يحيى، فلم يزل إلى أن تولّى القاضى عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة اللّه الحموىّ، فبقى إلى أن صرف فى جمادى الأولى سنة ثمان و أربعين.

و تولّى القاهرة و صرف عنها القاضى بدر الدين، و رتّب قاضيا بمصر و الوجه القبلى صدر الدين موهوب بن عمر الجزرىّ، و كان نائبا عن الشيخ عزّ الدين ثمّ صرف.

و أعيد القاضى عماد الدين الحموىّ بمصر، و رتّب بالقاهرة بدر الدين السنجارىّ، و ذلك فى رجب سنة ثمان و أربعين، ثمّ بعد ذلك بأيام يسيرة أضيف له مصر أيضا، و ذلك فى شوّال من السنة. ثمّ صرف عنه القضاء بمصر، و كان يخلفه أخوه برهان الدين و ذلك فى رمضان سنة أربع و خمسين.

و رتّب فيه تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعزّ، ثمّ صرف السنجارىّ عن القاهرة أيضا، و أضيف لابن بنت الأعزّ إلى أن توفّى الملك المعزّ.

فرتّب فى القاهرة البدر السنجارىّ فى ربيع الآخر سنة خمس و خمسين، و بقى مع ابن بنت الأعزّ مصر خاصّة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۵

ثمّ أضيف قضاء مصر أيضا إلى السنجارىّ فى رجب من السنة، فأقام إلى جمادى الأولى سنة تسع و خمسين، فعزل.

و أعيد تاج الدين بن بنت الأعزّ لقضاء مصر و القاهرة معا، ثمّ فى شوّال سنة إحدى و ستّين عزل ابن بنت الأعزّ عن قضاء مصر وحدها.

و وليه برهان الدين الخضر بن الحسن السنجارىّ، و بقى مع ابن بنت الأعزّ قضاء القاهرة، فلم يزل إلى رمضان سنة اثنتين و ستّين.

فصرف قضاء مصر عن السنجارىّ، و أضيف إلى ابن بنت الأعزّ، فلم يزل على هذه الولاية إلى أن مات يوم الأحد سابع عشر رجب سنة خمس و ستّين.

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى: و فى ولايته هذه جدّد الملك الظاهر بيبرس القضاة الثلاثة من كلّ مذهب: قاض فى القاهرة، ثمّ فى دمشق. و كان سبب ذلك أنه سأل القاضى تاج الدين فى أمر، فامتنع من الدّخول فيه، فقيل له: مر نائبك الحنفىّ، و كان القاضى هو الشافعىّ يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة، فامتنع من ذلك، فجرى ما جرى، و كان الأمر متمحّضا للشافعيّة، فلا يعرف أنّ غيرهم حكم فى الديار المصرية منذ وليها أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقىّ فى سنة أربع و ثمانين إلى أن مات الظاهر، إلا أن يكون نائب بعض قضاة الشافعية فى جزئية خاصة، و كذا دمشق لم يلها بعد أبى زرعة المشار إليه إلّا شافعىّ.

قال ابن ميسّر فى تاريخ مصر: فى سنة خمس و عشرين و خمسمائة رتّب أبو أحمد ابن الأفضل فى الحكم أربع قضاة، يحكم كلّ قاض بمذهبه، و يورّث بمذهبه، فكان قاضى الشافعيّة سلطان بن رشا، و قاضى المالكية أبا محمد عبد المولى بن اللبنى، و قاضى الإسماعيليّة أبا الفضل بن الأزرق، و قاضى الإماميّة ابن أبى كامل، و لم يسمع بمثل هذا.

و قال ابن ميسّر: و قد تجدّد فى عصرنا هذا الذى نحن فيه أربع قضاة على الأربعة مذاهب. انتهى.

قال ابن السبكى: و قال أهل التجربة: إنّ هذه الأقاليم المصرية و الشاميّة و الحجازية، متى كانت البلد فيها لغير الشافعية خربت، و متى قدّم سلطانها غير أصحاب الشافعىّ زالت دولته سريعا. قال: و كأن هذا السرّ جعله اللّه فى هذه البلاد، كما جعله اللّه لمالك فى بلاد المغرب، و لأبى حنيفة فيما وراء النهر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۶

قال: و سمعت الشیخ الإمام الوالد یقول: سمعت الشیخ صدر الدین بن المرحّل یقول: ما جلس علی کرسی مصر غیر شافعیّ إلا و قتل سریعا، قال: و هذا الأمر یظهر بالتجربة، فلا یعرف غیر شافعی إلا قطز، کان حنفیّا، و مکث یسیرا و قتل، و أمّا الظاهر فقلّد الشافعیّ یوم ولایة السلطنة، ثمّ لما ضمّ القضاء إلی الشافعیّ استثنی للشافعیّ الأوقاف و بیت المال و النوّاب و قضاة البرّ و الأیتام، و جعلهم الأرفعین، ثمّ إنّه ندم علی ما فعل. و ذکر أنّه رأی الشافعیّ فی النوم لما ضمّ إلی مذهبه بقیّة المذاهب، و هو یقول:

تهین مذهبی؟! البلاد لی أو لک؟! قد عزلتک، و عزلت ذرّیتک إلی یوم الدین. فلم یمکث إلا یسیرا و مات، و لم یمکث ولده السعید إلا یسیرا، و زالت دولته، و ذرّیته إلی الآن فقراء. هذا کلام ابن السبکی.

قال: و جاء بعده قلاوون، و کان دونه تمکّنا و معرفة، و مع ذلک مکث الأمر فیه و فی ذرّیته إلی هذا الوقت، و فی ذلک أسرار اللّه لا یدرکها إلا خواصّ عباده.

قال: و قد حکی أنّ الظاهر رئی فی النوم، فقیل له: ما فعل اللّه بک؟ قال: عذّبنی عذابا شدیدا لجعلی القضاة أربعة، و قال: فرّقت کلمة المسلمین!

و قال أبو شامة: لما بلغهم ضمّ القضاة الثلاثة لم یقع مثل هذا فی ملّة الإسلام قطّ، و کان أحداث القضاة الثلاثة فی سنة ثلاث و ستین و ستمائة؛ و أقام ابن بنت الأعزّ قاضیا إلی أن توفّی سنة خمس و ستّین، و کان شدید التصلّب فی الدین، فکان الأمراء الکبار یشهدون عنده فلا یقبل شهادتهم؛ و کان ذلک أیضا من جملة الحوامل علی ضمّ القضاة الثلاثة إلیه. و حکی أنّه رکب و توجّه إلی القرافة، و دخل علی الفقیه مفضّل، حتّی تولّی عنه الشرقیّة، فقیل له: تروح إلی شخص حتّی تولّیه، فقال: لو لم یفعل لقبّلت رجله حتّی یقبل، فإنّه یسدّ عنّی ثلمة من جهنّم.

قال ابن السبکیّ: و کان یقال إنّ القاضی تاج الدین آخر قضاة العدل؛ و اتّفق الناس علی عدله؛ و قد اجتمع له من المناصب الجلیلة ما لم یجتمع لغیره؛ فإنّه ولّی خمس عشرة وظیفة: القضاء، و الوزارة، و نظر الأحباس، و تدریس الشافعیّة، و الصالحیّة، و الحسبة، و الخطابة، و مشیخة الشیوخ، و إمامة الجامع.

و ولی بعده مصر و الوجه القبلی محیی الدین عبد اللّه بن القاضی شرف الدین بن عین الدولة، و القاهرة و الوجه البحری تقی الدین محمد بن الحسن بن رزین، ثمّ مات

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۷

ابن عین الدولة فی رجب سنة ثمان و سبعین، و عزل ابن رزین فی رجب أیضا سنة ثمان و سبعین لکونه توقّف فی خلع الملک السعید.

و ولی صدر الدین عمر بن القاضی تاج الدین بن بنت الأعزّ، فمشی علی طریقة والده فی التحرّی و الصلابة، ثمّ عزل نفسه فی رمضان سنة تسع و سبعین.

و أعید ابن رزین فأقام إلی أن مات فی رجب سنة ثمانین، و ولی بعده وجیه الدین عبد الوهاب بن الحسین البهنسی قضاء الدیار المصریة، ثم عزل عن القاهرة و الوجه البحری، و استمرّ علی قضاء مصر و الوجه القبلی، إلی أن توفّی سنة خمس و ثمانین .

و ولی القاهرة بعد عزله عنها شهاب الدین بن الخویّی، فأقام إلی أوّل سنة ستّ و ثمانین، فعزل.

و ولی بعده برهان الدین الخضر السنجاریّ، فأقام شهرا، ثمّ توفی.

و ولی بعده تقیّ الدین عبد الرحمن بن القاضی تاج الدین بن بنت الأعزّ، مضافا لما کان معه من قضاء مصر؛ فإنّه ولیه بعد موت البهنسیّ؛ و کان من أحسن القضاة سیرة، و کان ابن السلعوس وزیر الملک الأشرف یکرهه؛ فعمل علیه، و رتّب من شهد علیه بالزّور بأمور عظام، منها أنّهم أحضروا شابّا حسن الصورة، و اعترف علی نفسه بین یدی السلطان بأنّ القاضی لاط به، و أحضروا من شهد بأنه

يحمل الزّنّار فى وسطه، فقال القاضى: أيّها السلطان كلّ ما قالوه ممكن؛ لكن حمل الزنّار لا يعتمده النصرانىّ تعظيما و لو أمكنه تركه لتركه؛ فكيف أحمله؟! ثمّ عزل القاضى، و كان رجلا صالحا لا يشكّ فيه، بريئا من كلّ ما رمى به.

و ولى بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة؛ و ذلك فى رمضان سنة تسعين و ستّمائة، فتوجّه القاضى تقىّ الدين إلى الحجاز، و مدح النبى صلى اللّه عليه و سلم بقصيدة، و كشف رأسه، و وقف بين يدى الحجرة الشريفة، و استغاث بالنبى صلى اللّه عليه و سلم، و أقسم عليه ألّا يصل إلى وطنه إلا- و قد عاد إلى منصبه، فلم يصل إلى القاهرة إلّا و الأشرف قد قتل، و كذلك وزيره، فأعيد إلى القضاء، و وصل إليه الخبر بالعود قبل وصوله إلى القاهرة، و ذلك فى أول سنة ثلاث و تسعين؛ فأقام فى القضاء إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة خمس و تسعين.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۸

و ولى بعده الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد بعد امتناع شديد، حتّى قالوا له: إن لم تفعل ولّوا فلانا أو فلانا- لرجلين لا يصلحان للقضاء- فرأى أنّ القبول واجب عليه حينئذ. ذكره الإسنوىّ فى الطبقات. قال ابن السبكىّ: و عزل نفسه غير مرّة ثمّ يعاد.

قال الإسنوىّ: و كانت القضاة يخلع عليهم الحرير، فامتنع الشيخ من لبس الخلعة، و أمر بتغييرها إلى الصوف، فاستمرّت إلى الآن. و حضر مرّة عند السلطان لاجين ، فقام إليه السلطان، و قبّل يده؛ فلم يزده على قوله: أرجوها لك بين يدى اللّه. و كان يكتب إلى نوّابه، و يعظهم و يبالغ فى وعظهم، و مع ذلك رآه بعض خيار أصحابه فى المنام و هو فى مسجد، فسأله عن حاله، فقال: أنا معوّق هاهنا بسب نوّابى. هذا مع الاحتراز التامّ و الكرامات الصحيحة الثابتة عنه. فهذا كلّه كلام الإسنوىّ.

و من لطائفه ما كتب إلى نائبه بإخميم: صدرت هذه المكاتبة إلى مجلس مخلص الدّين، وفقه اللّه تعالى لقبول النصيحة، و آتاه لما يقربه إليه قصدا صحيحا و نيّة صحيحة، أصدرناه إليه بعد حمد اللّه الّذى يعلم خائنة الأعين و ما تخفى الصدور، و يمهل حتّى لا يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور؛ و نذكّره بأيّام اللّه وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [الحج: ۴۷]، و نحذّره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون؛ عسى اللّه أن يرشده بهذا التّذكار و ينفعه، و تأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار؛ فإنى أخاف أن يتردّى فيخرّ من ولّاه معه. و العياذ باللّه. و المقتضى لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، و من تقاعد الهمم ممّا يجب للربّ على المربوب، و من أنسهم بهذه الدّار و هم يزعجون عنها، و علمهم بما بين أيديهم من عقبة كؤود و هم لا يتخفّفون منها. و لا سيّما القضاة الذى تحمّلوا أعباء الأمانة على كواهل ضعيفة، و ظهروا بصور كبار و همم نحيفة، و و اللّه إنّ الأمر عظيم، و الخطب جسيم؛ و لا أرى مع ذلك أمنا و لا قرارا، و لا راحة و لا استمرارا، اللهمّ إلا رجلا نبذ الآخرة وراه، و اتخذ إلهه هواه، و قصر همّة و همّته على حظّ نفسه و دنياه، فغاية مطلبه حب الجاه. و الرغبة فى قلوب الناس و تحسين الزىّ و الملبس، و الرّكبة و المجلس، غير مستشعر خساسة حاله و لا ركاكة مقصده، فإنّك لا تسمع الموتى و ما أنت بمسمع من فى القبور.

فاتّق اللّه الّذى يراك حين تقوم، و اقصر أملك عليه فإنّ المحروم من فضله غير مرحوم، و ما أن و إيّاكم أيّها النفر إلّا كما قال حبيب العجمىّ و قد قال له قائل: ليتنا لم نخلق! قال: قد وقعتم فاحتالوا!

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۵۹

و إن خفى عليك مثل هذا الخطر، و شغلتك الدنيا عن معرفة الوطر، فتأمّل كلام النبوّة: «القضاة ثلاثة قاض فى الجنّة و قاضيان فى النار»، و قول النبى صلى اللّه عليه و سلم لأبى ذرّ مشفقا عليه: «لا تأمّرنّ على اثنين و لا تولّين مال يتيم»، و ما أنا و السير فى متلف مبرّح بالذّاكر الضابط، هيهات جفّ القلم، و نفذ حكم اللّه، فلا رادّ لما حكم.

إيه، و من هناك شمّ الناس من فم الصديق رائحة الكبد المشوىّ. و قال الفاروق:

ليت أمّ عمر لم تلده! و قال علىّ و الخزائن مملوءة ذهبا و فضة: من يشترى سيفى هذا و لو وجدت ما أشترى به رداء ما بعته- و قطع الخوف نياط قلب عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العرض، و علّق بعض السلف سوطا يؤدّب به نفسه إذا فتر. فترى ذلك سدى، أم

نحن المقرّبون و هم البعداء! فهذه أحوال لا تؤخذ من كتاب السّلم، و الإجارة و الجنايات، و إنّما تنال بالخضوع و الخشوع، و أن تظمأ و تجوع.

و مما يعينك على الأمر الذى دعوتك إليه، و يزوّدك فى السفر المعرض عليه، أن تجعل لك وقتا و تعمره بالتذكّر و التفكّر، و إنابة تجعلها معدّة لجلاء قلبك، فإنّه إن استحكم صداه صعب تلافيه، و أعرض عنه من هو أعلم بما فيه.

فاجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد، و التأهّب لجواب الملك الجواد، فإنّه يقول: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ۹۲].

و مهما وجدت من همّتك قصورا، و استشعرت من نفسك عمّا بدا لها نفورا، فاجررها إليه وقف ببابه و اطلب، فإنّه لا يعرض عمّن صدق، و لا يعزب عن علمه خفايا الضمائر أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ [الملك: ۱۴].

فهذه نصيحتى إليك، و حجّتى بين يدى اللّه إن فرطت إذا سئلت عليك؛ فنسأل اللّه لى و لك قلبا شاكرا، و لسانا ذاكرا، و نفسا مطمئنّة بمنّه و كرمه، و خفىّ لطفه، و السلام.

و استمرّ الشيخ إلى أن توفّى فى صفر سنة اثنتين و سبعمائة.

و أعيد بعده القاضى بدر الدين بن جماعة، ثمّ صرف فى ربيع الأول سنة عشر و سبعمائة.

و ولى جمال الدين بن عمر الزّرعىّ، ثمّ صرف.

و أعيد ابن جماعة فى ربيع الآخرة سنة إحدى عشرة، فلم يزل إلى أن عمى سنة سبع و عشرين.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۰

فولى بعده جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينىّ مصنّف التلخيص فى المعانى و البيان، فأقام مدّة ثمّ صرف فى سنة ثمان و ثلاثين.

و ولى بعده عز الدين بن القاضى بدر الدين بن جماعة، فاستمرّ إلى سنة تسع و خمسين، فعزل بواسطة صرغتمش .

و ولى مكانه بهاء الدين بن عبد اللّه بن عقيل مؤلّف شرح الألفية و شرح التسهيل، فأقام ثمانين يوما و صرف.

و أعيد ابن جماعة، فولى على كره منه، و استمرّ يطلب الإقالة إلى جمادى الأولى سنة ستّ و ستّين، فعزل نفسه، و صمّم على عدم العود، و نزل إليه الأمير الكبير يلبغا إلى داره، و دخل عليه أن يعود فأبى.

فولى مكانه بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البرّ السّبكى، فأقام إلى أن عزل فى سنة ثلاث و سبعين.

و ولى بعده برهان الدين إبراهيم بن جماعة، ثمّ عزل نفسه، و ولى بدر الدين محمد بن القاضى بهاء الدين بن عبد البرّ السبكى فى صفر سنة تسع و سبعين.

ثم أعيد البرهان بن جماعة فى سنة إحدى و ثمانين، ثم أعيد البدر بن أبى البقاء فى صفر سنة أربع و ثمانين، ثم ولى ناصر الدين محمد بن الميلق فى شعبان سنة تسع و ثمانين ثمّ عزل.

و ولى صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوىّ فى ذى القعدة سنة إحدى و تسعين.

ثم أعيد بدر الدين بن أبى البقاء فى ذى الحجّة سنة إحدى و تسعين.

ثم ولى عماد الدين أحمد بن عيسى الكرّكىّ فى رجب سنة ثنتين و تسعين، ثم عزل فى ذى الحجّة سنة أربع و تسعين.

و أعيد الصّدر المناوى فى المحرّم سنة خمس و تسعين.

ثمّ أعيد البدر بن أبى البقاء فى ربيع الأوّل سنة ست و تسعين.

ثمّ أعيد المناوى فى شعبان سنة سبع و تسعين.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۱

ثم ولى تقى الدين الزّبيرىّ فى جمادى الأولى سنة تسع و تسعين.

ثمّ أعيد المناوى فى رجب سنة إحدى و ثمانمائة.

ثم ولى ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن الصالحىّ فى شعبان سنة ثلاث.

ثمّ ولى جلال الدين البلقينىّ فى جمادى الأولى سنة أربع فى حياة والده.

ثمّ أعيد الصالحىّ فى شوال سنة خمس، و مات فى المحرّم سنة ستّ.

فولى شمس الدين محمد بن الأخنائىّ.

ثمّ أعيد البلقينىّ فى ربيع الأول من السنة.

ثمّ أعيد الأخنائىّ فى شعبان من السنة.

ثمّ أعيد البلقينى فى ذى الحجة من السنة.

ثمّ أعيد الأخنائىّ فى جمادى الأولى سنة سبع.

ثمّ أعيد البلقينىّ فى ذى القعدة من السنة.

ثمّ أعيد الأخنائىّ فى صفر سنة ثمان.

ثمّ أعيد البلقينى فى ربيع الأوّل من السنة، فأقام إلى محرّم سنة خمس عشرة، فعزله المستعين.

و ولى شهاب الدين الباعونىّ، فأقام شهرا، و عزل.

ثم أعيد البلقينىّ فى صفر سنة خمس عشرة، فأقام إلى جمادى الأولى سنة إحدى و عشرين.

و ولى شمس الدين محمد بن عطاء اللّه الهروىّ، و فى ولايته هذه وجد فى مجلس السلطان ورقة فيها شعر، و هو:

يأيّها الملك المؤيّد دعوةمن مخلص فى حبّه لك ينصح

انظر لحال الشافعيّة نظرةفالقاضيان كلاهما لا يصلح

هذا أقاربه عقارب و ابنهو أخ و صهر، فعلهم مستقبح

غطّوا محاسنه بقبح صنيعهمو متى دعاهم للهدى لا يفلحوا

و أخو هراة بسيرة اللنك اقتدىو له سهام فى الجوانح تجرح

لا درسه يقرا، و لا أحكامه تدرى، و لا حين الخطابة يفصح

فأرح هموم المسلمين بثالثفعسى فساد منهم يستصلح

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۲

و كان ذلك فى أوّل شعبان، فعرض السلطان الورقة على الجلساء من الفقهاء الذين يحضرون عنده، فلم يعرفوا كاتبها، و طالت الأبيات. فأمّا الهروىّ فلم ينزعج من ذلك، و أمّا البلقينىّ فقام و قعد، و أطال البحث و التنقيب عن ناظمها، و تقسّمت الظنون؛ فمنهم من اتّهم شعبان الأثارىّ، و منهم من اتّهم تقىّ الدين بن حجّة. قال العينىّ: و بعضهم نسبها لابن حجر؛ قال: و الظّاهر أنّه هو.

ثمّ أعيد البلقينىّ فى ربيع الأول سنة اثنتين و عشرين، فأقام إلى أن مات فى شوّال سنة أربع و عشرين .

و ولى الشيخ ولى الدين العراقى، ثمّ عزل فى ذى الحجة سنة خمس و عشرين.

و ولى شيخنا شيخ الإسلام علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدّين البلقينىّ .

ثم تولّى الحافظ ابن حجر فى المحرّم سنة سبع و عشرين.

ثمّ أعيد الهروىّ فى ذى القعدة من السّنة.

ثمّ أعيد ابن حجر فى رجب سنة ثمان و عشرين.

ثمّ أعید شیخنا البلقینیّ فی صفر سنهٔ ثلاث و ثلاثین.

ثمّ أعید ابن حجر فی جمادی الأولی سنهٔ أربع و ثلاثین.

ثمّ أعید شیخنا البلقینیّ فی شوال سنهٔ أربعین.

ثمّ أعید ابن حجر فی شوّال سنهٔ إحدی و أربعین.

ثمّ ولی شمس الدین القایاتیّ فی المحرّم سنهٔ تسع و أربعین، فأقام إلی أن مات فی المحرّم سنهٔ خمسین.

و أعید ابن حجر.

ثمّ أعید شیخنا البلقینیّ فی أوّل المحرم سنهٔ إحدی و خمسین.

ثمّ ولی ولیّ الدین السّقطی فی نصف ربیع الأول من السنهٔ؛ ثمّ عزل.

و أعید ابن حجر فی ربیع الآخر سنهٔ اثنتین و خمسین، ثمّ عزل نفسه فی آخر جمادی الآخرهٔ من السنهٔ.

حسن المحاضرهٔ فی أخبار مصر و القاهرهٔ، ج۲، ص: ۱۶۳

و أعید شیخنا البلقینی فی صفر سنهٔ سبع و خسمین، فأقام إلی شوّال سنهٔ خمس و ستّین، فعزل.

و أعید المناویّ ثمّ أعید البلقینیّ فی شوّال سنهٔ سبع و ستین، فأقام إلی أن مات فی رجب سنهٔ ثمان و ستین.

و أعید المناویّ، ثم عزل فی جمادی الآخرهٔ سنهٔ سبعین.

و ولی صلاح الدین المکینیّ ربیب شیخنا البلقینیّ، ثمّ عزل بعد ستهٔ أشهر.

و ولی بدر الدین أبو السعادات محمد بن تاج الدین بن قاضی القضاهٔ جلال الدین البلقینی فی أوّل سنهٔ إحدی و سبعین، ثم عزل بعد أربعهٔ أشهر.

و ولی ولیّ الدین أحمد بن أحمد الأسیوطیّ فی نصف جمادی الأولی من السنهٔ فأقام خمس عشرهٔ سنهٔ، ثم عزل فی جمادی الآخرهٔ سنهٔ ستّ و ثمانین.

و ولی الشیخ زکریا محمد الأنصاری السبکیّ.

و قد نظم محمد بن دانیال الموصلیّ أرجوزهٔ فیمن ولی قضاء مصر من حین فتحت إلی عهد البدر بن جماعهٔ، فقال:

یقول راجی کرم اللّه العلیمحمّد بن دانیال الموصلی

من بعد حمد للعلیّ الحاکمغامرنا بالجود و المراحم

ثمّ الصلاهٔ بعد ترتیل اسمهعلی أحمد الهادی أمین حکمه

و آله و صحبه العدولشهود حجّهٔ أحمد الرّسول

فإنّنی ضمّنت هذا الشّعرأنباء کلّ من تولّی مصرا

من سائر القضاهٔ و الحکّاممذ ملکتها ملّهٔ الإسلام

من لدن ابن العاص أعنی عمرالفتحها إلی هلمّ جرّا

لکنّنی اخترت الکلام الرّاجزفی حصرهم إذ کان لفظا موجزا

***

أوّل من ولی القضاء للحکمقیس فتی عدیّ بن سهم

و آل بعده لکعب عبسثمّ لعثمان بغیر لبس

ثم ولی سلیم نجل عترو بعده السّائب نجل عمرو

ثمّ یلیه عابس المرادیو بعده ابن النّضر فی البلاد

و آل بعده لعبد الرّحمن ثمّ إل مالك نجل خولان

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۴ و یونس من بعده ولی القضاثمّ ولی أوس بعزم منتضی

ثمّ تولّی الحکم عبد الرّحمن ثمّ ولیه بعد ذاك عمران

و بعده صار لعبد الأعلی و ابن حدیج ذی الفخار الأعلی

ثمّ لعبد اللّه ذاك القاضی آل و من بعد إلی عیاض

و عاد للقضا بحکم ثانی ابن حجیرة الفتی الخولانی

ثمّ إلی عیاض آل ثانیه ثمّ لعبد اللّه غیروانیه

و الحضرمیّ ثمّ للخیار ثمّ یزید جاء فی الآثار

و آل بعد نوبة و خبر إلی ابن سالم بکلّ خیر

هذا و فی عصر بنی العبّاس صار نعیم ثابت الأساس

و عاد غوث بعد ذاك یحکم ثم ولی یزید بعد فاعلموا

و عاد غوث قبل إبراهیم او الحضرمیّ بعده مأمومما

ثمّ لإسماعیل نجل أَلیسع ثمّ تلاه الغوث خیر تبع

و بعد هذا حکم المفضّل ثمّ أبو طاهر ذاك الأفضل

ثمّ المفضّل الأمین حکما ثمّ ابن مسروق و ما إن ظلما

ثمّ ولیها بعده التّجیبی و العمریّ أیّما نجیب

و بعده البکری و ابن ألبکا ثمّ ابن عیسی و هو أزکی نسکا

و الأسلمیّ حاکم الشریعه ثمّ ابن عیسی و اسمه لهیعه

ثمّ لإبراهیم نجل القاری ثمّ لإبراهیم ذی الفخار

ثمّ لعیسی آلت الأحکام و بعده زهریها الإمام

ثمّ ولی الأحکام نجل شدّاد و بعده الحارث خیر الأجواد

و بعد ما ولی دحیم الأمصار صار لها قاضی القضاة بکّار

هذا و نجل عبدة تولّی ثمّ أبو زرعة لما ولّی

ثمّ ابن عبدة تولّی الحکما و کان فیه بالمحلّ الأسمی

ثم ابن حرب و أبو الذّکر حکم قبل الکریزیّ زمانا فی الأمم

و الجوهریّ، و هو نعم القاضی و من به قد وقع التّراضی

و بعده أحمد و ابن أحمد او أحمد ثانیة فیها اغتدی

و صرفوه بابن زبر فقضی من قبل إسماعیل فیا قد مضی

ثمّ ابن مسلم و نجل حمّاد و السّرخسی و الصیرفی بإسناد

و بعد عبد اللّه نجل زبر ولی أبو بکر جمیع الأمر

ثمّ ابن زرعة و نجل بدر من قبل عبد اللّه نجل زبر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۵ ثمّ ابن بدر بعد عبد اللّه أمسی علیها آمرا و ناهی

ثمّ أبو ذکر تولّی و الحسن و بعده الکشیّ فی ذاك الزّمن

و بعد ذاک أخت ولید لم یزل‌حاکمها و العدل عنه ما عدل

و بعده ولی القضا ابن الحدّادو بعده ابن أخت ولید قد عاد

و بعد ذاک ولد الخطیب‌ولی القضا و ولد الخصیب

و بعده محمد قد حکماثمّ أبو الطاهر فیما علما

الدولة المصریة

و بعد هذا ولد النّعمانو نجله فی ذلک الزّمان

ثمّ ابنه و صنوه الحسین‌و لم یشنه فی القضاء شین

و بعد ذاک مالک تولّی‌ثمّ أبو العباس فیما یتلی

و قاسم ثمّ أبو الفتح ولی‌و هو بغیر قاسم لم یعزل

ثمّ ابن وهب جاءها فی الإثرو نالها من قبل نجل ذکری

ثمّ أعید أحمد للحکم‌ثمّ ابن وهب فاستمع لنظمی

ثم ولی الحکم ابن عبد الحاکم‌ثمّ أعید بعده للقاسم

ثمّ لعبد الحاکم الإمام‌و قاسم وجّه بالأحکام

و بعده ولی القضا نجل أسدو بعده أحمد ذو الحکم الأسدّ

ثم أعید ابن أبی کدینه‌لمّا ارتضوا سیرته و دینه

ثمّ علیّ بعده المیسّرثمّ الرّصافی الجمیل الذّکر

و بعده ولی القضا ابن وهب‌و ابن أبی کدینهٔ ذو اللّب

و بعده المولیجی فی المدینه‌ولی القضا و ابن أبی کدینه

ثمّ ولیه بعده البازورو ابن أبی کدنهٔ بغیر زور

و بعده العرقی و القضاعی‌ولی القضا حقّا بلا نزاع

ثمّ جلال الدولهٔ ابن القاسم‌عاد فأضحی و هو خیر حاکم

و بعده نجل نباتهٔ ولی‌و ولد الکحال ذو التفضّل

و بعده المولیجی و المکرم‌ثمّ أبو الطاهر ذو التّکرّم

و بعده ولی القضا نجل ذکاو بعده الحسین و هو ذو الذّکا

ثمّ ابن بدر و أبو الفضل قضی‌من بعده الصقلیّ و أبو الفضل الرضی

و بعده ابن ظافر تولّی‌و ابن الحسین ذو المقام الأعلی

ثمّ أبو الفتح و یوسف ولی‌و کان کلّ ذا محلّ أفضل

ثمّ ولیه ولد المیسّرأعنی سناء الملک ربّ المفخر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۶ ثم أبو الفخر و نجل جعفراثمّ محمّد ولی بلا مرا

و بعد هذا ولی الرّعینی‌ثمّ سنا الملک بغیر مین

و بعده نجل عقیل لم یزل‌و ابن حسین صار حاکم العمل

و ابن سلامهٔ و نجل المقدسی‌و کان فیها ذا محلّ أنفس

و ابن مکرّم و نجل عالی‌ثمّ ضیاء الدین ذو الإفضال

ثمّ الأعزّ و أبو الفتح ولی‌و بعده أعید نجل کامل

و بعد ذاک فی زمان الغزّذوی الفخار و العلا و العزّ

ولیه عبد الملک بن عیسی‌قبل علی- أعنی الفتی الرئیسا

ثمّ ابن عصرون تولّی الحکماو عاد صدر الدین و هو الأسمی

و السکّری و أبو محمّدقبل ابن عین الدّولة الممجّد

ثمّ تولی یوسف السّنجاری‌و جاء عزّ الدین فی الآثار

و بعده موهوب- أعنی الجزریّ‌و الخونجی ثم العماد الحمویّ

ثمّ أعید یوسف السّنجاری‌ثمّ تلاه التّاج ذو الفخار

و ولی البرهان أعنی الخضراو عاد تاج الدّین فیما غبرا

ثمّ ولی الأحکام محیی الدّین‌و ابن رزین ذو الحجی الرّزین

و بعد عزله تولّاه عمرأعنی العلامیّ و بالعدل أمر

ثمّ أعید ابن رزین فحکم‌و من بعد صدر الدّین عدلا فی الأمم

ثمّ الوجیه البهنسیّ للقضاعیّن بعد ذا التّقیّ إذ قضی

و عندما استعفی لبعد القاهره‌عن مصره خصّ بها أوامره

ثمّ الشهاب رفعوا محلّه‌و أشخصوه من ربی المحلّه

و لم یزل حتّی توفّاه الرّدی‌و ولی الشام الفتی ابن أحمدا

ثم ولی القاضی التقیّ ابن خلف‌بعد الوجیه و الشهاب المنصرف

و عزلوه عن قضاء القاهره‌ثمّ ولیه سیّد السّناجره

ثم ولی التّقی عبد الرحمن‌و بان بدر الدّین لمّا أن بان

و عاد بدر الدّین للشآم‌ثمّ ولی الحکم الفتی العلامی

و لم یزل حتّی توفّاه القضاثمّ ولی التّقی أبو الفتح القضا

و إذ أتاه نازل الحمام‌عاد إلیها البدر فی التمام

بدر منیر کامل الأوصاف‌و المنهل العذب المنیر الصافی

لا برحت نافذة أحکامه‌و خلّدت زاهرة أیّامه

قلت: و قد ذیّلت علیه بمن جاء بعد ذلک، فقلت:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۷ و بعد ذلک قد ولیه الزّرعی‌ثمّ أعید البدر لمّا أن دعی

ثمّ ولیه بعده القزوینی‌و بعده ابن البدر عزّ الدّین

و بعده نجل عقیل قد ولی‌ثمّ أعید العزّ ذا تبجّل

و بعده ولی أبو البقاءو بعده البرهان ذو ارتقاء

و بعده البدر هو السّبکیّ‌ثمّ أتی برهاننا الزکیّ

ثمّ أعید البدر ذو التحقّق‌ثمّ ولیه النّاصر ابن المیلق

ثمّ ولیه صدرنا المناوی‌ثمّ أعید البدر ذو الفتاوی

ثمّ تولّاه العماد الكركى‌ثمّ أعيد الصّدر ذو التمسّك

ثمّ أعيد البدر ثمّ الصّدرثمّ الزّبيرىّ و عاد الصّدر

ثمّ وليه بعد ذاك الصالحىو لم يكن فى علمه بالراجح

ثمّ وليه ولد البلقينى‌عالم عصره جلال الدّين

ثم أعيد الصالحىّ النائى‌ثمّ ولى محمد الإخنائى

و بعده عاد الجلال للقضائمة الإخنائىّ و هو من مضى

ثمّ الجلال بعده الباعونى‌ثمّ الجلال باذل الماعون

ثمّ ولى الهروىّ فالجلالى‌ثمّ العراقىّ و هو ذو الكمال

ثمّ وليه العلم البلقينى‌فحافظ العصر شهاب الدّين

ثم أعيد الهروى ثم استقرّمن بعد عزله شهاب ابن حجر

ثم أعيد شيخنا فابن حجرثم أعيد شيخنا فابن حجر

ثمّ وليه بعده القاياتى‌ثمّ أعيد حافظ السّنات

ثم أعيد شيخنا البلقينى‌ثمّ أتى السّفطى ولىّ الدّين

ثم أعيد بعد ذاك ابن حجرثم أعيد شيخنا ثمّ استقرّ

من بعد ذاك الشرف المناوىو شيخنا من بعد ذو الفتاوى

ثمّ أعيد بعد ذاك الشرف‌ثمّ أعيد شيخنا فالشّرف

ثمّ الصلاح و هو المكينى‌ثمّ ولى البدر هو البلقينى

ثمّ السّيوطى ولىّ الدين ثمّللشيخ أعنى زكريّا الحكم عمّ

ذكر قضاة الحنفية

أوّل من ولى منهم زمن الظاهر بيبرس فى سنة ثلاث و ستّين و ستّمائة صدر الدين سليمان بن أبى العزّ.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۸

و ولى بعده معزّ الدين النعمان بن الحسن، إلى أن مات فى شعبان سنة اثنتين و تسعين [و ستمائة] .

و ولى شمس الدين محمد السّروجىّ ، ثمّ عزل أيّام المنصور لاجين.

و ولى حسام الدين الحسن بن أحمد الرازىّ، ثمّ عزل سنة ثمان و تسعين.

و أعيد السّروجى، ثمّ عزل فى ربيع الآخر سنة عشر و سبعمائة.

و ولى شمس الدين محمد بن عثمان الحريرىّ، إلى أن مات فى جمادى الآخرة سنة ثمان و عشرين.

و ولى برهان الدين إبراهيم بن عبد الحق، و قال بعض الشعراء فى ذلك:

طوبى لمصر فقد حلّ السرور بهامن بعد ما رميت دهرا بأحزان

كنانة اللّه قد قام الدّليل على‌تفضيلها من نبى حقّ ببرهان

ثمّ عزل فى جمادى الآخرة سنة ثمان و ثلاثين.

و ولى حسام الدين الحسن بن محمد الغورى، ثمّ عزل فى سنة اثنتين و أربعين.

و ولى زين الدين عمر البسطامىّ، ثمّ عزل فى جمادى الأولى سنة ثمان و أربعين.

و ولی علاء الدین الترکمانیّ إلی أن مات فی المحرّم سنهٔ خمسین.

و ولی ولده جمال الدین عبد اللّه إلی أن مات فی شعبان سنهٔ تسع و ستین.

و ولی سراج الدین عمر بن إسحاق الهندیّ إلی أن مات فی رجب سنهٔ ثلاث و سبعین.

و ولی صدر الدین محمد بن جمال الدین التّرکمانیّ، إلی أن مات فی ذی القعدهٔ سنهٔ ستّ و سبعین.

و ولی نجم الدین أحمد بن العماد إسماعیل بن الکشک، طلب من دمشق فی المحرّم سنهٔ سبع و سبعین، ثمّ عزل.

و ولی صدر الدّین علیّ بن أبی العزّ الأذرعیّ، ثمّ استعفی فأعفی.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۶۹

و ولی شرف الدّین أحمد بن منصور الدمشقیّ، ثمّ عزل نفسه فی سنهٔ ثمان و سبعین .

و ولی جلال الدین جار اللّه إلی أن مات فی رجب سنهٔ اثنتین و ثمانین.

و ولی صدر الدّین محمد بن علیّ بن منصور إلی أن مات فی ربیع الأوّل سنهٔ ستّ و ثمانین.

و ولی شمس الدّین محمد بن أحمد الطرابلسیّ، ثمّ عزل نفسه سنهٔ اثنتین و تسعین.

و ولی مجد الدین إسماعیل بن إبراهیم الکنانیّ، ثمّ عزل فی شعبان سنهٔ اثنتین و تسعین. حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۱۶۹

ولی جمال الدین محمود القیصریّ إلی أن مات فی ربیع الأوّل سنهٔ تسع و تسعین.

و أعید الطرابلسیّ إلی أن مات فی آخر السنهٔ.

و ولی جمال الدین یوسف بن موسی الملطیّ، طلب من حلب فی ربیع الآخر سنهٔ ثمانمائهٔ، فأقام إلی أن مات فی ربیع الآخر سنهٔ ثلاث.

و ولی أمین الدین عبد الوهاب بن قاضی القضاهٔ شمس الدین الطّرابلسیّ، ثمّ عزل فی رجب سنهٔ خمس.

و ولی کمال الدّین عمر بن العدیم إلی أن مات فی جمادی الآخرهٔ سنهٔ إحدی عشرهٔ.

و ولی ابنه ناصر الدین محمد، ثمّ عزل فی رجب من السنهٔ.

و أعید الأمین بن الطرابلسیّ، ثمّ عزل فی المحرّم سنهٔ اثنتی عشرهٔ.

و أعید ناصر الدین بن العدیم، ثمّ عزل فی سنهٔ خمس عشرهٔ.

و ولی صدر الدین علی بن الأدمیّ إلی أن مات فی رمضان سنهٔ ستّ عشرهٔ.

و أعید ابن العدیم إلی أن مات فی ربیع الآخر سنهٔ تسع عشرهٔ.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۰

و ولی شمس الدین الدّیریّ، طلب من القدس، ثمّ عزل فی ذی القعدهٔ سنهٔ اثنتین و عشرین.

و ولی زین عبد الرحمن بن علی التّفهنیّ، ثمّ عزل فی ربیع الآخر سنهٔ تسع و عشرین.

و ولی بدر الدین العینیّ، ثمّ عزل فی صفر سنهٔ ثلاث و ثلاثین.

و أعید التّفهنیّ، ثمّ عزل فی جمادی الآخرهٔ سنهٔ خمس و ثلاثین.

و أعید العینیّ، ثمّ عزل فی سنهٔ اثنتین و أربعین.

و ولی سعد الدین بن الدیریّ، فأقام إلی أن عزل قبل موته بیسیر فی شوّال سنهٔ ست و ستین .

و ولی محبّ الدین بن الشّحنهٔ، ثمّ عزل فی رجب سنهٔ سبع و ستین.

و ولی بدرّ الدین بن الصوّاف الحمویّ إلی أن مات آخر العام، و أعید ابن الشّحنهٔ، ثمّ عزل فی جمادی الآخرهٔ سنهٔ سبعین.

ولی البرهان بن الدّیریّ، ثمّ عزل.

و أعید ابن الشّحنة فی أول سنة إحدی و سبعین، ثمّ عزل فی سنة ستّ و سبعین.

و ولی شمس الدین محمد بن الحسن الأمشاطیّ، إلی أن مات فی رمضان سنة خمس و ثمانین.

و ولی شرف الدین موسی بن عید، طلب من دمشق، فأقام دون الشّهرین، و مات من واقع وقع علیه من الزّلزلة بالمدرسة الصالحیّة فی المحرّم سنة ستّ و ثمانین.

و ولی شمس الدین محمد بن المغربیّ، ثمّ عزل فی رمضان سنة إحدی و تسعین.

و ولی القاضی ناصر الدین الإخمیمیّ.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۱

ذکر قضاة المالکیة

أوّل من ولی منهم زمن الظّاهر شرف الدین عمر بن السّبکیّ، إلی أن مات سنة سبع و ستّین و ستمائة .

و ولی بعده نفیس الدین بن شکر إلی أن مات فی ثمانین و ستّمائة.

و ولی تقیّ الدین بن شاس، إلی أن مات فی ذی الحجة سنة خمس و ثمانین.

و ولی زین الدین بن مخلوف النّویریّ إلی أن مات فی خمس و سبعمائة.

و ولی نور الدّین علیّ بن عبد النّصیر السخاویّ، إلی أن مات فی جمادی الأولی سنة ستّ و خمسین.

و ولی تقیّ الدین محمد بن أحمد بن شاس، إلی أن مات فی شوّال سنة ستّین و سبعمائة.

و ولی تاج الدّین محمد بن القاضی علم الدّین محمد بن أبی بکر بن الأخنائیّ إلی أن مات فی أوّل سنة ثلاث و ستّین.

و ولی أخوه برهان الدین إبراهیم ، إلی أن مات فی رجب سنة سبع و سبعین.

و ولی ابن أخیه بدر الدین عبد الوهاب بن الکمال أحمد، ثم صرف فی ذی القعدة سنة ثمان و سبعین.

و ولی علم الدّین سلیمان بن خالد البساطیّ، ثمّ عزل فی صفر سنة تسع و سبعین.

و أعید البدر الإخنائیّ، ثمّ صرف فی رجب من السنة.

و أعید البساطیّ فی سنة ثلاث و ثمانین.

و ولی جمال الدین عبد الرحمن بن محمد بن خیر السکندریّ، و قال بعضهم فی ذلک:

قالوا تولیّ ابن خیرفقیه ثغر الرّباط

فقلت: ذا فیض خیرمن بعد خیر البساط

ثمّ عزل فی جمادی الآخرة سنة ستّ و ثمانین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۲

و ولی عبد الرحمن بن خلدون، ثمّ عزل فی جمادی الآخرة سنة سبع و ثمانین.

و أعید ابن خیر إلی أن مات سنة إحدی و تسعین.

و ولی تاج الدین محمد بن یوسف الکرکیّ ، إلی أن مات فی شوال سنة ثلاث تسعین.

و ولی شهب الدین النّحریریّ، ثمّ عزل فی ذی الحجّة من السنة.

و ولی ناصر الدین أحمد بن محمد التّنسی، إلی أن مات فی رمضان سنة إحدی و ثمانمائة.

و ولی ولیّ الدین بن خلدون، ثمّ عزل فی المحرّم سنة ثلاث.

و ولى نور الدّين على بن الخلّال إلى أن مات من عامه.

و ولى جمال الدّين عبد اللّه الأقفهسىّ، ثمّ عزل بعد شهر.

و أعيد ابن خلدون، ثمّ عزل فى شعبان سنة أربع.

و ولى جمال الدين يوسف البساطىّ، ثمّ صرف فى ذى الحجّة من السنة.

و أعيد ابن خلدون، ثمّ صرف فى ربيع الأول سنة ستّ.

و أعيد البساطىّ، ثمّ صرف فى رجب سنة سبع.

و أعيد ابن خلدون، ثمّ صرف فى ذى القعدة من عامه.

و أعيد الجمال الأقفهسىّ.

ثمّ ولى جمال الدين عبد اللّه بن القاضى ناصر الدين التّنسىّ فى مستهلّ ربيع الأول سنة ثمان، ثم عزل بعد يومين.

و أعيد البساطىّ، ثم صرف فى رمضان من عامه.

و أعيد ابن خلدون، ثم لم يلبث أن مات .

و أعيد جمال الدين التنسىّ، ثمّ صرف فى سادس عشر شوال.

و أعيد البساطىّ، ثمّ صرف فى شوّال سنة اثنتى عشرة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۳

و ولى شمس الدين محمد بن على المدنىّ، ثمّ صرف فى ربيع الآخر سنة ستّ عشرة.

و ولى شهاب الدين الأموىّ، ثم أعيد الجمال الأقفهسىّ إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث و عشرين.

و ولى العلامة شمس الدين البساطىّ ، فأقام إلى أن مات فى رمضان سنة اثنتين و أربعين.

و ولى بدر الدين بن القاضى ناصر الدين التّنسىّ إلى أن مات فى صفر سنة ثلاث و خمسين.

و ولى وليّ الدين السنباطىّ، إلى أن مات فى رجب سنة إحدى و ستّين.

و ولى حسام الدين بن جرير إلى أن مات سنة ثلاث و سبعين.

و ولى أخوه سراج الدّين ثمّ عزل، و ولى البرهان اللّقانىّ، ثمّ عزل فى جمادى سنة ستّ ثمانين.

و ولى صاحبنا محيى الدين بن تقىّ.

ذكر قضاة الحنابلة

أوّل من ولى منهم زمن الظاهر شمس الدين محمد بن العماد الجمّاعيلىّ، ثمّ عزل سنة سبعين و ستمائة، و لم يل الوظيفة بعد عزله أحد حتّى توفّى سنة ست و سبعين.

و ولى عزّ الدين عمر بن عبد اللّه بن عوض فى جمادى الآخرة سنة ثمان و سبعين، إلى أن مات فى سنة ستّ و تسعين.

و ولى شرف الدين عبد الغنىّ بن يحيى الحرّانى، إلى أن مات فى ربيع الأول سنة تسع و سبعمائة.

و ولى الحافظ سعد الدين الحارثىّ، ثمّ عزل فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۴

و ولى تقىّ الدين بن قاضى القضاة عزّ الدين عمر، ثمّ عزل.

و ولى موفّق الدين عبد اللّه بن محمد المقدسىّ فى جمادى الآخرة سنة ثمان و ثلاثين، إلى أن مات فى المحرّم سنة تسع و ستّين.

و ولى ناصر الدين نصر اللّه بن أحمد العسقلانىّ، إلى أن مات فى شعبان سنة خمس و تسعين.

و ولی ابنه برهان الدین إبراهیم، إلی أن مات فی ربیع الأول سنهٔ اثنتین و ثمانمائهٔ.

و ولی أخوه موفّق الدین أحمد بن نصر اللّه، ثمّ صرف.

و ولی نور الدین علی الحکریّ، ثمّ صرف.

و أعید موفّق الدین إلی أن مات فی رمضان سنهٔ ثلاث و ثمانمائهٔ.

و ولی مجد الدین سالم ثمّ صرف فی سنهٔ ثمانی عشرهٔ .

و ولی علاء الدین علی بن مغلی، إلی أن مات فی صفر سنهٔ ثمان و عشرین.

و ولی محبّ الدین أحمد بن نصر اللّه البغدادیّ، ثمّ صرف فی جمادی الآخرهٔ سنهٔ تسع و عشرین.

و ولی عزّ الدین عبد العزیز بن علی البغدادیّ، ثمّ صرف فی سنهٔ إحدی و ثلاثین .

و أعید محبّ الدین إلی أن مات فی جمادی الأولی سنهٔ أربع و أربعین.

و ولی بدر الدّین محمد بن عبد المنعم البغدادیّ، إلی أن مات فی جمادی الأولی سنهٔ سبع و خمسین.

و ولی شیخنا عزّ الدین أحمد بن قاضی القضاهٔ برهان الدین بن قاضی القضاهٔ نصر اللّه إلی أن مات فی سنهٔ ستّ و سبعین .

و ولی تلمیذه البدر السعدیّ.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۵

ذکر وزراء مصر

اعلم أنّ الوزارهٔ وظیفهٔ قدیمهٔ کانت للملوک من قبل الإسلام؛ بل من قبل الطوفان، و کانت للأنبیاء؛ فما من نبیّ إلّا و له وزیر، قال تعالی حکایهٔ عن موسی علیه السّلام: وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی* هارُونَ أَخِی* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی* وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی [طه: ۲۹- ۳۲]، و قال تعالی مخاطبا له: سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً [القصص: ۳۵].

و کان للنبیّ صلی اللّه علیه و سلم أربعهٔ وزراء؛ روی البزّار و الطّبرانیّ فی الکبیر عن ابن عباس، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «إنّ اللّه أیّدنی بأربعهٔ وزراء اثنین من أهل السماء: جبریل و میکائیل، و اثنین من أهل الأرض: أبی بکر و عمر».

و قد وردت الأحادیث فی وزراء الملوک، روی أبو داود عن عائشهٔ، قالت: قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم: «إذا أراد اللّه بالأمیر خیرا جعل له وزیر صدق؛ إن نسی ذکّره، و إن ذکر أعانه، و إذا أراد اللّه به غیر ذلک جعل له وزیر سوء؛ إنّ نسی لم یذکّره، و إن ذکر لم یعنه».

و لم تکن الوزارهٔ فی صدر الإسلام إلاّ للخلفاء دون أمراء البلاد، فکان وزیر أبی بکر الصدیق عمر بن الخطاب، و وزیر عمر و وزیر عثمان مروان بن الحکم؛ ذکره ابن کثیر فی تاریخه.

و وزیر عبد الملک روح بن زنباع، و وزیر سلیمان بن عبد الملک عمر بن عبد العزیز.

قال ابن کثیر: و کان رجاء بن حیوهٔ وزیر صدق لخلفاء بنی أمیّهٔ. و وزیر هشام بن عبد الملک فمن بعده عبد الحمید بن یحیی؛ غیر أنّه لم یکن أحد فی عهدهم یلقّب بالوزیر، و لا یخاطب بوصف الوزارهٔ.

و أوّل من لقّب الوزیر فی الإسلام أبو سلمهٔ حفص بن سلیمان الخلّال وزیر الخلیفهٔ السّفّاح، أوّل خلفاء بنی العباس .

و قال ابن فضل اللّه فی المسالک: لم تکن للوزارهٔ رتبهٔ تعرف مدهٔ بنی أمیّهٔ و صدرا من دولهٔ السّفّاح، بل کان کلّ من أعان الخلفاء علی أمرهم، یقال له: فلان وزیر فلان؛

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۶

بمعنی أنّه مؤازر له، لا أنّه متولّی رتبهٔ خاصّهٔ یجری لها قوانین، و تنتظم بها دواوین.

و أوّل من فخّم قواعد الملک فی هذه الأمّة، و عظّم عوائد السلطان عبد الملک بن مروان؛ إذ لم یستتبّ الأمر لأحد بعد عثمان بن عفّان کما استتبّ له، و کان منه إلی معاویة خبط عشواء، و أمّا معاویة فعمرو بن العاص، و إن کان له وزرا و رداء، فإنّه أجلّ قدرا و أعظم أمرا من أنّه یجری معه مجری الوزراء، إذ کان لا یزال کالممتنّ علیه لانحیازه إلی جمعه مع ما یکنّه له فی شرفه ... و سابقته فی الإسلام.

و أوّل من دعی بالوزیر فی دولة السّفاح أبو سلمة حفص سلیمان الخلّال؛ و کان یقال له وزیر آل محمد؛ ثمّ إنّ أبا مسلم الخراسانیّ بعث إلیه من قتله، و فیه قیل هذا البیت:

إنّ الوزیر وزیر آل محمّدأودی فمن یشناک کان وزیرا

و وزر للسفاح بعده أبو الجهم بن عطیّة، و خالد بن برمک، و سلیمان بن مخلد، و الربیع بن یونس.

و وزر للمنصور أبو أیّوب المورِیانیّ و عبد الجبار بن عبد الرحمن و الربیع بن یونس، و خالد بن برمک، و سلیمان بن مخلد، و عبد الحمید.

و وزر للمهدیّ معاویة بن عبد اللّه الطبریّ، و یعقوب بن داود بن طهمان، و الفیض بن صالح.

و وزر للهادی الرّبیع بن یونس، و الفضل بن الربیع، و إبراهیم بن ذکوان.

فلمّا استخلف الرّشید ولّی الوزارة یحیی بن خالد البرمکیّ، و قال له: فوّضت إلیک أمر الرعیّة، و خلعت ذلک من عنقی، و جعلته فی عنقک، فولّ من شئت، و اعزل من شئت؛ و قال إبراهیم الموصلی فی ذلک:

أ لم تر أنّ الشمس کانت سقیمةفلمّا ولی هارون أشرف نورها

تبسّمت الدّنیا جمالا بملکه فهارون و الیها و یحیی وزیرها

و من هذا الوقت عظم أمر الوزارة، و لم تکن قبل ذلک بهذه المثابة؛ و هی عن الخلافة فی معنی السلطنة عن الخلافة الآن؛ و کانت البرامکة کلّهم فی معنی الوزراء،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۷

للرشید خالد بن برمک و أولاده یحیی و الفضل و جعفر؛ حتّی قال سلم الخاسر:

إذا ما البرمکی غدا ابن عشرفهمته أمیر أو وزیر

ثمّ لما قتل الرشید البرامکة، استوزر الفضل بن الربیع بن یونس، و فی ذلک یقول أبو نواس:

ما رعی الدّهر آل برمک لمّاأن رمی ملکهم بأمر فظیع

إنّ دهرا لم یرع عهدا لیحییغیر راع ذمام آل الربیع

و وزر للأمین الفضل أیضا.

و وزر للمأمون الفضل بن سهل ذو الرئاستین، و أخوه الحسن بن سهل، و أحمد ابن أبی خالد ، و عمرو بن مسعدة.

و وزر للمعتصم الفضل بن مروان، و أحمد بن عمّار، و محمد بن عبد الملک الزیات.

و وزر للواثق محمّد بن عبد الملک الزیات.

و وزر للمتوکل محمد بن عبد الملک أیضا، و الفتح بن خاقان ، و محمد بن الفضل الخراسانی ، و عبید اللّه بن یحیی بن خاقان.

و وزر للمنتصر أحمد بن الخصیب.

و وزر للمستعین ابن الخصیب، و سعید بن حمید.

و وزر للمعتزّ جعفر الإسکاف و عیسی بن فرّوخ شاه و أحمد بن إسرائیل.

و وزر للمهتدی [عیسی بن فرخانشاه] .

و وزر للمعتد عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان و الحسن بن مخلد و سليمان بن وهب و ابنه عبيد اللّه بن سليمان و إسماعيل بن بلبل .

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۸

قال محمّد بن عبد الملك الهمدانیّ فی کتاب عنوان السّیر: وزر للمعتضد أبو القاسم عبيد اللّه بن سليمان بن وهب، ثمّ ابنه أبو الحسين القاسم، و هو أوّل وزير لقّب فی الدولة، فإنّ المعتضد لقّبه وليّ الدولة، توفّی فی زمن المكتفی، فوزر له أبو أحمد العباس بن الحسن بن أحمد بن أيوب، و هو أول وزير منع أصحاب الدواوين من الوصول إلى الخليفة.

و وزر للمقتدر أبو الحسن علیّ بن محمد بن الفرات ثلاث مرات، و أبو علیّ محمد بن الوزير أبی الحسن عبيد اللّه بن خاقان، و أبو الحسن علیّ بن عيسى بن داود ابن الجراح مرّتين. قال الصولیّ: و لا أعلم أنّه وزر لبنی العباس وزير يشبهه فی زهده و عفّته و تعبّده، كان يصوم نهاره، و يقوم ليله، و كان يسمّى الوزير الصالح.

و قال الذهبیّ فی العبر: كان فی الوزراء كعمر بن عبد العزيز فی الخلفاء، و أبو محمد حامد بن العباس، و كان له أربعمائة مملوك يحملون السلاح، و لكلّ منهم عدّة مماليك، و كان يخدمه على بابه ألف و سبعمائة راجل و عشرون حاجبا، يجرى مجرى الأمراء.

و أبو العباس أحمد بن عبيد اللّه بن الوزير أبی العباس بن الخصيب، و أبو على محمد بن أبی العباس بن مقلة صاحب الخطّ المنسوب، و لمّ خلع عليه بالوزارة قال نفطويه النحویّ:

إذا أبصرت فی خلع وزيرافقل أبشر بقاصمة الظّهور

بأيا طوال فی بلاءو أيّام قصار فی سرور

و أبو علیّ الحسين بن الوزير أبی الحسين القاسم بن الوزير عبيد اللّه، و لقّب عميد الدولة، و أبو القاسم سليمان بن الوزير، و أبو محمد الحسن بن مخلد بن الجرّاح و أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات المعروف بابن حنزابة، هؤلاء وزراء المقتدر.

و وزر للقاهر أبو علیّ بن مقلة، و أبو العباس بن الخصيب، و أبو جعفر محمد بن الوزير القاسم بن الوزير عبيد اللّه .

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۷۹

و وزر للرّاضی أبو علیّ بن مقلة و ابنه علیّ أبو الحسين شريكا مع أبيه؛ فكانت الكتب يكتب عليها: «من أبی علیّ و علیّ بن أبی علیّ». و لم يل الوزارة أصغر سنّا من علیّ هذا، فإنه ولی و سنّه ثمانی عشرة سنة. و أبو الفتح الفضل بن الفرات، و أبو علیّ عبد الرحمن بن علیّ بن عيسى بن داود بن الجراح، و أبو القاسم سليمان بن الجراح، و أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخیّ و أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن يعقوب البريدیّ. و فی أيّام الراضی تغلّب محمد بن رائق، و ولی إمارة الأمراء، و صارت الكتب تؤرّخ عن ابن رائق، و تقدّم على الوزير، فسقط حكم الوزارة من ذلك الوقت.

و وزر للمقتفی علیّ بن مقلة، و أبو القاسم سليمان بن الجرّاح، و أبو جعفر الكرخیّ و أبو عبد اللّه البريدیّ، و أبو الحسين أحمد بن محمد بن ميمون الأفطس، و أبو إسحاق محمد بن أحمد القراريطیّ الإسكافیّ و أبو العباس أحمد بن عبد اللّه الأصفهانیّ.

و وزر للمستكفی أبو الفرج محمد بن على السريریّ. قال الهمدانیّ: و صادره توزون على ثلاثين ألف دينار. و انتقلت الوزارة من كتّاب الخلفاء إلى كتّاب الديلم، فلم يخاطب بوزير غيرهم، و كتب أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازیّ للمستكفی، و كتب أبو نصر إبراهيم بن الوزير أبی الحسن علیّ بن على بن عيسى للمطيع، و كتب أبو الحسن علیّ بن جعفر الأصبهانی للطّائع، و بعده أبو القاسم عيسى بن الوزير أبی الحسن علیّ بن عيسى، و بعده أبو الحسن على بن عبد العزيز بن حاجب النعمان، و خوطب برئيس الرؤساء.

و كتب أيضا للقادر، و بعده ابنه أبو الفضل، و بعده أبو طالب محمد بن أيّوب و لقّب عميد الرؤساء.

و كتب أيضا للقائم و بعده رئيس الرؤساء أبو القاسم علیّ بن أبی الفرج الحسن بن مسلمة، و خوطب وزير أمير المؤمنين؛ و هو الذی استدعى الغزّاليّ إلى بغداد، و أزال دولة بنی بويه.

و وزر بعده للقائم أبو الفتح منصور بن أحمد بن ذاوست الشيرازىّ، و هو أوّل من خوطب بالوزير لدار الخلافة فى الدولة السّلجوقية، و وزر بعده فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير الموصلىّ.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۰

و وزر أيضا للمقتدى، و بعده ولده عميد الدولة شرف الدين أبو منصور محمد، و عزل بالوزير أبى شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين، ثمّ عزل و أعيد عميد الدولة.

و قال شجاع حين عزل:

تولّاها و ليس له عدوّو فارقها و ليس له صديق

و وزر للمستظهر عميد الدولة، و سديد الملك أبو المعالى الفضل بن عبد الرزاق الأصبهانىّ، و أخو عميد الدولة زعيم الرؤساء أبو القاسم علىّ بن محمد بن جهير، و أبو المعالى هبة اللّه بن محمد بن علىّ بن المطّلب، و نظام الدين أبو منصور الحسين بن أبى شجاع.

و وزر للمسترشد ابنه عضد الدولة أبو شجاع، و سنّه تسع عشرة سنة و ستة أشهر، و لم يل الوزارة أصغر منه، و أبو نصر أحمد بن نظام الملك، و عميد الدولة جلال الدين أبو علىّ الحسن بن صدقة، و شرف الدين صدر الإسلام أنو شروان بن خالد القلسانىّ؛ و هو الذى كلّف الحريرى تصنيف المقامات، و شرف الدين يمين الدلة أبو القاسم علىّ ابن طراد الزينبىّ العباسى؛ قال الهمدانىّ: و لم يل الوزارة عباسىّ سواه، و لقّب معزّ الإسلام عضد الإمام صدر الشرق و الغرب و كذا قال ابن كثير: لا يعرف أحد من العباسيين باشر الوزارة غيره.

و أمّا الراشد فلم يرتّب له وزير مراقبة للعسكرىّ، و كان المتولّى لأمره ناصح الدولة بهاء الدين أبو عبد اللّه الحسين بن جهير أستاذ الدار إذا ذاك، و جلس للمظالم فى بيت التوبة جلوس الوزراء، و وزر له بالمعسكر جلال الدين بن أنوشروان، و ما تمّت وزارته، و وزر له جلال الدين أبو الراضى بن صدقة.

و وزر للمقتفى شرف الدين الزينبىّ، و نظام الدين أبو نصر المظفّر بن الزعيم علىّ بن جهير، و عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة، و هو مصنّف كتاب الإفصاح، و كان من خيار الوزراء و علمائهم، و كان يبالغ فى إقامة الدولة العباسيّة و حسم مادة الملوك السلجوقية عنهم بكلّ ممكن، حتّى استقرّت الخلافة بالعراق كلّه، ليس للملوك معهم حكم بالكليّة، و للّه الحمد.

و وزر للمستنجد ابن هبيرة المذكور إلى أن مات سنة ستّين و خمسمائة، فوزر بعده شرف الدّين أبو جعفر ابن البلدىّ، و لقّب جلال الدين معزّ الدولة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۱

و وزر للمستضىء عضد الدولة رئيس الرؤساء محمد بن عبد اللّه بن المظفّر، و قيماز المستنجدىّ ، و عضد الدولة بن رئيس الرؤساء بن المسلمة.

و وزر للناصر أبو المظفر جلال الدين عبد اللّه بن يونس الحنبلىّ، و مؤيّد الدين أبو الفضل محمد بن على بن القصّاب، و عز الدين أبو المعالى سعيد بن على بن حديدة الأنصارىّ، و نصير الدين ناصر بن مهدىّ العلوىّ، و مؤيد الدين محمد بن محمد ابن عبد الكريم القمّى.

و وزر للظاهر القمىّ هذا.

و وزر للمستنصر القمّى أيضا، و شمس الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد بن الناقد، و نصير الدين العلقمىّ.

و وزر للمستعصم نصير الدين محمد بن الناقد إلى أن مات سنة اثنتين و أربعين و ستمائة. فلما مات استوزر مؤيّد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن العلقمىّ، و هو الوزير المشؤوم على الخليفة، و على بقيّة بنى العباس، و على سائر المسلمين و على نفسه أيضا؛ فإنه الذى مالأ التّتار، حتّى قدموا و أخذوا بغداد، و قتلوا الخليفة، و جرى ما جرى، و قال فيه بعضهم:

یا فرقة الإسلام نوحوا و اندبواأسفا علی ما حلّ بالمستعصم

دست الوزارة کان قبل زمانهلابن الفرات فصار لابن العلقمی

و قال ابن فضل اللّه فی ترجمته: وزیر ولیته ما وزر، و ارتفع رأسه ولیته رضّ بالحجر، کمن کمون الأرقم ، و سقی النّاس من کأسه العلقم.

*** و أما مصر فکانت إمرة بلا وزارة إلی أیّام السلطان أحمد بن طولون، فعظم أمرها، و وزر لخمارویه أبو بکر محمد بن رستم الماذرائیّ الکاتب.

و وزر لکافور الإخشیدیّ أبو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۲

و وزر للمعزّ جوهر القائد.

و للعزیز أبو الفرج یعقوب بن یوسف بن کلّس، و کان یهودیّا فأسلم، و فوّض إلیه الأمور فی سائر مملکته، قال ابن زولاق: هو أوّل من وزر للدولة العبیدیة بالدیار المصریّة، و کان من جملة کتّاب کافور، فلما مات حزن علیه العزیز حزنا شدیدا، و أغلق الدیوان أیاما من أجله، و کانت وفاته سنة ثمانین و ثلثمائة.

و وزر بعده نصرانیّ یقال له عیسی بن نسطورس، ثم قبض علیه.

و وزر للظاهر أبو القاسم علی بن أحمد الجرجرائیّ فی سنة ثمانی عشرة و أربعمائة إلی أن مات فی زمن المستنصر سنة ست و ثلاثین، فوزر بعده أبو نصر صدقة بن یوسف الفلّاحیّ، و کان یهودیا فأسلم، و فیه یقول الحسن بن خاقان الشاعر المصریّ:

حجاب و إعجاب و فرط تصلّفو مدّ ید نحو العلا بتکلّف

فلو کان هذا من وراء کفایةعذرنا و لکن من وراء تخلّف

و کان معه أبو سعد التّستریّ الیهودی یدبّر الدولة له، فقال بعض الشعراء:

یهود هذا الزمان قد بلغوا غایة آمالهم و قد ملکوا

العزّ فیهم و المال عندهمو منهم المستشار و الملک

یا أهل مصر إنی نصحت لکمتهوّدوا قد تهود الفلک

ثمّ عزل الفلّاحیّ سنة تسع و ثلاثین؛ و وزر بعده أبو البرکات الحسین بن محمد بن أحمد الجرجرائیّ ابن أخی الوزیر صفیّ الدین، ثمّ صرف فی شوال سنة إحدی و أربعین.

و وزر القاضی أبو محمد الحسن بن علی البازوریّ مضافا لقضاء القضاة، و لقّب الناصر للدین، غیّاث المسلمین الوزیر الأجلّ المکین سیّد الرؤساء تاج الأصفیاء قاضی القضاة، و داعی الدعاة. و فی أیامه سأله المستنصر أن یکتب اسمه معه علی السکّة، فکان ینقش علیها:

ضربت فی دولة آل الهدیمن آل طه و آل یاسین

مستنصر باللّه جلّ اسمهو عبده الناصر للدین

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۳

«سنة کذا»، و طبعت علیها الدنانیر نحو شهر، فأمر المستنصر ألّا تسطر فی السیر.

ثمّ عزل البازوریّ، عن الوزارة و القضاء فی المحرّم سنة خمسین.

و وزر أبو الفرج عبد اللّه بن محمد البابلیّ، ثمّ صرف فی ربیع الأول من السنة.

و وزر أبو الفرج محمد بن جعفر المغربیّ، ثمّ صرف فی رمضان سنة اثنتین و خمسین.

و أعيد البابليّ، ثمّ صرف فی المحرم سنة ثلاث و خمسين.

و وزر أبو الفضل عبد اللّه بن يحيى بن المدبّر ثمّ صرف فی رمضان.

و وزر أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم أخو قاضی القضاة إلى أن مات فی المحرّم سنة أربع و خمسين.

و وزر أخوه أبو عليّ أحمد مصروفا عن القضاء، ثمّ صرف فی شوّال، و أعيد أبو الفرج البابليّ، ثمّ صرف فی المحرّم سنة خمس و خمسين.

و أعيد أبو عليّ أحمد بن عبد الحاكم، مضافا للقضاء، ثمّ صرف فی صفر، و أعيد أبو الفضل بن المدبّر، فمات فی جمادى الأولى من السنة.

و وزر أبو غالب عبد الظاهر بن الفضل بن الموفّق المعروف بابن العجمی، ثم صرف فی شعبان.

و وزر الحسن بن مجلّی بن أسد بن أبی كدينة مضافا للقضاء، ثمّ صرف فی ذی الحجّة.

و وزر أحمد بن عبد الحاكم مضافا للقضاء، ثمّ صرف فی المحرّم سنة ستّ و خمسين.

و وزر أبو المكارم المشرف بن أسعد بن عقيل، ثمّ صرف فی ربيع الآخر.

و أعيد أبو غالب عبد الظاهر، ثمّ صرف فی رجب.

و وزر أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بجرجرای، ثمّ صرف فی رمضان و أعيد الحسن بن مجلّی، ثمّ صرف فی ذی الحجة.

و وزر أبو عليّ الحسن بن أبی سعد إبراهيم بن سهل التّستريّ، ثمّ صرف.

و وزر محمد بن جعفر المغربيّ ثم صرف.

و وزر جلال الملك ثم صرف.

و وزر خطير الملك بن الوزير البازوريّ، ثمّ صرف و أعيد ابن أبی كدينة، ثمّ صرف فی سنة ستّ و ستين.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۴

و ولی الوزارة التّستريّ، ثمّ صرف فی نصف المحرم سنة سبع و خمسين.

و وزر أبو شجاع محمد بن الأشرف أبو غالب محمد بن عليّ بن خلف، ثمّ صرف ثانی يومه عنها، و أعيد ابن أبی كدينة، ثمّ صرف بعد أربعة أيام.

و أعيد أبو شجاع بن الأشرف، ثم صرف فی نصف ربيع الأول.

و وزر سديد الدولة أبو القاسم هبة اللّه بن محمد الرحبيّ، ثمّ صرف فی ربيع الآخر.

و أعيد ابن أبی كدينة، ثمّ صرف فی رجب.

و أعيد أبو المكارم المشرف بن أسعد، ثمّ صرف فی شوّال.

و وزر الأمير أبو الحسن علی بن الأنباريّ، ثمّ صرف فی ذی الحجة.

و أعيد سديد الدولة هبة اللّه، ثمّ صرف فی ربيع الآخر سنة ثمان و خمسين.

و وزر جلال الملك أحمد بن عبد الكريم مضافا للقضاء، ثمّ صرف بعد أيام.

و وزر أبو الحسن بن طاهر بن وزير، ثمّ صرف بعد أيام.

و وزر أبو عبد اللّه محمد بن أبی حامد التنسی يوما واحدا، ثمّ صرف.

و وزر أبو سعد منصور بن زنبور ثمّ هرب بعد أيّام.

و وزر أبو العلاء عبد الغنی بن نصر بن سعيد، ثمّ صرف بعد أيام.

و أعيد ابن أبی كدينة.

و ولی الوزارة أمیر الجیوش بدر بن عبد اللّه الجمالی، و إلیه تنسب قیساریّة أمیر الجیوش، و العامة یقولون «مرجوش»، و هو بانی الجامع الّذی بثغر الإسکندریة بسوق العطّارین، فأقام إلی أن مات سنة ثمان و ثمانین و أربعمائة، فقام فی الوزارة ولده الأفضل أبو القاسم شاهنشاه، فوزر للمستنصر بقیّة أیّامه و للمستعلی و صدرا من ولایة الآمر، ثمّ إنّه قتل، ضربه فداوی و هو راکب، و ذلک فی رمضان سنة خمس عشرة و خمسمائة. قال ابن خلّکان: و ترک من الأموال ما یفوق العدّ من ذلک من الذهب العین ستمائة ألف ألف دینار، و من الفضة مائتین و خمسین أردبا، و سبعین ألف ثوب دیباج أطلس، و دواة ذهب فیها جوهر باثنی عشر ألف دینار، و خمسمائة صندوق للبس بدنه،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۵

و صندوقان کبیران فیهما إبر ذهب برسم النساء، و من سائر الأنواع ما لا یعلم قدره إلا اللّه.

و قام فی الوزارة مکانه أبو عبد اللّه محمد بن مختار بن بابک البطائحیّ، و لقّب المأمون، و هو بانی الجامع الأقمر، و له صنف الإمام أبو بکر الطرطوشی کتاب سراج الملوک، ثمّ قبض علیه الآمر، و قتله فی سنة تسع عشرة .

و قام فی الوزارة أبو علیّ بن الأفضل، و لقّب أمیر الجیوش، فلما ولی الحافظ استحوذ الوزیر علی الأمور دونه، و حصر الحافظ فی موضع لا یدخل علیه إلا من یریده، و نقل الأموال من القصر إلی داره، و لم یبق للحافظ سوی الاسم فقط، و دعا لنفسه علی المنابر بناصر أیام الحقّ، هادی العصاة إلی اتّباع الحق، مولی الأمم، و مالک فضیلتی السیف و القلم. و خطب للمهدی المنتظر آخر الزمان، فلم یزل کذلک إلی أن قتل فی العشرین من المحرّم سنة خمس و عشرین، قتله مملوک أفرنجیّ للحافظ بأمره.

و استوزر بعده مملوکه أبا الفتح بالبس الحافظیّ، و لقّب أمیر الجیوش أیضا، ثمّ تخیّل منه الحافظ، فدسّ علیه من سمّمه فی ماء الاستنجاء، فمات.

و استوزر بعده ابنه الحسن- أعنی ابن الحافظ الخلیفة- و کان ولیّ عهد أبیه، فأقام ثلاثة أعوام، یظلم ظلما فاحشا؛ حتّی إنه قتل فی لیلة أربعین أمیرا، فخافه أبوه، فدسّ علیه من سمّه، فهلک فی سنة تسع و عشرین .

ثم استوزر بهرام الأرمنی النصرانیّ، و لقّب تاج الدولة، فتمکّن فی البلاد، و أساء السیرة، فقبض علیه الحافظ، و سجنه.

و استوزر بعده رضوان بن الوحشیّ ، و لقبه الملک الأفضل، و لم یلقّب وزیر بذلک قبله، ثمّ وقع بینه و بین الحافظ، فقتله سنة اثنتین و أربعین و خمسمائة، و استقلّ بتدبیر أموره وحده من غیر وزیر.

فلمّا ولی الظافر سنة أربع و أربعین و خمسمائة، استوزر أبا الفتح بن فضالة بن

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۶

المغربیّ، و لقّب أمیر الجیوش، فأحسن السیرة، ثم قتل سنة خمس و أربعین.

و وزر ابن سلّار، و لقب الملک العادل، ثمّ قتل من عامه.

و وزور أبو نصر عباس الصّنهاجیّ ، فدسّ علیه الظافر من قتله فقتل هو أیضا.

فلما أقیم الفائز وزر له طلائع بن رزّیک، و تلقّب بالملک الصالح، و هو صاحب الجامع بجوار باب زویلة، و خلع علیه مثل الأفضل أمیر الجیوش بدر الجمالی من الطّیلسان المقوّر، و کتب له تقلید من إنشاء الموفق أبی الحجّاج یوسف بن علی بن الخلّال و هذه صورته:

بسم اللّه الرحمن الرحیم، أما بعد فالحمد للّه، المنعم علی المخلصین من أولیائه بسوابغ آلائه، و المتکفّل لمن نصره بنصره و تثبیت قدمه و إعلائه، الممهّد لمن قام بحقّه أرفع مراتب الدنیا و الآخرة، و الموضّح لمن حامی عن الدولة الفاطمیة آیات التأیید الباهرة، و الجامع القلوب علی طاعة من أطاعه فی الدفاع عن أهل بیت نبیّه، و المحسن إلی من أحسن إلی مهجته غیرة لأئمة الهدی المصطفین من عترة وصیّه، و المذلّل الصعاب لمن رفع رایة الإیمان و نشرها، و المیسّر الطّلاب لمن أحیا کلمة التوحید و أنشرها، ممّن أحبّ اللّه

و رسوله ممّن اصطفاه من أبرار عباده، و الماحی إساءة من أعلن ببیان الحقّ و جهر بعباده، و المعرض من أسعده بالسبق إلی مرضاته، لنیل غایات المنّ الجسیم و المرتّب من جاء فی ذاته، فی أرفع مراتب الإجلال و التفخیم، و الموجب لمن أخلص منه و أحسن عملا تعجیل مقام الفخر الکریم، و تأجیل الخلود فی النعیم، ذلک فضل اللّه یؤتیه من یشاء و اللّه ذو الفضل العظیم.

و الحمد للّه الذی أوضح أنوار الحقائق بأنبیائه الهداة، و أبان برسله الأمناء لعباده مناهج النجاة، و جعل العمل بمراشدهم ذریعة الموقنین إلی علیّ المنازل و رفیع الدرجات، و ختمهم بأفضلهم نفسا و محتدا، و أحقّهم بأن یکون لکفاتهم سیّدا، محمد هادی الأنام، و الداعی إلی الإسلام، و المخصوص بانشقاق القمر و تظلیل الغمام، و أورث أخاه و ابن عمّه باهر شرفه و بارع علمه، و أفرده بإمامة البشر و خصّ، و أقرّها فی فی عقبه إلی یوم القیامة بجلیّ النصّ، فأصبحت الإمامة للملّة الحنیفیّة قواما، و لأسباب الشریعة بأسرها نظاما، و نقل اللّه نورها فی أئمة الهدی من نسله فتناولها الآخر من الأوّل، و تلقّاها الأکمل عن الأکمل، فکلّما رام معاند بحیف نورها، أو قصد منافق إخفاء ظهورها، زاد أنوارها إشراقا، و وجد لبدورها کمالا و اتّساقا، و مکّن قواعد دولتها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۷

و إن زحزحها الغادرون، و أکحم معاقدها و إن جهد فی حلّها الماکرون، یریدون لیطفئوا نور اللّه بأفواههم، و اللّه متمّ نوره و لو کره الکافرون.

و الحمد للّه الذی حفظ بأمیر المؤمنین نظام الخلافة و اتّساقها، و حمی لمیامنه دوحة الإمامة و أبقی نضرتها و إبراقها، و أورث خصائص الأئمّة الراشدین فی آبائه، و أودعه سرائر دینه المصونة فی صدور أنبیائه، و أیّده بموارد الإرشاد و الإلهام، و جعل طاعته فرضا مؤکّدا علی کافّة الأنام، و خصّه بالتوفیق و العصمة، و أفاض للأمّة به سجال الرحمة، و أبرم بأمانته أمر الملّة، و أحکم معاقد الدین، و جعله من هداته، قال جلّ و علا فیهم: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِیتاءَ الزَّکاةِ وَ کانُوا لَنا عابِدِینَ [الأنبیاء: ۷۳].

یحمده أمیر المؤمنین علی ما نقله إلیه من خصائص آبائه الأئمة الأطهار، و أیّده به فی أنصار دعوته من العلوّ و الاستظهار، و اتّخذه به من جنود السماء و الأرض و أظهر له من معجزاته و آیاته، و أظهر بمزیّته من مظاهر الظفر لألویته و رایاته.

و نسأله أن یصلّی علی جدّه محمد نبیّه الأمین، و رسوله المبعوث فی الأمیّین، الهادی إلی جنّات النعیم، و المحیطة متابعته بالفوز العظیم، الذی جلی اللّه ظلمات الجهالة بمبعثه، و شرّف الأئمّة من ذرّیته بمقامه و مورثه، و ردّ النافر إلی الطاعة بالبرّ و الإیناس، و جعله خیر رسول إلی خیر أمّة أخرجت للناس.

و علی أخیه و ابن عمّه أبینا أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب قسیمه فی المناسب و الفضائل، و ثالثه فی تشفیع الذرائع و الوسائل، و مفرّج الکرب عنه بمؤازرته و صدق کفاحه، و باب مدینة علمه الذی لا یوصل إلیه إلا باستفتاحه، و علی الأئمة من ذرّیتهما الذین بلّغ اللّه بهم الأرب و السؤال، و أغنی الأئمة بهداهم عن التقفیة بعده برسول، و العترة المصطفین، و أحد الثّقلین، و بحار العلم الزاخرة، و المرجوّین لصلاح الدنیا و الآخرة، و سلّم و مجّد، و والی و ردّد.

و إنّ أمیر المؤمنین لما مهّده اللّه من ذی الشرف الباذخ، و حازه لمنصبه من الفخر الأصیل و المجد الشامخ، و أفرد به من خلافته علی العالمین، و أورثه إیّاه من غوامض الحکم التی لا یعقلها إلّا أعیان العالمین، و حباه به من ضروب الوجاهة و الکرامة، و أفاضه علیه من أنوار الإمامة، و واصله إلیه من العنایة الشاملة و البرّ الحفیّ، و جمعه له من الإحسان الجلیّ و اللطف الخفیّ، و أقرّه من مواب الفضل و الإفضال لدیه، و جعل فی کلّ حرکة و سکون دلیلا واضحا یشیر إلیه، یقدّر نعم اللّه حقّ قدرها، و یواصل العکوف علی الاعتداد بها و نشرها، و یبالغ فی شکرها قولا و عملا و نیّة، و یجهد نفسه

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۸

فی حمدها اجتهادا یرجو به درک الأمنیة، و یتحقّق أنّ أسماها محلّا و قدرا، و أولاها علی کافّة البریة ثناء و شکرا، و أعلاها قیمة، و

أعمّها نفعا و أعذبها ديمة، و أجمعها لضروب الجدل و الاستبشار، و أجدرها بأن تؤثر فى الأمم أحسن الآثار، و أوسعها فى مضمار الاعتداد مجالا، و أعظمها على الرئيس و المرؤوس نفعا و جمالا. النّعمة بك أيّها السيّد الأجلّ و التغوّث و الدعاء إذ كنت نجدة اللّه المذخورة لأمنائه على خلقه، و القائم دون البريّة بما افترضه عليهم من مظاهرة أمير المؤمنين و الأخذ له بحقّه، و اللطف الذى كان من الإمامة و من إعدامها حاجزا، و النّصر الذى أصبح به أمير المؤمنين بعون اللّه فائزا، و حزب اللّه القاهر الغالب، و شهاب أمير المؤمنين الصائب الثاقب، و ظلّه الذى يفيء على العام و الخاصّ، و منهل فضله الذى يصفو و يعذب لذوى الولاء و الإخلاص، و سيفه الذى يستأصل ذوى الشقاق و النفاق، و يده التى ينبعث منها ينابيع العطاء و سحائب الأرزاق، و الوليّ الذى ارتضاه أمير المؤمنين للمصالح كفيلا، و الصفيّ الذى لا تبغى دولته عن موازرته تبديلا و لا تحويلا.

فعلوّ قدرك عند أمير المؤمنين لا ينتهى إلى أمد محدود، و قيامك فى الأخذ بحقّه يتجاوز كلّ سعى مبرور و مقام محمود، و دعائمه بنصرك اللّه فى طاعته يصفو عنده كلّ عظيم فى مجافاتك، و شفاؤك صدر أمير المؤمنين من أعدائه، أعجز القدرة عمّا يشفى غليله فى إحسان مجازاتك.

و لقد حزت من المآثر ما فقت به أهل عصرك قدما و سبقا، و سموت بجمالك إلى ذوى مجد لا تجد الهمم العليّة إلى تمنّيها مرقا، و ما زلت فى كلّ أزمنتك سلطانا مهيبا، و فردا فى المجالس لا تدرك له الأفكار ضريبا، و مطاعا تبارك بأنبائه الأندية و المحافل، و هماما تخضع باسمه المهائب و تذعن الجحافل، و سيدا تلقى إليه مقاليد التقدمة و السيادة، و معظّما ليس على ما خصه اللّه به من التعظيم موضع الزيادة.

و كشف اللّه أمرك فى الولاء فدعاك الأئمة ظهيرا، و زاد فى إنعامه على الأمّة فارتضاك لهداة أهل بيته معينا و نصيرا، و وفّر نصيبك من الفضائل و المناقب فوهبك منها ما أفاضه عليك سرفا، و أحظى الملوك بتمكّنك منهم و كونك لهم فخرا و شرفا، فلا رتبة علاء إلا و قد فرعتها منزلا، و لا منزلة سناء إلّا و قد سموت إليها منتقلا، و لا مزيّة فضل إلا احتويت عليها و حزتها، و لا منزلة فخر إلّا طلتها بفضائلك و جزتها، و لا مأثرة إلّا و كنت فاتح بابها، و لا منزلة خطيرة إلّا و أنت مستوجبها و أولى بها. و لا سماة مجد إلّا و خصائلك طالعة فى آفاقها أقمارا، و لا موقف فضل إلّا و لك فيه تقدّم و لا تنازع فيه و لا تمارى، فما يوجد مقدّم إلا و قد فضلته بآثارك و تقدّمته، و لا مميز إلا أسمته فى جناب فضلك و رسمته.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۸۹

تقلّدت جلائل الأمور فلبستها نباهة و تقويما، و باشرتها فأحرزت بمناقبك جلالة و وجاهة و تفخيما، تجرجر بك الرّتب أذيال الفخر و الإجلال، و تزهى بأفعالك التى يبعث عليها ما أوتيته من شرف الجلال.

و لم تزل تدابير أولياء الدولة و رجالها بفضائل سياستك فتثبّت لهم الأقدام، و تكسبهم عزّة النفوس فيستهينوا فى حقّ الانتصار بملاقاة الحمام.

و رمى اللّه بك طغاة الكفّار بتأييد الإسلام، و اختارك للمجاهدة عن الملّة فأصبحت بك مرفوعة الأعلام، و أبدت الأعداء الجوامع الباكيات من المحايد و المخلوف و أعمال الحسام؛ فلو تراخى بك الأمل فى جهادهم لكنت لجملهم مستأصلا، و لغدوت لهم عن الأعمال السامية بعرفانك فاضلا، فأثرك فيهم الأثر الذى لم يبلغه مجاهد، و ما فللت فى هامهم من حدّ العضب الصارم بباسل ناطق و بجدل شاهد.

فما يبلغ التّعداد ما جمعته من المناقب و الفضائل، و لا يستولى الإحصاء على مالك من المفاخر التى لا يحيط بها أحد من الملوك الأوائل، فتجمع زهد الأبدال إلى همم الأكاسرة، و توفّق فى أعمالك بين ما يقضى بصلاح الدنيا و حسن ثواب الآخرة، فأنت البرّ التقيّ النقيّ الحسيب، الطاهر المبرّأ من كلّ دنس و عيب، و المرضى خالقه بالأفعال التى لا ينجو بها لبس و لا ريب، و واحد الدنيا لا يسامى و لا يطاول، و الملك الأوحد الذى برعت أدوات كماله فما يشابه و لا يماثل.

جعلتك الفضائل غريبا فى الأنام، و خصّك الحظّ السعيد بفطرة فتهرب أن تأتى بمثلها الأيام، و حويت من الأخلاق الملوكيّة ما قصّر بعظماء الملوك عن مجاراتك، و اقتنيت من الحكم و المعارف ما جعل كافة العلماء مفترقين بعظم فضيلة ذاتك، و قرنت بين من عزّه إذفرار البيت و لطافة حكم القلم، و كاثرت فيك المعجزات لجمعك ما افترق من مفاخر الأمم.

فما أشرف ما أفردك اللّه به من كمال الشجاعة و البراعة، و توحّدك بمجده من معجزات تصنيف الصارم و اليراعة، فسيفك مؤيّد فى قطّ العضو و الهام، و قلمك ماض فى البلاغتين مضاء لا يدرك إلا بالإلهام، فكم مقام جلال و جلاد فرّجته بعضب و بنان، و موقف خطاب و ضراب كشفت غمّته بسنّ قلم و سنان.

فسبحان من أفردك باستكمال المآثر، و جمع لك من المحاسن ما أعجز وصفه جهد الناظم و الناثر، و آتاك غاية شرف النفس و كرم الأصل، و مكّنك من كلّ منقبة بإحراز السبق و إدراك الحصل، و أطلعك من أفق علاء تكاثرت سعوده، و استخلصك من

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۰

منصب سناء سما فأعجز النجم صعوده، و انتخبك من بيت عزّ غدت دعائمه لذات السمهريّة و ظلاله صفحات القبض المشرفيّة، و حشاياه صهوات الجرد الأعوجيّة.

و لقد كان وقع التحامل على الحضرة ببعدك عن فنائها، و حسدت على قربك منها لما يعلم من متابعتك لها، و إغراقك فى ولائها، و حاد بك عن موضعك من الاختصاص بها من قصد اهتضامها، و أفسد لسوء عقيدته نظامها، و صلمها على أنّك لم تخل بنصرتها على بعد الدار، بل نصرت الحقّ حيث كان و درت معه حيث دار. و قد كان أمير المؤمنين حين أبهمت الأمور، و حرجت الصدور، و حارت الألباب، و استشرف للارتياب، يرجو من اللّه أن يفجأه منك بالفرج القريب، و يصمى أعداءه من عزمك بالسّهم المصيب، و استجاب اللّه دعاءه فيك بما ماثل دعاء جدّه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و ضاهى، و حصل فى ذلك على معنى قوله تعالى: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها [البقرة: ۱۴۴].

و لمّا أذهب اللّه بك أيها السيّد الأجلّ الملك الصالح عن دولة أمير المؤمنين غايات العىّ، و أدرك بها ثأر أولياء اللّه من ذوى المباينة و البغى، و أحسن له الصنيع بمؤازرتك، و بلّغه مظافرتك و مكانفتك لما أحاط الخبرة بأرجائه، و فقّه من التعويل عليك لما كان غاية رجائه، فقلّدك من وزارته، و فوّض إليك تدبير مملكته و كفالته، و جعلك إمارة جيوشه الميامين، و كفالة قضاة المسلمين، و هداية دعاة المؤمنين، و تدبير ما هو مردود إليهم من الصلاة و الخطابة و إرشاد الأولياء المستجيبين، و النظر فى كلّ ما أغدقه اللّه من أمور أوليائه أجمعين، و جنوده و عساكره المؤيّدين، و كافّة رعاياه بالحضرة و جميع أعمال المملكة دانيها و قاصيها، و سائر أحوال الدولة باديها و خافيها، و كلّ ما تنفذ فيه أوامره، تبوح بشعاره منابره. و ردّ إليك تدبير ما وراء سرير خلافته، و سياسة ما تحتوى عليه أقطار مملكته، و ألقى إليك مقاليد البسط و القبض، و الرفع و الخفض، و الإبرام و النقض، و القطع و الوصل، و الولاية و العزل، و التصرّف و الصرف، و الإمضاء و الوقف، و الغضّ و التنبيه، و الإخمال و التنويه، و جميع ما يقتضيه صواب التدبير من الإنعام و الإرغام، و ما توجبه أحكام السياسة من الإبداء و الإتمام، تيمّنا بما يحقّق مبالغتك فى متابعته، و اجتهادك فى إعلامنا و دعوته، و علما بأنّ التوفيق لا يعدو وراك، و المسعود لا يفارق أنحاك.

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين من هذه الرتب العالية، و المنزلة التى قرّب عليك تناولها أعمالك الزاكية، و المنصب الذى تحكم فيه بأمر أمير المؤمنين و تنطق بلسانه، و تبطش بيده و تحبّ و تبغض بقلبه و جنانه، جاريا على رسمك فى تقوى اللّه و خشيته، و اتّباع مرضاته و استشعار رجعته، و منتجزا ما وعد به فى كتابه، إليه ينتهى الحكم

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۱

و ينتسب، إذ يقول تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ [الطلاق: ۲].

و العساكر المنصورة فهم أشياع الدين، و أعضاد دولة أمير المؤمنين، و أبناء دعوة آبائه الرّاشدين، و القائمون بمدافعة الأعداء عن

حوزة الدولة العلويّة، و المدّخرون لكفاح المباين للمملكة الفاطميّة، و المنادون بشعارها فی كلّ وقت و حين، و المعدّون للذبّ عن بيضة المسلمين و أنصار الخلافة، و طاردو الوجل و المخافة، المصطلون نيران الحرب و الكفاح، ذوو القلوب فی المواقف التی تهتزّ فيها السيوف و تضطرب كعوب الرماح، و الممنوحون مزيّة اللطف لحسن معتقدهم فی الطاعة، و المستعملون فی خدمة وليّ نعمتهم جهد الطّاقة و الاستطاعة.

و منهم الأمراء الأكابر، و الأعيان الأخايز، و ولاة الأعمال و سداد الثّغور، و اللائقة بهم سوامی الرّتب و معالی الأمور، و الأولياء الّذين سلمت موالاتهم من الشوائب، و اشتملوا علی غرر المآثر و المناقب، و الأنجاد الذين يندفع بهم الخطب الملمّ، و الكفاة الذين يتسرّعون إلی ما يندبون له من كلّ مهمّ، و ما زلت تحسن لهم الوساطة فی المحضر و المغيب، و يشيع ذكرهم بما يتضوّع نشره و يطيب، و تسفر لهم بما يبلغون به آمالهم، و تجتهد فی توفير المنافع عليهم و تحرص علی إيصالها لهم؛ لا سيّما الآن و جميع أمرهم إليك مردود، و قد ظهر لك من إخلاصهم فی الطّاعة مقامهم المشهور و سعيهم المحمود؛ فهم خليقون منك بمضاعفة المكرمة و التبجيل، جديرون بتوفير حظّهم من الإحسان الجزيل.

فتوخّی كلّا منهم بما يقتضيه له حاله، و تستدعيه نهضته و استقلاله، و تعرب لهم عمّا يمنّون به عن محض طاعتهم، و صريح مسابقتهم، و تسرّعهم إلی مقارعة الأعداء و المخالفين، و تمسّكهم بحبل الولاء المتين.

فأمّا القضاة و الدّعاة فأنت كافلهم و هاديهم، و علمك محيط بقاصيهم و دانيهم، و تأنّيك يبعثك علی استكفاء إعفائهم و ديانتهم، و يمنعك من استعمال المفضولين فی علم و أمانة، و يحضّك علی التعويل علی ذوی النّزاهة و الصيانة.

فأمّا الأموال و هی عماد الدّول و قوامها، و بها يكون استتبات أمورها و انتظامها، و يستعان بها علی الاستكثار من الرجال و الأنصار، و بوفورها تقوم المهابة فی نفوس مماليك الأطراف و الأمصار؛ و أمير المؤمنين يرجو أن تتضاعف بنظرك، و تنمی لفاضل سياستك و حمد أثرك، تتسع بإذن اللّه فی أيامك العمارة؛ و تتوافر بما يعمّ الأعمال بحسن تأنّيك من البهجة و النضارة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۲

و الرّعايا فهم ودائع اللّه عند من استحفظ أمورهم، و عياله الّذين يتعيّن علی ولاة الأمر أن يشرحوا بالرّعاية صدورهم، و تأكيد الوصايا بتخفيف الوطأة عنهم، و الأمر بالعدل و الإحسان علی الصغير و الكبير منهم؛ و قد خصّك اللّه بالكمال، و حبّب إليك الإحسان و الإجمال، بغايات تنتج لك من أبواب المصالح ما لا- تحيط به الوصايا، و يشترك فی عائدة نفعه الخواصّ و الأجناد و الرعايا. و قدرك يجلّ أن نكثر لك بالقول ما نبتدع أضعافه بأفعالك المستحسنة، و محلّك مرتفع عن التنبيه إذ لا تلمّ بعين رعايتك إغفاءة و لا سنة.

و اللّه سبحانه يؤيّد الدولة العلويّة بعزماتك الثاقبة، و يعيد عليها حقوقها بسيوفك القاضبة و آرائك الصائبة، و يجعل أمد عمرك مديدا، و إقبالك فی كلّ وقت جديدا، و أعمالك مرتضاة عند اللّه متقبّلة، و وفود المنا إلی جنابك متوالية مقبلة، فاعمل به إن شاء اللّه تعالی.

و كتب أمير المؤمنين الفائز علی طرّة السجل بخطّه ما نصه: «لوزيرنا السيّد الأجلّ الملك الصالح من جلالة القدر، و عظم الأمر و فخامة الشأن، و علوّ المكان، و استحباب الفضل و استحقاق غاية المنّ الجزيل، و مزية الولیّ الذی بعثه علی بذل النفس فی نصرتنا، و دعاه دون الخلائق إلی القيام بحقّ متابعتنا و طاعتنا، ما يبعثنا علی التبرّع له ببذل كلّ مصون، و الابتداء من ذاتنا بالاقتراح له كلّ شیء يسرّ النفوس و قرّ العيون.

و الّذی تضمّنه هذا السجلّ من تقريظه و أوصافه، فالذی تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه؛ و كذلك شرّفناه بجميع التّدبير و الإنالة، و رفعناه إلی أعلی رتب الاصطفاء بما جعلناه له من الكفالة، و اللّه تعالی يعضد به دولتنا، و يحوط به حوزتنا، و يمدّه بموادّ التوفيق و التأييد، و يجعل أيّامه فی وزارتنا ممنوحة بآيات الاستمرار و التأييد، إن شاء اللّه تعالی.

قلت: كانت الوزارة قديما تعدل السلطنة الآن، فإنّ الوزير كان نائب الخليفة فی بلده، يفوّض إليه جميع أمور المملكة، و تولية من رآه من القضاة و نوّاب البلاد و تجهيز العساكر و الجيوش و تفرقة الأرزاق، إلى غير ذلك ممّا هو الآن وظيفة السلطان و كان الوزير يلقّب بألقاب السلطنة الآن كالملك الصالح و نحوه، و قد تقهقر أمر الوزير حتّى قال بعض وزراء القرن السابع: الوزير الآن عبارة عن «حوش كاش عفش» يشترى اللحم و الحطب و حوائج الطعام. و الأمر كما قال.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۳

و أقام ابن رزّيك وزيرا إلى أن قتل فی رمضان سنة ستّ و خمسين فی خلافة العاضد، و كان العاضد و الفائز كلاهما تحت حجره، فأقيم بعده فی الوزارة ابنه رزّيك ، و لقّب العادل، فأقام فيها سنة و أياما، و قتل.

و وزر بعده شاور بن مجير أبو شجاع السعدیّ، و لقّب أمير الجيوش، و هو الوزير المشؤوم الذی يضاهيه فی الشؤم العلقميّ وزير المستعصم؛ فإنّ هذا قد أطمع الفرنج فی أخذ الديار المصرية، و مالأهم على ذلك، كما أنّ العلقميّ هو الذی أطمع التتار فی أخذ بغداد، إلا أن اللّه لطف بمصر و أهلها، فقيّض لهم عسكر نور الدين الشهيد، فأزاحوا الفرنج عنها، و قتل الوزير شاور بيد صلاح الدين يوسف بن أيّوب؛ و قال بعض الشعراء فی ذلك:

هنيئا لمصر حوز يوسف ملكهابأمر من الرّحمن قد كان موقوتا

و ما كان فيها قتل يوسف شاورايماثل إلا قتل داود جالوتا

و كان قتل شاور فی ربيع الآخر سنة أربع و ستّين .

و ولی الوزارة بعده الأمير أسد الدين شيركوه؛ و لقّب الملك المنصور، لقّبه بذلك العاضد، فأقام فيها شهرين و خمسة أيام، و مات فی جمادی الآخرة.

فاستوزر العاضد بعده ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيّوب، و لقّب الملك الناصر، و قد تقدّم ذكر الخليعة التی لبسها يومئذ. ثمّ إن صلاح الدين أزال دولة بنی عبيد، و أعاد الخطبة لبنی العباس فی أوّل سنة سبع و ستّين، فصار لمصر أميرا بعد أن كان وزيرا.

و جعل وزيره القاضی الفاضل محيی الدين عبد الرحيم البيسانیّ، فاستمرّ وزيرا له، و لولده الملك العزيز، و لولد العزيز الملك المنصور، إلى أن مات سنة ستّ و تسعين و خمسمائة.

فوزر بعده للعادل صفیّ الدين بن شكر الدّميریّ، إلى أن عزل سنة تسع و ستمائة.

و وزر للكامل ابن شكر أيضا و الحسن بن أحمد الديباجیّ.

و وزر للصالح جمال الدين علیّ بن جرير الرّقیّ و معين الدين الحسن بن صدر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۴

الدين شيخ الشيخ، و أخوه فخر الدين يوسف، و القاضی بدر الدين السّنجاریّ و القاضی تاج الدين بن بنت الأعزّ.

و وزر لشجر الدرّ فی دولتها بهاء الدين علیّ بن محمد بن سليم المعروف بابن حنّا .

و وزر للمعزّ الأسعد- بل الأنحس و الأشقی- هبة اللّه بن صاعد الفائزیّ، و كان هذا أوّل شؤم الأتراك فی مملكتهم، أن عدلوا عن وزارة العلماء إلى الأقباط و المسالمة، و كان الأسعد هذا نصرانيّا فأسلم، فلمّا تولّی الوزارة أحدث مكوسا و مظالم كثيرة على نحو ما كانت فی أيام العبيديين و وزرائهم النصارى و الرافضة، و قد كان السلطان صلاح الدين رحمه اللّه أبطلها فأحدثها هذا الملعون، و قد قال فيه بعضهم:

لعن اللّه صاعداو أباه فصاعدا

و بنيه فنازلاواحدا ثمّ واحدا

و لما قتل المعزّ، و قبض على ولده المنصور، أهين الأسعد هذا، ثمّ قتل فی سنة خمس و خمسين.

و ولى الوزارة للمظفر بعده القاضى بدر الدين السّنجارىّ مضافا لقضاء القضاة، ثمّ صرف من عامه عن الوزارة.

و وليها القاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ، ثمّ صرف فى ذى القعدة سنة سبع و خمسين.

*** و وزر زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع المعروف بابن الزّبير، فأقام إلى أيّام الظاهر بيبرس، فعزله عن الوزارة فى ربيع الآخر سنة تسع و خمسين، و استوزر بعده الصاحب بهاء الدين بن حنّا؛ فأقام وزيرا إلى أن مات الظاهر، و تولّى ولده الملك السعيد، فأقرّه على الوزارة، و كتب له تقليدا من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، و هذه صورته:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۵

الحمد للّه الذى وهب هذه الدّولة القاهرة من لدنه وليّا، و جعل مكان سرّها و شدّ أزرها عليّا، و رضى لها من لم يزل عند ربّه مرضيّا.

نحمده على نعمه التى أمسى بنا برّه حفيّا، و نشكره على أن جعل دولتنا جنّة أورث تدبيرها من عباده من كان تقيّا.

و نشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له شهادة نسبّح بها بكرة و عشيّا، و نصلّى على سيدنا محمد الذى آتاه اللّه الكتاب، و جعله نبيّا، صلى اللّه عليه و على آله و صحبه صلاة نتّبع بها صراطا سويّا.

و بعد، فإنّ أولى ما تنغّمت به ألسنة الأقلام بتلاوة سوره، و تنعمت أفواه المحابر بالاستمداد لتسطير سيره، و تناجت الكرام الكاتبون بمجمله و مفصّله، و تناشدت الرّواة حسن نسيبه و ترنّمت الحداة بطيب غزله، و تهادت الأقاليم تحف معجّله و مؤجّله، و عنيت وجوه المهارق لصعود كلمه الطيب و رفع صالح عمله، ما كان فيه شكر لنعمة تمنّها على الدولة سعادة جدودها و حظوظها، و إفادة مصونها و محفوظها، و إرادة مرقومها بحسن الاستبداع و ملحوظها، و حمد لمنحة و افاتها بركة أحسنت للملكة الشريفة مآلا، و قرّبت لها مثالا، و أصلحت لها أحوالا، و كاثرت مدد البحر و كلّما أجرى ذلك ماء أجرت هى مالا، و إن ضنّت السّحب أنشأت سحبا، و إن قيل سحّ سحّها و رونق الأرض ذهب، عوّضت عنه ذهبا، كم لها فى الوجود من كرم و كرامة، و فى الوجوه من وسوم و وسامة، كم أحيت مهجا، و كم جعلت للدولة من أمرها مخرجا، و كم وسّعت أملا و كم تركت صدر الخزائن ضيّقا حرجا، و كم استخدمت جيش تهجّد فى بطن الليل، و جيش جهاد على ظهور الخيل. و كم أنفقت فى واقف فى قلب بين الصفوف و الحروب، و فى واقف بين صفوف المساجد من أصحاب القلوب، كم سبيل يسّرت، و سعود كثّرت. كم مخاوف أدبرت حين دبّرت، و كم آثار فى البلاد و العباد أبّرت و أثّرت. و كم وافت و وفّت، و كم كفت و كفّت، و كم أعفت و عفت و عفّت. و كم بها موازين للأولياء ثقلت و موازين للأعداء خفّت، و كم أجرت من وقوف، و كم عرفت بمعروف. و كم بيوت عبادة صاحب هذه البركات هو محرابها، و سماء جود هو سيحانها و مدينة علم هو بابها. تثنى الليالى على تغليسه إلى المساجد فى الحنادس، و الأيام على تهجيره لعيادة مرضى الفقراء و حضور جنائز و زيارة القبور الدوارس. يكتنّ تحت جناح عدله الظاعن و المقيم، و يشكر يثرب و مكة و زمزم و الحطيم. كم عمّت سنن تفقّداته و نوافله. و كم مرّت صدقاته بالوادى فسح اللّه فى مدته فأثنت عليه رماله و بالنادى فأثنت أرامله، ما زار الشام إلّا أغناه عن مسّه المطر، و لا صحب سلطانه فى سفر إلّا قال: نعم الصّاحب فى السّفر و الحضر.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۶

و لمّا كان المتفرّد بهذه البركات هو واحد الوجود، و من لا يشاركه فى المزايا شريك و إنّ الليالى بإيجاد مثله غير ولود. و هو الذى إن لم نسمّه، قال سامع هذه المناقب: هو الموصوف، عند اللّه و عند خلقه معروف. و هذا الممدوح بأكثر من هذه الممادح، و المحامد من ربّه ممدوح و ممنوح.

و المنعوت بذلك، قد نعتته بأكثر من هذه النّعوت الملائك، و إنّما نذكر نعوته التذاذا، فلا يعتقد كاتب و لا خاطب أنه وفّى جلالته بعض حقّها؛ فإنّه أشرف من هذا.

و إذا كان لا بدّ للمادح أنه يحول، و للقلم أنه يقول، فتلك بركات للمجلس العالى الوالدى الصاحبى الوزيرى السيدىّ الورعى الزاهدى العابدى الذّخرى الكفيل الممهّدى المشيدى العونى القوامى النظامى الأفضلى الأشرفى العاملى العادلى البهائى، سيّد الوزراء

و الأصحاب فی العالمین، کهف العابدین، ملجأ الصالحین، شرف الأولیاء المتّقین، مدبّر الدول، سداد الثغور، صلاح الممالک، قدوة الملوک و السلاطین، یمین أمیر المؤمنین، علیّ بن محمد أدام اللّه جلاله، من تشرف الأقالیم بحیاطة قلمه المبارک، و التقالید بتجدید تنفیذه الذی لا یساهم فیه و لا یشارک، فما جدّد منها إنّما هو بمثابة آیات تزاد فتردّد، أو بمنزلة أسجال فی کلّ حین به یحکم و فیه یشهد؛ حتّی تتناقل بثبوته الأیّام و اللیالی، و لا یخلو جید دولة أن یکون الحالی بما له من مفاخر اللآلئ، فلذلک خرج الأمر العالی لا برح بکسب بهاء الدین المحمّدی أتمّ الأنوار، و لا برحت مراسمه تزهو من قلم منفذه بذی الفقر و ذی الفقار؛ أن یضمن هذا التقلید الشریف بالوزارة التامّة العامّة الشاملة الکاملة الشریفة الصاحبیّة البهائیة أحسن التضمین، أن ینشر منها ما یتلقّی روایته کلّ ربّ سیف و قلم بالیمین، و أن یعلم کافّة الناس و من یضمّه طاعة هذه الدولة و ملکها من ملک و أمیر، مدینة ذات منبر و سریر، و کلّ من جمعته الأقالیم من نوّاب سلطنة، و ذوی طاعة مذعنة، و أصحاب عقد و حلّ، و ظعن و حلّ، و ذوی جنود و حشود، و رافعی أعلام و بنود، و کلّ راع و رعیّة، و کلّ من ینظر فی الأمور الشرعیّة، و کلّ صاحب علم و تدریس، و تهلیل و تقدیس، و کلّ من یدخل فی حکم هذه الدولة العالیة من شموسها المضیئة، و بدورها المنیرة، و نجومها المشرقة و شهبها الثاقبة فی الممالک المصریّة و النوبیّة و الساحلیّة و الکرکیة و الشّوبکیة و الشامیّة و الحلبیّة، و ما تداخل بین ذلک من ثغور و حصون و ممالک.

إنّ القلم المبارک الصاحبی البهائیّ فی جمیع هذه الممالک مبسوط، و أمر تدبیرها به منوط، و عنایة شفقته لها تحوط، و له النظر فی أحوالها و أموالها، و إلیه أمر قوانینها و دواوینها، و کتابها و حسابها و مراتبها، و رواتبها و تصریفها و مصروفها، و إلیه التولیة و الصرف، و إلیه تقدمة البدل و النعت و التوکید و العطف، و هو صاحب الرتبة التی لا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۷

یحلّها سواه، و سوی من هو مرتضیه من السادة الوزرائیّة، و من سمّینا غیره و غیرهم بالصحوبیّة.

فلیحذر من یخاطب غیرهم بها أو یسمّیه، فکما کان والدنا الشهید یخاطبه بالوالد خاطبناه بذلک و خطبناه، و ما عدلنا عن ذلک بل عدلنا، لأنّه ما ظلم من أشبه أباه، فمنزلته لا تسامی و لا تسام، و مکانته لا ترامی و لا ترام؛ فمن قدح فی سیادته من حسّاده- أبادهم اللّه- زناد قدح أحرق بشرر شرره، و من رکب إلی جلالته سیح سوء أغرق فی بحره، و من قتل لسعادته حبل کید فإنّما فتله مبرمه لنحره.

فلتلزم الألسنة و الأقلام و الأقدام فی خدمته أحسن الآداب، و لیقل المتردّدون:

حطّة إذا دخلوا الباب، و لا یغرّنهم فرط تواضعه لدینه و تقواه، فمن تأدّب معنا و من تأدّب معنا تأدّب مع اللّه.

و لیتل هذا التقلید علی رؤوس الأشهاد، و تنسخ نسخته حتّی تتناقلها الأمصار و البلاد؛ فهو حجّتنا علی من سمّیناه خصوصا و من یدخل فی ذلک بطریق العموم، فلیعملوا فیه بالنصّ و القیاس و الاستنباط و المفهوم.

و اللّه یزید المجلس العالی الصاحبیّ البهائیّ من فضله، و یبقیه لغایة هذه الدولة و یصونه لشبله کما صانه لأسده من قبله، و یمتّع بنیّته الصالحة التی یحسن بها إن شاء اللّه نماء الفرع کما حسن نماء أصله.

*** و استمرّ الصاحب بهاء الدین فی الوزارة إلی أن مات فی ذی القعدة سنة سبع و سبعین.

و کان الملک السعید إذ ذاک بدمشق، فلما بلغته وفاته، أرسل إلی برهان الدین الخضر بن الحسن السنجاریّ باستقراره وزیرا بالدیار المصریة، فقال القاضی محیی الدین بن عبد الظاهر حین سیّر إلیه تقلید الوزارة: بک زال الخلاف، و اصطلح الخصمان یا دولة الملک السعید، فلمّا قالت الوزارة بالبرهان قال البرهان بالتقلید.

و قال السّراج الوراق حین خلع علیه:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۸ تهنّ بخلعة لبست جمالابوجه منک سمح یجتلوه

و قال النّاس حین طلعت فیها:أهذا البدر؟ قلت لهم: أخوه

و قال فى خلعة ولده شمس الدين:

أهنّى الوزير ابن الوزير بخلعةمحاسنها فتّانة العقل و الحسّ

أضاءت بها الآفاق شرقا و مغرباو لم لا، و من أطواقها مطلع الشمس!

و لمّا عوجل خلع الملك السعيد، قال ناصر الدين بن النقيب:

تطيّرت الوزارة من قريببصاحبها الجديد و من بعيد

و قالت: كعبه كعب شؤمو لا سيما على الملك السعيد

و أقام السنجاريّ فى الوزارة إلى أن ولى قلاوون فى رجب سنة ثمان و سبعين، فعزله. و استوزر فخر الدين بن لقمان كاتب السرّ، فأقام إلى جمادى الآخرة سنة تسع و سبعين.

فأعيد السنجاريّ إلى الوزارة، و رجع ابن لقمان إلى كتابة الإنشاء، فأقام إلى ربيع الأول سنة ثمانين، فعزل.

و وزر نجم الدين حمزة بن محمد بن هبة اللّه الأصفونىّ.

و وزر الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ، و هو أوّل من ولى الوزارة من الأمراء، و أوّل وزير ضربت على بابه الطبلخاناه على قاعدة وزراء الخلافة بالعراق، ثمّ عزل.

و وزر الأمير بدر الدين بيدار، ثمّ صرف.

و أعيد الشجاعىّ، ثمّ صرف.

و وزر شمس الدين محمد بن عثمان المعروف بابن السّلعوس ، فأقام إلى أن قتل الأشرف، فأخذ و ضرب إلى أن مات تحت الضّرب.

و كان لما تولى الوزارة، كتب إليه بعض أصحابه يحذّره من الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ المنصورىّ:

تنبّه يا وزير الأرض و اعلمبأنّك قد وطئت على الأفاعى

و كن باللّه معتصما فإنّىأخاف عليك من نهش الشجاعى

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۱۹۹

فكان الذى تسبب فى إهلاكه الشجاعىّ.

و ولى الشجاعىّ الوزارة مكانه، فأقام بها أكثر من شهر، و حدّثته نفسه بالسّلطنة، فقتل .

و ولى الوزارة بعده تاج الدين بن فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنّا، فأقام إلى أن تولّى العادل كتبغا، فعزل.

و ولى مكانه فخر الدين عثمان بن مجد الدين عبد العزيز بن الخليل، فأقام إلى أن تولّى لاجين، فعزل.

و ولى مكانه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، ثمّ عزل من عامه و حبس؛ فلمّا أعيد الملك الناصر إلى السلطنة أخرج الأعسر من الحبس و أعاده إلى الوزارة، ثمّ عزله فى سنة إحدى و سبعمائة.

و ولّى الأمير عزّ الدين أيبك المنصورى، و ولّى ناصر الدين محمد السنجىّ ثمّ عزل فى شوّال سنة أربع.

و وزر سعد الدين محمد بن عطاء اللّه فى المحرّم سنة ستّ.

و وزر التّاج أبو الفرج بن سعيد الدولة المسلّمانى، و وزر ضياء الدين النّشائىّ، فلمّا عاد الناصر إلى السلطنة المرة الثالثة سنة سبع استوزر فخر الدين الخليلىّ ثم عزل فى رمضان سنة عشر.

و وزر الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب ، ثمّ عزل فى ربيع الآخر سنة إحدى عشرة.

و وزر أمين الملك أبو سعيد المستوفى.

و وزر فى سنة ثلاث و عشرين أمين الملك ثمّ الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى.

ثمّ أبطل الناصر الوزارة، و رتّب وظيفة ناظر الخواصّ ، و ولّاها كريم الدين عبد

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۰

الکریم بن هبة اللّه بن السدید، فکان کالوزیر و ربّما قیل له: الصاحب، و استمرّت الوزارة شاغرة إلی سنة أربع و أربعین.

فاستوزر الکامل شعبان نجم الدین محمود بن شروین ، و کان أصله وزیر بغداد فی المحرّم و وزر الأمیر أیتمش المحمّدیّ، و وزر الأمیر منجک الیوسفیّ، ثم عزل ثالث ربیع الأوّل سنة تسع و أربعین.

و وزر الأمیر استدمر العمریّ فی رابع عشرة ثمّ استعفی فی خامس عشرین ربیع الآخر، فأعفی.

و أعید منجک، ثمّ عزل فی محرم سنة إحدی و خمسین.

و وزر علم الدین عبد اللّه بن أحمد بن زنبور القبطیّ، ثمّ عزل فی رمضان سنة ثلاث و خمسین.

و وزر موفّق الدین هبة اللّه بن سعد الدولة القبطیّ، إلی أن مات فی ربیع الآخر سنة خمس و خمسین، و شغرت الوزارة بعده إلی سنة ثمان و خمسین.

و وزر الأمیر قشتمر، ثمّ عزل سنة تسع و خمسین.

و وزر تاج الدین بن رشیة، ثمّ عزل سنة إحدی و ستین.

و وزر جمال الدین یوسف بن أبی شاکر.

ثم وزر الأمیر الأکز الکثلاویّ.

ثم وزر کریم الدین بن غنّام، ثمّ فخر الدین بن تاج الدین موسی، ثمّ صرف سنة أربع و سبعین.

و وزر ابن الغنّام، ثمّ صرف سنة خمس و سبعین.

و أعید منجک الیوسفیّ إلی الوزارة، و فوّض إلیه السلطان کلّ أمور المملکة، و أنّه أقامه مقام نفسه فی کلّ شیء، و أنه یخرج الإقطاعات التی عبرتها سبعمائة دینار فما دونها، و أنّه یعزل من شاء من أرباب الدولة، و یخرج الطبلخانات و العشراوات بسائر الممالک الشامیة، و رسم للوزیر أن یجلس قدّامهم فی الدّرکات، ثمّ مات منجک فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۱

سنة سبعین . قال ابن الکرمانیّ فی مختصر المسالک: و هو الّذی جعل للممالیک اللحم السّمیط فی وزارته، و لم یکن یفرّق علیهم قبل ذلک إلا السلیخ.

و وزر تاج الدین عبد الوهاب الملکیّ، و یعرف بالنشو، ثمّ صرف فی رجب سنة ستّ و سبعین.

و أعید ابن الغنّام، ثمّ صرف من عامه.

و تعطّلت الوزارة إلی ربیع الأول سنة سبع و سبعین، فأعید التاج الملکیّ ، ثمّ صرف سنة ثمان و سبعین.

و أعید ابن الغنّام ثم صرف.

و أعید النّشو ثم صرف.

و استقرّ کریم الدین بن الرّویهب، ثمّ عزل فی شوال سنة تسع و سبعین.

و وزر صلاح الدین خلی بن عرّام ، ثمّ عزل فی صفر سنة ثمانین.

و وزر کریم الدین بن مکانس ، ثمّ عزل فی شوال من السنة.

و أعید النّشو، ثمّ عزل فی ربیع سنة إحدی و ثمانین.

و وزر شمس الدین بن أبر، ثمّ عزل سنة خمس و ثمانین.

و وزر شمس الدین إبراهیم کاتب أربان ، فأقام إلی أن مات سنة تسع و ثمانین.

و وزر بعده علم الدین إبراهیم القبطیّ بن کاتب سیّدی، ثمّ عزل فی رمضان سنة تسع.

و وزر كريم الدين بن غنّام، ثمّ وزر موفّق الدين أبو الفرج فى صفر سنة اثنتين و تسعين.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۲

ثم وزر سعد الدين سعد اللّه بن البقرىّ فى ربيع الآخر من السّنة، ثمّ عزل فى رمضان سنة اثنتين و تسعين.

و أعيد أبو الفرج، ثمّ عزل فى صفر.

و وزر ركن الدين عمر بن قيماز، ثمّ عزل فى رجب.

و وزر تاج الدين بن أبى شاكر، ثمّ عزل فى المحرّم سنة خمس و تسعين.

و أعيد موفّق الدين، ثمّ عزل سنة ستّ و تسعين.

و وزر الأمير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلبك بن الحسام، و لقّب وزير الوزراء إلى أن مات سنة ثمان و تسعين.

و وزر مبارك شاه، ثمّ صرف فى رجب.

و أعيد ابن البقرىّ، ثمّ عزل فى ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين.

و وزر بدر الدين محمد الطوخىّ، ثمّ صرف فى ربيع الآخر سنة إحدى و ثمانمائة.

و وزر تاج الدّين عبد الرزاق بن أبى الفرج، ثمّ صرف فى ذى القعدة من السنة.

و وزر الشهاب أحمد بن عمر بن قطنة ، ثمّ صرف فى ذى الحجّة من السنة.

و وزر فخر الدين ماجد بن غراب، ثمّ صرف فى ربيع الآخر سنة اثنتين.

و أعيد بدر الدين الطوخىّ، ثم عزل.

و أعيد ابن غراب، ثمّ عزل فى رجب سنة ثلاث.

و وزر علم الدين يحيى بن أسعد المعروف بأبو كمّ ، ثمّ صرف فى ربيع الآخر سنة أربع.

و وزر الأمير مبارك شاه الحاجب، ثمّ صرف.

و وزر تاج الدين البقرىّ، ثمّ صرف فى المحرّم.

و وزر فخر الدين بن غراب، ثمّ عزل سنة خمس.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۳

و وزر علاء الدين الأخمص، ثمّ عزل فى شوال.

و وزر مبارك شاه، ثمّ صرف.

و ولى تاج الدين بن البقرىّ، ثمّ توارى فى المحرّم سنة ست و ثمانمائة.

و أعيد علم الدين أبو كمّ، ثمّ هرب بعد ثمانية أيام.

و أعيد ابن البقرىّ، ثمّ هرب فى ربيع الأول.

و أعيد تاج الدين بن عبد الرزاق، ثمّ هرب أيضا بعد أيّام.

و أعيد ابن البقرىّ، ثمّ صرف فى ذى الحجّة سنة سبع.

و أعيد فخر الدين ماجد بن غراب، ثمّ صرف سنة تسع.

و وزر جمال الدين البيرىّ الأستادار، ثمّ صرف فى سنة اثنتى عشرة.

و وزر سعد الدين إبراهيم بن البشيرىّ، ثم صرف فى ربيع الأوّل سنة ستّ عشرة.

و وزر تاج الدين بن الهيصم.

ثم وزر تقىّ الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر فى المحرّم سنة تسع عشرة، فأقام إلى ذى القعدة من السنة، و مات.

فوزر فخر الدين الأستادار فی سنة عشرين.

و وزر أرغون شاه ع ثمّ صرف فی جمادی الأولی سنة إحدی و عشرين.

و وزر بدر الدين بن محبّ الدين، ثمّ صرف فی ذی القعدة من عامه.

و وزر بدر الدين بن نصر اللّه، ثمّ صرف فی المحرّم سنة أربع و عشرين.

و وزر تاج الدين كاتب المناخات، ثمّ صرف فی ذی الحجة سنة خمس و عشرين.

و وزر أرغون شاه ، ثمّ صرف فی شوّال سنة ستّ و عشرين.

و وزر كريم الدين بن كاتب المناخات، ثمّ صرف فی رجب سنة سبع و ثلاثين.

و وزر أمين الدين بن الهيصم، ثمّ صرف فی سنة ثمان و ثلاثين.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۴

و وزر سعد الدين إبراهيم بن كاتب جكم.

ثم وزر أخوه جمال الدين يوسف فی ربيع الأوّل من السنة، ثمّ صرف فی جمادی الآخرة من السنة. حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۲۰۴

وزر تاج الدّين عبد الوهاب بن الخطير، ثمّ صرف فی رمضان سنة تسع و ثلاثين.

و وزر الأمير خليل بن شاهی نائب الإسكندرية، ثم صرف.

و وزر كريم الدين بن كاتب المناخ فی ربيع الأوّل سنة أربعين.

ثمّ فی جمادی الآخرة سنة إحدی و خمسين وزر عوضا عنه أمين الدين بن الهيصم، ثم صرف.

و وزر سعد الدين فرج بن النجار، ثمّ صرف فی جمادی سنة ثمان و خمسين.

و أعيد أمين الدين بن الهيصم، ثمّ صرف فی ذی القعدة من السنة.

و أعيد سعد الدين.

ثم وزر علیّ بن محمد الأهناسیّ، ثمّ صرف فی صفر سنة أربع و ستّين.

و وزر فارس المحمّدی يوما واحدا، ثمّ صرف.

و وزر منصور الكاتب ثمّ صرف.

و وزر محمد الأهناسیّ والد علیّ المذكور عشرة أيام.

ثمّ وزر منصور الأسلمیّ ثمّ صرف فی ربيع الآخر.

و أعيد سعد الدين بن النجار، ثمّ صرف فی ربيع الأوّل سنة خمس و ستّين.

و أعيد علیّ بن الأهناسیّ، ثم صرف.

و وزر شمس الدين بن صنيعة، ثمّ صرف فی صفر سنة سبع و ستين.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۵

و أعيد ابن الأهناسیّ ، ثمّ صرف فی شوال.

و وزر مجد الدين بن البقریّ، ثمّ صرف فی المحرّم سنة ثمان و ستّين.

و وزر يونس بن عمر بن جربغا، ثمّ صرف عن قرب.

و أعيد المجد بن البقریّ، ثمّ صرف فی ربيع الأول.

و وزر محمد البباویّ إلی أن غرق آخر ذی الحجة سنة تسع و ستين.

و أعيد الشرف يحيى بن صنيعة، ثمّ صرف فی جمادی الآخرة.

و وزر قاسم القرافیّ، ثمّ صرف.

و وزر الأمير يشبک الدّوادار، ثمّ صرف.

و وزر الأمير خشقدم الطواشیّ، ثمّ صرف.

و وزر ابن الزرازيریّ کاشف الصعيد ثمّ صرف عن قرب.

و أعيد قاسم، ثمّ صرف.

و وزر الأمير أقبردی الدّوادار.

ثم ولی بعده الأمير کرتبای الأحمر يوم الخميس، مستهلّ ذی الحجة سنة إحدی و تسعمائة.

ذکر کتاب السر

قال ابن الجوزی فی التّلقيح: کان يکتب لرسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم أبو بکر و عمر و عثمان و علیّ و أبیّ بن کعب و زيد بن ثابت الأنصاری و معاوية بن أبی سفيان و حنظلة بن الربيع الأسديّ و خالد بن سعيد بن القاضی و أبّان بن سعيد و العلّاء بن الحضرمی؛ و کان المداوم له علی الکتابة زيد و معاوية.

و کان کاتب أبی بکر الصدّيق عثمان بن عفان، و کاتب عمر زيد بن ثابت و کاتب عثمان مروان بن الحکم، و کاتب علیّ عبد اللّه بن رافع و سعيد بن أبی نمر، و کاتب

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۶

الحسن کاتب أبيه، و کاتب معاوية عبيد اللّه بن أوس الغسّانیّ. و کاتب يزيد عبيد اللّه بن أوس، ثم عمر العذریّ، و کاتب ابنه معاوية زمل بن عمر العذریّ، و کاتب مروان عبيد اللّه بن أوس و شعبان الأحول، و کاتب عبد الملک بن مروان روح بن زنباع الجذاميّ و قبيصة بن ذئيب، و کاتب ابنه الوليد قبيصة بن ذؤيب و قرّة بن شريک و الضحاک بن زمل، و کاتب سليمان يزيد بن المهلّب و عبد العزيز بن الحارث، و کاتب عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة الکنديّ و ليث بن أبی رقيّة، و کاتب يزيد بن عبد الملک سعيد بن الوليد الأبرش و محمد بن عبد اللّه بن حارثة الأنصاری، و کاتب هشام هذان و سالم مولاه، و کاتب الوليد العباس بن مسلم، و کاتب يزيد بن الوليد ثابت بن سليمان، و کاتب إبراهيم ابن الوليد ثابت هذا، و کاتب مروان الحمار عبد الحميد بن يحيی مولی بنی عامر.

و قال ابن فضل اللّه: کانت کتابة الإنشاء فی المشرق فی خلافة بنی العبّاس منوطة بالوزراء، و ربّما انفرد بها رجل، و استقلّ بها کتّاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة، فکان يسمّی فی المشرق کاتب الإنشاء. ثمّ لمّا کثر عددهم سمّی رئيسهم رئيس ديوان الإنشاء، ثمّ بقی يطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء، و تارة کاتب السرّ. قال: و هی عندی أنبه، و عند النّاس أدلّ، و کانت فی دولة السلاجقية و ملوک الشرق يسمّی ديوان الطغراوية، و الطغراء هی الطرّة بالفارسية. و أهل المغرب يسمّون صاحب ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلی. انتهی.

و قال غيره: إنّما حدثت وظيفة کتابة السرّ فی أيّام قلاوون، و کانت هذه الوظيفة قديما فی ضمن الوزارة، و الوزير هو المتصرّف فی الديوان، و تحت يده جماعة من الکتّاب، و فيهم رجل کبير يسمّی صاحب ديوان الإنشاء ، و صاحب ديوان الرسائل، فکان الکاتب للسفّاح عبد الجبار بن عدیّ ثمّ کتب للمنصور، و کتب له أيضا عبد اللّه بن المقفّع المشهور بالبلاغة و أبو أيوب المورياني، و کتب للمهدیّ وزيره معاوية بن عبد اللّه و الربيع بن يونس الحاجب، و کتب للهادی عمرو بن بزيع، فلمّا استخلف الرشيد ولّی يوسف بن القاسم بن صبيح کتابة الإنشاء، فکان هو الذی قام خطيبا بين

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۷

یدیه، حتّی أخذت له البیعة، و کتب للمأمون أحمد بن یوسف و القاسم بن صبیح الکاتب و أحمد بن الضّحاک الطبریّ، و عمرو بن مسعدة و المعلّی بن أیّوب و عمرو بن مهبول، و کتب للمعتصم و الواثق إبراهیم الموصلیّ. و کتب للمتوکّل أحمد بن المدبّر و إبراهیم بن العبّاس الصولیّ. و کتب للطائع أبو القاسم عیسی بن الوزیر علیّ بن عیسی بن الجراح. و کتب للقادر إبراهیم بن هلال الصابئ، و کان علی دین الصابئة إلی أن مات.

و کتب لجماعة من الخلفاء أبو سعید العلاء بن الحسن بن وهب بن الموجلایا، قال بعضهم: کتب فی الإنشاء للخلفاء خمسا و ستّین سنة، و کان نصرانیا، فأسلم علی ید المقتدی.

و کتب للمقتدی سدید الدّولة أبو عبد اللّه بن إبراهیم بن عبد الکریم بن الأنباریّ.

قال ابن کثیر: کان کاتب الإنشاء ببغداد للخلفاء، و انفرد بصناعة الإنشاء.

و کتب للنّاصر قوام الدین یحیی بن سعید الواسطیّ المشهور بابن زیادة صاحب دیوان الإنشاء ببغداد، و من انتهیت إلیه رئاسة الترسّل.

و کتب للمستعصم عزّ الدین عبد الحمید بن هبة اللّه بن أبی الحدید المدائنیّ الکاتب و مات سنة خمس و خمسین و ستمائة، و قتل الخلیفة عقب موته. فهو آخر کتاب الإنشاء لخلفاء بغداد.

قلت: و من الاتّفاق الغریب أنّ آخر خلفاء بنی أمیّة کتب له عبد الحمید الکاتب و آخر خلفاء بنی العبّاس ببغداد کتب له من اسمه عبد الحمید.

*** و أما مصر فلم یکن بها دیوان إنشاء من حین فتحت إلی أیّام أحمد بن طولون، فقوی أمرها، و عظم ملکها، فکتب عنده أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود .

و کتب لولده خمارویه إسحاق بن نصر العبادیّ.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۸

و توالت دواوین الإنشاء بذلک إلی أن ملکها العبیدیة، فعظم دیوان الإنشاء بها و وقع الاعتناء به و اختیار بلغاء الکتاب ما بین مسلم و ذمیّ؛ فکتب للعزیز بن المعزّ وزیره ابن کلّس ثم أبو عبد اللّه الموصلیّ، ثمّ أبو المنصور بن حورس النصرانیّ، ثم کتب للحاکم و مات فی أیامه.

و کتب للحاکم بعده القاضی أبو الطاهر الهولیّ، ثمّ کتب لابن الحاکم الظاهر.

و کتب للمستنصر القاضی ولیّ الدین بن خیران و ولیّ الدولة موسی بن الحسن بعد انتقاله إلی الوزارة و أبو سعید العبدیّ.

و کتب للآمر و الحافظ أبو الحسن علیّ بن أبی أسامة الحلبیّ، إلی أن توفّی، فکتب ولده أبو المکارم إلی أن توفّی و معه أمین الدین تاج الریاسة أبو القاسم علیّ بن سلیمان المعروف بابن الصیرفیّ و القاضی کافی الکفاة محمود بن الموفق بن قادوس و ابن أبی الدم الیهودیّ. ثم کتب بعد ابن أبی المکارم القاضی موفّق الدین أبو الحجاج یوسف بن الخلّال بقیة أیام الحافظ إلی آخر أیام العاضد، و به تخرّج القاضی القاضل.

ثم أشرک العاضد مع ابن الخلّال فی دیوان الإنشاء القاضی جلال الدین محمود الأنصاریّ.

ثم کتب القاضی الفاضل عبد الرحیم البیسانیّ بین یدی ابن الخلّال فی وزارة صلاح الدین، فلمّا ملک صلاح الدین کتب له القاضی الفاضل. ثمّ أضیفت إلیه الوزارة. ثمّ کتب بعده لابنه العزیز ثمّ لولده المنصور و مات.

و کتب للکامل أمین الدین سلیمان المعروف بکاتب الدّرج إلی أن مات، فکتب بعده أمین الدین عبد المحسن بن حمود الحلبیّ، ثمّ کتب للصالح أیضا.

ثم ولی دیوان الإنشاء الصاحب بهاء الدین زهیر الشاعر المشهور، ثمّ صرف و ولی بعده الصاحب فخر الدین إبراهیم بن لقمان الأسعردیّ، فأقام إلی انقراض الدولة الأیّوبیة، و کتب بعدها للمعزّ أیبک ثمّ للمظفر قطز، ثمّ للظاهر بیبرس ثمّ للمنصور قلاوون، ثمّ

نقله قلاوون من ديوان الإنشاء للوزارة.

و ولى ديوان الإنشاء مكانه فتح الدين بن عبد الظاهر، و هو أوّل من سمّى كاتب

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۰۹

السرّ، و سبب ذلك ما حكاه الصلاح الصّفدىّ أنّ الملك الظاهر رفع إليه مرسوم أنكره، فطلب محيى الدين بن عبد الظاهر و أنكر عليه، فقال: يا خوند ، هكذا قال لى الأمير سيف الدين بلبان الدّوادار ، فقال السلطان: ينبغى أن يكون للملك كاتب سرّ يتلقّى المرسوم منه شفاها- و كان قلاوون حاضرا من جملة الأمراء- فوقرت هذه الكلمة فى صدره، فلمّا تسلطن اتّخذ كاتب سرّ، فكان فتح الدين هذا أوّل من شهر بهذا الاسم؛ و كان هو و الوزير لقمان بين يدى السلطان، فحضر كتاب، فأراد الوزير أن يقرأه، فأخذ السلطان الكتاب منه، و دفعه إلى فتح الدين، و أمره بقراءته، فعظم ذلك على ابن لقمان؛ و كانت العادة إذ ذاك ألّا يقرأ أحد على السلطان كتابا بحضرة الوزير. و استمرّ فتح الدين فى كتابة السرّ إلى أن توفّى أيّام الأشرف خليل.

فولى مكانه تاج الدين بن الأثير إلى أن توفّى.

و ولى شرف الدين عبد الوهاب العمرىّ، ثمّ نقله الناصر فى سنة إحدى عشرة و سبعمائة إلى كتابة السرّ بدمشق.

و ولى مكانه علاء الدين بن تاج الدين بن الأثير إلى أن فلج.

و ولى محيى الدين بن فضل اللّه، و ولده شهاب الدينا معينا له لكبر سنه، ثمّ صرفا.

و ولى شرف الدين بن الشهاب محمود ثمّ صرف، و أعيد ابن فضل اللّه و ولده شهاب الدين ثمّ صرفا إلى الشام.

و ولى علاء الدين بن فضل اللّه أخو شهاب الدين، فاستمرّ فى الوظيفة نيّفا و ثلاثين سنة إلى أن مات سنة تسع و ستين و سبعمائة.

و ولى ولده بدر الدين محمد إلى أن تسلطن برقوق فصرفه.

و ولّى أوحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل التركمانىّ؛ إلى أن مات فى ذى الحجة سنة ستّ و ثمانين [و سبعمائة].

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۰

و أعيد بدر الدين إلى أن تسلطن برقوق الثّانية، فصرفه.

و ولى علاء الدين علىّ بن عيسى الكركىّ إلى أن مات سنة أربع و تسعين [و سبعمائة].

و أعيد بدر الدين إلى أن مات فى شوال سنة ستّ و تسعين.

و ولى بدر الدين محمود الكلستانىّ إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانمائة.

و ولى فتح الدين فتح اللّه بن مستعصم التّبريزىّ، ثم صرفه الناصر فرج بسعد الدين بن غراب مدّة يسيرة، ثمّ صرف ابن غراب، و أعيد فتح اللّه ثمّ صرف، و ولى فخر الدين بن المزوّق ثمّ صرف، و أعيد فتح اللّه إلى أن قبض عليه المؤيّد سنة ستّ عشرة و ثمانمائة.

و ولى ناصر الدين محمد بن البارزىّ إلى أن مات فى سنة ثلاث و عشرين [و ثمانمائة].

و ولى ولده كمال الدين محمد، ثمّ صرف.

و ولى علم الدين داود بن الكويز إلى أن مات سنة ستّ و عشرين [و ثمانمائة].

و ولى جمال الدين يوسف بن الكركىّ ثمّ صرف.

و ولى قاضى القضاة شمس الدين الهروى الشافعىّ، ثمّ صرف.

و ولى نجم الدين عمر بن حجّى ثمّ صرف.

و ولى شمس الدين محمد بن مزهر إلى أن مات فى جمادى الآخرة سنة اثنتين و ثلاثين [و ثمانمائة].

و ولى ولده جلال الدين محمد ، ثمّ صرف.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۱

و ولی الشّریف شهاب الدین الدّمشقی إلی أن مات بالطاعون.

و ولی شهاب الدین أحمد بن السفّاح الحلبیّ إلی أن مات سنهٔ خمس و ثلاثین.

و ولی الوزیر کریم الدین عبد الکریم کاتب المناخ مضافا للوزارهٔ، ثمّ صرف بعد أشهر.

و أعید الکمال بن البارزیّ، ثمّ صرف فی رجب سنهٔ تسع و ثلاثین [و ثمانمائهٔ].

و ولی محبّ الدّین بن الأشقر، ثمّ صرف.

و ولی صلاح الدین محمد بن الصاحب بدر الدین حسن بن نصر اللّه إلی أن مات بالطاعون سنهٔ إحدی و أربعین.

و ولی مکانه أبو الصاحب بدر الدین حسن، ثمّ صرف فی ربیع الآخر سنهٔ اثنتین و أربعین.

و أعید ابن البارزیّ إلی أن مات فی صفر سنهٔ ستّ و خمسین.

و أعید ابن الأشقر ، ثمّ صرف فی ذی القعدهٔ.

و ولی محبّ الدین بن الشّحنهٔ ثمّ صرف بعد ستهٔ أشهر.

و أعید ابن الأشقر، ثمّ صرف فی جمادی الأولی سنهٔ ثلاث و ستین [و ثمانمائهٔ].

و أعید ابن الشّحنهٔ ثمّ صرف فی شوال سنهٔ ستّ و ستّین.

و ولی القاضی برهان الدین بن الدیری، ثم صرف بعد نصف شهر.

و ولی القاضی تقیّ الدین أبو بکر بن کاتب السرّ بدر الدین بن مزهر، فاستمر إلی الآن عامله اللّه بألطافه، و ختم لنا و له بخیر. آمین.

ثم توفّی فی سادس رمضان سنهٔ ثلاث و تسعین [و ثمانمائهٔ]، و ولی ولده القاضی بدر الدین أعزّه اللّه تعالی!

حسن المحاضرهٔ فی أخبار مصر و القاهرهٔ، ج۲، ص: ۲۱۲

ذکر جوامع مصر

اشارهٔ

اعلم أنه من حین فتحت مصر لم یکن بها مسجد تقام فیه الجمعهٔ سوی جامع عمرو بن العاص إلی أن قدم عبد اللّه بن علیّ بن عبد اللّه بن عباس من العراق فی طلب مروان الحمار سنهٔ ثلاث و ثلاثین و مائهٔ، فنزل عسکره فی شمالیّ الفسطاط و بنوا هنالک الأبنیهٔ، فسمّی ذلک الموضع بالعسکر، و أقیمت هناک الجمعهٔ فی مسجد فصارت الجمعهٔ تقام بجامع عمرو و بجامع العسکر إلی أن بنی السلطان أحمد بن طولون جامعه حین بنی القطائع ، فأبطلت الخطبهٔ من جامع العسکر، و صارت الجمعهٔ تقام بجامع عمرو و بجامع ابن طولون إلی أن قدم جوهر القائد، و اختطّ القاهرهٔ، و بنی الجامع الأزهر فی سنهٔ ستّین و ثلاثمائهٔ، فصارت الجمعهٔ تقام بثلاثهٔ جوامع.

ثمّ إنّ العزیز باللّه بنی فی ظاهر القاهرهٔ من جههٔ باب الفتوح الذی یعرف الیوم بجامع الحاکم سنهٔ ثمانین و ثلاثمائهٔ، و أکمله ابنه الحاکم ، ثمّ بنی جامع المقس و جامع راشدهٔ، فکانت الجمعهٔ تقام فی هذه الجوامع السّتّهٔ إلی أن انقضت دولهٔ العبیدیین فی سنهٔ سبع و ستّین و خمسمائهٔ، فبطلت الجمعهٔ من الجامع الأزهر، و بقیت فیما عداه.

فلمّا کانت الدولهٔ الترکیّهٔ أحدثت عدّهٔ جوامع، فبنی فی زمن الظّاهر بیبرس جامع الحسینیهٔ فی سنهٔ تسع و ستّین؛ ثمّ بنی النّاصر بن قلاوون الجامع الجدید بمصر فی سنهٔ اثنتی عشرهٔ و سبعمائهٔ، و بنی أمراؤه و کتّابه فی أیامه نحو ثلاثین جامعا، و کثرت فی هذا القرن و ما بعده إلی الآن؛ فلعلّها الآن فی مصر و القاهرهٔ أکثر من مائتی جامع.

قال هشام بن عمّار: حدّثنا المغیرهٔ بن المغیرهٔ، حدّثنا عثمان بن عطاء الخراسانیّ عن أبیه، قال: لمّا افتتح عمر البلدان کتب إلی أبی موسی و هو علی البصرهٔ یأمره أن یتّخذ مسجدا للجماعهٔ، و یتّخذ للقبائل مساجد، فإذا کان یوم الجمعهٔ انضمّوا إلی مسجد الجماعهٔ، و

کتب إلی سعد بن أبی وقّاص و هو علی الکوفة بمثل ذلک، و کتب إلی عمرو ابن العاص و هو علی مصر بمثل ذلک، و کتب إلی أمراء أجناد الشام ألّا ینبذوا إلی القری و أن ینزلوا المدائن، و أن یتّخذوا فی کلّ مدینة مسجدا واحدا، و لا تتّخذ القبائل مساجد؛ و کان الناس متمسّکین بأمر عمر و عهده.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۳

و قال القضاعیّ: لم تکن الجمعة تقام فی زمن عمرو بن العاص بشیء من أرض مصر إلا بجامع الفسطاط.

قال ابن یونس: جاء نفر من غافق إلی عمرو بن العاص، فقالوا: إنّا نکون فی الریف، فنجتمع فی العیدین الفطر و الأضحی، و یؤمّنا رجل منّا، قال: نعم، قالوا:

فالجمعة؟ قال: لا، و لا یصلّی الجمعة بالناس إلّا من أقام الحدود، و أخذ بالذنوب، و أعطی الحقوق.

جامع عمرو

قال ابن المتوّج فی إیقاظ المتغفّل و إیعاظ المتؤمّل: هو الجامع العتیق المشهور بتاج الجوامع ، قال اللّیث بن سعد: لیس لأهل الرایة مسجد غیره؛ و کان الذی حاز موضعه ابن کلثوم التّجیبیّ ، و یکنی أبا عبد الرحمن، و نزله فی حصارهم الحصن، فلمّا رجعوا من الإسکندریة سأل عمرو قیسبة فی منزله هذا، تجعله مسجدا؟ فقال قیسبة: فإنّی أتصدّق به علی المسلمین، فسلّمه إلیهم؛ فبنی فی سنة إحدی و عشرین، و کان طوله خمسین ذراعا فی عرض ثلاثین. و یقال إنّه وقف علی إقامة قبلته ثمانون رجلا من الصحابة، منهم الزبیر بن العوام و المقداد بن الأسود و عبادة بن الصّامت و أبو الدرداء و أبو ذرّ و أبو بصرة و محمیة بن جزء الزّبیدیّ و نبیه بن صواب و فضالة بن عبید و عقبة بن عامر و رافع بن مالک و غیرهم.

و یقال إنّها کانت مشرفة جدّا، و أنّ قرّة بن شریک لما هدم المسجد و بناه فی زمن الولید تیامن قلیلا.

و ذکر أنّ اللیث بن سعد و عبد اللّه بن لهیعة کانا یتیامنان إذا صلّیا فیه؛ و لم یکن للمسجد الذی بناه عمرو محراب مجوّف، و إنّما قرّة بن شریک جعل المحراب المجوّف.

و أوّل من أحدث ذلک عمر بن عبد العزیز، و هو یومئذ عامل الولید علی المدینة حین هدم المسجد النبویّ، و زاد فیه.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۴

و أوّل من زاد فی جامع عمرو مسلمة بن مخلد، و هو أمیر مصر سنة ثلاث و خمسین، شکا الناس إلیه ضیق المسجد، فکتب إلی معاویة، فکتب معاویة إلیه یأمره بالزیادة فیه، فزاد فیه من بحریة ، و جعل له رحبة من البحریّ و بیّضه و زخرفه، و لم یغیّر البناء القدیم، و لا أحدث فی قبلته و لا غربیّه شیئا.

و کان عمرو قد اتّخذ منبرا، فکتب إلیه عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه یعزم علیه فی کسره: أما یحسبک أن تقوم قائما، و المسلمون جلوس تحت عقبیک! فکسره .

و ذکر أنّه زاد من شرقیّه حتّی ضاق الطریق بینه و بین دار عمرو بن العاص و فرشه بالحصر و کان مفروشا بالحصباء.

و قال فی کتاب الجند العربیّ: إنّ مسلمة نقض جمیع ما کان عمرو بن العاص بناه، و زاد فیه من شرقیّه، و بنی فیه أربع صوامع ، فی أرکانه الأربع برسم الأذان، ثمّ هدمه عبد العزیز بن مروان أیّام إمرته بمصر فی سنة تسع و سبعین، و زاد فیه من ناحیة الغرب، و أدخل فیه الرّحبة التی کانت بحریّه .

ثم فی سنة تسع و ثمانین أمر الولید نائبه بمصر برفع سقفه و کان مطأطئا، ثمّ هدمه قرّه بن شریک بأمر الولید سنة اثنتین و تسعین و بناه، فکانوا یجمعون فی قیساریّة العسل حتی فرغ من بنائه فی رمضان سنة ثلاث و تسعین، و نصب فیه المنبر الجدید فی سنة أربع و تسعین، و عمل فیه المحراب المجوّف، و عمل للجامع أربعة أبواب، و لم یکن له قبل إلا بابان، و بنی فیه بیت المال بناه أسامة بن زید

التّوخیّ متولّی الخراج بمصر سنة تسع و تسعین؛ فکان مال المسلمین فیه، ثمّ زاد فیه صالح بن علیّ بن عبد اللّه بن عباس، و هو یومئذ أمیر من قبل السّفاح، و ذلک فی سنة ثلاث و ثلاثین و مائة، فأدخل فیه دار الزبیر بن العوام، و أحدث له بابا خامسا .

ثمّ زاد فیه موسی بن عیسی الهاشمیّ، و هو یومئذ أمیر مصر من قبل الرشید فی شعبان سنة خمس و سبعین و مائة.

ثمّ زاد عبد اللّه بن طاهر بن الحسین- و هو أمیر مصر من قبل المأمون- فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۵

جمادی الآخرة سنة اثنتی عشرة و مائتین؛ فتکامل ذرع الجامع مائتین و تسعین ذراعا بذراع العمل طولا فی مائة و خمسین عرضا. و یقال إن ذرع جامع ابن طولون مثل ذلک سوی الأزقّة المحیطة بجوانبه الثلاثة. و نصب عبد اللّه بن طاهر اللّوح الأخضر، فلما احترق الجامع احترق ذلک اللوح، فجعل أحمد بن محمد العجیفیّ هذا اللوح مکانه، و هو الباقی إلی الیوم.

و لما تولّی الحارث بن مسکین القضاء من قبل المتوکّل سنة ثلاث و ثلاثین و مائتین، أمر ببناء هذه الرحبة لینتفع الناس بها، و بلّط زیادة بن طاهر، و أصلح السّقف.

ثمّ زاد فیه أبو أیّوب أحمد بن محمد بن شجاع صاحب الخراج فی أیام المستعصم فی سنة ثمان و خمسین و مائتین.

ثمّ وقع فی مؤخّر الجامع حریق فی لیلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس و سبعین و مائتین، فأمر خمارویه بن أحمد بن طولون بعمارته علی ید العجیفیّ، فأعید علی ما کان، و أنفق فیه ستّة آلاف و أربعمائة دینار، و کتب اسم خمارویه فی دائرة الرّواق الذی علیه اللوح الأخضر.

و زاد فیه أبو حفص العباسیّ أیّام نظره فی قضاء مصر خلافة لأخیه الغرفة التی یؤذّن فیها المؤذّنون فی السطح؛ و ذلک فی سنة ستّ و ثلاثین و ثلثمائة.

ثمّ زاد فیه أبو بکر محمد بن عبد اللّه بن الخازن رواقا مقداره تسعة أذرع، و ذلک فی رجب سنة سبع و خمسین و ثلثمائة، و مات قبل إتمامه فأتّمه ابنه علیّ، و فرغ فی رمضان سنة ثمان و خمسین [و ثلاثمائة] ، ثم بنی فیه الوزیر أبو الفرج یعقوب بن کلّس بأمر العزیز بالله الفوّارة التی تحت قبّة بیت المال، و هو أوّل من عمل فیه فوّارة.

و فی سنة سبع و ثمانین و ثلثمائة بیّض المسجد، و نقشت ألواحه، و ذهّب علی ید برجوان الخادم، و عمل فیه تنّور یوقد کلّ لیلة جمعة.

و فی سنة ثلاث و أربعمائة أنزل إلیه من القصر بألف و مائتین و تسعین مصحفا فی ربعات، فیها ما هو مکتوب بالذهب کلّه، و مکّن الناس من القراءة فیها، و أنزل إلیه تنّور

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۶

من فضّة، استعمله الحاکم بأمر اللّه برسم الجامع فیه مائة ألف درهم فضّة، فاجتمع الناس، و علّق بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الجامع حتّی أدخل به.

ثمّ فی أیّام المستنصر فی رمضان سنة ثمان و ثلاثین و أربعمائة زید فی المقصورة فی شرقیّها و غربیّها، و عملت منطقة فضّة فی صدر المحراب الکبیر، أثبت علیها اسم أمیر المؤمنین، و جعل لعمودی المحراب أطواقا من فضّة، فلم یزل ذلک إلی أن استبدّ السلطان صلاح الدین بن أیوب فأزاله .

و فی ربیع الآخر سنة اثنتین و أربعین و أربعمائة، عمل مقصورة خشب و محراب ساج منقوش بعمودی صندل برسم الخلیفة ، تنصب له فی زمن الصیف، و تقلع فی زمن الشتاء إذا صلّی الإمام فی المقصورة الکبیرة.

و فی سنة أربع و ستّین و خمسمائة تمکّن الفرنج من دیار مصر، و حکموا فی القاهرة حکما جائرا، فتشعّث الجامع، فلما استبدّ السلطان صلاح الدین جدّده فی سنة ثمان و ستین و خمسمائة، و رخّمه و رسم علیه اسمه، و عمّر المنظرة التی تحت المئذنة الکبیرة، و جعل

لها سقایة.

و لمّا تولی تاج الدین بن بنت الأعزّ قضاء الدیار المصریة أصلح ما مال منه، و هدم ما به من الغرف المحدثة، و جمع أرباب الخبرة، و اتّفق الرأی علی إبطال جواز الماء إلی الفسقیّة، و کان الماء یصل إلیها من بحر النیل، فأمر بإبطاله لما کان فیه من الضرر علی جدار الجامع.

و جدّ السلطان بیبرس فی عمارة ما تهدّم من الجامع، فرسم بعمارته، و کتب اسم الظاهر بیبرس علی اللوح الأخضر، و جلیت العمد کلّها، و بیّض الجامع بأسره، و ذلک فی رجب سنة ستّ و ستّین و ستّمائة. ثم جدّد فی أیّام المنصور قلاوونسنة سبع و ثمانین و سبعمائة .

و لما حدثت الزلزلة فی سنة اثنتین و سبعمائة تشعّث الجامع فجدّده سلار نائب السلطنة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۷

ثمّ تشعّث فی أیّام الظاهر برقوق، فعمره الرئیس برهان الدین إبراهیم بن عمر المحلّی رئیس التّجار، و أزال اللوح الأخضر، و جدّد لوحا آخر بدله و هو الموجود الآن، و انتهت عمارته فی سنة أربع و ثمانمائة.

*** و قال ابن المتوّج: ذرع هذا الجامع اثنان و أربعون ألف ذراع بذراع البزّ المصریّ القدیم، و هو ذراع الحصر المستمرّ الآن، و ذرعه بذراع العمل ثمانیة و عشرون ألف ذراع، و عدد أبوابه ثلاثة عشر بابا .

و ممّن تولّی إمامة هذا الجامع أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانیّ، و هو أوّل من سلّم فی الصلاة تسلیمتین بهذا الجامع، بکتاب ورد علیه من المأمون یأمره بذلک؛ و صلّی خلفه الإمام الشافعیّ حین قدم مصر، فقال: هکذا تکون الصلاة، ما صلّیت خلف أحد أتمّ صلاة من أبی رجب و لا أحسن.

و لما تولّی القصص حسن بن الربیع بن سلیمان فی زمن المتوکّل سنة أربعین و مائتین، أمر بترک قراءة «بسم اللّه الرحمن الرحیم» فی الصّلاة، و أمر أن تصلّی التراویح ، و کانت تصلّی قبل ذلک ستّ تراویح.

قال القضاعیّ: و لم یکن النّاس یصلّون بالجامع صلاة العید، حتّی کانت سنة ستّ و ثلثمائة صلّی فیه رجل یعرف بعلیّ بن أحمد بن عبد الملک الفهمیّ صلاة الفطر، و یقال إنّه خطب من دفتر نظرا، و حفظ عنه أنه قال: «اتّقوا اللّه حقّ تقاته و لا- تموتنّ إلّا و أنتم مشرکون»، فقال بعض الشعراء:

قام فی العید لنا خطیبا فحرّض النّاس علی الکفر

و ذکر بعضهم أنه کان یوقد فی الجامع العتیق کلّ لیلة ثمانیة عشر ألف فتیلة و أنّ المطلق برسمه خاصة لوقود کلّ لیلة أحد عشر قنطارا زیتا طیّبا.

و قال المقریزیّ: أخبرنی شهاب الدین أحمد بن عبد اللّه الأوحدیّ، أخبرنی المؤرّخ ناصر الدین محمد بن عبد الرحیم بن الفرات، أخبرنا العلامة شمس الدین

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۱۸

محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفیّ، أنّه أدرک بجامع عمرو قبل الوباء الکائن فی سنة تسع و أربعین و سبعمائة بضعا و أربعین حلقة لإقراء العلم لا تکاد تبرح منه .

جامع أحمد بن طولون

هذا الجامع موضعه یعرف بجبل یشکر، قال ابن عبد الظاهر: و هو مکان مشهور بإجابة الدعاء، و قیل: إنّ موسی علیه الصلاة و السلام ناجی ربّه علیه بکلمات.

و ابتدأ فی بناء هذا الجامع الأمیر أبو العباس أحمد بن طولون بعد بنائه القطائع، و هی مدینة بناها ما بین سفح الجبل حیث القلعة الآن، و بین الکبارة و ما بین کوم الجارح و قناطر السباع؛ فهذه کانت القطائع.

و کان ابتداء بنائه فی سنة ثلاث و ستّین و مائتین، و فرغ منه سنة ست و ستین [و مائتین]، و بلغت النفقة علیه فی بنائه مائة ألف دینار و عشرین ألف دینار. و قیل: إنه قال: أرید أن أبنی بناء إن احترقت مصر بقی، و إن غرقت بقی، فقیل: یبنی بالجیر و الرّماد و الآجرّ الأحمر، و لا تجعل فیه أساطین رخام، فإنّه لا صبر له علی النّار؛ فبنی هذا البناء، فلمّا کمل بناؤه أمر بأن یعمل دائرة منطقه عنبر معجون لیفوح ریحها علی المصلّین، و أشعر الناس بالصلاة فیه، فلم یجتمع فیه أحد، و ظنّوا أنّه بناه من مال حرام، فخطب فیه، و حلف أنّه ما بنی هذا المسجد بشیء من ماله، و إنّما بناه بکنز ظفر به، و إنّ العشار الذی نصبه علی منارته وجده فی الکنز.

فصلّ الناس فیه، و سألوه أن یوسّع قبلته، فذکر أنّ المهندسین اختلفوا فی تحریر قبلته، فرأی فی المنام النبی صلی اللّه علیه و سلم، و هو یقول: یا أحمد، ابن قبلة هذا الجامع علی هذا الموضع؛ و خطّ له فی الأرض صورة ما یعمل. فلمّا کان الفجر مضی مسرعا إلی ذلک الموضع؛ فوجد صورة القبلة فی الأرض مصوّرة، فبنی المحراب علیها، و لا یسعه أن یوسّع فیه لأجل ذلک، فعظم شأن الجامع، و سألوه أن یزید فیه زیادة، فزاد فیه.

قال الخطیب: رکب أحمد بن طولون یوما یتصیّد بمصر، فغاصت قوائم فرسه فی الرمل، فأمر بکشف ذلک الموضع، فظهر له کنز فیه ألف ألف دینار، فأنفقها فی

أبواب البرّ و الصّدقات، و بنی منها الجامع، و أنفق علیه مائة ألف دینار و عشرین ألف دینار، و بنی المارستان، و أنفق علیه ستّین ألف دینار.

و قال صاحب مرآة الزمان: قرأت فی تاریخ مصر أن ابن طولون کان لا یعبث قطّ، و أنّه أخذ یوما درجا من الکاغد ، و جعل یعبث به، و بقی بعضه فی یده، فعجب الحاضرون فقال: اصنعوا منارة الجامع علی هذا المثال، و هی قائمة الیوم علی ذلک.

قال: و لما تمّ بناء الجامع رأی ابن طولون فی منامه کأنّ اللّه تجلّی للقصور التی حول الجامع و لم یتجلّ للجامع، فسأل المعبّرین، فقالوا: یخرب ما حوله، و یبقی الجامع قائما وحده. قال: و من أین لکم هذا؟ قالوا: من قوله تعالی: فَلَمَّا تَجَلَّی رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَکًّا [الأعراف: ۱۴۳]، و قوله علیه الصلاة و السلام: «إذا تجلّی اللّه لشیء خضع له»، فکان کما قالوا.

و فی الخطط للمقریزیّ: بنی أحمد بن طولون جامعه علی بناء جامع سامرّاء، و کذلک المنارة، و بیّضه و حلّقه و فرشه بالحصر العبدانیّة، و علّق فیه القنادیل المحکمة بالسلاسل النحاس المفرّغة الحسان الطوال، و حمل إلیه صنادیق المصاحف، و کان فی وسط صحنه قبّة مشبکة من جمیع جوانبها، و هی مذهّبة علی عشرة عمد رخام مفروشة کلّها بالرخام، و تحت القبّة قصعة رخام سعتها أربعة أذرع، وسطها فوّارة تفور بالماء، و کانت علی السطح علامات للزوال و السطح بدرابزین ساج، فاحترق هذا کلّه فی ساعة واحدة فی لیلة الخمیس لعشر خلون من جمادی الأولی سنة تسع و سبعین و ثلاثمائة، فلما کان فی محرّم سنة خمس و ثمانین و ثلاثمائة؛ أمر العزیز بالله بن المعزّ ببناء فوّارة عوضا عن التی احترقت .

قال المقریزیّ: و لما کمل بناء جامع بن طولون صلّی فیه القاضی بکّار إماما، و خطب فیه أبو یعقوب البلخیّ، و أملی فیه الحدیث الربیع بن سلیمان تلمیذ الإمام الشافعیّ، و دفع إلیه أحمد بن طولون فی ذلک الیوم کیسا فیه ألف دینار . و عمل الربیع کتابا فیما روی عن النبی صلی اللّه علیه و سلم أنه قال: «من بنی مسجدا و لو کمفحص قطاة بنی اللّه له بیتا فی الجنّة»، و دسّ أحمد بن طولون عیونا لسماع ما یقوله النّاس من العیوب فی الجامع، فقال رجل: محرابه صغیر، و قال آخر: ما فیه عمود، و قال آخر:

لیس له میضأة، فجمع الناس و قال: أمّا المحراب فإنّی رأیت رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و قد

خطّه لى ، و أما العمد فإنّى بنيت هذا الجامع من مال حلال و هو الكنز، و ما كنت لأشوبه بغيره، و هذه العمد إمّا أن تكون من مسجد أو كنيسة، فنزّهته عنهما؛ و أمّا الميضأة، فها أنا أبنيها خلفه. ثمّ عمل فى مؤخّره ميضأة و خزانة شراب فيها، جمع الأشربة و الأدوية، و عليها خدم، و فيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث من الحاضرين للصلاة، و أوقف على الجامع أوقافا كثيرة سوى الرّباع و نحوها، و لم يتعرّض إلى شىء من أراضى مصر البتّة.

ثم لمّا وقع الغلاء فى زمن المستنصر خربت القطائع بأسرها، و عدم السكن هنالك، و صار ما حول الجامع خرابا.

و توالت الأيام على ذلك، فتشعّث الجامع، و خرب أكثره، و صارات المغاربة تنزل فيه بإبلها و متاعها عندما تقدم الحجّ، و تمادى الأمر على ذلك.

ثمّ إنّ لاجين لمّا قتل الأشرف خليل بن قلاوون هرب، فاختفى بمنارة هذا الجامع فنذر إن نجّاه اللّه من هذه الفتنة ليعمرنّه، فنجّاه اللّه، و تسلطن، فأمر بتجديده، و فوّض أموره إلى الأمير علم الدين سنجر الزينىّ ، فعمره و وقف عليه وقفا، و رتّب فيه دروس التفسير و الحديث و الفقه على المذاهب الأربعة و القراءات و الطبّ و الميقات حتّى جعل من جملة ذلك وقفا على الدّيكة تكون فى سطح الجامع فى مكان مخصوص بها لأنّها تعين المؤقّتين و توقظهم فى السحر. فلما قرىء كتاب الوقف على السلطان أعجبه كلّ ما فيه إلّا أمر الدّيكة، فقال: أبطلوا هذا لا تضحكوا النّاس علينا، فأبطل.

و أوّل من ولى نظره بعد تجديده الأمير علم الدين سنجر العادلىّ، و هو إذا ذاك دوادار السلطان لاجين.

ثمّ ولى نظره قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، ثمّ وليه أمير مجلس فى أيّام الناصر محمد بن قلاوون؛ فلما مات وليه قاضى القضاة عزّ الدين بن جماعة. ثمّ ولّاه الناصر للقاضى كريم الدين ، فجدّد فيه مئذنتين، فلمّا نكبه السلطان عاد نظره للقاضى الشافعىّ إلى أيام السلطان حسن، فتولّاه الأمير صرغتمش؛ و توفّر فى مدّة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضّة، و قبض عليه و هى حاصلة، فباشره قاضى القضاة إلى أيام الأشرف شعبان، ففوّض نظره إلى الأمير الجاى اليوسفىّ إلى أن غرق، فتحدّث فيه

القاضى الشافعىّ إلى أن فوّض الظاهر برقوق نظره إلى الأمير قطلوبغا الصفوىّ، ثمّ عاد نظره إلى القضاة بعد الصفوىّ، و هو بأيديهم إلى اليوم.

و فى سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة جدّد الرواق البحرى الملاصق للمئذنة البازدار مقدّم الدولة عبيد بن محمد بن عبد الهادى، و جدّد فيه أيضا ميضأة بجانب الميضأة القديمة.

الجامع الأزهر

هذا الجامع أول جامع أسّس بالقاهرة، أنشأه القائد جوهر الكاتب الصّقلّىّ مولى المعزّ لدين اللّه لما اختطّ القاهرة، و ابتدأ بناؤه فى يوم السّبت لستّ بقين من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين و ثلاثمائة، و كمل بناؤه لسبع خلون من رمضان سنة إحدى و ستّين، و كان به طلّسم، لا يسكنه عصفور و لا يمام و لا حمام، و كذا سائر الطيور.

ثمّ جدّده الحاكم بأمر اللّه، و وقف عليه أوقافا، و جعل فيه تنّورين فضّة و سبعة و عشرين قنديلا فضّة، و كان نضده فى محرابه منطقة فضّة، كما كان فى محراب جامع عمرو، فقلعت فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيّوب ، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة ، و قلع أيضا المناطق من بقيّة الجوامع.

ثمّ إنّ المستنصر جدّد هذا الجامع أيضا و جدّده الحافظ، و أنشأ فيه مقصورة لطيفة بجوار الباب الغربى الذى فى مقدّم الجامع.

ثمّ جدّد فى أيام الظاهر بيبرس.

و لما بنى الجامع كانت الخطبة تقام فيه، حتّى بنى الجامع الحاكمىّ، فانتقلت الخطبة إليه، و كان الخليفة يخطب فى جامع عمرو جمعة،

و فی جامع ابن طولون جمعة، و فی الجامع الأزهر جمعة، و یستریح جمعة. فلمّا بنی الجامع الحاکمیّ صار الخلیفة یخطب فیه.

و لم تنقطع الجمعة من الجامع الأزهر بالکلیّة. فلمّا ولی السلطان صلاح الدین بن

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۲

أیّوب، قلّد وظیفة القضاء صدر الدّین بن درباس، فعمل بمقتضی مذهبه، و هو امتناع إقامة خطبتین فی بلد واحد، کما هو مذهب الشافعیّ رضی اللّه عنه، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، و أقرّها بالجامع الحاکمیّ لکونه أوسع، فلم یزل الجامع الأزهر معطّلا من إقامة الخطبة فیه إلی أیّام الظاهر بیبرس، فتحدّث فی إعادتها فیه، فامتنع قاضی القضاة ابن بنت الأعزّ و صمّم، فولّی السلطان قاضیا حنفیّا، فأذن فی إعادتها فأعیدت.

جامع الحاکم

أوّل من أسّسه العزیز باللّه ابن المعزّ، و خطب فیه، و صلّی بالناس ، ثمّ أکمله الحاکم بأمر اللّه، و کان أوّلا یعرف بجامع الخطبة، و یعرف الیوم بجامع الحاکم، و یقال له الجامع الأنور، و کان تمام عمارته فی سنة ثلاث و تسعین و ثلاثمائة و حبس علیه الحاکم عدة قیاسر و أملاک بباب الفتوح، و قد هدم فی الزلزلة الکائنة فی سنة اثنتین و سبعمائة، فجدّده بیبرس الجاشنکیر، و رتّب فیه دروسا علی المذاهب الأربعة، و درس حدیث و درس نحو، و درس قراءات .

*** و من بناء الحاکم أیضا جامع راشدة ، بجوار رباط الآثار، و عرف بجامع راشدة؛ لأنه فی خطّة راشدة؛ قبیلة من لخم. و صلّی به الحاکم الجمعة أیضا.

*** و من بنائه أیضا الجامع الذی بالمقس علی شاطیء النیل، و وقف علیه أوقافا، ثم جدّده فی سنة سبعین و سبعمائة الوزیر شمس الدین المقسیّ.

*** و من الجوامع التی بنیت فی خلافة بنی عبید الجامع الأقمر ، بناه الآمر بأحکام اللّه.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۳

و الجامع الأفخر ؛ و هو الذی یقال له الیوم جامع الفکاهیّین بناه الخلیفة الظافر.

و جامع الصالح خارج باب زویلة بناه الملک الصالح طلائع بن رزّیک وزیر الخلیفة الفائز.

ذکر أمّهات المدارس و الخانقاه العظیمة بالدیار المصریة

اشارة

قال: أوّل من بنی المدارس فی الإسلام الوزیر نظام الملک قوام الدین الحسن بن علیّ الطوسیّ، و کان وزیر السلطان ألب‌أرسلان السلجوقیّ عشر سنین، ثمّ وزر لولده ملکشاه عشرین سنة. و کان یحبّ الفقهاء و الصوفیّة و یکرمهم، و یؤثرهم، بنی المدرسة النظامیّة ببغداد، و شرع فیها فی سنة سبع و خمسین و أربعمائة، و نجزت سنة تسع و خمسین، و جمع الناس علی طبقاتهم فیها یوم السبت عاشر ذی القعدة لیدرس فیها الشیخ أبو إسحاق الشّیرازی، فجاء الشیخ لیحضر الدرس، فلقیه صبیّ فی الطریق، فقال: یا شیخ؛ کیف تدرس فی مکان مغصوب؟ فرجع الشیخ؛ و اختفی. فلمّا یئسوا من حضوره، ذکر الدّرس بها أبو نصر بن الصبّاغ عشرین یوما. ثمّ إنّ نظام الملک احتال علی الشیخ أبی إسحاق و لم یزل یرفق به حتّی درّس بها، فحضر یوم السّبت مستهلّ ذی الحجّة، و ألقی الدرس بها إلی أن توفّی. و کان یخرج أوقات الصلاة فیصلّی بمسجد خارجها احتیاطا. و بنی نظام الملک أیضا مدرسة بنیسابور تسمّی النظامیّة، درّس بها إمام الحرمین، و اقتدی النّاس به فی بناء المدارس.

و قد أنكر الحافظ الذهبيّ فی تاريخ الإسلام على من زعم أنّ نظام الملك أوّل من بنى المدارس و قال: قد كانت المدرسة البيهقيّة بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، و المدرسة السعيديّة بنيسابور أيضا، بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان واليا بنيسابور، و مدرسة ثالثة بنيسابور، بناها أبو سعد إسماعيل بن علىّ بن المثنّى الأستاباذى الصوفىّ الواعظ شيخ الخطيب، و مدرسة رابعة بنيسابور أيضا بنيت للأستاذ أبى إسحاق .

قال الحاكم فی ترجمة الأستاذ أبى إسحاق: لم يكن بنيسابور مدرسة قبلها مثلها؛ و هذا صريح فی أنّه بنى قبلها غيرها. قال القاضی تاج الدين السّبكی فی طبقاته الكبرى:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۴

قد أدرت فكرى، و غلب على ظنّى أن نظام الملك أوّل من رتب فيها المعاليم للطلبة، فإنّه لم يصحّ لى: هل كان للمدارس قبله معاليم أم لا؟ و الظاهر أنّه لم يكن لهم معلوم.

انتهى.

و أما مصر، فقال ابن خلكان: لمّا ملك السلطان صلاح الدين بن أيّوب الديار المصرية، لم يكن بها شىء من المدارس، فإنّ الدولة العبيدية كان مذهبها مذهب الرافضة و الشيعة، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فبنى السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعى، و بنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسينىّ بالقاهرة ، و جعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه ، و جعل دار عباس الوزير العبيدىّ مدرسة للحنفيّة، و هى المعروفة الآن بالسيوفية، و بنى المدرسة التى بمصر المعروفة بزين التّجار للشافعى، و تعرف الآن بالشريفيّة، و بنى بمصر مدرسة أخرى للمالكيّة و هى المعروفة الآن بالقمحيّة.

و قد حكى أنّ الخليفة المعتضد بالله العبّاسى لما بنى قصره ببغداد استزاد فی الذّرع، فسئل عن ذلك، فذكر أنه يريده ليبنى فيها دورا مساكن و مقاصر، يرتّب فی كل موضع رؤساء كلّ صناعة و مذهب من مذاهب العلوم النظرية و العمليّة، و يجرى عليهم الأرزاق السنيّة، ليقصد كلّ من اختار علما أو صناعة رئيسا، فيأخذ عنه.

و قد ذكر الواقدىّ أنّ عبد اللّه بن أمّ مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة، فنزل دار القرّار .

ذكر المدرسة الصلاحية

بجوار الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و ينبغى أن يقال لها: تاج المدارس، و هى أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعىّ، و لأنّ بانيها أعظم

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۵

الملوك، ليس فی ملوك الإسلام مثله، لا قبله و لا بعده، بناها السّلطان صلاح الدين بن أيّوب رحمه اللّه تعالى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و جعل التدريس و النظر بها للشّيخ نجم الدين الخبوشانىّ، و شرط له من المعلوم فی كلّ شهر أربعين دينارا معاملة صرف كلّ دينار ثلاثة عشر درهما و ثلث درهم عن التدريس، و جعل له عن معلوم النظر فی أوقاف المدرسة عشرة دنانير، و رتّب له من الخبز فی كلّ يوم ستّين رطلا بالمصرىّ، و راويتين من ماء النيل.

قال المقريزىّ: ولى تدريسها جماعة من الأكابر الأعيان، ثمّ خلت من مدرّس ثلاثين سنة، و اكتفى فيها بالمعيدين ، و هم عشرة أنفس، فلما كان سنة ثمان و سبعين و ستّمائة، ولى تدريسها تقىّ الدين بن رزين، و قرّر له نصف المعلوم، فلما مات وليها الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم، فلما ولى الصاحب برهان الدين الخضر السنجارىّ التدريس قرّر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف .

و قد استمرّت بيد الخبوشانىّ إلى أن مات سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، فوليها شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمّويه الجوينىّ فی حياة الواقف، فلمّا مات الواقف عزل عنها و استمرّت عليها أيدى بنى السلطان، واحدا بعد واحد، ثمّ خلصت بعد ذلك و

عاد إليها الفقهاء و المدرّسون. كذا فی تاريخ ابن كثير.

و ذكر المقريزيّ فی الخطط أنّ صدر الدين بن حمّويه ولی تدريس الشافعيّ، و أنّه وليها ولده كمال الدين أحمد، و مات سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، ثمّ وليها قاضی القضاة تاج الدين بن بنت الأعزّ، ثمّ وليها قاضی القضاة تقيّ الدين بن رزين، ثم وليها قاضی القضاة تقی الدين ابن بنت الأعز، ثم وليها قاضی القضاة شيخ الإسلام تقی الدين بن دقيق العيد، ثم وليها عزّ الدين محمد بن محمد بن الحارث بن مسكين، ثمّ وليها فی سنة إحدی عشرة و سبعمائة ضياء الدين عبد اللّه بن أحمد بن منصور النّشائيّ، و مات سنة ستّ عشرة و سبعمائة، ثمّ وليها مجد الدين حرمی بن قاسم بن يوسف الفاقوسيّ إلی أن مات سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة، ثمّ وليها شمس الدين بن القمّاح، ثمّ ضياء الدين محمد بن إبراهيم المناويّ، ثم شمس الدين بن اللّبان، ثم شمس الدين محمد بن أحمد بن خطيب بيروت الدّمشقی، ثمّ بهاء الدين بن الشيخ تقيّ الدين السبكيّ، ثم أخوه تاج الدين لما سافر بهاء الدين عوضه قاضيا بالشام، ثم لمّا عاد تاج الدين إلی القضاء عاد إليها إلی التدريس إلی أن مات.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۶

ثم ابن عمّه قاضی القضاة بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البرّ السبكيّ، ثمّ ولده بدر الدين محمد، ثمّ البرهان بن جماعة، ثمّ الشيخ سراج الدين البلقينيّ، ثم أعيد البرهان بن جماعة، ثم أعيد بدر الدين أبو البقاء السبكيّ، ثمّ قاضی القضاة عماد الدين أحمد بن عيسی الكركيّ، ثمّ أعيد البدر بن أبی البقاء، ثمّ وليها بعده ولده جلال الدّين محمد إلی أن مات، فوليها بعده شمس الدين البيريّ أخو جمال الدين الأستادار، ثمّ عزل فی سنة اثنتی عشرة و ثمانمائة لمّا نكب أخوه. و وليها نور الدين علی بن عمر التّلوانيّ، فأقام بها مدة طويلة إلی أن مات فی ذی القعدة سنة أربع و أربعين و ثمانمائة؛ و هو أطول شيوخها مدّة، و وليها بعده العلاء القلقشنديّ، ثم ابن حجر الونائيّ، ثم القاياتيّ، ثم السّفطيّ، ثمّ الشرف المناويّ، ثمّ السراج الحمصيّ ثمّ أعيد المناويّ إلی أن مات، ثمّ ولده زين العابدين، ثمّ ابنه ثمّ إمام الكاملية، ثمّ الحمصيّ، ثمّ الشيخ زكريا.

خانقاه سعيد السعداء

وقفها السلطان صلاح بن أيوب، و كانت دارا لسعيد السعداء قنبر- و يقال عنبر- عتيق الخليفة المستنصر، فلما استبدّ الناصر صلاح الدين بالأمر، وقفها علی الصوفية فی سنة تسع و ستين و خمسمائة، و رتّب لهم كلّ يوم طعاما و لحما و خبزا، و هی أوّل خانقاه عملت بديار مصر، و نعت شيخها بشيخ الشيوخ، و ما زال ينعت بذلك إلی أن بنی الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس، فدعی شيخها بشيخ الشيوخ، فاستمرّ ذلك بعدهم إلی أن كانت الحوادث و المحن منذ سنة ستّ و ثمانمائة، و ضاعت الأحوال، و تلاشت الرّتب، تلقّب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ، و كان سكانها من الصوفية، يعرفون بالعلم و الصلاح، و ترجی بركتهم .

و ولی مشيختها الأكابر، و حيث أطلق فی كتب الطبقات فی ترجمة أحد أنّه ولی «مشيخة الشيوخ» فالمراد مشيختها و لشيخها شيخ الشيوخ؛ هذا هو المراد عند الإطلاق.

و قد وليها عن الواقف صدر الدين محمد بن حمّويه الجوينيّ، ثم ولده كمال الدين أحمد، ثمّ ولده معين الدين حسن أخو كمال الدين، ثمّ وليها كريم الدين عبد الكريم بن الحسين الآمليّ، ثمّ وليها قاضی القضاة تاج الدين بن بنت الأعزّ، ثمّ وليها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۷

الشيخ صابر الدين حسن البخاريّ، ثم وليها شمس الدين محمد بن أبی بكر الأيليّ، ثمّ وليها قاضی القضاة بدر الدين بن جماعة، ثمّ وليها الآمليّ، ثم وليها العلامة علاء الدين القونويّ، ثم وليها مجد الدين موسی بن أحمد بن محمود الأقصرائيّ، ثمّ وليها شمس الدين محمد بن إبراهيم النقشوانيّ، ثمّ وليها كمال الدين أبو الحسن الجواريّ، ثمّ سراج الدين عمر الصدّی إلی أن مات سنة تسع و أربعين و سبعمائة، ثمّ وليها الشيخ بدر الدين حسن بن العلّامة علاء الدين القونويّ إلی أن مات سنة ستّ و سبعين و سبعمائة، ثم جلال الدين

جار اللّه الحنفىّ إلى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، ثم وليها علاء الدين أحمد بن محمد السرائىّ، ثمّ الشيخ برهان الدين الأبناسىّ، ثم شمس الدين محمد بن محمود بن عبد اللّه ابن أخى جار اللّه، ثمّ أعيد البرهان الأبناسىّ، ثم شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصارىّ، ثم أعيد محمد بن أخى جار اللّه، ثمّ وليها شمس الدين بن محمد بن على البلالىّ مدة متطاولة إلى أن مات سنة عشرين و ثمانمائة، ثم وليها شمس الدين البيرىّ أخو جمال الدين الأستادار، ثمّ وليها الشيخ شهاب الدين بن المحموه، ثمّ جمال الدين يوسف بن أحمد التّزمنتىّ المعروف بابن المجبّر، ثمّ أعيد ابن المحموه، ثمّ القاياتى، ثم الشيخ خالد، ثمّ تقىّ الدين القلقشندىّ، ثمّ السراج العبادىّ، ثم الكورانىّ، ثم السنتاوىّ.

المدرسة الكاملية

و هى دار الحديث، و ليس بمصر دار حديث غيرها، و غير دار الحديث الّتى بالشيخونيّة. قال المقريزىّ: و هى ثانى دار عملت للحديث، فإنّ أوّل من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، ثمّ بنى الكامل هذه الدار، بناها الملك الكامل، و كملت عمارتها فى سنة إحدى و عشرين و ستمائة، و جعل شيخها أبو الخطاب عمر بن دحية، ثم وليها بعده أخوه أبو عمر، و عثمان بن دحية، ثم وليها الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرىّ، ثمّ وليها شرف الدين بن أبى الخطاب بن دحية، ثمّ وليها بعده المحدّث محيى الدين بن سراقة، ثمّ وليها تاج الدين بن القسطلانىّ المالكىّ، ثمّ وليها النّجيب عبد اللطيف الحرّانىّ، ثمّ وليها القطب القسطلانىّ الشافعىّ، ثم وليها ابن دقيق العيد، ثمّ وليها أبو عمرو بن سيّد الناس والد الحافظ فتح الدين، فانتزعها منه البدر بن جماعة، ثمّ وليها عماد الدين

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۸

محمد بن علىّ بن حرمىّ الدمياطىّ و مات سنة تسع و أربعين و سبعمائة، ثم البدر بن جماعة، ثمّ نزل عنها للجمال ابن التّركمانى إلى أن مات سنة تسع و ستين و سبعمائة، و وليها الحافظ زين الدين العراقىّ، ثمّ لمّا أن ولى قضاء المدينة سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، استقرّ فيها الشيخ سراج الدين بن الملقّن.

المدرسة الصالحية

بين القصرين هى أربع مدارس للمذاهب الأربعة، بناها الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن الملك الكامل، شرع فى بنائها سنة تسع و ثلاثين [و ستمائة] . قال المقريزىّ: و هذه المدرسة من أجلّ مدارس القاهرة إلّا أنها قد تقادم عهدها، فرثّت، و لما فتحت أنشد فيها الأديب أبو الحسين الجزّار:

ألا هكذا يبنى المدارس من بنىو من يتغالى فى الثواب و فى البنا

فى أبيات أخر.

قال السراج الوراق:

مليك له فى العلم حبّ و أهلهفللّه حبّ ليس فيه ملام!

فشيّدها للعلم مدرسة غداعراق أهلها إذ ينسبون و شام

و لا تذكرن يوما نظاميّة لهافليس يضاهى ذا النّظام نظام

قال ابن السنبرة الشاعر- و قد نظر إلى قبر الملك الصالح، و قد دفن إلى ما يختص بالمالكية من مدرسته:

بيت لأرباب العلوم مدارسالتنجو بها من هول يوم المهالك

و ضاقت عليك الأرض لم تلق منزلاتحلّ به إلّا إلى جنب مالك

المدرسة الظاهریة القدیمة

للملک الظاهر بیبرس البندقداریّ شرع فی بنائها سنة إحدی و ستین و ستمائة،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۲۹

و تمّت فی أوّل سنة اثنتین و ستّین، و رتّب لتدریس الشافعیة بها تقیّ الدین بن رزین، و الحنفیّة محب الدین عبد الرحمن بن الکمال عمر بن العدیم، و لتدریس الحدیث الحافظ شرف الدین الدمیاطیّ، و لإقراء القراءات بالروایات کمال الدین القرشیّ و وقف بها خزانة کتب.

المدرسة المنصوریة

أنشأها هی و البیمارستان الملک المنصور قلاوون، و کان علی عمارتها الأمیر علم الدین سنجر الشجاعیّ، فلمّا تمّا دخل علیه الشرف البوصیریّ، فمدحه بقصیدة أوّلها:

أنشأت مدرسة و مارستانالتصحّح الأدیان و الأبدانا

فأعجبه ذلک و أجزل عطاءه، و رتب فی هذه المدرسة دروس فقه علی المذاهب الأربعة، و درس تفسیر و درس حدیث، و درس طبّ .

المدرسة الناصریة

ابتدأها العادل کتبغا، و أتمّها الناصر محمد بن قلاوون، فرغ من بنائها سنة ثلاث و سبعمائة، و رتّب بها درسا للمذاهب الأربعة.

قال المقریزیّ: أدرکت هذه المدرسة و هی محترمة إلی الغایة، یجلس بدهلیزها عدة من الطواشیّة، و لا یمکن غریب أن یصعد إلیها .

الخانقاه البیبرسیة

بناها الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیریّ فی سنة سبع و سبعمائة موضع دار الوزارة، و مات بعد أن تسلطن، فأغلقها الناصر بن قلاوون فی سلطنته الثالثة مدّة، ثم أمر بفتحها. قال المقریزیّ: و هی أجلّ خانقاه بالقاهرة بنیانا، و أوسعها مقدارا، و أتقنها صنعة، و الشباک الکبیر الذی بها هو الشبّاک الذی کان بدار الخلافة ببغداد. و کانت الخلفاء تجلس فیه، حمله الأمیر البساسیری من بغداد لمّا غلب علی الخلیفة القائم العباسیّ و أرسل به إلی صاحب مصر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۰

خانقاه قوصون بالقرافة

بنیت فی سنة ستّ و ثلاثین و سبعمائة، و أوّل من ولی مشیختها الشمسی محمود الأصفهانی الإمام المشهور صاحب التصانیف المشهورة، و کانت من أعظم جهات البرّ، و أعظمها خیرا، إلی أن حصلت المحن سنة ستّ و ثمانمائة، فتلاشی أمرها کما تلاشی غیرها.

خانقاه شیخو

بناها الأمیر الکبیر رأس نوبة الأمراء الجمداریّة سیف الدین شیخو العمری جالبه خواجا عمر، و أستاذه الناصر محمد بن قلاوون، ابتدأ

عمارتها فی المحرّم سنة ستّ و خمسین و سبعمائة، و فرغ من عمارتها فی سنة سبع و خمسین و سبعمائة و رتّب فیها أربع دروس علی المذاهب الأربعة، و درس حدیث، و درس قراءات و مشیخة إسماع الصحیحین و الشفاء، و فی ذلک یقول ابن أبی حجلة:

و مدرسة للعلم فیها مواطنفشیخوزا بها فرد و إیتاره جمع

لئن بات منها فی القلوب مهابةفواقفها لیث و أشیاخها سبع

و مات شیخو بعد فراغها بسنة فی ذی الحجة سنة ثمان و خمسین، و شرط فی شیخها الأکبر حضور التصوّف و تدریس الحنفیّة بالدیار المصریة و أن یکون عارفا بالتفسیر و الأصول، و ألّا یکون قاضیا؛ و هذا الشرط عامّ فی جمیع أرباب الوظائف بها.

و أوّل من تولّی المشیخة بها الشیخ أکمل الدین محمد بن محمود البابرتیّ.

و أوّل من تولی تدریس الشافعیّة بها الشیخ بهاء الدین بن الشیخ تقی الدین السّبکی.

و أوّل من تولّی تدریس المالیکّة بها الشیخ خلیل، صاحب المختصر.

و أوّل من تولّی تدریس الحنابلة بها قاضی القضاة موفّق الدین [الحنبلی] .

و أوّل من تولّی تدریس الحدیث بها جمال الدین عبد اللّه بن الزولیّ، و أقام الشیخ أکمل الدین فی المشیخة إلی أن مات فی رمضان سنة ستّ و ثمانین [و سبعمائة] .

و ولی بعده عزّ الدین یوسف بن محمود الرازیّ إلی أن مات فی المحرم سنة أربع و تسعین [و سبعمائة].

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۱

و ولی بعده جمال الدین محمود بن أحمد القیصریّ المعروف بابن العجمیّ، ثمّ عزل فی سنة خمس و تسعین.

و ولی الشیخ یوسف السّیرامیّ مضافا لمشیخة الظاهریة.

ثمّ ولی بدر الدین الکلسانیّ، ثمّ عزل و ولی الشیخ زاده.

ثمّ ولی بعده جمال الدین بن العدیم سنة ثمان و ثمانمائة، ثمّ ولده ناصر الدین سنة إحدی عشرة و ثمانمائة.

ثمّ ولیها أمین الدین بن الطرابلسیّ سنة اثنتی عشرة، ثمّ أعید ابن العدیم، ثمّ ولیها شرف الدین بن التبانیّ سنة خمس عشرة إلی أن مات فی صفر سنة سبع و عشرین، و ولی الشیخ سراج الدین قارىء الهدایة إلی أن مات سنة تسع و عشرین [و ثمانمائة]، و ولیها الشیخ زین الدین التّفهنیّ، ثم صرف فی سنة ثلاث و ثلاثین بالقضاء، و ولیها صدر الدین بن العجمیّ فمات فی رجب من عامه، و ولیها البدر حسن بن أبی بکر القدسیّ، ثم ولیها الشیخ باکیر.

*** مدرسة صرغتمش

ابتدأ بعمارتها فی رمضان سنة ستّ و خمسین و سبعمائة، و تمّت فی جمادی الأولی سنة سبع و خمسین، و هی من أبدع المبانی و أجلّها، و رتّب فیها درس فقه علی مذهب الحنفیّة، و قرّر فیه القوام الإتقانیّ، و درس حدیث.

و قال العلامة شمس الدین بن الصائغ:

لیهنک یا صرغتمش ما بنیتهلأخراک فی دنیاک من حسن بنیان

به یزدهی الترخیم کالزهر بهجةفللّه من زهر و للّه من بان!

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۲

مدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون

شرع فی بنائها فی سنة ثمان و خمسین و سبعمائة، و کان فی موضعها دور و إسطبلات. قال المقریزیّ: لا یعرف ببلاد الإسلام معبد من

معابد المسلمین یحکی هذه المدرسة فی کبر قالبها، و حسن هندامها، و ضخامة شکلها، قامت العمارة فیها مدّة ثلاث سنین، لا تبطل یوما واحدا، و أرصد لمصروفها فی کلّ یوم عشرین ألف درهم، منها نحو ألف مثقال ذهبا، حتّی قال السلطان: لولا أن یقال: ملک مصر عجز عن إتمام ما بناه لترکت بناءها؛ من کثرة ما صرف.

و ذرع إیوانها الکبیر خمسة و ستّون ذراعا فی مثلها، و یقال إنّه أکبر من إیوان کسری بخمسة أذرع، و بها أربع مدارس للمذاهب الأربعة.

قال الحافظ ابن حجر فی إنباء الغمر: یقال إن السلطان حسن أراد أن یعمل فی مدرسته درس فرائض، فقال البهاء السبکی: هو باب من أبواب الفقه، فأعرض عن ذلک. فاتّفق وقوع قضیة فی الفرائض مشکلة، فسئل عنها السّبکیّ، لم یجب عنها، فأرسلوا إلی الشیخ شمس الدین الکلائیّ فقال: إذا کانت الفرائض بابا من أبواب الفقه، فما له لا یجیب؟! فشقّ ذلک علی بهاء الدین و ندم علی ما قال.

و کان السّلطان قد عزم علی أن یبنی أربع منائر، یؤذّنون علیها، فتمّت ثلاث منائر إلی أن کان یوم السبت سادس ربیع الآخر سنة اثنتین و ستّین و سبعمائة، سقطت المنارة التی علی الباب، فهلک تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأیتام الذی کانوا قد رتّبوا بمکتب السبیل و من غیرهم، فلهج الناس بأنّ ذلک ینذر بزوال الدولة، فقال الشیخ بهاء الدین السبکی فی ذلک أبیاتا:

أبشر فسعدک یا سلطان مصر أتیبشیره بمقال سار کالمثل

إنّ المنارة لم تسقط لمنقصةلکن لسرّ خفی قد تبیّن لی

من تحتها قرىء القرآن فاستمعتفالوجد فی الحال أدّاها إلی المیل

لو أنزل اللّه قرآنا علی جبل تصدّعت رأسه من شدّة الوجل

تلک الحجارة لم تنقضّ بل هبطتمن خشیة اللّه لا للضعف و الخلل

و غاب سلطانها فاستوحشت فرمتبنفسها لجوی فی القلب مشتعل

فالحمد للّه خطّ العین زال بماقد کان قدّره الرحمن فی الأزل

لا یعتری البؤس بعد الیوم مدرسةشیّدت بنیانها للعلم و العمل

و دمت حتّی تری الدنیا بها امتلأتعلما فلیس بمصر غیر مشتغل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۳

فاتّفق قتل السلطان بعد سقوط المئذنة بثلاثة و ثلاثین یوما.

المدرسة الظاهریة

کان الشروع فی عمارتها فی رجب سنة ستّ و ثمانین [و سبعمائة]، و انتهت فی رجب سنة ثمان و ثمانین، و کان القائم علی عمارتها جرکس الخلیلی أمیر أخور، و قال الشعراء فی ذلک و أکثروا، فمن أحسن ما قیل:

الظّاهر الملک السلطان همّته کادت لرفعته تسمو علی زحل

و بعض خدّامه طوعا لخدمتهیدعو الجبال فتأتیه علی عجل

قال ابن العطار:

قد أنشأ الظّاهر السلطان مدرسةفاقت علی إرم مع سرعة العمل

یکفی الخلیلیّ إن جاءت لخدمتهشمّ الجبال لها تأتی علی عجل

قال الحافظ ابن حجر: و من رأی الأعمدة التی بها عرف الإشارة. و نزل السلطان إلیها فی الثانی عشر من رجب، و مدّ سماطا عظیما، و تکلّم فیه المدرّسون، و استقرّ علاء الدین السّیرامیّ مدرّس الحنفیّة بها، و شیخ الصوفیّة، و بالغ السلطان فی تعظیمه حتّی فرش سجّادته

بیده، و استقرأ أوحد الدین الرومیّ مدرس الشافعیة و شمس الدین ابن مکین مدرّس المالکیّة، و صلاح ابن الأعمی مدرّس الحنابلة، و أحمد زاده العجمی مدرّس الحدیث، و فخر الدین الضریر إمام الجامع الأزهر مدرّس القراءات.

قال ابن حجر: لم یکن منهم من هو فائق فی فنّه علی غیره من الموجودین غیره، ثمّ بعد مدّة قرّر فیها الشیخ سراج الدین البلقینیّ مدرّس التفسیر و شیخ المیعاد.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۴

المدرسة المؤیّدیة

انتهت عمارتها فی سنة تسع عشرة و ثمانمائة، و بلغت النفقة علیها أربعین ألف دینار، و اتفق بعد ذلک بسنة میل المئذنة التی بنیت لها علی البرج الشمالی بباب زویلة، و کان النّاظر علی العمارة بهاء الدین بن البرجیّ، فأنشد تقیّ الدین بن حجة فی ذلک أبیاتا:

علی البرج من بابی زویلة أنشئتمنارة بیت اللّه للعمل المنجی

فأخذ بها البرج اللّعین أمالهاألا صرّحوا یا قوم باللّعن للبرج

و قال شعبان الأثاریّ:

عتبنا علی میل المنار زویلةو قلنا ترکت الناس بالمیل فی هرج

فقالت قرینی برج نحس أمالنیفلا بارک الرّحمن فی ذلک البرج

قال الحافظ ابن حجر:

لجامع مولانا المؤیّد رونقمنارته بالحسن تزهو و بالزّین

تقول و قد مالت عن القصد أمهلوافلیس علی جسمی أضرّ من العین

و قال العینیّ:

منارة کعروس الحسن إذ جلیتو هدمها بقضاء اللّه و القدر

قالوا أصیبت بعین، قلت ذا غلطما أوجب الهدم إلا خسّة الحجر

و قال نجم الدین بن النبیه:

یقولون فی تلک المنار تواضعو عین و أقوال و عندی جلیّها

فلا البرج أخنی و الحجارة لم تعبو لکن عروس أثقلتها حلیّها

و قال أیضا:

بجامع مولانا المؤیّد أنشئتعروس سمت ما خلت قطّ مثالها

و مذ علمت أن لا نظیر لها انثنتو أعجبها و العجب عنّا أمالها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۵

رباط الآثار

بالقرب من برکة الحبش عمره الصّاحب تاج الدین بن الصاحب فخر الدین بن الصاحب بهاء الدین حنّا، و فیه قطعة خشب و حدید و أشیاء أخر من آثار رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، اشتراها الصاحب المذکور بمبلغ ستّین ألف درهم فضة من بنی إبراهیم أهل ینبع؛ ذکروا أنّها لم تزل موروثة عندهم من واحد إلی واحد إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، و حملها إلی هذا الرباط، و هی به إلی الیوم یتبرّک بها. و مات الصاحب تاج الدین فی جمادی الآخرة سنة سبع و سبعمائة .

و للأديب جلال الدين بن خطيب داريّا فی الآثار بيتان:

يا عين إن بعد الحبيب و دارهو نأت مرابعه و شطّ مزاره

فلقد ظفرت من الزمان بطائل‌إن لم تريه فهذه آثاره

ذكر الحوادث الغريبة الكائنة بمصر فی ملّة الإسلام من غلاء و وباء و زلازل و آيات و غير ذلک

فی سنة أربع و ثلاثين من الهجرة، قال سيف بن عمر: إنّ رجلا يقال له عبد اللّه بن سبأ كان يهوديّا فأظهر الإسلام، و صار إلى مصر، فأوحى إلى طائفة من الناس كلاما اخترعه من عند نفسه، مضمونه أنّه كان يقول للرجل: أليس قد ثبت أنّ عيسى ابن مريم سيعود إلى هذه الدنيا؟ فيقول الرّجل: بلى، فيقول له: رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أفضل منه، فما يمنع أن يعود إلى هذه الدنيا و هو أشرف من عيسى؟! ثمّ يقول: و قد كان أوصى إلى علىّ بن أبى طالب؛ فمحمد خاتم الأنبياء، و علىّ خاتم الأوصياء. ثمّ يقول: فهو أحقّ بالأمر من عثمان، و عثمان معتد فی ولايته ما ليس له. فأنكروا عليه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر و كان ذلک مبدأ تألّبهم على عثمان.

و فی سنة ستّ و ستّين وقع الطاعون بمصر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۶

و فی سنة سبعين كان الوباء بمصر، قاله الذهبىّ.

و فی سنة أربع و ثمانين قتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندىّ، و قطع رأسه، فأمر الحجّاج فطيف به فی العراق، ثمّ بعث به إلى عبد الملک ابن مروان، فطيف به فی الشام، ثمّ بعث به إلى عبد العزيز بن مروان و هو بمصر، فطيف به فيها. و دفن بمصر، و جثّته بالرّخّج ، فقال بعض الشعراء فی ذلک:

هيهات موضع جثة من رأسهارأس بمصر و جثّة بالرّخّج

و فی سنة خمس و ثمانين كان الطاعون بالفسطاط، و مات فيه عبد العزيز بن مروان أمير مصر.

و فی سنة خمس و أربعين و مائة، انتثرت الكواكب من أوّل الليل إلى الصباح، فخاف الناس. ذكره صاحب المرآة.

و فی سنة ثمانين و مائة كان بمصر زلزلة شديدة سقطت منها رأس منارة الإسكندرية.

و فی سنة ستّ عشرة و مائتين، و ثب رجل يقال له عبدوس الفهرىّ فی شعبان ببلاد مصر، فتغلّب على نوّاب أبى إسحاق بن الرشيد، و قويت شوكته، و اتّبعه خلق كثير، فركب المأمون من دمشق فی ذى الحجة إلى الديار المصرية، فدخلها فی المحرّم سنة سبع عشرة، و ظفر بعبدوس، فضرب عنقه، ثم كرّ راجعا إلى الشام.

و فی سنة سبع و ثلاثين و مائتين ظهر فی السماء شیء مستطيل دقيق الطّرفين، عريض الوسط، من ناحية المغرب إلى عشاء الآخرة، ثمّ ظهر خمس ليال و ليس بضوء كوكب، و لا كوكب له ذنب، ثمّ نقص. قاله فی المرآة.

و فی سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، أقبلت الرّوم فی البحر فی ثلثمائة مركب، و أبّهة عظيمة، فكبسوا دمياط، و سبوا و أحرقوا و أسرعوا الكرّة فی البحر، و سبوا ستمائة امرأة، و أخذوا من الأمتعة و الأسلحة شيئا كثيرا، و فرّ الناس منهم فی كلّ جهة، فكان

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۷

من غرق فی بحيرة تنّيس أكثر ممّن أسر، و رجعوا إلى بلادهم، و لم يعرض لهم أحد.

و فی سنة اثنتين و أربعين و مائتين، زلزلت الأرض و رجمت السويداء (قرية بناحية مصر) من السماء، و وزن حجر من الحجارة فكان عشرة أرطال.

و فی سنة أربع و أربعين و مائتين، اتّفق عيد الأضحى و عيد الفطر لليهود و شعانين النصارى فی يوم واحد. قال ابن كثير: و هذا عجيب غريب. و قال فی المرآة:

لم يتّفق فی الإسلام مثل ذلک.

و فی سنة خمس و أربعين و مائتين زلزلت مصر، و سمع بتنّيس ضجّة دائمة طويلة، مات منها خلق كثير.

و فی سنة ستّ و ستّين و مائتين قتل أهل مصر عاملهم الكرخیّ.

و فی سنة ثمان و ستّين و مائتين، قال ابن جرير: اتفق أنّ رمضان كان يوم الأحد، و كان الأحد الثانی الشعانين، و الأحد الثالث الفصح، و الأحد الرابع السرور، و الأحد الخامس انسلاخ الشهر.

و فی سنة تسع و ستّين فی المحرّم، كسفت الشمس و خسف القمر، و اجتماعهما فی شهر نادر. قاله فی المرآة.

و فی سنة ثمان و سبعين و مائتين، قال ابن الجوزیّ: لليلتين بقيتا من المحرّم طلع نجم ذو جمّة، ثمّ صارت الجمّة ذؤابة. قال: و فی هذه السنة وردت الأخبار أنّ نيل مصر غار ، فلم يبق منه شیء، و هذا شیء لم يعهد مثله، و لا بلغنا فی الأخبار السابقة، فغلت الأسعار بسبب ذلک. و فی أيام أحمد بن طولون تساقطت النجوم، فراعه ذلک فسأل العلماء و المنجّمين عن ذلک، فما أجابوا بشیء، فدخل عليه الجمل الشاعر و هم فی الحديث، فأنشد فی الحال:

قالوا تساقطت النّجوم لحادث فظّ عسير

فأجبت عند مقالهم‌بجواب محتنک خبير

هذی النّجوم الساقطات نجوم أعداء الأمير

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۸

فتفاءل ابن طولون بذلک، و وصله.

و فی سنة اثنتين و ثمانين و مائتين، زفّت قطر الندی بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، من مصر إلی الخليفة المعتضد، و نقل أبوها فی جهازها ما لم ير مثله، و كان من جملته ألف تكّة بجوهر و عشرة صناديق جوهر، و مائة هون ذهب، ثمّ بعد كلّ حساب معها مائة ألف دينار لتشترى بها من العراق ما قد تحتاج إليه ممّا لا يتهيّأ مثله بالديار المصريّة. و قال بعض الشعراء:

يا سيّد العرب الّذی وردت له‌باليمن و البركات سيدة العجم

فاسعد بها كسعودها بک إنّهاظفرت بما فوق المطالب الهمم

شمس الضّحی زفّت إلی بدر الدّجی‌فتكشّفت بهما عن الدنيا الظّلم

و فی سنة أربع و ثمانين و مائتين ظهر بمصر ظلمة شديدة و حمرة فی الأفق حتّی جعل الرجل ينظر إلی وجه صاحبه فيراه أحمر اللون جدّا، و كذلک الجدران، فمكثوا كذلک من العصر إلی الليل، فخرجوا إلی الصحراء يدعون اللّه و يتضرّعون إليه حتی كشف عنهم. حكاه ابن كثير.

و فی سنة ثلاث و تسعين و مائتين، ظهر رجل بمصر يقال له الخلنجیّ ، فخلع الطاعة و استولی علی مصر، و حارب الجيوش، و أرسل إليه الخليفة المكتفی جيشا فهزمهم، ثمّ أرسل إليه جيشا آخر عليهم فاتک المعتضدیّ، فهزم الخلنجیّ، و هرب، ثمّ ظفر به و أمسک، و سيّر إلی بغداد.

و فی سنة تسع و تسعين و مائتين، ظهر ثلاثة كواكب مذنّبة، أحدها فی رمضان، و اثنان فی ذی القعدة تبقی أياما، ثمّ تضمحلّ، حكاه ابن الجوزیّ. و فيها استخرج من كنز بمصر خمسمائة ألف دينار من غير موانع، و وجد فی هذا الكنز ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا و عرضه شبر، فبعث به إلی الخليفة المقتدر، و أهدی معه من مصر تيسا له ضرع يحلب لبنا، حكی ذلک الصولیّ و صاحب المرآة و ابن كثير.

و فی سنة إحدی و ثلاثمائة، سار عبد اللّه المهدیّ المتغلّب علی المغرب فی أربعين ألفا ليأخذ مصر، حتّی بقی بينه و بين مصر أيام، ففجر تكين الخاصة النيل فحال

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۳۹

الماء بینهم و بین مصر، ثمّ جرت حروب فرجع المهدیّ إلی برقة بعد أن ملک الإسکندریّة و الفیّوم.

و فی سنة اثنتین و ثلاثمائة عاد المهدیّ إلی الإسکندریّة، و تمّت وقعة کبیرة، ثمّ رجع إلی القیروان.

و فی سنة ستّ و ثلاثمائة أقبل القائم بن المهدیّ فی جیوشه، فأخذ الإسکندریة و أکثر الصعید، ثمّ رجع.

و فی سنة سبع کانت الحروب و الأراجیف الصعبة بمصر، ثمّ لطف اللّه و أوقع المرض بالمغاربة، و مات جماعة من أمرائهم، و اشتدّت علّة القائم.

و فیها انقضّ کوکب عظیم، و تقطّع ثلاث قطع، و سمع بعد انقضاضه صوت رعد شدید هائل من غیر غیم.

و فی سنة ثمان ملک العبیدیون جزیرة الفسطاط، فجزعت الخلق، و شرعوا فی الهرب و الجفل.

و فی سنة تسع استرجعت الإسکندریة إلی نوّاب الخلیفة، و رجع العبیدیّ إلی المغرب.

و فی سنة عشر و ثلثمائة فی جمادی الأولی ظهر کوکب له ذنب طوله ذراعان، و ذلک فی برج السنبلة. و فی شعبان منها أهدی نائب مصر إلی الخلیفة المقتدر هدایا من جملتها بغلة معها فلوها یتبعها، و یرجع معها، و غلام یصل لسانه إلی طرف أنفه.

حکاه صاحب المرأة و ابن کثیر .

و فی سنة ثلاث عشرة و ثلثمائة فی آخر المحرّم انقضّ کوکب من ناحیة الجنوب إلی الشمال قبل مغیب الشمس، فأضاءت الدنیا منه، و سمع له صوت کصوت الرّعد الشدید. حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۲۳۹

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۰

و فی سنة ثلاثین و ثلثمائة فی المحرّم ظهر کوکب بذنب رأسه إلی الغرب و ذنبه إلی المشرق، و کان عظیما جدّا و ذنبه منتشر، و بقی ثلاثة عشر یوما إلی أن اضمحلّ.

و فی سنة أربع و أربعین زلزلت مصر زلزلة صعبة هدمت البیوت، و دامت ثلاث ساعات، و فزع الناس إلی اللّه بالدعاء.

و فی سنة تسع و أربعین رجع حجیج مصر من مکّة، فنزلوا وادیا، فجاءهم سیل فأخذهم کلّهم، فألقاهم فی البحر عن آخرهم.

و فی سنة خمس و خمسین قطعت بنو سلیم الطریق علی الحجیج من أهل مصر، و أخذوا منهم عشرین ألف بعیر بأحمالها، و علیها من الأموال و الأمتعة ما لا یقوّم کثرة، و بقی الحاجّ فی البوادی، فهلک أکثرهم. و فی أیام کافور الإخشیدی کثرت الزلازل بمصر، فأقامت ستّة أشهر، فأنشد محمد بن القاسم بن عاصم قصیدة منها:

ما زلزلت مصر من سوء یراد بهالکنّها رقصت من عدله فرحا

کذا رأیته فی نسخة عتیقة، من کتاب مذهب الطالبیّین، تاریخ کتابتها بعد الستّمائة، ثمّ رأیت ما یخالف ذلک کما سأذکر.

و فی سنة تسع و خمسین انقضّ کوکب فی ذی الحجة، فأضاء الدنیا حتّی بقی له شعاع کالشمس، ثم سمع له صوت کالرعد.

و فی سنة ستّین و ثلثمائة، سارت القرامطة فی جمع کثیر إلی الدیار المصریة، فاقتتلوا هم و جنود جوهر القائد قتالا شدیدا بعین شمس، و حاصروا مصر شهورا؛ و من شعر أمیر القرامطة الحسین بن أحمد بن بهرام:

زعمت رجال الغرب أنّی هبتهمفدمی إذن ما بینهم مطلول

یا مصر إن لم أسق أرضک من دمیروی ثراک فلا سقانی النّیل

و فی هذه السنة سار رجل من مصر إلی بغداد، و له قرنان، فقطعهما و کواهما و کان یضربان علیه. حکاه صاحب المرآة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۱

و فی سنة ثلاث و ستّین، خرج بنو هلال و طائفة من العرب علی الحجّاج، فقتلوا منهم خلقا کثیرا، و عطّلوا علی من بقی منهم الحجّ فی هذا العام، و لم یحصل لأحد حجّ فی هذه السنة سوی أهل درب العراق وحدهم.

و فی سنة سبع و ستّین کان أمیر الحاجّ المصریّ الأمیر بادیس بن زیری، فاجتمع إلیه اللصوص، و سألوا منه أن یضمّنهم الموسم هذا العام بما شاء من الأموال، فأظهر لهم الإجابة، و قال: اجتمعوا کلّکم حتّی أضمنکم کلّکم، فاجتمع عنده بضع و ثلاثون لصّا، فقال: هل بقی منکم أحد؟ فحلفوا أنّه لم یبق منهم أحد، فعند ذلک أمر بقطع أیدیهم کلّهم. و نعمّا فعل!

و فی سنة أربع و ثمانین انفرد بالحجّ أهل مصر، و لم یحجّ رکب العراق و لا الشام لخوف طریقهم، و کذا فی سنة خمس و ثمانین و الّتی بعدها.

و فی سنة ست و ثمانین قدمت مصر أربع عشرة قطعة من الأسطول، فقتلت و نهبت، و أحرقت أموال التجار، و أخذت سرایا العزیز و حظایاه، و کان حالا لم یر أعظم منه. ذکره ابن المتوّج.

و فی سنة تسعین أمر الحاکم بمصر بقتل الکلاب فقتلت کلّها.

و فی سنة اثنتین و تسعین لیلة الاثنین ثالث ذی القعدة انقضّ کوکب أضاء کضوء القمر لیلة التّمام، و مضی الضیاء، و بقی جرمه یتموّج نحو ذراعین فی ذراع برأی العین، و تشقّق بعد ساعة. و فی هذه السنة انفرد المصریون بالحجّ، و لم یحجّ أحد من بغداد و بلاد المشرق لعبث الأعراب بالفساد، و کذا فی سنة ثلاث و تسعین.

و فی سنة ثلاث و تسعین أمر الحاکم بقطع جمیع الکروم الّتی بدیار مصر و الصعید و الإسکندریّة و دمیاط، فلم یبق بها کرم، احترازا من عصر الخمر. و فی هذه السنة أمر الحاکم الناس بالسجود إذا ذکر اسمه فی الخطبة.

و فی سنة سبع و تسعین انفرد المصریون بالحجّ، و لم یحجّ أهل العراق لفساد الطریق بالأعراب، و کسا الحاکم الکعبة القباطیّ البیض.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۲

و فی سنة ثمان و تسعین هدم الحاکم الکنائس التی ببلاد مصر، و نادی: من لم یسلم و إلّا فلیخرج من مملکتی، أو یلتزم بما أمر، ثمّ أمر بتعلیق صلبان کبار علی صدور النصاری، وزن الصّلیب أربعة أرطال بالمصریّ، و بتعلیق خشبة علی تمثال رأس عجل وزنها ستة أرطال فی عنق الیهود. و فی هذه السنة کان سیل عظیم حتّی غرق الخندق، ذکره ابن المتوّج.

و فی سنة تسع و تسعین انفرد المصریون بالحجّ .

و فی سنة أربعمائة بنی الحاکم دارا للعلم و فرشها، و نقل إلیها الکتب العظیمة مما یتعلّق بالسنّة، و أجلس فیها الفقهاء و المحدّثین، و أطلق قراءة فضائل الصحابة، و أطلق صلاة الضّحی و التراویح، و بطل الأذان بحیّ علی خیر العمل، فکثر الدعاء له، ثمّ بعد ثلاث سنین هدم الدار، و قتل خلقا ممّن کان بها من الفقهاء و المحدّثین و أهل الخیر و الدیانة، و منع صلاة الضّحی و التراویح.

و فی سنة إحدی و أربعمائة انفرد المصریون بالحجّ.

و فی سنة اثنتین و أربعمائة کتب محضر ببغداد فی نسب خلفاء مصر الّذین یزعمون أنّهم فاطمیّون و لیسوا کذلک، و کتب فیه جماعة من العلماء و القضاة و الفقهاء و الأشراف و الأماثل و المعدّلین و الصالحین، شهدوا جمیعا أنّ النّاجم بمصر و هو منصور بن نزار المتلقّب بالحاکم- حکم اللّه علیه بالبوار و الدمار و الخزی و النّکال و الاستئصال- ابن معدّ ابن إسماعیل بن عبد الرحمن بن سعید- لا أسعده اللّه- فإنه لمّا صار إلی المغرب تسمّی بعبید اللّه، و تلقّب بالمهدیّ، و من تقدّم من سلفه من الأرجاس الأنجاس- علیه و علیهم لعنة اللّه و لعنة اللاعنین- أدعیاء خوارج، و لا نسب لهم فی ولد علیّ بن أبی طالب، و لا یتعلّقون منه بسبب، و أنّه منزّه عن باطلهم، و أنّ الذی ادّعوه من الانتساب إلیه باطل و زور، و أنهم لا یعلمون أنّ أحدا من أهل بیت الطالبیین توقّف عن إطلاق القول فی هؤلاء الخوارج أنهم أدعیاء، و قد کان هذا الإنکار لباطلهم شائعا فی الحرمین، و فی أوّل أمرهم بالمغرب منتشرا انتشارا یمنع من أن یدلّس علی أحد کذبهم، أو یذهب و هم إلی تصدیقهم، و أنّ هذا النّاجم بمصر هو و سلفه کفّار و فسّاق فجّار و ملحدون زنادقة، معطّلون و للإسلام جاحدون، و لمذهب الثنویّة و المجوسیة معتقدون، قد عطّلوا الحدود

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۳

و أباحوا الفروج، و أحلّوا الخمر، و سفكوا الدّماء، و سبوا الأبناء، و لعنوا السلف، و ادّعوا الرّبوبيّة. و كتب فى ربيع الآخر سنة اثنتى و أربعمائة.

و قد كتب خطّه فى المحضر خلق كثيرون، فمن العلويّين المرتضى و الرضىّ و ابن الأزرق الموسوىّ و أبو طاهر بن أبى الطيب و محمد بن محمد بن عمرو بن أبى يعلى، و من القضاة أبو محمد بن الأكفانىّ و أبو القاسم الحريرىّ و أبو العبّاس بن السيورىّ. و من الفقهاء أبو حامد الإسفراييّنى و أبو محمد بن الكشفلىّ و أبو الحسين القدورىّ و أبو عبد اللّه الصّيمرىّ و أبو عبد اللّه البيضاوىّ و أبو علىّ بن حكمان. و من الشهود أبو القاسم التّنوخىّ، فى كثير.

و فى سنة ثلاث و أربعمائة، قال ابن المتوّج: رسم الحاكم بألّا تقبّل الأرض بين يديه، و لا يخاطب مولانا و لا بالصلاة عليه، و كتب بذلك سجلّ فى رجب. قال: و فيها حبس النساء و منعهنّ من الخروج فى الطّرقات، و أحرق الزبيب و قطع الكرم، و غرّق العسل. قال ابن الجوزىّ: و فى رمضان انقضّ كوكب من المشرق إلى المغرب غلب ضوءه على ضوء القمر، و تقطّع قطعا، و بقى ساعة طويلة.

و فى سنة خمس و أربعمائة زاد الحاكم فى منع النساء من الخروج من المنازل و من دخول الحمّامات و من التطلّع من الطاقات و الأسطحة و منع الخفّافين من عمل الخفاف لهنّ، و قتل خلقا من النساء على مخالفته فى ذلك، و هدم بعض الحمامات عليهنّ، و غرّق خلقا.

و فى سنة سبع و أربعمائة ورد الخبر بتشعيث الركن اليمانىّ من المسجد الحرام، و بسقوط جدار بين قبر النبى صلى اللّه عليه و سلم، و بسقوط القبّة الكبيرة على صخرة بيت المقدس.

قال ابن كثير: فكان ذلك ممن أغرب الاتّفاقات و أعجبها.

و فى سنة سبع أيضا انفرد المصريّون بالحجّ، و لم يحجّ أحد من بلاد العراق لفساد الطرقات بالأعراب؛ و كذا فى سنة ثمان.

و فى سنة إحدى عشرة و أربعمائة، قال ابن المتوّج: عزّ القوت ، ثمّ هان بعد أراجيف عظيمة. و فى أيام الحاكم، قال ابن فضل اللّه فى المسالك: زلزلت مصر حتّى رجفت أرجاؤها، و ضجّت الأمّة لا تعرف كيف جارها، فقال محمد بن قاسم بن عاصم شاعر الحاكم:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۴ بالحاكم العدل أضحى الدين معتليانجل الهدى و سليل السّادة الصّلحا

ما زلزلت مصر من كيد يراد بهاو إنّما رقصت من عدله فرحا

و كانت أيام الحاكم من سنة ستّ و ثمانين و ثلثمائة إلى سنة إحدى عشرة و أربعمائة.

و فى سنة ثلاث عشرة و أربعمائة. قال ابن كثير: جرت كائنة غريبة و مصيبة عظيمة؛ و هى أنّ رجلا من المصريّين من أصحاب الحاكم اتّفق مع جماعة من الحجّاج المصريين على أمر سوء، فلمّا كان يوم الجمعة، و هو يوم النّفر الأوّل، طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود، جاء ليقبّله فضربه بدبّوس كان معه ثلاث ضربات متواليات، و قال: إلى متى يعبد هذا الحجر؟! و لا محمّد و لا علىّ يمنعنى عمّا أفعله، فإنى أهدم اليوم هذا البيت. فاتّقاه أكثر الحاضرين، و تأخروا عنه، و ذلك أنّه كان رجلا طويلا جسيما، أحمر أشقر، و على باب المسجد جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممّن أراده بسوء، فتقدّم إليه رجل من أهل اليمن، معه خنجر، و فاجأه بها، و تكاثر عليه الناس فقتلوه، و قطّعوه قطعا، و تتّبعوا أصحابه، فقتل منهم جماعة و نهب أهل مكة ركب المصريّين، و جرت فتنة عظيمة جدّا، و سكن الحال، و أما الحجر الشريف فإنّه سقط منه ثلاث فلق مثل الأظفار، و بدا ما تحتها أسمر يضرب إلى صفرة، محبّبا، مثل الخشخاش، فأخذ بنو شيبة تلك الفلق، فعجنوها بالمسك و اللكّ و حشوا بها تلك الشقوق التى بدت، و ذلك ظاهر فيه إلى الآن.

و فى سنة سبع عشرة منع الظاهر صاحب مصر من ذبح البقر السليمة من العيوب الّتى تصلح للحرث، و كتب عن لسانه كتاب قرىء على الناس، فيه: «إنّ اللّه بسابغ نعمته، و بالغ حكمته، خلق ضروب الأنعام، و علم بها منافع الأنام، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض المذلّلة لمصالح الخلق، فإنّ ذبحها غاية الفساد، و إضرار بالعباد و البلاد».

و فيها انفرد المصريون بالحج، و لم يحجّ أهل العراق و المشرق لفساد الأعراب، و كذا فى سنة ثمانى عشرة و فى سنة تسع عشرة لم

يحجّ أحد من أهل المشرق و لا من أهل الديار المصرية أيضا، إلّا أنّ قوما من خراسان ركبوا فی البحر من مدينة مكران، فانتهوا إلى جدّة، فحجّوا.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۵

و فی سنة عشرين حجّ أهل مصر دون غيرهم.

و فيها فی رجب انقضّت كواكب كثيرة شديدة الصوت، قويّة الضّوء.

و فی سنة إحدى و عشرين تعطّل الحجّ من العراق أيضا، و قطع على حجّاج مصر الطريق، و أخذت الروم أكثره.

و فی سنة ثلاث و عشرين تعطّل الحجّ من العراق أيضا. و فيها قال ابن المتوّج:

استحضر خليفة مصر الظاهر بن الحاكم كلّ من فی القصر من الجوارى، و قال لهم:

تجتمعون لأصنع لكم يوما حسنا لم ير مثله بمصر، و أمر كلّ من كان له جارية فليحضرها، و لا تجیء جارية إلا و هی مزيّنة بالحلى و الحلل، ففعلوا ذلك حتى لم تترك جارية إلّا أحضرت، فجعلهنّ فی مجلس، و دعا بالبنائين، فبنى أبواب المجلس عليهنّ، حتى ماتوا عن آخرهنّ، و كان يومن جمعهنّ يوم الجمعة لستّ خلون من شوّال، و عدّتهنّ ألفان و ستمائة و ستون جارية، فلمّا مضى لهنّ ستة أشهر أضرم النار عليهنّ، فأحرقهنّ بثيابهنّ و حليهنّ، فلا رحمه اللّه و لا رحم الذى خلفه!

و فی سنة خمس و عشرين كثرت الزلازل بمصر . و فيها انقضّ كوكب عظيم، و سمع له صوت مثل الرّعد وضوء مثل المشاعل. و يقال: إنّ السماء انفرجت عند انقضاضه. حكاه فی المرآة. و لم يحج أحد سوى أهل مصر، و كذا فی سنة ست و عشرين و سنة ثمان و عشرين.

و فی سنة ثمان و عشرين بعث صاحب مصر بمال لينفق على نهر بالكوفة إن أذن الخليفة العباسىّ فی ذلك، فجمع القائم بالله الفقهاء، و سألهم عن هذا المال، فأفتوا بأنّ هذا فیء للمسلمين يصرف فی مصالحهم، فأذن فی صرفه فی مصالح المسلمين.

و فی سنة ثلاثين و أربعمائة تعطّل الحجّ من الأقاليم بأسرها، فلم يحجّ أحد، لا من مصر و لا من الشام و لا من العراق و لا من خراسان.

و فی سنة إحدى و ثلاثين و الّتی تليها تفرّد بالحجّ أهل مصر، و كذا فی سنة ستّ و ثلاثين و سبع و ثلاثين و تسع و ثلاثين و ثلاث و ستين و بعدها.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۶

و فی سنة إحدى و أربعين فی ذی الحجّة ارتفعت سحابة سوداء ليلا فزادت على ظلمة الليل، و ظهر فی جوانب السماء كالنّيار المضيئة، فانزعج النّاس لذلك، و أخذوا فی الدعاء و التضرّع، فانكشفت بعد ساعة.

و فی سنة خمس و أربعين و ثلاث تليها انفرد أهل مصر بالحجّ.

و فی سنة ثمان و أربعين، قال فی المرآة: عمّ الوباء و القحط مصر و الشام و بغداد و الدنيا، و انقطع ماء النيل. و اتفقت غريبة، قال ابن الجوزىّ: ورد كتاب من مصر أنّ ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدّور، فوجدوا عند الصباح موتى؛ أحدهم على باب النّقب، و الثانی على رأس الدّرجة، و الثالث على الثياب المكوّرة. و فيها، فی العشر الثانی من جمادى الآخرة ظهر وقت السحر نجم له ذؤابة بيضاء، طولها فی رأى العين نحو عشرة أذرع نحو ذراع، و لبث على هذه الحال إلى نصف رجب ثم اضمحلّ.

و فی سنة إحدى و خمسين و سنتين بعدها، انفرد أهل مصر بالحجّ.

و فی شوّال من هذه السنة لاح فی السماء فی الليل ضوء عظيم كالبرق يلمع فی موضعين؛ أحدهما أبيض، و الآخر أحمر إلى ثلث الليل، و كبّر الناس و هلّلوا. حكاه فی المرآة.

و فی سنة ثلاث و خمسين فی جمادى الآخرة لليلتين بقيتا منه، كسفت الشمس كسوفا عظيما، جميع القرص، فمكثت أربع ساعات حتّى بدت النجوم، و أوت الطيور إلى أوكارها لشدّة الظلمة.

و فی سنة خمس و خمسین وقع بمصر وباء شدید، کان یخرج منها فی کلّ یوم ألف جنازة.

و فی سنة ستّ و خمسین وقعت فتنة عظیمة بین عبید مصر و التّرک، و اقتتلوا.

و غلب العبید علی الجزیرة الّتی فی وسط النیل بین مصر و الجیزة، و اتصل الحرب بین الفریقین.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۷

و فی سنة ثمان و خمسین، فی العشر الأول من جمادی الأولی ظهر کوکب کبیر، له ذؤابة عرضها نحو ثلاثة أذرع و طولها أذرع کثیرة، و بقی إلی أواخر الشهر، ثمّ ظهر کوکب آخر عند غروب الشمس، قد استدار نوره علیه کالقمر، فارتاع النّاس و انزعجوا، فلما أعتم اللیل، رمی ذؤابة نحو الجنوب، و أقام إلی أیّام فی رجب، و ذهب.

و فی سنة ستّین و أربعمائة کان ابتداء الغلاء العظیم بمصر، الّذی لم یسمع بمثله فی الدهور؛ من عهد یوسف الصدیق علیه الصلاة و السلام، و اشتدّ القحط و الوباء سبع سنین متوالیة بحیث أکلوا الجیف و المیتات، و أفنیت الدوابّ، و بیع الکلب بخمسة دنانیر و الهرّ بثلاثة دنانیر، و لم یبق لخلیفة مصر سوی ثلاثة أفراس بعد العدد الکثیر، و نزل الوزیر یوما عن بغلته، فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر، فذبحوها و أکلوها، فأخذوا فصلبوا و أصبحوا و قد أکلهم الناس، و لم یبق إلا عظامهم. و ظهر علی رجل یقتل الصبیان و النساء و یبیع لحومهن و یدفن رؤوسهم و أطرافهم فقتل. و بیعت البیضة بدینار، و بلغ الأردبّ القمح مائة دینار ثمّ عدم أصلا، حتّی حکی صاحب المرآة أنّ امرأة خرجت من القاهرة، و معها مدّ جوهر، فقالت: من یأخذه بمدّ قمح؟ فلم یلتفت إلیها أحد، و قال بعضهم یهنّئ القائم ببغداد:

و قد علم المصریّ أنّ جنوده‌سنو یوسف هولا و طاعون عمواس

أقامت به حتّی استراب بنفسه‌و أوجس منها خیفة أیّ إیجاس

و فی سنة اثنتین و ستین، زلزلت مصر حتی نفرت إحدی زوایا جامع عمرو. و فیها ضرب صاحب مصر اسم ابنه ولیّ العهد علی الدینار، و سمّی الآمریّ، و منع التعامل بغیره.

و فی سنة خمس و ستّین اشتدّ الغلاء و الوباء بمصر حتّی إنّ أهل البیت کانوا یموتون فی لیلة، و حتّی إنّ امرأة أکلت رغیفا بألف دینار، باعت عروضها قیمته ألف دینار، و اشترت بها جملة قمح، و حمله الحمّال علی ظهره فنهبه الناس، فنهبت المرأة مع الناس فصحّ لها رغیف واحد، و کان السّودان یقفون فی الأزقّة، یصطادون النساء بالکلالیب، فیأکلون لحومهنّ، و اجتازت امرأة بزقاق القنادیل، فعلقها السّودان

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۸

بالکلالیب، و قطعوا من عجزها قطعة، و قعدوا یأکلونها و غفلوا عنها، فخرجت من الدار و استغاثت، فجاء الوالی و کبس الدّار، فأخرج منها ألوفا من القتلی.

و فی سنة ستّ و ثمانین و سنتین بعدها انفرد المصریون بالحجّ.

و فی سنة إحدی و تسعین حدثت بمصر ظلمة عظیمة، غشیت أبصار النّاس، حتی لم یبق أحد یعرف أین یتوجه!

و فی سنة سبع و تسعین عزّ القمح بمصر، ثم هان. و فیها تولّی الآخر بمصر فضرب الفضة السّوداء المشهورة بالآمریّة.

و فی سنة خمس عشرة و خمسمائة هبّت ریح سوداء بمصر، فاستمرّت ثلاث أیام، فأهلکت خلقا کثیرا من النّاس و الدوابّ و الأنعام. قاله ابن کثیر.

و فی سنة سبع عشرة بلغ النّیل ستة عشر ذراعا سواء بعد توقّف.

و فی سنة ثمان عشرة أوفی النّیل بعد النّیروز بتسعة أیام، و زاد عن الستة عشر ذراعا أحد عشر إصبعا لا غیر، و عزّ السّعر ثمّ هان. و فی حدود هذه السنین احترق جامع عمر.

و فی سنة خمس و ستین [و خمسمائة] حاصرت الفرنج دمیاط خمسین یوما، بحیث ضیّقوا علی أهلها، و قتلوا منهم، فأرسل نور الدین محمود الشهید إلیهم جیشا علیهم صلاح الدین یوسف بن أیّوب، فأجلوهم عنها، و کان الملک نور الدین شدید الاهتمام بذلک؛ حتّی إنه قرأ علیه بعض طلبة الحدیث جزءا فیه حدیث مسلسل بالتبسّم، فطلب منه أن یتبسّم لیتّصل التسلسل، فامتنع من ذلک، و قال: إنّی لأستحیی من اللّه أن یرانی متبسما، و المسلمون تحاصرهم الفرنج بثغر دمیاط. و ذکر أبو شامة أنّ بعضهم رأی فی تلک اللیلة التی أجلی فیها الفرنج عن دمیاط رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم، و هو یقول له: سلّم علی نور الدین، و بشّره بأنّ الفرنج قد رحلوا عن دمیاط، فقال له الرائی: یا رسول اللّه، بأیّ علامة؟ فقال: بعلامة لمّا سجد یوم کذا، و قال فی سجوده: اللّهم انصر دینک و من هو محمود الکلب! فأصبح الرائی، و بشّر نور الدین بذلک، و أعلمه بالعلامة، ففرح، ثمّ جاء الخبر بإجلائهم تلک اللیلة. فرحم اللّه هذا الملک و أمثاله!

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۴۹

و فی سنة ثلاث و ثمانین [و خمسمائة]، قال ابن الأثیر فی الکامل : کان أوّل یوم منها یوم السبت، و کان یوم النیروز؛ و ذلک أول سنة الفرس، و اتفق أنّه أول سنة الروم أیضا، و فیه نزلت الشمس برج الحمل، و کذلک کان القمر فی برج الحمل أیضا، قال:

و هذا شیء یبعد وقوع مثله.

و فی سنة ثلاث و تسعین ورد کتاب من القاضی الفاضل من مصر إلی القاضی محیی الدین بن الذکیّ یخبره فیه بأنّ فی لیلة الجمعة التاسع من جمادی الآخرة أتی عارض فیه ظلمات متکاثفة، و بروق خاطفة، و ریاح عاصفة، فقوی أهویتها، و اشتدّ هبوبها، فتدافعت لها أعنّة مطلقات، و ارتفعت لها صواعق مصعقات، فرجفت لها الجدران و اصطفقت، و تلاقت علی بعدها و اعتنقت، و ثار بین السماء و الأرض عجاج فقیل: لعلّ هذه علی هذه أطبقت، و لا نحسب إلّا أنّ جهنّم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، و زاد عصف الریاح إلی أن انطفأت سرج النجوم، و مزّقت أدیم السماء و محت ما فوقه من الرقوم؛ فکنا کما قال اللّه: یَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ [البقرة: ۱۹]، و کما قلنا: و یردّون أیدیهم علی أعینهم من البوارق، لا عاصم من الخطف للأبصار، و لا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار، و فرّ الناس نساء و رجالا و أطفالا، و نفروا من دورهم خفافا و ثقالا، لا یستطیعون حیلة و لا یهتدون سبیلا، فاعتصموا بالمساجد الجامعة، و أذعنوا للنّازلة بأعناق خاضعة، و وجوه عانیة، و نفوس عن الأهل و المال سالیة، ینظرون من طرف خفّی، و یتوقّعون أی خطب جلیّ، قد انقطعت من الحیاة علقهم، و عمّیت عن النجاة طرقهم، و وقعت الفکرة فیما هم علیه قادمون، و قاموا إلی صلاتهم، و ودّوا أن لو کانوا من الذین هم علیها دائمون، إلی أن أذن اللّه فی الرکود، و أسعف الهاجدین بالهجود، و أصبح کلّ لیسلّم علی رفیقه، و یهنّئه بسلامة طریقه، و یری أنّه قد بعث بعد النفخة، و أفاق بعد الصیحة و الصرخة، و أنّ اللّه قد ردّ له الکرّة، و أدّبه بعد أن کان یأخذه علی الغرّة. و وردت الأخبار بأنّها کسرت المراکب فی البحار و الأشجار فی القفار، و أتلفت خلقا کثیرا من السّفّار، و منهم من فرّ فلم ینفعه الفرار. إلی أن قال: و لا یحسب المجلس أنّی أرسلت القلم محرّفا، و القول مجزّفا، فالأمر أعظم، و لکن اللّه سلّم، و نرجو أن یکون اللّه قد أیقظنا بما وعظنا، و نبّهنا بما ولّهنا، فما من عباده من رأی القیامة عیانا، و لم یلتمس علیها من بعده برهانا، إلا أهل بلد یافا، اقتصّ الأوّلون مثلها فی المثلات، و لا سبقت لها سابقة فی المعضلات، و الحمد للّه الذی من فضله جعلنا نخبر عنها و لا تخبر عنّا، و نسأل اللّه أن یصرف عنّا، عارضی الحرص و الغرور إذا عنّا.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۰

و فی سنة ستّ و تسعین، قال الذهبیّ، فی العبر: کسر النّیل من ثلاثة عشر ذراعا إلا ثلاثة أصابع، فاشتدّ الغلاء، و عدمت الأقوات، و وقع البلاء و عظم الخطب، إلی أن آل بهم الأمر إلی أکل الآدمیین الموتی. قال ابن کثیر فی هذه السنة و التی بعدها : کان بدیار مصر غلاء شدید، فهلک الغنیّ و الفقیر، و عمّ الجلیل و الحقیر، و هرب الناس منها نحو الشام، و لم یصل منها إلّا القلیل من الفئام ، و تخطّفتهم الفرنج من الطرقات، و عزّوهم فی أنفسهم، و اغتالوهم بالقلیل من الأقوات. و کان الأمیر لؤلؤ أحد الحجّاب بالدیار المصریة

يتصدّق فى هذا الغلاء فى كلّ يوم باثنى عشر ألف رغيف على اثنى عشر ألف فقير.

و فى سنة سبع و تسعين، قال الذهبىّ فى العبر: كان الجوع و الموت المفرط بالديار المصرية، و جرت أمور تتجاوز الوصف، و دام ذلك إلى نصف العام الآتى، فلو قال القائل: مات ثلاثة أرباع أهل الإقليم لما أبعد، و الذى دخل تحت قلم الحصريّة فى مدّة اثنين و عشرين شهرا مائة ألف و أحد و عشرون ألفا بالقاهرة، و هذا نزر فى جنب ما هلك بمصر و الحواضر، و فى البيوت و الطرقات و لم يدفن، و كلّه نزر فى جنب ما هلك بالأقاليم. و قيل إنّ مصر كان فيها تسعمائة منسج للحصر، فلم يبق إلّا خمسة عشر منسجا، فقس على هذا؛ و بلغ الفرّوج مائة درهم، ثمّ عدم الدّجاج بالكلّية لولا ما جلب من الشام، و أما أكل لحوم الآدميّين فشاع و تواتر. هذا كلام الذهبىّ.

و قال صاحب المرآة: فى هذه السنة كان هبوط النيل، و لم يعهد ذلك فى الإسلام إلّا مرّة واحدة فى دولة الفاطميين، و لم يبق منه إلا شىء يسير، و اشتدّ الغلاء و الوباء بمصر، فهرب النّاس إلى المغرب و الحجاز و اليمن و الشام، و تفرّقوا و تمزّقوا كلّ ممزّق.

قال: و كان الرّجل يذبح ولده، و تساعده أمّه على طبخ و شيّه؛ و أحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك و لم ينتهوا، و كان الرجل يدعو صديقه و أحبّ الناس إليه إلى منزله ليضيفه، فيذبحه و يأكله، و فعلوا بالأطبّاء ذلك، و فقدت الميتات و الجيف، و كانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم، و كفّن السلطان فى مدّة يسيره مائتى ألف و عشرين ألفا، و امتلأت طرقات المغرب و الحجاز و الشام برمم النّاس، و صلّى إمام جامع إسكندرية فى يوم واحد على سبعمائة جنازة .

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۱

قال العماد الكاتب: فى سنة سبع و تسعين و خمسمائة اشتدّ الغلاء، و امتدّ الوباء و حدثت المجاعة، و تفرّقت الجماعة، و هلك القوىّ فكيف الضعيف؟! و نحف السمين فكيف العجيف! و خرج النّاس حذر الموت من الديار، و تفرّقت فرق مصر فى الأمصار، و لقد رأيت الأرامل على الرّمال، و الجمال باركة تحت الأحمال، و مراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم، تسترقّ الجياع باللّقم.

قال صاحب المرآة و غيره: و كان فى هذه السنة، فى شعبان، زلزلة هائلة من الصّعيد، هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير.

و فى سنة تسع و تسعين [و خمسمائة] فى ليلة السّبت سلخ المحرّم ماجت النجوم فى السماء شرقا و غربا، و تطايرت كالجراد المنتشر يمينا و شمالا، و دام ذلك إلى الفجر، و انزعج الخلق، و ضجّوا بالدعاء، و لم يعهد مثل ذلك إلّا فى عام البعث و فى سنة إحدى و أربعين و مائتين. قاله صاحب المرآة و غيره.

و فى سنة ستمائة، كانت زلزلة عظيمة بديار مصر، قاله ابن الأثير فى الكامل.

و فيها أخذت الفرنج فوّة و استباحوها، دخلوا من فم رشيد فى النيل. ذكره الذهبىّ فى العبر.

و فى سنة سبع و ستّمائة، دخلت الفرنج من البحر من غربىّ دمياط، و ساروا فى البرّ فأخذوا قرية بورة ، و استباحوا قتلا و سبيا، و ردّوا فى الحال، و لم يدركهم الطلب.

و فى سنة ثمان و ستّمائة، كانت زلزلة شديدة، هدمت بمصر القاهرة دورا كثيرة، و مات خلق تحت الهدم.

و فى سنة خمس عشرة و ستّمائة، فى جمادى الأولى، نزلت الفرنج على دمياط ، و أخذوا برج السلسلة، ثمّ استحوذوا على دمياط فى سنة ستّ عشرة، فاستمرّت بأيديهم إلى أن استردّت منهم فى سنة ثمان عشرة.

قال الذهبىّ فى العبر: فى سنة ستّ عشرة و ستمائة، حاصر الفرنج أهل دمياط ، و وقعت حروب كثيرة يطول شرحها، و جدّت الفرنج فى المحاصرة، و عملوا

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۲

عليهم خندقا كبيرا، و ثبت أهل البلد ثباتا لم يسمع بمثله، و كثر فيهم القتل و الجرح و الموت، و عدمت الأقوات، ثم سلّموها بالأمان فى شعبان، و طار عقل الفرنج، و تسارعوا إليها من كلّ فجّ، و شرعوا فى تحصينها، و أصبحت دار هجرتهم، و رجوا بها أخذ ديار

مصر، و أشرف الإسلام على خطّة خسف، و أقبل التتار من المشرق و الفرنج من المغرب، و عزم المصريون على الجلاء، فثبّتهم الكامل إلى أن سار إليه أخوه الأشرف و المعظّم، و حصل الفتح و للّه الحمد.

و فی سنة ثمان و عشرين و ستّمائة، كان غلاء شديد بديار مصر، قاله ابن كثير.

و بلغ النيل ستّة عشر ذراعا و ثلاثة أصابع فقط، بعد توقّف عظيم، و وصل القمح خمسة دنانير الإردبّ، فرسم السلطان بفتح الأهراء و شون الأمراء، و أن يباع بثمانين درهما الإردبّ من غير زيادة، فانحطّ السّعر إليه. ذكره ابن المتوّج.

و فی سنة تسع و عشرين، وصل النيل ثمانية عشر ذراعا و ستّة أصابع، و تأخّر نزوله حتّى خاف الناس من عدم نزوله، فغلا السّعر، ثمّ نزل، فانحطّ السعر.

و فی سنة إحدى و ثلاثين، قدم إلى الملك الكامل هديّة من الإفرنج، فيها دبّ أبيض و شعره مثل شعر السبع، ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله .

و فی سنة اثنتين و ثلاثين كان الوباء العظيم بمصر .

و فی سنة ثلاث و أربعين كان الغلاء بمصر، و قاسى أهلها شدائد .

و فی سنة سبع و أربعين نزلت الفرنج دمياط برّا و بحرا، و ملكوها، ثمّ استنقذت منهم.

و فی سنة تسع و أربعين [و ستمائة]، قال ابن كثير: صلّيت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر، قال: و هذا اتفاق غريب.

و فی سنة سبع و خمسين [و ستمائة]، حصلت بديار مصر زلزلة عظيمة جدّا.

و فی سنة إحدى و ستين، جهّز الظاهر بيبرس رحمه اللّه تعالى أخشابا و آلات كثيرة لعمارة المسجد النبوىّ بعد حريقه، فطيف بها بالديار المصريّة، فرحا بها، و تعظيما لشأنها ثم ساروا بها إلى المدينة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۳

و فی سنة اثنتين و ستّين كان بديار مصر غلاء عظيم، و فرّق الظاهر الفقراء على الأمراء و الأغنياء، و ألزمهم بإطعامهم، و فرّق هو قمحا كثيرا، و رتّب كلّ يوم للفقراء مائة اردبّ تخبز و تفرّق عليهم.

و فی هذه السنة ولد بمصر ولد ميّت، له رأسان و أربعة أعين و أربعة أيد و أربعة أرجل.

و فی سنة ثلاث و ستّين وقع حريق عظيم ببلاد مصر، اتّهم به النّصارى، فعاقبهم السلطان عقوبة عظيمة. و فيها استجدّ الظاهر بمصر القضاة الثلاثة ، من كلّ مذهب قاض.

و فی سنة أربع و ستّين، قال ابن المتوّج: حفر الظاهر بحر مصر بنفسه، و عسكره ما بين الروضة و المنشاة.

و فی سنة خمس و ستّين كبا الفرس بالملك الظاهر، فانكسرت فخذه، و حصل له عرج.

و فی سنة ستّ و ستين كانت كائنة الحبيس النصرانىّ، كان كاهنا ثمّ ترهّب و أقام بمفازة بجبل حلوان، فقيل إنّه ظفر بكنز للحاكم صاحب مصر، فواسى منه الفقراء و المستورين من كل ملّة، و اشتهر أمره و شاع ذكره، و أنفق فی ثلاث سنين أموالا عظيمة، فأحضره السلطان، و تلطّف به، فأبى عليه يعرّفه بجليّة أمره، و أخذ يراوغه و يغالطه، فلمّا أعياه حنق عليه، و بسط عليه العذاب فمات. قال الذهبىّ: و قد أفتى غير واحد بقتله خوفا على ضعفاء الإيمان من المسلمين أن يضلّهم و يغويهم.

و فی سنة سبع و ستّين، رسم السلطان بإراقة الخمور ، و إبطال المفسدات و الخواطىء من الديار المصرية و الشاميّة، و حبست الخواطىء حتّى يتزوجن، و كتب إلى جميع البلاد بذلك، و أسقطت الضرائب التى كانت مرتبة عليها.

و فی هذه السنة حجّ السلطان فأحسن إلى أهل الحرمين، و غسل الكعبة بماء الورد بيده. و فی أواخر ذى الحجة من هذه السنة هبّت ريح شديدة بديار مصر، غرّقت مائتى مركب فی النيل، و هلك فيها خلق كثير، و وقع مطر شديد جدّا، و أصابت الثمار صعقة أهلكتها، حكاه ابن كثير.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۴

و فی سنة تسع و ستین [و ستمائة] شدّد السلطان فی أمر الخمور، و هدّد من یعصرها بالقتل، و أسقط الضّمان فی ذلک، و کان ألف دینار کلّ یوم بالقاهرة وحدها، و کتب بذلک توقیع قرئ علی منبر مصر و القاهرة، و سارت البرد بذلک إلی الآفاق.

و فی سنة سبعین، قال قطب الدین: فی جمادی الآخرة ولدت زرافة بقلعة الجبل، و أرضعت من بقرة، قال: و هذا شیء لم یعهد مثله.

و فی سادس عشر شوّال سنة خمس و سبعین، قال ابن کثیر: طیف بالمحمل، و بکسوة الکعبة المشرّفة بالقاهرة، و کان یوما مشهودا.

قلت: کان هذا مبدأ ذلک، و استمرّ ذلک کلّ عام إلی الآن.

و فی سنة تسع و سبعین، فی یوم عرفة وقع ببلاد مصر برد کبار، أتلف کثیرا من الغلال، و وقعت صاعقة بالإسکندریّة، و أخری تحت الجبل الأحمل علی حجر فأحرقته، فأخذ ذلک الحجر و سبک، فخرج منه من الحدید أواق بالرطل المصریّ.

و فی سنة ثمان [ثمانین] و ستمائة تربت جزیرة کبیرة ببحر النیل تجاه قریة بولاق و اللّوق، و انقطع بسببها مجری البحر، ما بین قلعة المقس و ساحل باب البحر، و اشتدّ و نشف بالکلیّة، و اتّصل ما بین المقس و جزیرة الفیل بالمشی، و لم یعهد فیما تقدّم، و حصل لأهل القاهرة مشقّة من نقل الماء لبعد النیل، فأراد السلطان حفره، فقالوا: إنّه لا یفید، و نشف إلی الأبد.

و فی سنة إحدی و ثمانین [و ستمائة] فی شعبان، طافوا بکسوة الکعبة، و لعبت مماللیک الملک المنصور أیام الکسوة بالرّماح و السلاح؛ و هو أوّل ما وقع ذلک بالدیار المصریة، و استمرّ ذلک إلی الآن، یعمل سنین و یبطل سنین.

و فی سنة إحدی و تسعین فی الرابع و العشرین من المحرّم، وقع حریق عظیم بقلعة الجبل، أتلفت شیئا کثیرا من الذّخائر و النفائس و الکتب.

و فی سنة ثلاث و تسعین، قال ابن المتوّج: کثرت الفلوس، و ردّها أرباب المعائش، و جعلت بالمیزان بربع نقرة کل أوقیّة، ثمّ بسدس الأوقیة، و تحرّک السعر بسبب ذلک. و کان القمح فی أوّل السنة بثلاثة عشر درهما الإردبّ، فانتقل إلی ستین درهما الإردبّ. و فیها، قال ابن المتوج: کانت زلزلة بدیار مصر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۵

و فی سنة أربع و تسعین: أوفی النیل فی السادس من أیام النسیء و کسر، و بلغ مجموع زیادته ستة عشر ذراعا و سبعة عشر أصبعا، و حصل فی هذه السنة بدیار مصر غلاء شدید. و استهلّت سنة خمس و تسعین و أهل الدیار المصریة فی قحط شدید و وباء مفرط، حتی أکلوا الجیف، و نفدت حواصل السلطان من العلیق، فأقامت خیول السلطان ثلاثة أیام حتی أحضرت التقاوی المخلّد فی البلاد، و بلغ الإردبّ القمح مائة و سبعین درهما نقرة، و ذلک عبارة عن ثمانیة مثاقیل ذهب و نصف مثقال، و الخبز کلّ رطل و ثلث بالمصریّ بدرهم نقرة، و أکلت الضعفاء الکلاب، و طرحت الأموات فی الطرقات، و کانوا یحفرون الحفائر الکبار، فیلقون فیها الجماعة الکثیرة. و بیع الفرّوج بالإسکندریة بستة و ثلاثین درهما نقرة، و بالقاهرة بتسعة عشر، و البیض کل ثلاثة بدرهم، و فنیت الحمر و الخیل و البغال و الکلاب، و لم یبق شیء من هذه الحیوانات یلوح. و فی جمادی الآخرة خفّ الأمر، و أخذ فی الرخص، و انحطّ سعر القمح إلی خمسة و ثلاثین درهما الإردب.

و فی سنة ستّ و تسعین [و ستمائة]، بلغت زیادة النیل إلی أوّل توت خمسة عشر ذراعا و ثمانیة عشر إصبعا، ثمّ نقص و لم یوفّ.

و فی سنة سبع و تسعین توقّف النیل، ثم أوفی آخر أیام النّسیء.

و فی سنة ثمان و تسعین فی المحرّم، ظهر کوکب له ذؤابة .

و فی سنة تسعین [تسع و تسعین و ستمائة]، أوفی النیل فی ثالث عشر توت.

و فی شعبان سنة سبعمائة، أمر بمصر و الشام الیهود بلبس العمائم الصّفر، و النصاری بلبس الزّرق، و السامرة بلبس الحمر، و استمرّ ذلک إلی الآن.

و قال الشعراء فی ذلک، فقال العلاء الوداعیّ:

لقد ألزموا الکفّار شاشات ذلّةتزیدهم من لعنة اللّه تشویشا

فقلت لهم: ما ألبسوکم عمائماو لکنّهم قد ألبسوکم براطیشا

و قال آخر:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۶ تعجّبوا للنصاری و الیهود معاو السامریّین لمّا عمّموا الخرقا

کأنّما بات بالأصباغ منسهلانسر السّماء فأضحی فوقهم فرقا

و فی سنة اثنتین و سبعمائة فی ذی الحجّة، کانت الزلزلة العظمی بمصر، و کان تأثیرها بالإسکندریة أعظم من غیرها، و طلع البحر إلی نصف البلد، و أخذ الحمّال و الرجال، و غرقت المراکب، و سقطت بمصر دور لا تحصی، و هلک تحت الرّدم خلق کثیر.

و فی هذه السنة، قال البرزالیّ فی تاریخه: قرأت فی بعض الکتب الواردة من القاهرة أنّه لما کان بتاریخ یوم الخمیس رابع جمادی الآخرة، ظهرت دابّة عجیبة الخلقة من بحر النیل إلی أرض المنوفیّة، و صفتها: لونها لون الجاموس بلا شعر، و آذانها کآذان الجمل، و عیناها و فرجها مثل الناقة، یغطّی فرجها ذنبها، طوله شبر و نصف، طرفه کذنب السمک، و رقبتها مثل غلظ المسند المحشوّ تبنا، و فمها و شفتاها مثل الکربال ، و لها أربعة أنیاب، اثنان من فوق و اثنان من أسفل، طولها دون الشّبر، و عرض إصبعین، و فی فمها ثمانیة و أربعون ضرسا و سنّا، مثل بیادق الشطرنج، و طول یدها من باطنها إلی الأرض شبران و نصف، و من رکبتها إلی حافرها مثل بطن الثعبان، أصفر مجعّد و دور حافرها مثل السّکرجة بأربعة أظافیر مثل أظافیر الجمل، و عرض ظهرها مقدار ذراعین و نصف، و طولها من فمها إلی ذنبها خمسة عشر قدما، و فی بطنها ثلاثة کروش، و لحمها أحمر، و زفرته مثل السمک، و طعمه کطعم الجمل، و غلظ جلدها أربعة أصابع، ما تعمل فیه السیوف، و حمل جلدها علی خمسة أجمال فی مقدار ساعة، من ثقله علی جمل بعد جمل، و أحضروه إلی القلعة بین یدی السلطان، و حشوه تبنا، و أقاموه بین یدیه.

و فی هذه السنة أبطل الأمیر رکن الدین بیبرس الجاشنکیر عید الشهید بمصر، و ذلک أنّ النصاری کان عندهم تابوت فیه إصبع، یزعمون أنه من أصابع بعض شهدائهم، و أن النیل لا یزید ما لم یلق فیه هذا التابوت، و کان یجتمع النصاری من سائر النواحی إلی شبرا، و یقع هناک أمور فظیعة؛ من سکر و غیره، فأبطل ذلک إلی یومنا هذا، و للّه الحمد.

و فی سنة أربع و سبعمائة ظهر من معدن الزّمرد قطعة زنتها مائة و خمسة و سبعون

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۷

مثقالا، فأخفاها الضامن، ثمّ حملها إلی بعض الملوک، فدفع له فیها مائة ألف و عشرین ألف درهم، فأبی أن یبیعها بذلک، فأخذها الملک منه غصبا، و بعث بها إلی السلطان، فمات الضامن غمّا.

و فیها أوفی النّیل رابع توت، و کذا فی سنة خمس.

و فی سنة تسع و سبعمائة توقّف النیل، و استسقی الناس فلم یسقوا، و انتهت زیادته فی سابع عشری توت إلی خمسة عشر ذراعا و سبعة عشر إصبعا، ثمّ زاد.

و أوفی ستة عشر ذراعا فی تاسع عشرة بابه ، و تشاءم النّاس بسلطنة بیبرس، و غنّت العامة فی ذلک:

سلطاننا رکین، و نائبنا دقین، یجیئنا الماء من أین؟

یجیبوا لنا الأعرج، یجیء الماء و یدحرج.

و فی هذه السنة لما عاد ابن قلاوون تکلّم الوزیر ابن الخلیلیّ فی إعادة أهل الذمّة إلی لبس العمائم البیض بالعلائم، و أنّهم قد التزموا للدیوان بسبعمائة ألف فی کلّ سنة زیادة علی الجالیة، فسکت أهل المجلس، و قام الشیخ تقیّ الدّین بن تیمیّة رحمه اللّه، و تکلم کلاما عظیما، و ردّ علی الوزیر مقالته، و قال للسلطان: حاشاک أن تکون ممّن ینصر أهل الذمة! فأصغی إلیه السلطان، و استمرّ لبسهم

للأصفر و الأزرق، ثمّ عمل ذلک ببغداد أیضا فی سنة أربع و ثلاثین اقتداء بملک مصر.

و فی سنة خمس عشرة و سبعمائة وقع الشروع فی روک الإقطاعات بمصر، و أبطل السلطان مکوسا کثیرة، و أفردت الجهات الّتی بقیت من المکس، و أضیفت للوزیر و أفرد لکلّ راتب من الدولة، و لکل فریق جهة من البلاد، و لم یکن الوزیر یتعلّق به جهة مکس قدیما، و لذا کان یتولّاه العلماء و قضاة القضاة.

و فی سنة عشرین و سبعمائة حصل بالدّیار المصریة مرض کثیر، قلّ أن سلمت منه دار، و غلت الأدویة و الأشربة، و بیعت الرّمانة الحامضة بثلاثة أرباع نقرة، و العنّاب الرّطل المصریّ بستة دراهم نقرة، و کذلک الإجّاص و القراصیا و القلب اللوز، و تمّت مدّة عظیمة؛ و لکن کان المرض سلیما و الموت قلیلا. ذکره فی العبر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۸

و فی سنة إحدی و عشرین، کان بالقاهرة حریق کبیر متتابع خارج عن الوصف، و دام أیاما فی أماکن، و أحرق جامع ابن طولون و ما حوله بأسره، ثمّ ظفر بفاعلیه، و هم جماعة من النصاری یعملون قوارید النّفط، فقتلوا و أحرقوا، و هدم غالب کنائس النصاری بمصر، و نهب الباقی، و بقیت القاهرة أیاما لم یظهر فیها أحد من النصاری، و بقی لا یظهر نصرانیّ إلا ضربه العوام، و ربما قتلوه.

و فی هذه السنة، قال الذهبیّ فی العبر: نقلت من خط بدر الدین العزّازی أنّ کلبة ولدت بالقاهرة ثلاثین جروا، و أنها أحضرت بین یدی السلطان، فعجب منها و سأل المنجّمین عن ذلک، فلم یکن عندهم علم منه.

و فی سنة اثنتین و عشرین أبطل السلطان المکس المتعلّق بالمأکول بمکّة، و عوّض صاحبها ثلثی بلد دمامین، من صعید مصر.

و فی سنة أربع و عشرین رسم السلطان بإبطال الملاهی بالدیار المصریة، و حبس جماعة من النساء الزوانی، و حصل بالدیار المصریة موت کثیر.

و فی هذه السنة، نودی علی الفلوس أن یتعامل بها بالرّطل ، کلّ رطل بدرهمین، و رسم بضرب فلوس زنة الفلس منها درهم.

و فی سنة خمس و عشرین، وقع بالقاهرة مطر کثیر، قلّ أن وقع مثله، و جاء سیل إلی النیل حتّی تغیّر لونه، و زاد نحو أربعة أصابع.

و فی هذه السنة حضر السلطان النّاصر بن قلاوون عند قاضی القضاة بدر الدین بن جماعة، فسمع علیه عشرین حدیثا من تساعیّاته، و خلع علیه خلعة عظیمة، و فرّق من الذهب و الفضة علی الفقراء نحو ثلاثین ألف درهم.

و فی سنة سبع و عشرین، رسم بقتل الکلاب بالدیار المصریة.

و فی سنة تسع و عشرین، رسم بألّا یباع مملوک ترکیّ لکاتب و لا لعامیّ .

و فی سنة أربعین [و سبعمائة]، نودی علی الذهب کلّ دینار بخمسة و عشرین درهما ، و کان بعشرین درهما، و أن یتعاملوا به و لا یتعاملوا بالفضة، فشقّ ذلک علی الناس، ثمّ بطل ذلک.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۵۹

و فی سنة أربع و أربعین، اشتدّ آل ملک نائب السلطنة علی والی القاهرة فی إراقة الخمر، و منع المحرّمات، و عاقب جماعة کثیرة علی ذلک، و أخرب خزانة النّبوذ، و کانت دار فسق و فجور، و بنی مکانها مسجدا، و نادی: من أحضر سکرانا، أو من معه جرّة خمر خلع علیه. فقعد العامة لذلک بکل طریق، و أتوه بجندیّ سکران، فضربه و قطع خبزه، و أخلع علی الآتی به، و صار له مهابة عظیمة، و کفّ الناس عن أشیاء کثیرة، حتّی أعیان الأمراء، فقال بعض الشعراء فی ذلک:

آل ملک الحاج غدا سعده یملأ ظهر الأرض فیما سلک

فالأمر أمن دونه سوقهٔ و الملک الظّاهر هو آل ملک

و فی سنة سبع و أربعین قلّ ماء النیل، حتی صار ما بین المقیاس و مصر یخاض، و صار من بولاق إلی المنشیّة طریقا یمشی فیه، و بلغت روایة الماء درهمین، و کانت بنصف درهم.

و فی سنة تسع و أربعین کان الطّاعون العامّ بمصر و غیرها.

و فی سنة خمس و خمسین و سبعمائة أمر بأن یکون إزار النصرانیة أزرق و إزار الیهودیة أصفر، و إزار السامریّة أحمر.

و فی سنة سبع و خمسین [و سبعمائة] فی ربیع الآخر، هبّت ریح من جهة المغرب، و امتدت من مصر إلی الشام فی یوم و لیلة، و غرقت ببولاق نحو ثلاثمائة مرکب، و اقتلعت من النّخیل و الجمیز ببلاد مصر و بلبیس شیئا کثیرا.

و فی سنة إحدی و ستین وقع الوباء بالدیار المصریة.

و فی سنة أربع و ستین کان الطاعون بدیار مصر.

و فی سنة خمس و ستین وقع الفناء فی البقر، فهلک منها شیء کثیر.

و فی سنة سبع و ستین [و سبعمائة] أخذت الفرنج مدینة إسکندریّة، و قتلوا و أسروا، فخرج السلطان و العسکر لقتالهم، ففرّوا و ترکوها .

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۰

و فی سنة تسع و ستین وقع الوباء بالدیار المصریة.

و فی سنة ثلاث و سبعین [و سبعمائة] رسم للأشراف بالدیار المصریة و الشامیة أن یسموا عمائمهم بعلامة خضراء، تمییزا لهم عن الناس، ففعل ذلک فی مصر و الشام و غیرهما، و فی ذلک یقول أبو عبد اللّه بن جابر الأندلسی الأعمی نزیل حلب:

جعلوا لأبناء الرّسول علامةإنّ العلامة شأن من لم یشهر

نور النبوّة فی کریم وجوههمیغنی الشریف عن الطّراز الأخضر

و قال فی ذلک جماعة من الشعراء ما یطول ذکره؛ و من أحسنها قول الأدیب شمس الدین محمد بن إبراهیم الدمشقی:

أطراف تیجان أتت من سندس‌خضر بأعلام علی الأشراف

و الأشرف السلطان خصّصهم بهاشرفا لیعرفهم من الأطراف

و فی هذه السنة زاد النیل زیادة مفرطة، و ثبت إلی أیّام من هاتور ، فاجتمع جماعة بالجامع الأزهر، و جامع عمرو، و سألوا اللّه فی هبوطه، و عمل ابن أبی حجلة مقامته المشهورة.

و فی هذه السنة أراد السّراج الهندیّ قاضی الحنفیّة أن یساوی قاضی الشافعیّة فی لبس الطّرحة و تولیة القضاة فی البلاد، و تقریر مودع الأیتام، فأجیب إلی ذلک؛ فاتّفق أنّه توعّک عقب ذلک، و طال مرضه إلی أن مات و لم یتمّ الذی أراده.

و فی سنة أربع و سبعین [و سبعمائة] وقعت صاعقة علی القلعة، فأحرقت منها شیئا کثیرا، و استمرّ الحریق أیّاما، و فی هذه السنة عقد الجائی مجلسا بالعلماء فی إقامة خطبة بالمنصوریة، فأفتاه البلقینیّ و ابن الصائغ بالجواز، و خالف الباقون، و صنّف البلقینیّ کتابا فی الجواز، و صنّف العراقیّ کتابا فی المنع، و جمع أیضا القاضی برهان الدین بن جماعة جزءا فی المنع.

و فی سنة خمس و سبعین، توقّف النیل عن الزیادة، و أبطأ إلی أن دخل توت، و اجتمع العلماء و الصلحاء بجامع عمرو، و استسقوا، و کسر الخلیج تاسع توت عن نقص أربعة أصابع من العادة، ثمّ نودی بصیام ثلاثة أیّام، و خرجوا إلی الصحراء مشاة،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۱

و حضر غالب الأعیان و معظم العوامّ و صبیان المکاتب، و نصب المنبر، فخطب علیه شهاب الدین القسطلانیّ خطیب جامع عمرو، و صلّی صلاة الاستسقاء، و دعا و ابتهل، و کشف رأسه و استغاث و تضرّعوا، و کان یوما مشهودا، و ابتدأ الغلاء و زادت الأسعار.

و فی هذه السنة فی أول جمادی الأولی حدثت زلزلة لطیفة، فیها ابتدئت قراءة البخاریّ فی رمضان بالقلعة بحضرة السلطان، و رتّب الحافظ زین الدین العراقیّ قارئا، ثمّ اشترک معه شهاب الدین العریانیّ یوما بیوم، و أمر السلطان مشایخ العلم أن یحضروا عنده سامعین لیتباحثوا، فحضر جماعة من الأکابر.

و فیها أبطل ضمان المغانی و مکس القراریط التی کانت فی بیع الدّور، و قرىء بذلک مرسوم علی المنابر، و کان ذلک بتحریک البلقینیّ، و أعانه أکمل الدین و البرهان ابن جماعة.

و فی سنة ستّ و سبعین وقع الفناء بالدیار المصریة، و بیع کلّ رمانة بستة عشر درهما و هی قریب من دینار، و کلّ فرّوج بخمسة و أربعین، و کلّ بطّیخة بسبعین.

و فی هذه السنة أحضر والی الأشمونین إلی الأمیر منجک بنتا عمرها خمس عشرة سنة، فذکر أنها لم تزل بنتا إلی هذه الغایة، فاستدّ الفرج و ظهر لها ذکر و أنثیان و احتلمت، فشاهدوها و سمّوها محمدا، و لهذه القضیة نظیر، ذکرها ابن کثیر فی تاریخه.

قال الحافظ ابن حجر: و وقع فی عصرنا نظیر ذلک فی سنة اثنتین و أربعین و ثمانمائة.

و فی سنة سبع و سبعین [و سبعمائة] وصلت هدایا إسطنبول من الرّوم، و فی جملة الهدایا صندوق فی شخوص له حرکات، کلّما مضی ساعة من اللیل ضربت تلک الشخوص بأنواع الملاهی، و کلما مضت درجة سقطت بندقة.

و فی سنة ثمان و سبعین، فی شعبان، خسف الشمس و القمر جمیعا، فطلع القمر خاسفا لیلة السبت رابع عشرة، و کسفت الشمس بین الظهر و العصر یوم السبت ثامن عشرینه.

و فی سنة ثمانین [و سبعمائة] کان بمصر حریق عظیم و دام أیاما. و فی هذه

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۲

السنة، فی ذی القعدة عقد برقوق أتابک العساکر مجلسا بالقضاة و العلماء. و ذکر أنّ أراضی بیت المال أخذت منه بالحیلة، و جعلت أوقافا من بعد الناصر بن قلاوون، و ضاق بیت المال بسبب ذلک، فقال الشیخ سراج الدین البلقینیّ: أمّا ما وقف علی خدیجة و عویشة و فطیمة فنعم، و أمّا ما وقف علی المدارس و العلماء و الطلبة فلا سبیل إلی نقضه، لأنّ لهم فی الخمس أکثر من ذلک. فانفصل الأمر علی مقالة البلقینیّ.

و فی هذه السنة ظهر کوکب له ذؤابة، و بقی مدة یری فی أوّل النهار من ناحیة الشمال.

و فی هذه السنة أمر بتبطیل الوکلاء من دور القضاة.

و فی سنة إحدی و ثمانین رسم الأمیر برکة بنفی الکلاب من مصر، و رسم بأن یعمل علی قنطرة فم الغور سلسلة تمنع المراکب من الدخول و إلی برکة الرطلیّ، فقال بعض الشعراء فی ذلک:

أطلقت دمعی علی خلیجمذ سلسلوه فراح مقفل

من رام من دهرنا عجبافلینظر المطلق المسلسل

و فی ربیع الآخر من هذه السنة أحدث السّلام علی النبی صلی اللّه علیه و سلم عقب أذان العشاء لیلة الاثنین مضافا إلی لیلة الجمعة، ثمّ أحدث بعد عشر سنین عقب کلّ أذان إلّا المغرب.

و فی سنة ثلاث و ثمانین ابتدأ الطاعون بالقاهرة. و فیها أمطرت السماء مطرا عظیما، حتی صار باب زویلة خوضا إلی بطون الخیل، و خرج سیل عظیم إلی جهة طری، فغرق زرعها، و أقام الماء أیاما، و لم یعهد الناس ذلک بالقاهرة. و فیها ظهر نجم له ذؤابة قدر رمحین من جهة القبلة.

و فی سنة أربع و ثمانین [و سبعمائة] وقع الغلاء بمصر. و فیها شرع جرکس الخلیلی فی عمل جسر بین الروضة و مصر، و طوله مائتا قصبة فی عرض عشرة عند موردة الحبش، و عمل علی النّیل طاحونا تدور بالماء.

و فی هذه السنة قال الحافظ ابن حجر: توجّه الظاهر برقوق إلی بولاق

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۳

التکرور، فاجتاز من الصّیلمیة و قناطر السباع و فم الخور. قال: و کانت عادة السلاطین قبله من زمن الناصر لا یظهرون إلّا فی الأحیان، و

لا يركبون إلّا من طريق الجزيرة الوسطى. قال: ثم تكرّر ذلك منه، و شقّ القاهرة مرارا، و جرى على ما ألف فى زمن الإمرة، و أبطل كثيرا من رسوم السلطنة، و أخذ من بعده بطريقته فى ذلك إلى أن لم يبق من رسمها فى زماننا إلا اليسير جدّا.

و فى هذه السنة بنى السلطان قناطر بنى منجة، فأحكم عمارتها.

و فى سنة خمس و ثمانين نزل السّلطان إلى النّيل ، فخلّق المقياس، و كسر الخليج بحضرته. قال ابن حجر: و لم يباشر ذلك السلطان قبله فى زمن الظاهر بيبرس.

و فى سنة سبع و ثمانين زلزلت مصر و القاهرة زلزلة لطيفة، فى ليلة الثالث عشر من شعبان. و فيه أحضرت صغيرة ميتة لها رأسان و صدر واحد و يدان فقط، و من تحت السّرّة صورة شخصين كاملين، كلّ شخص بفرج أنثى، فشاهدها الناس، و دفنت. و فيها وقع الغلاء بمصر.

و فى سنة ثمان و ثمانين [و سبعمائة] فى جمادى الآخرة زلزلت الأرض زلزلة لطيفة، و فى هذه السنة عزّ الفستق عزّة شديدة إلى أن بيع الرطل منه بمثقال ذهب و نصف.

و فى سنة تسع و ثمانين ضربت الدراهم الظاهرية ، و جعل اسم السلطان فى دائرة، فتفاءلوا له من ذلك بالحبس، فوقع عن قريب، و وقع نظيره لولده النّاصر فرج فى الدنانير الناصرية.

و فى سنة تسعين أصاب الحاجّ فى رجوعهم عند ثغرة حامد سيل عظيم، أهلك خلقا كثيرا. و فى هذه السنة وقع الطاعون بالقاهرة.

و فى سنة إحدى و تسعين [و سبعمائة] فى شعبان أمر نجم الدين الطنبدىّ المحتسب

أن يزاد بعد كلّ أذان الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم كما يصنع ذلك ليلة الجمعة بعد العشاء، فصنعوا ذلك إلّا فى المغرب لضيق وقتها .

و فى سنة اثنتين و تسعين عطش الحاجّ بعجرود ؛ حتى بلغت القربة مائة درهم فضة.

و فى سنة ثلاث و تسعين [و سبعمائة] أمر كتبغا نائب الغيبة ألّا تخرج النساء إلى التّرب بالقرافة و غيرها، و منع النساء من لبس القمصان الواسعة الأكمام و شدّد فى ذلك .

و فى هذه السنة فى جمادى الآخرة ظهر كوكب كبير بذؤابة طول رمحين.

و فى سنة أربع و تسعين وقع الوباء فى البقر، حتّى كاد إقليم مصر أن يفنى منها.

و فى هذه السنة أمر أصحاب العاهات و القطعات أن يخرجوا من القاهرة. و فيها ضربت بالإسكندريّة فلوس ناقصة الوزن عن العادة طمعا فى الرّبح، فآل الأمر إلى أن كانت أعظم الأسرار فى فساد الأسرار و نقص الأموال.

و فى سنة تسع و تسعين استأذن كاتب السرّ بدر الدين الكلستانىّ السلطان له و لجميع المتعمّمين أن يلبسوا الصوف الملوّن فى المواكب، فأذن لهم، و كانوا لا يلبسون إلا الأبيض خاصّة. و فيها ولدت امرأة بظاهر القاهرة أربعة ذكور أحياء.

و فى سنة ثمانمائة هبّت ريح شديدة بالقاهرة، حتى اتّفق الشيوخ العتق على أنهم لم يسمعوا بمثلها.

و فى سنة إحدى و ثمانمائة، ذكر أهل الهيئة أنّه يقع فى أول يوم منها زلزلة، و شاع ذلك فى الناس فلم يقع شىء من ذلك. و فى رجب سنة أربع ظهر كوكب قدر الثريّا، له ذؤابة ظاهرة النور جدّا، فاستمر يطلع و يغيب، و نوره قوىّ يرى مع ضوء القمر، حتّى رئى بالنّهار فى أوائل شعبان، فأوّله بعضهم بظهور ملك الشيخ المحمودىّ.

و فى سنة ستّ و ثمانمائة، نودى على الفلوس بأن يتعامل بها بالميزان، و سعّرت كل رطل بستة دراهم، و كانت فسدت إلى الغاية بحيث صار وزن الفلوس ربع درهم بعد أن كان مثقالا.

و فی سنهٔ عشر [و ثمانمائهٔ]، وقع الطاعون بالدیار المصریهٔ.

و فی سنهٔ خمس عشرهٔ ضربت الدراهم الخالصهٔ، زنهٔ الواحد نصف درهم و الدینار ثلاثین منه، و فرح الناس بها، و بطلت الدراهم النّقرهٔ، و کان ضربها قدیما فی کلّ درهم عشره فضهٔ، و تسعهٔ أعشاره نحاس.

و فی سنهٔ ستّ عشرهٔ فشا الطاعون بمصر.

و فی سنهٔ سبع عشرهٔ أمر المؤیّد بضرب الدراهم المؤیدیّهٔ.

و فی سنهٔ ثمان عشرهٔ کان الطاعون بالقاهرهٔ.

و فی سنهٔ تسع عشرهٔ [و ثمانمائهٔ] کان الطاعون بالقاهرهٔ، و کثر الوباء بالصعید و الوجه البحریّ. و فی هذه السنهٔ أمر الملک المؤیّد الخطباء إذا وصلوا إلی الدعاء إلیه فی الخطبهٔ أن یهبطوا من المنبر درجهٔ، لیکون اسم اللّه و رسوله فی مکان أعلی من المکان الذی یذکر فیه السلطان، فصنع ذلک الحافظ ابن حجر بالجامع الأزهر، و ابن النقاش بجامع ابن طولون. قال ابن حجر: و کان مقصد السلطان فی ذلک جمیلا.

و فی سنهٔ عشرین ولدت جاموسهٔ ببلبیس مولودا برأسین و عنقین و أربعهٔ أید و سلسلتی ظهر واحد و رجلین اثنتین لا غیر، و فرج واحد أنثی، و الذنب مفروق باثنتین، فکانت من بدیع صنع اللّه.

و فی هذه السنهٔ أمسک نصرانیّ زنا بامرأهٔ مسلمهٔ، فاعترفا، فحکم برجمهما، فرجما خارج باب الشّعریهٔ و أحرق النصرانیّ، و دفنت المرأهٔ.

و فی سنهٔ اثنتین و عشرین فشا الطاعون بالدیار المصریهٔ.

و فی سنهٔ خمس و عشرین [و ثمانمائهٔ] زلزلت القاهرهٔ زلزلهٔ لطیفهٔ.

و فی سنهٔ سبع و عشرین جدّد للمشایخ الذین یحضرون سماع الحدیث بالقلعهٔ فراجی سنجاب، و هو أوّل ما فعل بهم ذلک.

و فی سنهٔ ثمان و عشرین وقع بدمیاط حریق عظیم حتی احترق قدر ثلثها، و هلک من الدّوابّ و الناس شیء کثیر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۶

و فی سنهٔ ثلاث و ثلاثین کان الطاعون العظیم بالدیار المصریهٔ.

و فی سنهٔ إحدی و أربعین کان الطاعون بالدیار المصریهٔ.

ذکر الطریق المسلوک من مصر إلی مکّهٔ شرّفها اللّه تعالی

قال ابن فضل اللّه: المحامل السلطانیّهٔ و جماهیر الرکبان لا تخرج إلا من أربع جهات: مصر، و دمشق، و بغداد، و تعزّ.

قال: فیخرج الرکب من مصر بالمحمل السلطانیّ و السبیل المسبل للفقراء و الضعفاء و المنقطعین بالماء و الزاد و الأشربهٔ و الأدویهٔ و العقاقیر و الأطبّاء و الکحّالین و المجبّرین و الأدلّاء و الأئمهٔ و المؤذّنین و الأمراء و الجند و القاضی و الشهود و الدواوین و الأمناء و مغسّل الموتی؛ فی أکمل زیّ، و أتمّ أبّهٔ، و إذا نزلوا منزلا- أو رحلوا مرحلا- تدقّ الکوسات ، و ینفر النّفیر لیؤذن الناس بالرحیل و النزول، فإذا خرج الرکب من القاهرة نزل البرکهٔ علی مرحلهٔ واحدهٔ، فیقیم بها ثلاثهٔ أیام أو أربعهٔ، ثمّ یرحل إلی السویس فی خمس مراحل، ثمّ إلی نخل فی خمس مراحل. و قد عمل فیها الأمیر آل ملک الجوکندار المنصوریّ أحد أمراء المشورة فی الدولهٔ الناصریهٔ بن قلاوون برکا، و اتّخذ لها مصانع، ثمّ یرحل إلی أیلهٔ فی خمس مراحل و بها العقبهٔ العظمی، فینزل منها إلی حجز بحر القلزم، و یمشی علی حجزه حتّی یقطعه من الجانب الشمالیّ إلی الجانب الجنوبیّ، و یقیم به أربعهٔ أیّام أو خمسهٔ، و به سوق عظیم فیه أنواع المتاجر، ثمّ یرحل إلی حفل مرحلهٔ واحدهٔ، ثمّ إلی برّ مدین فی أربع مراحل و به مغارهٔ شعیب علیه الصلاهٔ و السلام.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۷

و يقال إنّ ماءها هو الذى سقى عليه موسى عليه الصلاة و السلام غنم بنات شعيب، ثمّ يرحل إلى عيون القصب فى مرحلتين، ثمّ إلى المويلحة فى ثلاث مراحل، ثمّ إلى الأزلم فى أربع مراحل. و ماؤه من أقبح المياه، و هناك خان بناه الأمير آل ملك الجوكندار، و عمل هناك بئرا أيضا، ثمّ الوجه فى خمس مراحل، و ماؤه من أعذب المياه، ثم إلى أكرى فى مرحلتين و ماؤه أصعب ماء فى هذه الطريق، ثمّ إلى الحوراء و هى على ساحل بحر القلزم فى أربع مراحل، و ماؤها شبيه بماء البحر لا يكاد يشرب، ثمّ إلى نبط فى مرحلتين و ماؤه عذب، ثمّ إلى ينبع فى خمس مراحل و يقيم عليه ثلاثة أيام، ثمّ إلى الدهناء فى مرحلة، ثمّ إلى بدر فى ثلاث مراحل، و هى مدينة حجازيّة و بها عيون و جداول و حدائق، و بها الجار فرضة المدينة الشريفة، ثمّ يرحل إلى رابغ فى خمس مراحل، و هى بإزاء الجحفة التى هى الميقات، ثمّ يرحل إلى خليص فى ثلاث مراحل، و بها بركة عملها الأمير أرغون الناصرىّ، ثمّ إلى بطن مرّ فى ثلاث مراحل، و فى طريقه بئر عسفان، ثمّ يرحل من بطن مرّ إلى مكّة المشرّفة مرحلة واحدة.

ثمّ يرجع فى منازله إلى بدر، فيعطف إلى المدينة الشريفة، فيرحل إلى الصّفراء فى مرحلة، ثم إلى ذى الحليفة فى ثلاث مراحل، ثمّ إلى المدينة الشريفة فى مرحلة، ثمّ يرجع إلى الصفراء و يأخذ بين جبلين فى فجوة تعرف بنقب علىّ؛ حتّى يأتى الينبع فى ثلاث مراحل، ثمّ يستقيم على طريقه إلى مصر.

ذكر قدوم المبشّر سابقا يخبر بسلامة الحاج

كان ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين: عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان فمن بعدهم، و له حكمة لطيفة قلّ من يعرفها، قال الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه فى قصّة حصر عثمان رضى اللّه عنه: و استمرّ الحصار بالديار المصرية حتّى مضت أيام التّشريق، و رجع البشير من الحجّ، فأخبر بسلامة الناس، و أخبر أولئك بأنّ أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفّوهم عن أمير المؤمنين.

و أخرج مالك فى الموطّأ عن ابن دلان عن أبيه أنّ رجلا من جهينة كان يشترى الرّواحل فيتغالى بها، ثمّ يسرع السّفر فيسبق الحاجّ، فأفلس، فرفع أمره إلى عمر، فقال: أمّا بعد أيّها الناس، إنّ الأسيقع أسيقع جهينة رضى من دينه و أمانته أن يقال: سبق الحاجّ، ألا و إنّه أدان معرضا، فأصبح و قد دين به فهمد، فمن كان له عليه دين فليأته بالغداة. فقسم ماله بين غرمائه، ثمّ كمل الدّين.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۸

و أخرج الخطيب البغدادىّ فى تالى التلخيص من طريق عبد الملك بن عمير عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه، قال: تخرج الدابّة من جبل أجياد فى أيام التشريق و النّاس بمنًى، قال: فلذلك جاء سابق الحاجّ يخبر بسلامة الناس.

ذكر حمائم الرسائل

قال ابن كثير فى تاريخه: فى سنة سبع و ستّين و خمسمائة اتّخذ السلطان نور الدين الشهيد الحمام الهوادى ، و ذلك لامتداد مملكته، و اتساعها، فإنها من حدّ النّوبة إلى همذان، فلذلك اتّخذ قلعة، و حبس الحمام الّتى تسرى الآفاق فى أسرع مدّة، و أيسر عدّة، و ما أحسن ما قال فيهنّ القاضى الفاضل: الحمام ملائكة الملوك. و قد أطنب فى ذلك العماد الكاتب و أظرف و أطرب، و أعجب و أغرب.

و فى سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، اعتنى الخليفة الناصر لدين اللّه بحمام البطاقة اعتناء زائدا، حتّى صار يكتب بأنساب الطير المحضر أنّه من ولد الطير الفلانىّ. و قيل:

إنّه بيع بألف دينار.

و قد ألّف القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى أمور هذه الحمام كتابا سمّاه «تمائم الحمائم»، و ذكر فيه فصلا فيما ينبغى أن يفعله

المنطق و ما جرت العادة به فی ذلک فقال:

کان الجاری به العادة أنّها لا تحمل البطاقة إلا فی جناحها، لأمور منها: حفظها من المطر و لقوّة الجناح؛ و الواجب أنّه إذا انطلق من مصر لا یطلق إلّا من أمکنة معلومة، فإذا سرّحت إلی الإسکندریّة، فلا تسرّح إلا من منیة عقبة بالجیزة، و إلی الشرقیّة، فمن مسجد التین ظاهر القاهرة، و إلی دمیاط فمن بیسوس بشطّ بحر منجی.

و الذی استقرّت قواعد الملک علیه أنّ طائر البطاقة لا یلهو الملک عنه و لا یغفل، و لا یمهل لحظة واحدة، فتفوت مهمات لا تستدرک، إمّا من واصل و إمّا من هارب، و إمّا من متجدّد فی الثغور. و لا یضع البطاقة من الحمام إلا السلطان بیده من غیر واسطة

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۶۹

أحد؛ فإن کان یأکل لا یمهل حتّی یفرغ، و إن کان نائما لا یمهل حتّی یستیقظ، بل یتبّه. و ینبغی أن تکتب البطائق فی ورق الطیر المعروف بذلک.

قال: و رأیت الأوائل لا یکتبون فی أوائلها بسملة.

قال: و أنا ما کتبتها قطّ إلا ببسملة للبرکة، و تؤرّخ بالساعة و الیوم، لا بالسنین؛ و ینبغی ألّا یکثر فی نعوت المخاطب فیها، و لا یذکر فی البطائق حشو الألفاظ، و لا یکتب إلّا لبّ الکلام و زبدته. و لا بد أن یکتب شرح الطائر و رفیقه إن کانا طائرین قد سرّحا حتّی إن تأخّر الطائر الواحد رقب حضوره، أو یطلق لئلّا یکون قد وقع فی برج من أبراج المدینة و لا یعمل للبطائق هامش و لا یحمدیّ، و جرت العادة بأن یکتب فی آخرها: «و حسبنا اللّه و نعم الوکیل»، و ذلک حفظ لها.

و من فصل فی وصفها لتاج الدین أحمد بن سعید بن الأثیر کاتب الإنشاء: طالما جادت بها فأضحت مخلفة وراءها تبکی علیها السحب، و صدق من سمّاها أنبیاء للطیر، لأنّها مرسلة بالکتب.

و فیها یقول أبو محمد أحمد بن علوی بن أبی عقبال القیروانیّ:

خضر تفوت الریح فی طیرانهایا بعد بین غدوّها و رواحها

تأتی بأخبار الغدوّ عشیّةلمسیر شهر تحت ریش جناحها

و کأنّما الروح الأمین بوحیهنفث الهدایة منه فی أرواحها

و قال غیره:

یا حبّذا الطائر المیمون یطرقنافی الأمر بالطائر المیمون تنبیها

فاقت علی الهدهد المذکور إذ حملتکتب الملوک و صانتها أعالیها

تلقی بکلّ کتاب نحو صاحبهتصون نظرته صونا و تخفیها

فما تمکّن عین الشمس تنظرهو لا تجوز أن تلقیه من فیها

منسوبة لرسالات الملوک فبالمنسوب تسمو و یدعوها تسمّیها

أکرم بجیش سعید ما سعادتهممّا یشکّیک فیها فکر حاکیها

حما حمی الغار یوم الغار حرمتهفیا لها وقعة عزّت مساعیها!

وقوفه عند ذاک الباب شرّفهو للسعادة أوقات تؤاتیها

و یوم فتح رسول اللّه مکّتهعند الدّخول إلیها من بواذیها

صفّت تظلّل من شمس کتیبته الخضر أمطره فیها تواتیها

فظلّلته بما کانت تودّ هویلو قابلتها بأشواق فتنهیها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۰ فعند ما حظیت بالقرب أمّنهافشرّفت بعطایا جلّ مهدیها

فما يحلّ لدى صيد تناولهاو لا ينال المنى بالنار مصليها

و لا تطير بأوراق الفرنج و لايسير عنها بما فيه أمانيها

سمت بملك المعانى غير ذى دنسلا ترتضيهم، و لو جزّت نواصيها

و انظر لها كيف تأتى للخلائق من آل الرّسول بحبّ كامن فيها

من المقام إلى دار السّلام فلم‌يمض النّهار بعزم فى دواعيها

و ربّما ضلّ عنه الهند ملتقطاف‌حبّات فلفله و ارتدّ مبطيها

فجاء فى يومه فى إثر سابقه‌حفظا لحقّ يد طابت أياديها

مناقب لرسول اللّه أيسرهالدى نبوّته الغرّاء تكفيها

و من إنشاء القاضى الفاضل فى وصف حمائم الرسائل:

سرحت لا تزال أجنحتها محمّلة من البطائق أجنحة، و تجهّز جيوش المقاصد و الأقلام أسلحة، و تحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر، و تطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر، و تزوى لها الأرض حتّى ترى ملك هذه الأمّة، و تقرب من السماء حتى ترى ما لا يبلغه و هم و لا همّة، و تكون مراكب للأغراض و كانت و الأجنحة قلوعا، و تركب الجوّ بحرا تصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا، و تعلّق الحاجات على أعجازها، و لا تفوق الإرادات عن إنجازها، و من بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع، و من رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة الرّجع. و قد سكنت البروج فهى أنجم، و أعدّت فى كنائنها فهى للحاجات أسهم، و كادت تكون ملائكة لأنّها رسل، فإذا نيطت بالرّقاع، صارت أولى أجنحة مثنى و ثلاث و رباع. و قد باعد اللّه بين أسفارها و قرّبها، و جعلها طيف خيال اليقظة الّذى صدّق العين و ما كذّبها، و قد أخذت عهود الأمانة فى رقابها أطواقا، فأدّتها من أذنابها أوراقا، و صارت خوافى من وراء الخوافى، و غطّت سرّها المودع بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الضّوافى، ترغم أنف النّوى بتقريب العهود، و تكاد العيون تلاحظها تلاحظ أنجم السعود؛ و هى أنبياء الطير لكثرة ما تأتى بهم من الأنباء، و خطباؤها لأنّها تقوم على الأغصان مقام الخطباء.

و قال فى وصفها شيخ الكتّاب ذو البلاغتين السديد أبو القاسم شيخ القاضى الفاضل:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۱

و أمّا حمام الرسائل؛ فهى من آيات اللّه المستنطقة الألسن بالتسبيح، العاجز عن وصفها إعجاز البليغ الفصيح، فيما تحمله من البطائق، و ترد به مسرعة من الأخبار الواضحة الحقائق، و تعاليه فى الجوّ محلّقا عند مطاره، و تهديه على الطريق التى عليها ليأمن من فوت الإدراك و أخطاره، و نظره إلى المقصد الذى يسرح إليه علىّ، و وصوله إلى أقرب الساعات بما يصل به البريد فى أبعد الأيام من الخبر الجلىّ، و مجيئه معادلا لرؤوس السفّار مسامتا، و إيثاره بالمتجدّدات فكأنّه ناطق و إن كان صامتا، و كونه يمضى محمولا على ظهر المركوب، و يرجع عاملا على ظهره للمكتوب، و لا يعرّج على تذكار الهدير، و لا يسأمّ من الدأب فى الخدمة زائدا على التقدير، و فى تقدّمه البشائر، يكون المعنى بقولهم: أيمن طائر؛ و لا غرو أن فارق رسل أهل الأرض وفاتهم و هو مرسل و العنان عنانه، و الجوّ ميدانه، و الجناح مركبه، و الرياح موكبه، و ابتداء الغاية شوطه، و الشّوق إلى أهله سوطه؛ مع أمنه ما يحدث لمنتاب السّفّار، و مخبّآت القفار، من مخاوف الطارق و طوارق المخاوف، و متلف الغوائل و غوائل المتالف، إلا ما يشدّ من اعتراض خارج جارح، و انقضاض كاسب كاسر، فتكفّ سعادة الدولة تأميمه، و تصدّ عنه تصميمه، لأنه أخذ جيشها من الطّيرين اللذين يحدثان فى أعدائها؛ هذا بالإنذار الجاعل كيدهم فى تضليل، و ذلك بما ترى رايتها المنصورة عليهم من تضليل.

و قال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر رحمه اللّه تعالى:

و لما وقفت على ما أنشأه القاضى الفاضل، و على ما أنشأهم الشيخ السديد أردت أن أجرّب الخاطر، فأنشأت و أنا غير مخاطب أحدا بل مخاطر، و أين الثرى من الثريّا، و ما الحسن لكلّ أحد يتهيّا، و علىّ أن أجيب و ما علىّ أن أجيد، و ما كلّ والد يدرك شأو الوليد،

و لا كلّ كاتب عبد الرحيم و لا عبد الحميد، فقلت:

و أمّا حمائم الرسائل فكم أغنت البرد عن جوب القفار، و كم قدّت جيوبها على أسرى أسرار؛ و كم أعارت السهام أجنحة فأحسنت بتلك العارية المطار، و كم قال جناحها لطالب النجاح: لا جناح، و كم سرت فحمدت المساء إذا حمد غيرها من السارين الصباح، و كم ساوقت الصّبا و الجنائب ففاقتهما و لم تحوج سلام المشتاقين إلى امتطاء كاهل الرّياح.

كم حسّن ملك كلّ منهما ملك، و كم قال مسرّحها لمجيئه بها: قرّة عين لى و لك، كم أجملت فى الهوى تقلّبا، و إذا غنت الحمائم على الغصون صمتت عن الهديل و الهدير تأدبا، كم دفعت شكّا بيقينها، و رفعت شكوى بتبيينها، و كم أدّت أمانة و لم تعلم أجنحتها بما فى شمالها و لا شمالها بما فى يمينها. كم التفّت منها السّاق بالساق،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۲

فأحسنت لربّها المساق، و كم أخذت عهود الأمانة فبدت أطواقا فى الأعناق، و يقال ما تضمّنته من البطائق بعض ما تعلّق منها فى الرياض من الأوراق، تسبق اللّمح، و كم استفتح بها بشير إذا جاء بالفتح، تفوت الطّرف السابق، و الطّرف الرامى الرّامق، و ما تلت سورة البروج إلا و تلت سرة الطارق. كم أنسى مطارها عدو السّلكة و السّليك، و كم غنيت فى خدمة سلطانها عن الغناء و قال كلّ منهما لرفيقه: إليك عن الأيك.

ما أحوج تصديقهما فى رسالتهما إلى الإعزاز بثالث، و كم قيل فى كلّ منهما لمن سام هذا حام فى خدمة أبناء يافث، كم سرّحا بإحسان، و كم طارا بأفق فاستحقّ أن يقال لهما: فرسا سحاب إذ قيل لأحدهما فرسا رهان، حاملة علم لمن هو أعلم به منها، يغنى السّفّار و السّفارة فلا تحوجهم إلى الاستغناء عنها.

تغدو و تروح، و بالسرّ لا تبوح، فكم غنيت باجتماعها بإلفها عن أنّها تنوح. كم سارت تحت أمر سلطانها أحسن السير، و كم أفهمت أنّ ملك سليمان إذ سخّر له منها فى مهمّاته الطير، أسرع من السهام المفوّقة، و كم من البطائق مخلقة و غير مخلّقة، كم ضللت من كيد، و كم بدت فى مقصورة دونها مقصورة ابن دريد.

و من إنشاء الأديب تقىّ الدين أبو بكر بن حجّة فى ذلك:

سرح فما سرح العيون إلا دون رسالته المقبولة، و طلب السبق فلم يرض بعرف البرق سرحا و لا استظلّ صفحته المصقولة؛ و كم جرى دونه النّسيم فقصّر و أمست أذياله بعرف السحب مبلولة. و أرسل فأقرّ الناس برسالته و كتابه المصدّق، و انقطع كوكب الصبح خلفه فقال عند التقصير: كتب يجاب و على يدىّ يخلق، يؤدّى ما جاء على يده من الترسّل فيهيج الأشواق، و ما برحت الحمام تحسّن الأداء فى الأوراق، و صحبناه على الهدى فقال: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى [النجم: ۲]، و من روى عنه الحديث المسند فعن عكرمة قد روى، يطير مع الهوى لفرط صلاحه، و لم يبق على السرّ المصون جناح إذا دخل تحت جناحه؛ إن برز من مقفصه لم يبق للصّرح الممرّد قيمة، بل ينعزل بتدبيج أطواقه و يعلّق عليه من العين تلك التّميمة، ما سجن إلا صبر على السجن و ضيقة الأطواق، و لهذا حمدت عاقبته على الإطلاق، و لا غنّى على عود إلا أسال دموع الندى من حدائق الرياض، و لا أطلق من كبد الجوّ إلا كان سهما ريشا تبلغ به الأغراض. كم علا فصاد بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس، و أمسى عند الهبوط لعيون الهلال كالطّمس؛ فهو الطائر الميمون و الغاية السبّاقة، و الأمين الذى أودع أسرار الملوك حملها بطاقة؛ فهو من الطيور الّتى خلا لها الجوّ فنقّرت ما شاءت من حبّات النجوم، و العجماء التى من أخذ عنها شرح المعلّقات فقد أعرب عن دقائق المفهوم،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۳

و المقدّمة و النتيجة للكتاب الحجلىّ فى منطق الطير، و هى من حملة الكتاب الّذى إذا وصل القارئ منه إلى الفتح يتهلّل لحبّه الخير؛ إن يصدر البازى بغير علم فكم جمعت بين طرفى كتاب، و إن سالت العقبان على بديع السّجع أحجمت عن ردّ الجواب.

رعت النسور بقوّة جيف الفلاو رعى الذّباب الشهد و هو ضعيف

ما قدمت إلا و أرتنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمة، و أظهرت لنا من خوافيها ما كانت له خير كاتمة. كم أهدت من مخلبها و هى غادية رائحة، و كم حنت إليها الجوارح و هى أدام اللّه إطلاقها عزّ جارحة، و كم أدارت من كؤوس السجع ما هو أرقّ من قهوة الإنشاء، و أبهج على زهر المنثور من صبح الأعشى. و كم عامت بحور الفضاء و لم تحفل بموج الجبال، و كم جاءت ببشارة و خضبت الكف من تلك الأنملة قلامة الهلال، و كم زاحمت النجوم بالمناكب حتّى ظفرت بكلّ كفّ خضيب، و انحدرت كأنّها دمعة سقطت على خدّ الشقيق لأمر مريب، و كم لمع فى أصيل الشمس خضاب كفّها الوضّاح، فصارت بسموّها و فرط البهجة كمشكاة فيها مصباح. و اللّه تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع، و لا برح تغريدها مطربا بين البادئ و الراجع.

ذكر عادة المملكة فى الخلع و الزىّ

قال ابن فضل اللّه: و أمّا القضاة و العلماء فخلعهم من الصوف بغير طراز، فلهم الطّرحة، و أصل الصوف أن يكون أبيض و تحته أخضر. و أما زىّ القضاة و العلماء فدلق متّسع بغير تفريق، فتحته على كتفه، و شاش كبير منه ذؤابة بين الكتفين، و يميلها إلى الكتف الأيسر. و أما من دون هؤلاء فالفرجيّة الطويلة الكمّ بغير تفريج، و أما زاهدهم فيقصّر الذؤابة و يميلها إلى الكتف الأيسر. و منهم من يلبس الطّيلسان .

و أما قاضى القضاة الشافعىّ رضى اللّه تعالى عنه، فرسمه الطّرحة ، و بها يمتاز و مراكبهم البغل، و يعمل بدلا من الكنبوش الزنارىّ، و هو من الجوخ بالعباء المجوّفة الصدر مستدير من وراء الكفل.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۴

و ألبسة الخطباء دلق مدوّر أسود للشّعار العباسىّ، و شاش أسود و طرحة سوداء.

و أما زىّ الأمراء و الجند، فتقدّم عند ذكر السّلطان.

و أما خلعهم و خلع الوزراء و نحوهم فأسقطتها من كلام ابن فضل اللّه لأنّها ما بين حرير و ذهب؛ و ذلك محرّم شرعا، و قد التزمت ألّا أذكر فى هذا الكتاب شيئا أسأل عنه فى الآخرة، إن شاء اللّه تعالى.

ذكر عادة السلطان فى الكتابة على التقاليد

قال ابن فضل اللّه: عادته إذا كتب لأحد من النوّاب يكتب اسمه فقط، فإن كان من كبارهم، و هو من ذوى السيوف، كتب «والده فلان»، و إن كان من القضاة و العلماء كتب: «أخوه فلان».

ذكر معاملة مصر

قال ابن فضل اللّه فى المسالك: معاملة مصر الدّراهم، ثلثاها فضّة و ثلثها نحاس، و الدرهم ثمانى عشرة حبّة خرنوبة، و الخرنوبة ثلاث قمحات، و المثقال أربعة و عشرون خرنوبة، و الدّرهم منها قيمته ثمانية و أربعون فلسا، و الدينار الحبشى ثلاثة عشر درهما و ثلث درهم. و أما الكيل فيختلف بمصر: الإردبّ، و هو ستّ و يبات، الويبة أربعة أرباع، الربع أربعة أقداح، القدح مائتان و اثنان و ثلاثون درهما؛ هذا إردب مصر. و فى أريافها يختلف الإردبّ من هذا المقدار إلى أنهى ما ينتهى ثلاث و يبات. و الرطل اثنا عشر أوقيّة، الأوقية اثنا عشر درهما.

قال صاحب المرآة: فى سنة خمس و سبعين من الهجرة ضرب عبد الملك بن مروان على الدنانير و الدراهم اسم اللّه تعالى، قال الهيثم: و سببه أنّه وجد دراهم و دنانير تاريخها قبل الإسلام بأربعمائة سنة، عليها مكتوب «باسم الأب و الابن و روح القدس»، فسبكها و نقش عليها اسم اللّه تعالى و آيات من القرآن و اسم الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم. و اختلف فى صورة ما كتب، فقيل جعل فى

وجه: «لا إله إلا اللّه» و فی الآخر «محمد رسول اللّه» و أرّخ وقت ضربها. و قیل: جعل فی وجه «قل هو اللّه أحد» و فی الآخر «محمد رسول اللّه».

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۵

و قال القضاعیّ: کتب علی أحد الوجهین: «اللّه أحد» من غیر قل، و لما وصلت إلی العراق أمر الحجّاج فزید فیها فی الجانب الذی فیه محمد رسول اللّه فی جوانب الدرهم مستدیرا: «أرسله بالهدی و دین الحق ...» الآیة . و استمرّ نقشها کذلک إلی زمن الرشید، فأراد تغییرها فقیل له: هذا أمر قد استقرّ و ألفه الناس، فأبقاها علی ما هی علیه الیوم، و نقش علیها اسمه.

و قیل: أوّل من غیّر نقشها المنصور، و کتب علیها اسمه.

و أمّا الوزن فما تعرّض أحد لتغییره. انتهی کلام صاحب المرآة.

ذکر کوکب الذنب

قال صاحب المرآة: إنّ أهل النجوم یذکرون أنّ کوکب الذّنب طلع فی وقت قتل قابیل هابیل، و فی وقت الطوفان، و فی وقت نار إبراهیم الخلیل، و عند هلاک قوم عاد و ثمود و قوم صالح، و عند ظهور موسی و هلاک فرعون، و فی غزوة بدر، و عند قتل عثمان و علیّ، و عند قتل جماعة من الخلفاء، منهم الرضیّ و المعتزّ و المهتدی و المقتدر.

قال: و أدنی الأحداث عند ظهور هذا الکوکب الزلازل و الأهوال.

قلت: یدلّ لذلک ما أخرجه الحاکم فی المستدرک، و صحّحه من طریق ابن أبی ملیکة، قال: غدوت علی ابن عبّاس، فقال: ما نمت البارحة! قلت: لم؟ قال: قالوا:

طاح الکوکب ذو الذّنب، فخشیت أن یکون الدجّال قد طرق.

ذکر بقیة لطائف مصر

قال الکندیّ: ذکر یحیی بن عثمان، عن أحمد بن الکریم، قال: جلت للدنیا، و رأیت آثار الأنبیاء و الملوک و الحکماء، و رأیت آثار سلیمان بن داود علیهما السّلام ببیت المقدس، و تدمر و الأردنّ، و ما بنته الشیاطین، فلم أر مثل برابی مصر و لا مثل حکمتها، لا مثل الآثار التی بها، و الأبنیة التی لملوکها و حکمائها. و مصر ثمانون کورة، لیس منها کورة إلّا و فیها ظرائف و عجائب من أصناف الأبنیة و الطعام و الشراب و الفاکهة و النبات و جمیع ما ینتفع به الناس، و یدّخره الملوک. و صعیدها أرض حجازیّة، حرّها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۶

کحرّ الحجاز، تنبت النخل و الأراک و القرظ و الدّوم و العشر ، و أسفل أراضی مصر شامیّة تمطر مطر الشام، و تنبت نبات الشام من الکرم و التّین الموز و سائر الفاکهة، و البقول و الرّیاحین. و یقع به الثلج، و منها لوبیة و مراقیة برابی و جبال و غیاض، و زیتون و کروم برّیّة بحریّة جبلیّة، بلاد إبل و ماشیة، و نتاج عسل و لبن. و کلّ کورة من مصر مدینة، قال تعالی: وَ ابْعَثْ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِینَ [الشعراء: ۳۶]، و فی کل مدینة منها آثار عجیبة من الأبنیة و الصخور و الرخام و البرابی، و تلک المدن کلها تأتی منها السفن، تحمل المتاع و الآلة إلی الفسطاط، تحمل السفینة الواحدة ما یحمله خمسمائة بعیر.

قال الکندیّ: و لیس فی الدنیا بلد یأکل أهله صید البحر طریّا غیر أهل مصر.

قال: و ذکر بعض أهل العلم أنّه لیس فی الدنیا شجرة إلّا و هی بمصر، عرفها من عرفها، و جهلها من جهلها.

و یوجد بمصر فی کلّ وقت من الزمان من المأکول و المأدوم و المشموم و سائر البقول و الخضر؛ جمیع ذلک فی الصیف و الشتاء، لا ینقطع منها شیء لبرد و لا حرّ.

و ذكر أنّ بخت نصّر قال لابنه بلسطان: ما أسكنتك مصر إلّا لهذه الخصال.

و بلسطان هو الذى بنى قصر الشمع.

و قال بعض من سكن مصر: لو لا ماء طوبة ، و خروف أمشير ، و لبن برمهات ، و ورد برمودة ، و نبق بشنش ، و تين بؤونة ، و عسل أبيب ، و عنب مسرى ، و رطب توت ، و رمّان بابة ، و موز هاتور ، و سمك كيهك ، ما أقمت بمصر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۷

و أخرج ابن عساكر من طريق الربيع بن سليمان، قال: سمعت الشافعىّ رضى اللّه تعالى عنه، يقول: ثلاثة أشياء، دواء للداء الذى لا دواء له، الذى أعيا الأطباء أن يداووه: العنب، و لبن اللّقاح ، و قصب السكّر، و لو لا قصب السكر ما أقمت بمصر.

و قال بعضهم: يجتمع بمصر فى وقت واحد ما لا يجتمع بمدينة؛ و ذلك البنفسج و الورد و السّوسن و المنثور و النرجس و شقائق النعمان و البهار و الياسمين و النّسرين و اللّينوفر و النمام و المرزنجوش و الريحان و النارنج و الليمون و التفاح الشامىّ و الأترجّ و الباقلىّ و الأخضر و العنب و التين و الموز و اللوز الأخضر و السفرجل و الكمّثرى و الرمان و النّبق و القثّاء و الخيار و الطّلع و البلح و البسر الرطب و اللّفت و القنّبيط و الأسفاناخ و القرع و الجزر و الباذنجان؛ كل ذلك يجتمع فى وقت واحد من السنة.

و قال بعض من صنّف فى فضائل مصر: بمصر الحمير المرّيسيّة، و البقر الحسيتيّة، و النّجب النجارية، و الأغنام النّوبية، و الدجاج الحبشيّة، و المراكب الحربيّة، و السفن الزيبقية، و المناسف الحمليّة، و السّتور البهنساويّة، و الغلائل القصبيّة، و الحرم السمطاوية، و النّعال السّندية، و السّلال الوهبانيّة، و المضارب السلطانية. و يحمل إلى العراق و غيرها من مصر زيت الفجل و العسل النّحل، و يفخر به على أعسال الدنيا.

و يروى أنّ النبى صلى اللّه عليه و سلم بارك فيه لمّا أهداه إليه المقوقس.

و بمصر يزرع البلسان، و دهنه يستعمل فى أكثر العلاج، و النّفط و هو من آلة الحرب التى بها قهر الأعداء، و دهن الخروع و زيت البزر و الدهن الصينى، و زيت الخردل و زيت الخسّ، و دهن القرطم ، و زيت السّلجم ، و خشب اللّبخ ، و هو أصلح من الأبنوس اليونانىّ.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۲۷۸

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۸

و فى صعيد مصر خشب الأبنوس الأبلق و سائر العقاقير التى تدخل فى الطبّ و العلاج. و كلّ ما زرع فى أرض مصر ينبت.

و فيها من نبات الهند و السّند مثل الإهليلج و الخيار شنبر و التمر هندى و غيره مما لا يوجد فى بلد من البلاد الإسلامية.

و بها الشبّ الواحى؛ و هو أبلغ من اليمانى، و الأفيون و الشّاهترج و الصّفر و الزجاج و الجزع الملوّن و الصّوّان؛ و هو حجر لا يعمل فيه الحديد؛ و كانت الأوائل تعمده و تقطّعه بأسوان؛ و منه العمد الجافية، التى لا تكون بسائر الدنيا، و كلّ حمّامات مصر بالرخام لكثرته عندهم، و كذلك صحون دورهم.

و بها الحجارة المسمّاة بالكذّان ؛ يبلّط بها الدّور و يعقد بها الدّرج.

و بها من الحصر العبدانىّ، و من سائر أصناف الحصر ما لا يوجد فى غيرها، و يجلب من مصر البرّ الأبيض من الدّبيقىّ و غيره الذى يعمل بدمياط و تنّيس.

و بالإسكندرية يعمل الوشى الّذى يقوم مقام و شى الكوفة.

و بالصعيد يعمل من الجلود الأنطاع، و بالبهنسا السّتور التى هى أحسن ستور الأرض و البسط و أجلّة الدوابّ و البرقع و ستور النّسوان فى المضارب و الأكسية و الطيالسة.

و كان يعمل بإخميم الفرش التى تسمّى نطوع الخزّ.

و بمصر من أصناف الرّقيق ما ليس ببلد من البلدان، و أصناف الطير الحسن الصوت فى صعيدها مثل القمرىّ و النّوبىّ و النّوّاح و

الدّبسیّ الأحمر و الأبلق، و الکروان الّذی لیس مثله فی بلد.

و منها یحمل الطیر إلی البلدان فی الشرق و الغرب، و الأشماع المتّخذة من الشهد و عسل الأسطروس و النّیدة المعمولة من القمح و القند و الأبالیج و الطّبرزد، و ماء طوبة الّذی لا یعدله شیء، و لا یتغیّر علی ممرّ الأیام، و السّمک الذی هو ملک الأسماک، و البوری الطریّ و المملوح، و البلاطیّ الذی کأنّه دروع من الفضّة، و طیر الماء، و طیر الحوصل یعمل من جلده الخفاف النّاعمة و الفراء الأبیض الذی یقوم مقام الفنک فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۷۹

لینه ورقته. و بها الکتّان، و منها یحمل إلی سائر الأرض، و القراطیس، و بها من العلم القدیم ما لیس ببلد، کعلم الطبّ الیونانیّ و المساحة، و النجوم و الحساب القبطیّ و اللّحون و الشّعر الرومیّ.

و فیها من سائر الثّمار و الأشجار و المشمومات و العقاقیر و النّبات و الحشائش ما لا یحصی. و العصفور یفرّخ بمصر فی کانون، و لیس ذلک فی بلد إلّا بها.

*** و قال الکندیّ: بمصر معدن الزمرّد، و لیس فی الدنیا زمرّد إلا معدن بمصر، و منها یحمل إلی سائر الدنیا.

قال: و بها معدن الذهب، یفوق علی کلّ معدن.

قال: و فیها القراطیس، و لیس هی فی الدنیا إلا بمصر.

و قال غیره: من خصائص مصر القراطیس، و هی الطوامیر ، و هی أحسن ما کتب فیه، و هو من حشیش أرض مصر، و یعمل طوله ثلاثون ذراعا و أکثر فی عرض شبر. و قیل إنّ یوسف علیه السّلام أوّل من اتخذ القراطیس، و کتب فیها.

قال الکندیّ: و بها من الطّرز و القصب التّنّیسیّ و الشرب و الدّبیقیّ ما لیس بغیرها، و بها الثیاب الصوف و الأکسیة المرعزّ ، و لیس هی فی الدنیا إلا بمصر. و یحکی أنّ معاویة لمّا کبر کان لا یدفأ، فاتّفقوا أنّه لا یدفئه إلا أکسیة تعمل فی مصر، من صوفها المرعزّ العسلیّ غیر مصبوغ، فعمل له منها عدد، فما احتاج منها إلّا إلی واحد. و بها طراز البهنسا من السّتور و المضارب ما یفوق ستور الأرض.

و بها من النّتاج العجیب من الخیل و البغال و الحمیر ما یفوق نتاج أهل الدنیا، و لیس فی الدنیا فرس فی نهایة الصّورة فی العنق غیر الفرس المصریّ، و لیس فی الدنیا فرس لا یردف غیر المصریّ، و سبب ذلک قصر ساقیه و بلاغة صدره و قصر ظهره.

و یحکی أنّ الولید عزم علی إجراء الحلبة، فکتب إلی الأمصار أن یوجّه إلیه بخیار خیل کلّ بلد، فلمّا اجتمعت عرضت علیه، فمرّت علیه المصریّة، فلمّا رآها دقیقة العصب، لیّنة المفاصل و الأعطاف، قال: هذه خیل ما عندها طائل، فقال له عمر بن عبد العزیز:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۰

و أین الخیر کلّه إلّا لهذه؟! فقال له: ما تترک تعصّبک لمصر یا أبا حفص؟! فلما أجریت الخیل جاءت المصریة کلّها سابقة ما خالطها غیرها.

قال: و بها زیت الفجل و دهن البلسان و الأفیون و الأبرمیس و شراب العسل و البسر البرنیّ الأحمر و اللّبخ و الخسّ و الکبریت و الشمع و العسل و خلّ الخمر و الترمس و الجلبان و الذرة و النّیدة و الأترجّ الأبلق و الفراریج الزبلیّة. و ذکر أنّ مریم علیها السّلام شکت إلی ربّها قلّة لبن عیسی، فألهمها أن غلت النیدة فأطعمته إیّاها.

و ذکر بعضهم أنّ رهبان الشام لا یکادون یرون إلا عمشا من أکل العدس، و رهبان مصر سالمون من ذلک لأکلهم الجلبّان.

و البقر الذی بمصر أحسن البقر صورة، و لیس فی الدنیا بقر أعظم خلقا منها، حتّی أنّ العضو منها یساوی أکبر ثور من غیرها.

و بها الحطب الضّنط و الأبنوس الأبلق و القرط الذی تعلفه الدواب.

و ذکر أنّه یوقد بالحطب الصنط عشرین سنة فی الکانون أو التّنّور، فلا یوجد له رماد طول هذه المدّة.

و جیزتها فی وقت الربیع من أحسن مناظر الدنیا.

و قال صاحب مباهج الفكر: يقال إنّ بمصر سبعمائة و خمسين معدنا، توجد بجبل المقطّم: الذهب و الفضة و الخارصين و الياقوت؛ إلا أنّه لطيف جدّا، يستعمل فی الأكحال و الأدوية، و فی أسوان يغاص على السنفاوج و معدن الزمرّد؛ و ليس فی الدنيا غيره، و بجبال القلزم المتصلة بجبل المقطّم حجر المغناطيس.

و من خصائص مصر بركة النّطرون. و ينبت فی أرض مصر سائر ما ينبت فی الأرض. انتهى.

و قال صاحب غرائب العجائب: بمصر بئر البلسم بالمطريّة، يسقى بها شجر البلسان، و دهنه عزيز و الخاصيّة فی البئر؛ فإنّ المسيح عليه السّلام اغتسل فيها، و ليس فی الدنيا موضع ينبت فيه البلسان إلا هذا الموضع، و قد استأذن الملك الكامل أباه العادل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۱

أن يزرعه فأذن له، ففعل و لم ينجح، و لم يخلص منه دهن، فسأل أباه أن يجرى له ساقية من المطريّة إليه، ففعل فلم ينجح.

قال: بأرض مصر حجر القیء، إذا أخذه الإنسان بيده غلب عليه الغثيان، حتّى يتقيّأ جميع ما فی بطنه، فإن لم يلقه من يده خيف عليه التلف.

و قال الكندیّ: جعل اللّه مصر متوسّطة الدنيا، و هی فی الإقليم الثالث و الرابع، فسلمت من حرّ الإقليم الأول و الثانی، و من برد الإقليم الخامس و السادس، فطاب هواؤها و بقی حرّها. و ضعف حرّها، و خفّ بردها، فسلم أهلها من مشاتی الجبال و مصائف عمان و صواعق تهامة و دماميل الجزيرة و جرب اليمن، و طواعين الشام و غيلان العراق، و عقارب عسكر مكرم، و طلب البحرين و حمّى خيبر، و أمنوا من غارات التركّ، و جيوش الروم و طوائف العرب، و مكابرة الدّيلم، و سرايا القرامطة، و بثوق الأنهار، و قحط الأمطار، و قد اكتنفها معادن رزقها؛ و قرب تصرّفها، فكثر خصبها، و رغد عيشها، و رخص سعرها.

و قال الجاحظ فی مصر: إنّ أهلها يستغنون عن كلّ بلد، حتّى لو ضرب بينها و بين بلاد الدنيا سور لغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا، و فيها ما ليس بغيرها، و هو حيوان السّمنقور و النّمس، و لولاه لأكلت الثعابين أهلها، و هو لها كقنافذ سجستان لأفاعيها، و السمك الرّعاد و الحطب الصنط الّذی أوقد منه يوما أجمع ما وجد من رماده ملء كفّ، صلب العود، سريع الوقود، بطیء الخمود. و يقال إنّه الأبنوس؛ لكنّ البقعة قصرت عن الكتّيان، فجاء أحمر شديد الحمرة، و دهن البلسان، و الأفيون و هو عصارة الخشخاش و اللّبخ، و هو ثمر فی قدر اللوز الأخضر؛ إلا أنّ المأكول منه الظاهر، و الأترجّ الأبلق و الزّمرد. و أهلها يأكلون صيد بحر الروم و بحر فارس طريّا، و فی كلّ شهر من شهورها القبطيّة صنف من المأكول و المشروب و المشموم، يوجد فيه دون غيره، فيقال رطب توت، و رمّان بابة، و موز هتور، و سمك كيهك، و ماء طوبة، و خروف أمشير، و لبن برمهات، و ورد برمودة، و نبق بشنس، و تين بئونة، و عسل أبيب، و عنب مسرى. و إنّ صيفها خريف، و شتاءها ربيع، و ما يقطعه الحرّ فی سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها فی الحرّ و البرّ؛ إذ هی فی الإقليم الثالث و الإقليم الرابع، فسلمت من حرّ الأول و الثانی و برد الخامس و السادس. و يقال: لو لم يكن من فضل مصر إلّا أنها تغنی فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۲

الصيف عن الخيش و الثّلج و بطون الأرض، و فی الشتاء عن الوقود و الفراء لكفاها.

و مما وصفت به أنّ صعيدها حجازیّ كحرّ الحجاز، ينبت النخل و الدّوم و هو شجر المقل، و العشر، و القرظ و الإهليلج و الفلفل و الخيار شنبر، و أسفل أرضها شاميّ يمطر مطر الشام، و يقع فيه الثلوج، و ينبت التين و الزيتون و العنب و الجوز و اللوز و الفستق و سائر الفواكه، و البقول و الرياحين و هی ما بين أربع صفات، فضّة بيضاء أو مسكة سوداء، أو زبرجدة خضراء أو ذهبة صفراء، و ذلك أنّ نيلها يطبّقها فتصير كأنّها فضة بيضاء، ثمّ ينضب عنها فتصير مسكة سوداء، ثمّ تزرع فتصير زبرجدة خضراء، ثمّ تستحصد فتصير ذهبة صفراء.

و حكى ابن زولاق فی كتابه، أنّ أمير مصر موسى بن عيسى كان واقفا بالميدان عند بركة الحبش ، فالتفت يمينا و شمالا، و قال لمن

معه من جنده: أ ترون ما أرى؟

قالوا: و ما يرى الأمير؟ قال: أرى عجبا، ما فى شىء من الدنيا مثله، فقالوا: يقول الأمير، فقال: أرى ميدان أزهار، و حيطان نخل و بستان شجر، و منازل سكنى، و جبّانة أموات، و نهرا عجّاجا و أرض زرع و مراعى ماشية، و مرابط خيل، و ساحل بحر، و قانص وحش، و صائد سمك، و ملّاح سفينة، و حادى إبل، و مقابر و رملا و سهلا و جبلا، فهذه سبعة عشر؛ مسيرها فى أقلّ من ميل فى ميل، و لهذا قال أبو الصّلت أميّة بن عبد العزيز الأندلسىّ يصف الرّصد الذى بظاهر مصر:

يا نزهة الرّصد التى قد نزهت‌عن كلّ شىء خلا فى جانب الوادى

فذا غدير و ذا روض و ذا جبل‌فالضبّ و النّون و الملّاح و الحادى

قال ابن فضل اللّه فى المسالك: مملكة مصر من أجلّ ممالك الأرض لما حوت من الجهات المعظّمة و الأرض المقدّسة و المساجد الثلاثة التى تشدّ إليها الرحال، و قبور الأنبياء و الطّور و النّيل و الفرات؛ و هما من الجنّة، و بها معدن الزمرّد، و لا نظير له فى أقطار الأرض. و حسب مصر فخرا ما تفرّدت به من هذا المعدن و استمداد ملوك الآفاق له منها، و بينه و بين قوص ثمانية أيام بالسّير المعتدل، و البجاة تنزل حوله لأجل القيام

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۳

بحفره، و هو فى الجبل الآخذ على شرقىّ النيل فى منقطع من البرّ لا عمارة عنده، و لا قريبا منه، و الماء عنه مسيرة نصف يوم؛ و هذا المعدن فى صدر مغارة طويلة فى حجر أبيض منه، يضرب فيستخرج منه الزمرّد؛ و هو كالعروق فيه.

قال: و أكثر محاسن مصر مجلوبة إليها؛ حتّى بالغ بعضهم فقال: إنّ العناصر الأربعة مجلوبة إليها: الماء و هو النيل مجلوب من الجنوب، و التّراب مجلوب من حمل الماء؛ و إلا فهى رمل محض لا ينبت، و النّار لا توجد بها شجرتها و هو الصوّان إلا إذا جلب إليها، و الهواء لا يهبّ إليها إلا من أحد البحرين، إمّا الرومىّ و إمّا الخارج من القلزم إليها.

و هى كثيرة الحبوب من القمح و الشعير و الفول و الحمّص و العدس و البسلّة و اللّوبياء و الذّخن و الأرزّ، و بها الرّياحين الكثيرة كالحبق و الآس و الورد و غيرها، و بها الأترجّ و النّارنج و الليمون و الحامض و الكبّاد و الموز الكثير و قصب السكّر الكثير و الرّطب و العنب و التّين و الرّمان و التّوت و الفرصاد و الخوخ و اللّوز و الجمّيز و النّبق و البرقوق و القراصيا و التّفاح. و أما السّفرجل و الكمّثرى فقليل؛ و كذل الزّيتون مجلوب إلّا قليلا فى الفيوم، و بها البطّيخ الأصفر أنواع و الأخضر و الخيار و القثّاء على أنواع، و القلقاس و اللّفت و الجزر و القنّبيط و الفجل و البقول المنوّعة.

و بها أنواع الدوابّ من الخيل و البغال و الحمير و البقر و الجواميس و الغنم و المعز.

و مما يوصف من دوابّها بالجودة الحمر لفراهتها، و البقر و الغنم لعظمها، و بها الأوزّ و الدّجاج و الحمام، و من الوحش الغزلان و النّعام و الأرنب؛ و أما من أنواع الطير فكثير كالكركىّ و غيره.

و أوسط الأسعار فى غالب أوقاتها الإردبّ القمح بخمسة عشر درهما، و الشعير بعشرة، و بقيّة الحبوب على هذا الأنموذج؛ و أما الأرزّ فيبلغ أكثر من ذلك، و أما اللحم فأقلّ سعره الرطل بنصف درهم.

و يعمل بمصر معامل كالتّنانير، و يعمل بها البيض بصنعة؛ و يوقد بنار يحاكى بها نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة البيض، و يخرج فى تلك المعامل الفراريج، و هى معظم دجاجهم. و بها ما يستطاب من الألبان و الأجبان، و بها العسل بمقدار متوسّط بين الكثرة و القلّة، و أمّا السّكر فكثير جدّا، و قيمته المعهودة على الغالب من السّعر الرطل بدرهم

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۴

و نصف، و منها يجلب السكّر إلى كثير من البلاد، و قد نسى بها ما كان يذكر من سكّر الأهواز.

و بها الكتّان المعدوم المثل المنقول منه، و ممّا يعمل من قماشه إلى أقطار الأرض.

و مبانیها بالحجر، و أکثرها بالطّوب و أفلاق النخل و الجرید. و خشب الصّنوبر مجلوب إلیهم من بلاد الروم فی البحر، و یسمّی عندهم النّقی.

و بها المدارس و الخوانق و الرّبط و الزوایا و العمائر الجلیلة الفائقة المعدومة المثل المفروشة بالرخام، المسقوفة بالأخشاب، المدهونة الملمّعة بالذّهب و اللّازورد.

قال: و حاضرة مصر تشتمل علی ثلاث مدن عظام: الفسطاط، و هو بناء عمرو بن العاص؛ و هی المسمّاة عند العامة بمصر العتیقة، و القاهرة بناها جوهر القائد لمولاه الخلیفة المعزّ، و قلعة الجبل بناها قراقوش للملک الناصر صلاح الدین أبی المظفّر یوسف بن أیّوب، و أوّل من سکنها أخوه العادل، و قد اتّصل بعض هذه الثلاثة ببعض بسور بناه قراقوش بها إلّا أنه قد تقطّع الآن فی بعض الأماکن، و هذا السّور، هو الّذی ذکره القاضی الفاضل فی کتاب کتبه إلی السلطان صلاح الدین، فقال: و اللّه یحیی الموتی حتّی یستدیر بالبلدین نطاقه، و یمتدّ علیهما رواقه، فهما عقیلة ما کان معصمهما بغیر سوار، و لا حضرهما لیجلی بلا منطقة نضار.

قال: و بها المارستان المنصوریّ المعدوم النظیر، لعظم بنائه و کثرة أوقافه. و بها البساتین الحسان و المناظر النّزهة و الآدار المظلة علی البحر، و علی الخلجاناة الممتدّة فیه أوقات مدّها.

و بها القرافة تربة عظمی لمدفن أهلها، و بها العمائر الضخمة، و هی من أحسن البلاد إبّان ربیها للغدر الممتدّة من مقطعات النیل بها، و ما یحفّها من زرع أخرجت شطأها و فتّقت أزهارها، و بها من محاسن الأشیاء و لطائف الصنائع ما تکفی شهرته و من الأسلحة و القماش و الزّرکش و المصوغ و الکفت و غیر ذلک ما لا یکاد یعدّ تفرّدها به، و الرماح التی لا یعمل فی الدنیا أحسن منها. انتهی کلام ابن فضل اللّه.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۵

و قال الکندیّ فی فضل مصر: بمصر العجائب و البرکات، فجبلها المقدّس، و نیلها المبارک، و بها الطّور الّذی کلّم اللّه علیه موسی؛ فإنّ أهل العلم ذکروا أنّ الطّور من المقطّم، و أنّه داخل فیما وقع علیه القدس؛ قال کعب: کلّم اللّه موسی علیه السّلام من الطّور إلی أطراف المقطّم من القدس. و بها الوادی المقدّس، و بها ألقی موسی عصاه، و بها فلق البحر لموسی، و بها ولد موسی و هرون، و بها ولد عیسی، و بها کان ملک یوسف، و بها النّخلة التی ولدت مریم عیسی تحتها بریف من کورة أهناس، و بها اللّبخة التی أرضعت عندها مریم عیسی بأشمون، فخرج من هذه اللّبخة الزیت، و بها مسجد إبراهیم، و مسجد یعقوب، و مسجد موسی، و مسجد یوسف، و مسجد ماریة سریّة رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم حفن، أوصت أن یبنی بها مسجد فبنی، و بها مجمع البحرین و هو البرزخ الذی قال اللّه: مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ یَلْتَقِیانِ* بَیْنَهُما بَرْزَخٌ لا یَبْغِیانِ [الرحمن: ۲۰]، و قال: وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُما بَرْزَخاً [الفرقان: ۵۳].

و قال غیره: لأهل مصر القلم المعروف بقلم الطیر، و هو قلم البرابی، و هو قلم عجیب الحرف.

قال: و مصر عند الحکماء العالم الصغیر، سلیل العالم الکبیر؛ لأنّه لیس فی بلد غنیّ غریب إلّا و فیها مثله و أغرب منه، و تفضل علی البلدان بکثرة عجائبها و من عجائبها النّمس؛ و هو أقتل للثعابین بمصر من القنافذ للأفاعی بسجستان .

و بمصر جبل یکتب بحجارته کما یکتب بالمداد، و جبل یؤخذ منه الحجر، فیترک فی الزّیت فیقد کما یقد السراج.

و یقال: إنه لیس علی وجه الأرض نبت و لا حجر إلا و فی مصر مثله، و لیس تطلب فی سائر الدنیا الأموال المدفونة إلّا بمصر.

و یقال: إنّ بمصر بقلة؛ من مسّها بیده ثمّ مسّ السمک الرّعاد لم ترعد یده، و بها حجر الخلّ یطفأ علی الخلّ. و بها حجر القیء إذا أمسکه الإنسان بیدیه تقیّأ کلّ ما فی بطنه، و بها خرزة تجعلها المرأة علی حقوها فلا تحبل. و بها حجر یوضع علی حرف التّنور فیتساقط خبزه، و کان یوجد بصعیدها حجارة رخوة تکسر فتقد کالمصابیح.

و من عجائبها حوض کان بدلالات مدوّن من حجارة.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۶

السبب فی کون أهل مصر أذلاء یحملون الضیم

قال محمد بن الربیع الجیزیّ: سمعت یحیی بن عثمان بن صالح، یقول: قدم سعد بن أبی وقّاص فی خلافة عثمان رسولا من قبل عثمان إلی أهل مصر أیّام ابن أبی حذیفة، فلقوه خارجا من الفسطاط، و منعوه من دخولها، فقال لهم: فلتسمعوا ما أقول لکم؛ فامتنعوا علیه، فدعا علیهم أن یضربهم اللّه بالذلّ . هذا معناه.

قلت: و سعد ممّن عرف بإجابة الدّعوة؛ لأنّ النبیّ صلی اللّه علیه و سلم دعا له: «اللهمّ استجب له إذا دعاک».

فی تذکرة الصلاح الصفدیّ: کان الشیخ تاج الدین الفزاریّ یقول: إنّ الحکماء و أهل التجارب ذکروا أنّ من أقام ببغداد سنة وجد فی علمه زیادة، و من أقام بالموصل سنة وجد فی عقله زیادة، و من أقام بحلب سنة وجد فی نفسه شحّا، و من أقام بدمشق سنة وجد فی طباعه غلظة و فظاظة، و من أقام بمصر سنة وجد فی أخلاقه رقّة و حسنا.

فی مباهج الفکر: یروی عن کعب، قال: لمّا خلق اللّه الأشیاء، قال القتل: أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة: و أنا معک، و قال الخصب أنا لاحق بمصر، فقال الذلّ:

و أنا معک، و قال الشّقاء: أنا لاحق بالبادیة، فقالت الصّحّة: و أنا معک.

و قال محمد بن حبیب: لمّا خلق اللّه الخلق خلق معهم عشرة أخلاق: الإیمان و الحیاء و النّجدة و الفتنة و الکبر و النّفاق و الغنی و الفقر و الذلّ و الشّقاء، فقال الإیمان: أنا لاحق بالیمن، فقال الحیاء: و أنا معک، و قالت النجدة: أنا لاحقة بالشّام، فقالت الفتنة:

و أنا معک، و قال الکبر: أنا لاحق بالعراق، فقال النفاق: و أنا معک، و قال الغنی: أنا لاحق بمصر، فقال الذلّ: و أنا معک، و قال الفقر: أنا لاحق بالبادیة، فقال الشقاء: و أنا معک.

و قال غیره: إنّ اللّه جعل البرکة عشرة أجزاء، فتسعة منها فی قریش و واحد فی سائر النّاس، و جعل الکرم عشرة أجزاء، فتسعة منها فی العرب و واحد فی سائر النّاس، و جعل الغیرة عشرة أجزاء، فتسعة منها فی الأکراد و واحد فی سائر النّاس، و جعل المکر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۷

عشرة أجزاء، فتسعة منها فی القبط و واحد فی سائر الناس، و جعل الجفاء عشرة أجزاء، فتسعة منها فی البربر و واحد فی سائر الناس، و جعل النّجابة عشرة أجزاء، فتسعة منها فی الرّوم و واحد فی سائر الناس، و جعل الصناعة عشرة أجزاء؛ فتسعة منها فی الصین و واحد فی سائر الناس، و جعل الشّهوة عشرة أجزاء، فتسعة منها فی النّساء و واحد فی سائر الناس، و جعل العمل عشرة أجزاء فتسعة منها فی الأنبیاء و واحد فی سائر الناس، و جعل الحسد عشرة أجزاء، فتسعة منها فی الیهود و واحد فی سائر النّاس.

و یحکی أنّ الحجّاج سأل ابن القرّیة عن طبائع أهل الأرض، فقال: أهل الحجاز أسرع الناس إلی الفتنة و أعجزهم عنها؛ رجالها حفاة، و نسائها عراة، و أهل الیمن أهل سمع و طاعة، و لزوم الجماعة، و أهل عمان عرب استنبطوا، و أهل البحرین قبط استعربوا، و أهل الیمامة أهل جفاء، و اختلاف آراء. و أهل فارس أهل بأس شدید و عزّ عتید، و أهل العراق أبحث الناس عن صغیرة و أضیعهم لکبیرة. و أهل الجزیرة أشجع فرسان، و أقتل للأقران. و أهل الشام أطوعهم لمخلوق و أعصاهم لخالق. و أهل مصر عبید لمن غلب، أکیس الناس صغارا و أجهلهم کبارا.

و عن ابن القرّیة قال: الهند بحر هادر، و جبلها یاقوت، و شجرها عود، و ورقها عطر. و کرمان ماؤها و شل ، و ثمرها دقل ، و لصّها بطل. و خراسان ماؤها جامد، و عدوّها جاهد. و عمان حرّها شدید، و صیدها عتید و البحرین کناسة بین المصرین.

و البصرة ماؤها ملح، و حربها صلح، مأوی کلّ تاجر، و طریق کلّ عابر. و الکوفة ارتفعت عن حرّ البحرین، و سفلت عن برد الشام. و واسط جنّة، بین کماة و کنّة، و الشّام عروس، بین نساء جلوس، و مصر هواؤها راکد، و حرّها متزائد، تطوّل الأعمار، و تسوّد الأبشار.

و قال بعضهم: يقال فی خصائص البلاد فی الجواهر: فيروز نيسابور، و ياقوت سرنديب ، و لؤلؤ عمان، و زبرجد مصر، و عقيق اليمن، و جزع ظفار، و كارى بلخ، و مرجان إفريقية.

و فی ذوات السّموم: أفاعی سجستان، و حيّات أصبهان، و ثعابين مصر، و عقارب شهر زور، و جرّارات الأهواز، و براغيث أرمينية، و فار أردنّ، و نمل ميّافارقين ،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۸

و ذباب تلّ بابان ، و أوزاغ بلد .

و فی الملابس برود اليمن، و وشی صنعاء، و ريط الشام، و قصب مصر، و ديباج الروم، و قزّ السّوس ، و حرير الصين، و أكسية فارس، و حلیّ البحرين و سقلاطون بغداد، و عمائم الأبلّة و الریّ، و ملحم مرو، و تكك أرمينية، و منادی الدّامغان، و جوارب قزوين.

و فی المراكيب عتاق البادية، و نجائب الحجاز، و براذين طخارستان، و حمير مصر، و بغال برزعة .

و فی الأمراض طواعين الشام، و طحال البحرين، و دماميل الجزيرة، و حمّى خيبر، و جنون حمص، و عرق اليمن، و وباء مصر، و برسام العراق، و النار الفارسيّة، و قروح بلخ.

و قال الجاحظ فی كتاب الأمصار: الصناعة بالبصرة، و الفصاحة بالكوفة، و التخنيث ببغداد، و الطّرمذة بسمرقند و العیّ بالریّ، و الجفاء بنيسابور، و الحسن بهراة، و المروءة ببلخ، و البلح بمرو، و العجائب بمصر.

و قال غيره: قراطيس سمرقند لأهل المشرق كقراطيس مصر لأهل المغرب.

و قال القاضی الفاضل: أهل مصر على كثرة عددهم و ما ينسب من وفور المال إلى بلدهم، مساكين يعملون فی البحر، و مجاهيد يدأبون فی البرّ، و من العجائب شجرة العباس فی دندار من صعيد مصر، و هی شجرة متوسّطة، و أوراقها قصيرة منبسطة، فإذا قال الإنسان: يا شجرة العبّاس، جال الناس، تجتمع أوراقها، و تحترق لوقتها.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۸۹

ذكر النيل

اشارة

قال التّيفاشیّ فی كتاب سجع الهديل: لم يسمّ نهر من الأنهار فی القرآن سوى النيل فی قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِ [القصص: ۷]. قال: أجمع المفسرون على أنّ المراد باليمّ هنا نيل مصر.

أخرج أحمد و مسلم عن أبی هريرة أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «النيل و سيحان و جيحان و الفرات من أنهار الجنّة».

قال ابن عبد الحكم: حدّثنا عبد اللّه بن صالح، حدّثنا الليث، عن يزيد بن أبی حبيب، عن أبی الخير، عن كعب الأحبار، أنّه كان يقول: أربعة أنهار من الجنّة وضعها اللّه فی الدنيا؛ فالنّيل نهر العسل فی الجنّة، و الفرات نهر الخمر فی الجنّة، و سيحان نهر الماء فی الجنّة، و جيحان نهر اللّبن فی الجنّة. أخرجه الحارث فی مسنده و الخطيب فی تاريخه .

و قال: حدّثنا عثمان بن صالح، حدّثنا ابن لهيعة، عن وهب بن عبد اللّه المعافریّ، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، أنّه قال: نيل مصر سيّد الأنهار، سخّر اللّه له كلّ نهر بالمشرق و المغرب، فإذا أراد اللّه أن يجرى نيل مصر أمر كلّ نهر أن يمدّه، فأمدّته الأنهار بمائها، و فجّر اللّه له الأرض عيونا، فإذا انتهت جريته إلى ما أراد اللّه، أوحى اللّه إلى كلّ ماء أن يرجع إلى عنصره . أخرجه ابن أبی حاتم فی تفسيره.

قال: حدّثنا عثمان بن صالح، حدّثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبی حبيب أن معاوية ابن أبی سفيان سأل كعب الأحبار، هل تجد لهذا

النيل فی کتاب اللّه خبرا؟ قال: إی و الـذی فلق البحر لموسـی، إنّی لأجده فی کتاب اللّه یوحی إلیه فی کلّ عام مرّتین، یوحی إلیه عند جریه: إنّ الملک یأمرک أن تجری فیجری ما کتب اللّه [له] ، ثم یوحی إلیه بعد ذلک: یا نیل عد حمیدا.

و أخرج الخطیب فی تـاریخه و ابن مردویه فی تفسـیره و الضـیاء المقدسـیّ فی صـفة الجنّـة عن ابن عبّاس مرفوعا: أنزل اللّه تعالی من الجنّة إلی الأرض خمسة أنهار:

سیحون، و جیحون، و دجلـة، و الفرات و النیل؛ أنزلها اللّه من عین واحدة من عیون الجنّة، من أسـفل درجة من درجاتها، علی جناحی جبریل، و استودعها الجبال، و أجراها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۰

فی الأـرض، و جعـل فیها منافع للناس، فـذلک قوله تعالی: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَـدَرٍ فَأَسْـکَنَّاهُ فِی الْأَرْضِ [المؤمنون: ۱۸]، فإذا کان عند خروج یأجوج و مأجوج، أرسل اللّه جبریل، فرفع من الأرض القرآن و العلم و الحجر من البیت و مقام إبراهیم و تابوت موسی بما فیه؛ و هـذه الأنهار الخمسـة، فیرفع کلّ ذلک إلی السـماء؛ فـذلک قوله: وَ إِنَّا عَلی ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ [المؤمنون: ۱۸]، فإذا رفعت هذه الأشیاء من الأرض عدم أهلها خیرها.

و أخرج الحارث بن أبی أسامة فی سنده و ابن عبد الحکم فی تاریخ مصر، و الخطیب فی تاریخ بغداد، و البیهقیّ فی البعث عن کعب الأحبار، قال: نهر النیل نهر العسل فی الجنـة، و نهر دجلة نهر اللبن فی الجنّة، و نهر الفرات نهر الخمر فی الجنّة، و نهر سـیحان نهر الماء فی الجنة.

و أخرج البیهقیّ فی شـعب الإیمان، عن عبـد اللّه بن عمرو بن العاص، قال: غار النیل علی عهـد فرعون، فأتاه أهل مملکته، فقالوا: أیّها الملک أجر لنا النّیل، قال: إنّی لم أرض عنکم، فذهبوا ثمّ أتوه، فقالوا: أیّها الملک، أجر لنا النیل، قال: إنّی لم أرض عنکم، فذهبوا ثمّ أتوه، فقـالوا: أیها الملک ماتت البهائم، و هلکت الأبکار، لئن لم تجر لنا النیل لنتخـذنّ إلها غیرک، قال اخرجوا إلی الصـعید، فخرجوا فتنحّی عنهم حیث لا یرونه، و لا یسمعون کلامه، فألصق خدّه بالأرض، و أشار بالسبّابة للّه، ثمّ قال:

اللهم إنّی خرجت إلیک مخرج العبد الذلیل إلی سیّده، و إنّی أعلم أنّه لا یقدر علی إجرائه أحد غیرک فأجره. قال: فجری النیل جریا لم یجر قبله مثله، فأتاهم فقال: إنّی قـد أجریت لکم النیل؛ فخرّوا له سـجدا، و عرض له جبریل، فقال: أیّها الملک؛ أعدنی علی عبدی، قال: و ما قصّـته؟ قال: عبد لیل ملّکته علی عبیدی، و خوّلته مفاتیحی، فعادانی، فأحبّ من عادیت، و عادی من أحببت، قال: بئس العبد عبـدک! لو کـان لی علیه سبیـل لغرّقته فی بحر القلزم! فقـال: أیهـا الملـک، اکتب لی کتابا، فـدعا بکتاب و دواة: ما جزاء العبـد الـذی خـالف سیّده فـأحبّ من عـادی و عـادی من أحبّ إلاـ أن یغرق فی بحر القلزم. قال: یأیّها الملک اختمه لی، فختمه ثمّ دفعه إلیه، فلمّا کان یوم البحر، أتاه جبریل بالکتاب، فقال: خذ هذا ما حکمت به علی نفسک.

أثر متصل الإسناد فی أمر النیل

أخـبرنی أبـو الطیّـب الأنصـاریّ إجـازة، عـن الحافظ أبی الفضـل عبـد الرحیـم بـن الحسـین العراقیّ، عن أبی الفتـح محمـد بن محمد المیدومیّ، أخبرتنا أمة الحقّ شامیة

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۱

بنت الحافظ صدر الدین الحسن بن محمد بن محمد سـماعا، أخبرنا أبو حفص عمر بن طبرزد سـماعا، أخبرنا أبو القاسم إسـماعیل بن أحمد السّمرقندیّ و غیره سماعا، قالوا:

أخبرنا أبو الحسـین أحمد بن محمد بن النّقور سـماعا، أخبرنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحیم المخلص سماعا، أخبرنا عبید اللّه بن عبد الرحمن بن عیسـی السـکریّ، حـدّثنا أبو إسـماعیل محمـد بن إسـماعیل الترمـذیّ و أبو بکر محمـد بن صالـح بن عبد الرحمن الحافظ

الأنماطیّ، قالا: حدّثنا أبو صالح عبد اللّه بن صالح بن محمد، کاتب اللیث، قال:

حدّثنی اللیث بن سعد، قال: بلغنی أنّه کان رجل من بنی العیص یقال له حائد بن أبی شالوم بن العیص بن إسحاق بن إبراهیم علیه السّلام، خرج هاربا من ملک من ملوکهم؛ حتّی دخل أرض مصر، فأقام بها سنین، فلمّا رأی أعاجیب نیلها و ما یأتی به، جعل للّه تعالی علیه ألّا یفارق ساحلها حتّی یبلغ منتهاه؛ من حیث یخرج أو یموت قبل ذلک، فسار علیه- قال بعضهم: سار ثلاثین سنهٔ فی النّاس و ثلاثین فی غیر الناس. و قال بعضهم: خمسهٔ عشر کذا، و خمسهٔ عشر کذا- حتی انتهی إلی بحر أخضر، فنظر إلی النیل ینشقّ مقبلا فصعد علی البحر، فإذا رجل قائم یصلّی تحت شجرهٔ من تفّاح، فلما رآه استأنس به، و سلّم علیه، فسأله الرجل صاحب الشجرهٔ، فقال له: من أنت؟ قال:

أنا حامد بن أبی شالوم بن العیص بن إسحاق بن إبراهیم علیه السّلام، فمن أنت؟ قال: أنا عمران بن فلان بن العیص بن إسحاق بن إبراهیم، قال: فما الذی جاء بک إلی هنا یا عمران؟ قال: جاء بی الّذی جاء بک، حتّی انتهیت إلی هذا الموضع؛ فأوحی اللّه إلیّ أن أقف فی هذا الموضع، حتّی یأتینی أمره، قال له حامد: أخبرنی یا عمران، ما انتهی إلیک من أمر هذا النیل؟ و هل بلغک من الکتب أنّ أحدا من بنی آدم یبلغه؟ قال له عمران: نعم، بلغنی أنّ رجلا من بنی العیص یبلغه، و لا أظنّه غیرک یا حامد، قال له حامد: یا عمران، أخبرنی کیف الطریق إلیه؟ قال له عمران: لست أخبرک بشیء إلّا أن تجعل لی ما أسألک! قال: و ما ذاک یا عمران؟ قال: إذا رجعت إلیّ و أنا حیّ أقمت عندی حتّی یوحی اللّه تعالی إلیّ بأمره، أو یتوفّانی فتدفننی؛ فإن وجدتنی میّتا دفنتنی و ذهبت، قال: ذلک لک علیّ، قال له: سر کما أنت علی هذا البحر؛ فإنّک تأتی دابّهٔ تری آخرها و لا تری أوّلها، فلا یهولنّک أمرها، ارکبها؛ فإنها دابّهٔ معادیهٔ للشمس، إذا طلعت أهوت إلیها لتلتقمها حتّی یحول بینها و بین حجبتها، و إذا غربت أهوت إلیها لتلتقمها؛ فتذهب بک إلی جانب البحر، فسر علیها راجعا حتّی تنتهی إلی النیل، فسر علیه، فإنّک ستبلغ أرضا من حدید، جبالها و أشجارها و سهولها من حدید؛ فإن أنت جزتها وقعت فی أرض من نحاس، جبالها و أشجارها و سهولها من نحاس، فإن أنت جزتها وقعت فی أرض من فضّهٔ؛ جبالها و أشجارها و سهولها من فضّهٔ، فإن أنت جزتها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۲

وقعت فی أرض من ذهب جبالها و أشجارها و سهولها من ذهب، فیها ینتهی إلیک علم النّیل.

فسار حتی انتهی إلی أرض الذّهب، فسار فیها حتّی انتهی إلی سور من ذهب و شرفهٔ من ذهب، و قبّهٔ من ذهب، لها أربعهٔ أبواب؛ فنظر إلی ما ینحدر من فوق ذلک السّور حتّی یستقرّ فی القبّهٔ ثمّ ینصرف فی الأبواب الأربعهٔ: فأمّا ثلاثهٔ فتغیض فی الأرض، و أمّا واحد فیسیر علی وجه الأرض؛ و هو النیل. فشرب منه و استراح، و أهوی إلی السّور لیصعد، فأتاه ملک فقال له: یا حامد قف مکانک، فقد انتهی إلیک علم هذا النیل؛ و هذه الجنّهٔ؛ و إنّما ینزل من الجنّهٔ، فقال: أرید أن أنظر إلی الجنّهٔ، فقال: إنک لن تستطیع دخولها الیوم یا حامد، قال: فأیّ شیء هذا الذی أری؟ قال: هذا الفلک الذی تدور فیه الشمس و القمر، و هو شبه الرحی، قال: إنّی أرید أن أرکبه فأدور فیه- فقال بعض العلماء: إنّه قد رکبه؛ حتّی دار الدنیا و قال بعضهم: لم یرکبه- فقال له: یا حامد؛ إنه سیأتیک من الجنّهٔ رزق، فلا تؤثر علیه شیئا من الدّنیا، فإنّه لا ینبغی لشیء من الجنّهٔ أن یؤثر علیه شیء من الدنیا إن لم تؤثر علیه شیئا من الدنیا بقی ما بقیت.

قال: فبینا هو کذلک واقف، إذ نزل علیه عنقود من عنب فیه ثلاثهٔ أصناف؛ لون کالزبرجد الأخضر، و لون کالیاقوت الأحمر، و لون کاللؤلؤ الأبیض، ثمّ قال له: یا حامد، أما إنّ هذا من حصرم الجنّهٔ، و لیس من طیب عنبها، فارجع یا حامد، فقد انتهی إلیک علم النیل؛ فقال: هذه الثلاثهٔ الّتی تغیض فی الأرض، ما هی؟ قال: أحدها الفرات، و الآخر دجلهٔ، و الآخر جیحان، فارجع.

فرجع حتّی انتهی إلی الدابّهٔ التی رکبها، فرکبها، فلمّا أهوت الشمس لتغرب قذفت به من جانب البحر، فأقبل حتّی انتهی إلی عمران، فوجده میّتا فدفنه، و أقام علی قبره ثلاثا؛ فأقبل شیخ متشبّه بالناس أغرّ من السجود، ثمّ أقبل إلی حامد، فسلّم علیه، ثمّ قال له: یا حامد؛ ما انتهی إلیک من علم هذا النیل؟ فأخبره، فلمّا أخبره، قال له:

هکذا نجده فی الکتب، ثمّ أطری ذلک التفّاح فی عینیه، و قال: ألا تأکل منه؟ قال:

معی رزقی، قد أعطیته من الجنّة و نهیت أن أؤثر علیه شیئا من الدنیا، قال: صدقت یا حامد، هل ینبغی لشیء من الجنّة أن یؤثر بشیء من الدنیا، و هل رأیت فی الدنیا مثل هذا التفاح؟ إنّما أنبتت له فی الأرض لیس من الدنیا، و إنّما هذه الشجرة من الجنّة، أخرجها اللّه لعمران یأکل منها، و ما ترکها إلّا لک، و لو قد ولیت عنها رفعت، فلم یزل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۳

یطریها فی عینیه، حتّی أخذ منها تفاحة، فعضّها، فلما عضّها عضّ یده، ثمّ قال:

أتعرفه؟ هو الذی أخرج أباک من الجنّة؛ أما إنّک لو سلّمت بهذا الذی کان معک لأکل منه أهل الدنیا قبل أن ینفد، و هو مجهودک إن تبلغه فکان مجهوده أن بلغه.

و أقبل حامد حتّی دخل أرض مصر، فأخبرهم بهذا؛ فمات حامد بأرض مصر.

و بهذا الإسناد إلی عبد اللّه بن صالح، حدّثنی ابن لهیعة عن وهب بن عبد اللّه المعافریّ، عن عبد اللّه بن عمرو فی قوله تعالی: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ* وَ کُنُوزٍ وَ مَقامٍ کَرِیمٍ [الشعراء: ۵۷، ۵۸]، قال: کانت الجنان بحافّتی هذا النیل، من أوّله إلی آخره فی الشّقّین جمیعا من أسوان إلی رشید، و کان له سبعة خلج: خلیج الإسکندریة، و خلیج دمیاط، و خلیج سردوس، و خلیج منف، و خلیج الفیّوم، و خلیج المنهی، و خلیج سخا، متّصلة لا ینقطع منها شیء عن شیء ، و یزرع ما بین الجبلین کلّه من أوّل مصر إلی آخر ما یبلغه الماء، و کانت جمیع مصر کلّها یومئذ تروی من ستة عشر ذراعا.

و بهذا الإسناد إلی ابن لهیعة، و عن یزید بن أبی حبیب؛ أنّه کان علی نیل مصر فرضة لحفر خلیجها، و إقامة جسورها و بناء قناطرها. و قطع جزائرها مائة ألف و عشرون ألف فاعل، معهم الطّور و المساحی و الأداة، یعتقبون ذلک، لا یدعون ذلک شتاء و لا صیفا.

و ذکر بعض الأخباریّین أن حامدا هذا لم یتنبّأ، و أنّه أوتی الحکمة، و أنّه سأل اللّه أن یریه منتهی النیل، فأعطی قوّة علی ذلک فوصل إلی جبل القمر، و قصد أن یطلع إلی أعلاه، فلم یقدر؛ فسأل اللّه فیسّره علیه، فصعد فرأی خلفه البحر الزفتیّ، و هو بحر أسود منتن الریح مظلم، فرأی النیل یجری فی وسطه؛ کأنّه السّبیکة الفضّة.

و قال صاحب مباهج الفکر: ذکر أبو الفرج قدامة أنّ مجموع ما فی المعمور من الأنهار مائتان و ثمانیة و عشرون نهرا؛ منها ما یجری من المشرق إلی المغرب، و منها ما یجری من الشمال إلی الجنوب، و منها ما جریانه کنهر النیل من الجنوب إلی الشمال، و منها ما هو مرکّب من هذه الجهات کالفرات و جیحون؛ فأمّا النّیل فذکر قدامة أنّ انبعاثه من جبل القمر وراء خط الاستواء من عین تجری منها عشرة أنهار؛ کلّ خمسة منها یصبّ إلی بطیحة کبیرة فی الإقلیم الأول، و من هذه البطیحة یخرج نهر النیل.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۴

و ذکر صاحب کتاب نزهة المشتاق فی اختراق الآفاق أن هذه البحیرة تسمّی بحیرة کوری منسوبة لطائفة من السودان، یسکنون حولها متوحّشین یأکلون من وقع إلیهم من الناس، فإذا خرج النیل منها یشقّ بلاد کوری ثمّ بلاد ننه طائفة من السودان، بین کانم و النوبة، فإذا بلغ دنقلة مدینة النوبة عطف من غربیّها إلی المغرب، و انحدر إلی الإقلیم الثانی، فیکون علی شطئه عمارة النّوبة، و فیه هناک جزائر متّسعة عامرة بالمدن و القری، ثمّ یشرّق إلی الجنادل، و إلیها تنتهی مراکب النوبة انحدارا، و مراکب الصعید الأعلی صعودا و هناک أحجار مضرّسة لا مرور للمراکب علیها إلا فی أیام زیادة النیل، ثمّ یأخذ الشمال، فیکون علی شرقیّه مدینة أسوان من الصعید الأعلی، ثمّ یمرّ بین جبلین مکتنفین لأعمال مصر شرقیّ و غربیّ إلی الفسطاط، فإذا تجاوزها مسافة یوم انقسم إلی قسمین أحدهما یمرّ حتی یصبّ فی بحر الروم عند دمیاط، و یسمّی بحر الشرق و الآخر و هو عمود النیل و معظمه یمرّ إلی أن یصب عند رشید، و یسمی بحر الغرب، و مسافة النیل من منبعه إلی أن یصبّ فی رشید سبعمائة فرسخ و ثمانیة و أربعون فرسخا.

و قیل إنه یجری فی الخراب أربعة أشهر، و فی بلاد السودان شهرین، و فی بلاد الإسلام شهرا، و لیس فی الأرض نهر یزید حین تنقص

الأنهار غيره؛ و ذلك أنّ زيادته تكون فی القيظ الشديد فی شمس السرطان و الأسد و السنبلة. و روی أنّ الأنهار تمدّه بمائها.

و قال قوم: إنّ زيادته من ثلوج يذيبها الصّيف و علی حسب مدّها تكون كثرته و قلّته.

و ذهب آخرون إلی أنّ زيادته بسبب أمطار كثيرة تكون ببلاد الحبشة.

و ذهب آخرون إلی أنّ زيادته عن اختلاف الريح، و ذلك أنّ الشمال إذا هبّت عاصفة يهيج البحر الرومیّ، فيدفع إليه ما فيه منه، فيفيض علی وجه الأرض، فإذا هبّت الجنوب سكن هيجان البحر، فيسترجع منه ما دبّ إليه، فينقص.

و زعم آخرون أنّ زيادته من عيون علی شاطئه، يراها من سافر و لحق بأعاليه.

و قال آخرون: إنّ مجراه من جبال الثلج، و هی بجبل قاف، و أنه يخرق البحر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۵

الأخضر، و يمرّ علی معادن الذهب و الياقوت و الزمرد و المرجان، فيسير ما شاء اللّه إلی أن يأتی إلی بحيرة الزنج. قالوا: و لو لا دخوله فی البحر الملح، و ما يختلط به منه لم يستطع شربه لشدّة حلاوته و زيادته بتدريج و ترتيب فی زمان مخصوص مدّة معلومة، و كذا نقصه و منتهی زيادته الّتی يحصل بها الریّ لأرض مصر ستّة عشر ذراعا ، و الذراع أربعة و عشرون إصبعا، فإن زاد علی الستة عشر ذراعا إصبعا واحدا ازداد فی الخراج مائة ألف دينار لما يروی من الأراضی العالية.

و الغاية القصوی فی الزيادة ثمانية عشر ذراعا؛ هذا فی مقياس مصر، فإذا انتهی فيه إلی ذلك كان فی الصعيد الأعلی اثنين و عشرين ذراعا، لارتفاع البقاع التی يمرّ عليها، و يسوق الرّی إليها، فإذا انتهت زيادته فتحت خلجانات و ترع، فيخرج الماء يمينا و شمالا إلی الأرض البعيدة عن مجری النيل؛ حكمة دبّرت بالعقول السليمة و قدّرت، و منافع مهّدت فی الزمن القديم و قرّرت.

و للنيل ثمانی خلجانات: خليج الاسكندرية، و خليج دمياط، و خليج منف، و خليج المنهی- حفره يوسف عليه السّلام- و خليج أشموم طنّاح، و خليج سردوس- حفره هامان لفرعون- و خليج سخا، و خليج حفره عمرو بن العاص زمن عمر بن الخطاب.

و يحصل لأهل مصر يوم وفائه الستة عشر ذراعا الّتی هی قانون الرّی سرور شديد بحيث يركب الملك فی خواصّ دولته الحراريق المزيّنة إلی المقياس، و يمدّ فيه سماطا و يخلّق العمود الّذی يقاس فيه و يخلع علی القيّاس، و يعطيه صلة مقررة له.

و قد ذكر بعض المفسرين أنّه يوم الزينة، الّذی وعد فرعون موسی بالاجتماع فيه.

هذا كلّه كلام مباهج الفكر.

و قد اختلف فی ضبط جبل القمر، فقيل: إنّه بفتح القاف و الميم بلفظ أحد الطّيرين.

قال التّيفاشیّ: و إنّما سمّی بذلك لأنّ العين تقمر منه، إذا نظرت إليه لشدّة بياضه.

قال: و لذلك أيضا سمّی القمر قمرا. قال: و هذا الجبل مستطيل من المشرق إلی المغرب، نهايته فی ناحية المغرب إلی حدّ الخراب، و نهايته فی المشرق إلی مثل ذلك، و هو نفسه بجملته فی الخراب من ناحية الجنوب، و له أعراق فی الهواء، منها طوال و منها دونها.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۶

قال فی مختصر المسالك: و ذكر بعضهم أنّ أناسا انتهوا إلی هذا الجبل و صعدوه، فرأوا وراءه بحرا عجّاجا ماؤه أسود كاللّيل، يشقّه نهر أبيض كالنهار، يدخل الجبل من جنوبه، و يخرج من شماله، و يتشعّب علی قبّة هرمس المبتيّة هناك.

و زعموا أن هرمس الهرامسة- و هو إدريس عليه السّلام فيما يقال- بلغ ذلك الموضع، و بنی فيه قبّة.

و ذكر بعضهم أنّ أناسا صعدوا الجبل، فصار الواحد منهم يضحك و يصفّق بيديه، و ألقی نفسه إلی ما وراء الجبل، فخاف البقيّة أن يصيبهم مثل ذلك فرجعوا.

و قيل: إنّ أولئك إنّما رأوا حجر الباهت، و هی أحجار برّاقة كالفضّة البيضاء تتلألأ، كلّ من نظرها ضحك و التصق بها حتّی يموت، و يسمی مغناطيس الناس.

و ذكر بعضهم أنّ ملكا من ملوك مصر الأول، جهّز أناسا للوقوف على أوّل النيل، فانتهوا إلى جبال من نحاس، فلما طلعت عليها الشمس انعكست عليها، فأحرقتهم.

و قيل إنّهم انتهوا إلى جبال برّاقة لمّاعة كالبلّور، فلمّا انعكست عليهم أشعّة الشمس الواقعة عليهم أحرقتهم.

و قال صاحب مرآة الزمان: ذكر أحمد بن بختيار أنّ العين التى هى أصل النيل، هى أوّل العيون من جبل القمر، ثمّ نبعت منه عشرة أنهار، نيل مصر أحدها. قال:

و النّيل يقطع الإقليم الأوّل، ثمّ يجاوزه إلى الثانى، و من ابتدائه، من جبل القمر إلى انتهائه إلى البحر الرومىّ، ثلاثة آلاف فرسخ، و يبتدئ بالزيادة فى نصف حزيران، و ينتهى إلى أيلول.

قال: و اختلفوا فى سبب زيادته، فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا اللّه.

و قال آخرون: سببه زيادة عيونه.

و قال آخرون، و هو الظاهر: سببه كثرة المطر و السيول ببلاد الحبش و النوبة، و إنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعد المسافة. ورد ذلك قوم بأنّ عيونه الّتى تحت جبل القمر تتكدّر فى أيام زيادته، فدلّ على أنّه فعل اللّه من غير زيادة بالمطر. قال: و جميع الأنهار تجرى إلى القبلة سواه، فإنه يجرى إلى ناحية الشمال. و كان القاضى بحماه قال: و متى

بلغ ستة عشر ذراعا استحقّ السلطان الخراج، و إذا بلغ ثمانية عشر ذراعا قالوا: يحدث بمصر وباء عظيم، و إذا بلغ عشرين ذراعا مات ملك مصر.

و قال ابن المتوّج: من عجائب مصر النّيل الذى يأتى من غامض علم اللّه فى زمن القيظ فيعمّ البلاد سهلا و وعرا، يبعث اللّه فى أيام مدده الريح الشمال فيصدّ له البحر المالح، و يصير له كالجسر، و يزيد. و إذا بلغ الحدّ الذى هو تمام الرّىّ و أوان الزراعة، بعث اللّه بالريح الجنوب فكنسته، و أخرجته إلى البحر الملح، و انتفع الناس بالزراعة.

و من عجائب هذا النيل سمكة تسمى الرّعاد من مسّها بيده أو بعود متّصل بيده أو جذب شبكة هى فيها، أو قصبة أو سنّارة وقعت فيها رعدت يده ما دامت فيها، و بمصر بقلة من مسّها بيده، ثم مسّ الرّعاد لم ترعد.

و فى النيل خيل تظهر فى بلد النوبة، و يصيدونها، و فى سنّ من أسنانها شفاء من وجع المعدة.

و قال التّيفاشىّ: سبب زيادة النيل هبوب ريح يسمى الملثن، و ذلك لسببين أحدهما أنّها تحمل السحاب الماطر خلف خط الاستواء فتمطر ببلاد السودان و الحبشة و النوبة، و الآخر أنّها تأتى فى وجه البحر الملح، فيقف ماؤه فى وجه النيل، فيتراجع حتّى يروى البلاد. و فى ذلك يقول الشاعر:

اشفع فللشافع أعلى يدعندى و أسنى من يد المحسن

و النّيل ذو فضل و لكنّهالشّكر فى ذلك للملثن

و قال صاحب سجع الهديل: ذكر جماعة من المنجمين و أرباب الهيئة أنّ النيل يجىء من خلف خط الاستواء بإحدى عشرة درجة و نصف، و يأخذ نحو الجنوب إلى أن ينتهى إلى دمياط و الاسكندريّة و غيرهما عند عرض ثلاثين فى الشمال، قالوا: فمن بدايته إلى نهايته اثنتان و أربعون و مائة درجة؛ كلّ درجة ستون ميلا و ثلث بالتقريب، فيكون طوله من الموضع الذى يبتدئ منه إلى الموضع الذى منه إلى البحر الملح ثمانية ألف ميل و ستمائة و أربعة عشر ميلا و ثلثا ميل على القصد و الاستواء، و له تعريجات شرقا و غربا، يطول بها و يزيد على ما ذكرناه.

و نقلت من خط الشّيخ عز الدين بن جماعة من كتاب له فى الطبّ، قال: منبع النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة و نصف، و امتداد هذا الجبل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۲۹۸

خمس عشرة درجة و عشرون دقيقة، يخرج منه عشرة أنهار من أعين فيه ترمى كلّ خمسة إلى بحيرة عظيمة مدوّرة بعد مركزها عن أوّل العمارة بالمغرب سبع و خمسون درجة، و البعد عن خط الاستواء فی الجنوب سبع درج و إحدى و ثلاثون دقيقة، و هاتان البحيرتان متساويتان، و قطر كلّ واحدة خمس درج و يخرج من كلّ واحدة أربعة أنهار ترمى إلى بحيرة صغيرة مدوّرة فی الإقليم الأوّل بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب ثلاث و خمسون درجة و ثلاثون دقيقة، و عن خطّ الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأوّل و قطرها درجتان، و مصبّ كل واحد من الأنهار الثمانية فی هذه البحيرة غير مصب الآخر، ثمّ يخرج من البحيرة نهر واحدة؛ و هو نيل مصر، و يمرّ ببلاد النوبة، و يصبّ إليه نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء، فی بحيرة كبيرة مستديرة قطرها ثلاثة درج، و بعد مركزها عن أوّل العمارة بالمغرب إحدى و سبعون درجة، فإذا تعدّى النّيل مدينة مصر إلى مدينة يقال لها شطّنوف، تفرّق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح أحدهما يعرف ببحر رشيد، و الآخر بحر دمياط و هذا البحر إذا وصل إلى المنصور تفرّع منه نهر يعرف ببحر أشمون، يرمى إلى بحيرة هناك و باقيه يرمى إلى البحر المالح عند دمياط، و هذه صورة ذلک:***

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۰

و ذكر فی كتاب الأمصار، أنّ مخرج نهر السند و النيل من موضع واحد، و استدلّ على ذلک اتفاق زيادتهما، و كون التمساح فيهما، و أنّ سبيل زراعتهم فی البلدين واحد.

و قال المسبّحیّ فی تاريخ مصر: فی بلاد تكنة أمّة من السودان أرضهم تنبت الذهب، يفترق النيل فيصير نهرين أحدهما أبيض و هو نيل مصر، و الآخر أخضر يأخذ إلى المشرق فيقطع البحر الملح إلى بلاد السّند، و هو نهر ميران.

قال ابن عبد الحكم: حدّثنا عثمان بن صالح، عن ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج عمّن حدثه، قال: لمّا فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إليه حين دخل بؤونة من أشهر العجم، فقالوا له: أيّها الأمير، إنّ لنيلنا هذا سنّة لا يجرى إلّا بها، فقال لهم: و ما ذاک؟ قالوا: إذا كان لثنتی عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها و جعلنا عليها من الحلیّ و الثياب أفضل ما يكون، ثمّ ألقيناها فی هذا النيل . فقال لهم عمرو: إنّ هذا لا يكون فی الإسلام، و إنّ الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا بؤونة و أبيب و مسرى لا يجرى قليلا و لا كثيرا، حتّى همّوا بالجلاء، فلمّا رأى ذلک عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلک، فكتب إليه عمر: قد أصبت، إنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، و قد بعثت إليک بطاقة فألقها فی داخل النيل إذا أتاک كتابی. فلمّا قدم الكتاب على عمرو، فتح البطاقة فإذا فيها:

من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أمّا بعد، فإن كنت تجرى من قبلک، فلا تجر، و إن كان الواحد القهّار يجريک، فنسأل اللّه الواحد القهّار أن يجريک.

فألقى عمرو البطاقة فی النيل قبل يوم الصّليب بيوم و قد تهيّأ أهل مصر للجلاء و الخروج منها لأنّه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب و قد أجراه اللّه ستّة عشر ذراعا ، و قد زالت تلک السّنّة السوء عن أهل مصر.

حدّثنا عثمان بن صالح، حدّثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبی حبيب أن موسى عليه السّلام دعا على آل فرعون، فحبس اللّه عنهم النّيل حتى أرادوا الجلاء حتّى طلبوا إلى موسى أن يدعو اللّه رجاء أن يؤمنوا، فدعا اللّه، فأصبحوا و قد أجراه اللّه فی تلک الليلة ستة عشر ذراعا.

فاستجاب اللّه بتطوّله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيّه موسى عليه السّلام.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۱

ذكر مزايا النيل

قال التّيفاشيّ: اتّفق العلماء على أنّ النّيل أشرف الأنهار فى الأرض لأسباب:

عموم نفعه، فإنه لا يعلم نهر من الأنهار فى جميع الأرض المعمورة يسقى ما يسقيه النيل.

و منها الاكتفاء بسقيه، فإنه يزرع عليه بعد نضوبه، ثمّ لا يسقى الزرع حتّى يبلغ منتهاه؛ و لا يعلم ذلك فى نهر سواه.

و منها أنّ ماءه أصحّ المياه و أعدلها و أعذبها و أفضلها.

و منها مخالفته لجميع أنهار الأرض فى خصال هى منافع فيه، و منضارّ فى غيره.

و منها أنّه يزيد عند نقص سائر المياه، و ينقص عند زيادتها ؛ و ذلك أوان الحاجة إليه.

و منها أنّه يأتى أرض مصر فى أوان اشتداد القيظ و الحرّ و يبس الهواء و جفاف الأرض، فيبلّ الأرض، و يرطب الهواء، و يعدّل الفصل تعديلا زائدا.

و منها أنّ كلّ نهر من الأنهار العظام، و إن كان فيه منافع، فلا بدّ أن يتبعها مضارّ فى أوان طغيانه بإفساد ما يليه و نقص ما يجاوره، و النيل موزون على ديار مصر بوزن معلوم، و تقدير مرسوم لا يزيد عليه، و لا يخرج عن حدّه ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [الأنعام: ۹۶].

و منها أنّ المعهود فى سائر الأنهار أن يأتى من جهة المشرق إلى المغرب، و هو يأتى من جهة المغرب إلى الشمال، فيكون فعل الشمس فيه دائما، و أثرها فى إصلاحه متّصلا ملازما؛ و فى ذلك يقول الشاعر:

مصر، و مصر ماؤها عجيبو نهرها يجرى به الجنوب

و منها أنّ كلّ الأنهار يوقف على منبعه و أصله، و النّيل لا يوقف له على أصل منبع. و ليس فى الدّنيا نهر يصبّ فى بحر الصين و الروم و غيره؛ و ليس فى الدّنيا نهر يزيد ثمّ يقف، ثمّ ينقص ثمّ ينضب على الترتيب و التدريج غيره؛ و ليس فى الدّنيا نهر

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۲

يزرع عليه ما يزرع على النيل، و لا يجىء من خراج غلّة زرعه ما يجىء من خراج غلّة زرع النيل.

*** و قال صاحب مباهج الفكر: النّيل أخفّ المياه و أحلاها، و أرواها و أمراها، و أعمّها نفعا، و أكثرها خراجا؛ و يحكى أنّه جبى فى أيّام كنعاوس ؛ أحد ملوك القبط الأول مائة ألف ألف و ثلاثون ألف دينار و جباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار، و جباه عمرو بن العاص اثنى عشر ألف ألف دينار، و جباه عبد اللّه بن أبى سرح أربعة عشر ألف ألف دينار، ثمّ رذل إلى أن جبى أيام جوهر القائد ثلاثة آلاف ألف و مائتى ألف دينار، و سبب تقهقره أنّ الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق فى الرجال الموكّلين لخفر خلجه و إصلاح جسوره، و رمّ قناطره، و سدّ ترعه، و قطع القضب و إزالة الحلفاء؛ و كانوا مائة ألف و عشرين ألف رجل مرتّبين على كور مصر، سبعين ألفا للصعيد، و خمسين ألفا لأسفل الأرض .

و يحكى أنها مسحت أيّام هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه الماء مائة ألف ألف فدّان، و الفدّان أربعمائة قصبة و القصبة عشرة أذرع.

و أمّا أحمد بن المدبّر، فإنّه اعتبر ما يصلح للزرع بمصر فى وقت ولايته، فوجده أربعة و عشرين ألف ألف فدان، و الباقى قد استبحر و تلف، و اعتبر مدّة الحرث فوجدها ستّين يوما، و الحرّاث الواحد يحرث خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف و أربعين ألف حرّاث.

*** و قال صاحب مرآة الزمان: ذكر أحمد بن بختيار أنّ فى النيل عجائب منها التمساح، و لا يوجد إلا فيه، و يسمّى فى مصر التّمساح، و فى بلاد النوبة الورل، و وراء النوبة الشّوشار.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۳

قال: و التمساح لا دبر له، و ما يأكله يتكوّن فى بطنه دودا، فإذا آذاه خرج إلى البرّيّة فينقضّ عليه طائر فيأكل ما بين أسنانه، و ما يظهر

من الدود، و ربّما يطبق عليه التمساح، فيبلعه.

*** و ذكر ابن حوقل أنّ بنيل مصر أماكن لا يضرّ التمساح فيها، كعدوة بوصير و الفسطاط.

قال: و فى النيل السّقنقور، و يكون عند أسوان، و فى حدودها. و قيل إنّه من نسل التمساح إذا وضعه خارج الماء، فما قصد الماء صار تمساحا، و ما قصد البرّ صار سقنقورا. و له قضيبان كالضبّ.

و فيه السمك الرعّاد إذا وقع فى شبكة الصيّاد، لا يزال ترتعد يداه و رجلاه حتّى يلقيها أو يموت، و هى نحو الذراع.

و فيه سمكة على صور الفرس. و المكان الذى يكون فيه لا يقربه التمساح.

و فيه شيخ البحر سمكة على صورة آدميّ، و له لحية طويلة، و يكون بناحية دمياط و هو مشؤوم، فإذا رئى فى مكان دلّ على القحط و الموت و الفتن.

و يقال: إنّ دمياط ما تنكب حتّى يظهر عندها.

ذكر ما قيل فى النيل من الأشعار

قال التّيفاشىّ: قد ذكرت العرب النّيل فى أشعارها، و ضربت به الأمثال، قال قيس بن معدى كرب، فيما أورده الجاحظ فى كتاب الأمصار:

ما النّيل أصبح زاخرا بمدودهو جرت له ريح الصّبا فجرى بها

قال بعضهم:

واها لهذا النّيل أىّ عجيبةبكر بمثل حديثها لا يسمع

يلقى الثرى فى العام و هو مسلّمحتّى إذا ما ملّ عاد يودّع

متنقّل مثل الهلال فدهرهأبدا يزيد كما يريد و يرجع

ظافر الحدّاد:

و النّيل مثل عمامةشرب محشّاة بأخضر

و الجسر فيها كالطراز و موجه رقم مصوّر

تفريكه ما درّجته له الرياح من التسكّر

و قال يصف افتراقه عند رأس الروضة:

للّه يوم أناله النيللحسنه جملة و تفصيل

فى منظر مشرف على خضركأنّه فى الظلام قنديل

تبدى لنا جانبا جزيرتهأشيا بها للعين تأميل

و رقمه جسره و تفريكه الموج و فى نكته للخليج تجميل

ابن الساعاتى:

و لمّا توسّطنا على النيل غدوةظننت و قلت اليوم باللّهو ملآن

عشاريّة أنشا لها الماء مقلةو ليس لها إلا المجاذيف أجفان

محيى الدين بن عبد الظاهر:

نيل مصر لمن تأمّل مرأىحسنه معجز و بالحسن معجب

كم به شاب فودها و عجيبكيف شابت بالنيل و النيل يخضب!

و قال:

کم قطّع الطّرق نیل مصرحتّی لقد خافه السّبیل

بالسیف و الرمح من غدیرو من قناة لها نصول

ابن نباته :

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۵ زادت أصابع نیلناو طغت و طافت فی البلاد

و أتت بکلّ مسرّةماذی أصابع ذی أیادی

النصیر الحمامیّ:

إن عجّل النّیروز قبل الوفاعجّل للعالم صفع القفا

فقد کفی من دمعهم ما جریو ما جری من نیلهم ما کفی

ناصر الدین حسن بن النقیت:

کأنّ النیل ذو فهم و لبّلما یبدو لعین النّاس منه

فیأتی عند حاجتهم إلیهو یمضی حین یستغنون عنه:

آخر:

النّیل قال و قولهإذ قال ملء مسامعی

فی غیظ من طلب العلاعمّ البلاد منافعی

و عیونهم بعد الوفاقلّعتها بأصابعی

شمس الدین بن دانیال الحکیم:

کأنّما النیل الخضمّ إذ بدایروی حدیثا و هو ذو تسلسل

لمّا رأی الأرض بها شقیقهضمّخها بمائة المصندل

آخر:

یا نیل اجر علی حسن العوائد فیأرجاء مصرک و اجبر کلّ مرتزق

و اعلم بأنک مصریّ فلست تریحلو الفاکهة ما لم تأت بالملق

خلیل بن الکفتی:

مولای إنّ البحر لمّا زرتهحیّاک و هو أخو الوفاء بالإصبع

فانظر لبسطته فرؤیتک الّتیهی مشتهاه و روضة المتمتّع

أرخی علیه السّتر لمّا جئتهخجلا و مدّ تضرّعا بالأذرع

آخر:

سدّ الخلیج بکسره جبر الوریطرّا فکلّ قد غدا مسرورا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۶ الماء سلطان فکیف تواترتعنه البشائر إذ غدا مکسورا!

شمس الدین سبط الملک الحافظ:

للّه درّ الخلیج إنّ لهتفضّلا لا نزال نشکره

حسبک منه بأنّ عادتهیجبر من لا یزال یکسره

الصلاح الصفدیّ :

رأیت فی أرض مصر مذ حللت بهاعجائبا ما رآها النّاس فی جیل

تسودّ فی عینی الدّنیا فلم أرهاتبیضّ إلّا إذا ما کنت فی النّیل

و قال:

رکبت فی النیل یوما مع أخی أدبفقال: دعنی من قال و من قیل

شرحت یا بحر صدری الیوم، قلت له:لا تنکر الشّرح یا نحویّ للنیل

و قال:

قالوا علا نیل مصر فی زیادتهحتّی لقد بلغ الأهرام حین طما

فقلت: هذا عجیب فی بلادکمأنّ ابن ستة عشر یبلغ الهرما

و قال:

قد زاد هذا النّیل فی عامنافأغرق الأرض بإنعامه

و کاد أن یعطف من مائهعری علی أزرار أهرامه

تمیم بن المعزّ العبیدیّ:

یوم لنا بالنیل مختصرو لکلّ یوم لذاذة قصر

و السّفن تجری کالخیول بناصعدا و جیش الماء منحدر

فکأنّما أمواجه عکن و کأنّما داراته سرر

آخر:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۷ مدّ نیل الفسطاط فالبرّ بحرزاخر فیه کلّ سفن تعوم

فکأنّ الأرضین منه سماءو کأنّ الضّیاع فیها نجوم

ظافر:

و للّه مجری النیل فیها إذا الصباأرتنا به فی سیرها عسکرا مجری

فشطّ یهزّ السّمهریّة ذبّلاو نهر یهزّ البیض هندیّة بترا

إذا مدّ حاکی الورد غضّا و إن صفاحکی ماؤه و لم یعده بسرا

أیدمر الترکی:

کیمیاء النیل خالصةقد أتتنا منه بالعجب

کان من ذوب اللّجین فقدعاد بالتّدبیر من ذهب

راقص بالحسن مبتهجفهو فی عجب و فی طرب

و مغانی مصر تسمعهنغمة الشادی بلا صخب

و نسیم الریح لاعبةفی خلال الرّوض بالقضب

إبراهیم بن عبدون الکاتب:

و النّیل بین الجانبین کأنّماصبّت بصفحته صفیحة صیقل

یأتیک من کدر الزّواخر مدّهبممسّک من مائه و مصندل

فکأنّ ضوء البدر فی تمویجهبرق یموّج فی سحاب مسبل

و کأنّ نور السّرج من جنباتهزهر الکواکب تحت لیل ألیل

مثل الریاض مصنّفا أنوارهایبدو لعین مشبّه و ممثّل

آخر:

أری أبدا کثیرا من قلیلو بدرا فی الحقیقة من هلال

فلا تعجب فکلّ خلیج ماءبمصر مشبّه بخلیج مال

زیادة إصبع فی کلّ مدّزیادة أذرع فی کلّ حال

الأمیر تمیم بن المعزّ:

نظرت إلی النیل فی مدّهبموج یزید و لا ینقص

کأنّ معاطف أمواجهمعاطف جاریة ترقص

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۸

أیدمر الترکیّ:

انظر إلی النّیل السعید المقبلو الماء فی أنهاره کالسلسل

أضحی یریک الحسن بین مورّدمن لونه حینا و بین مصندل

و یمرّ فی قید الریاح مسلسلاأحسنه من مطلق و مسلسل

و تری زوارقه علی أمواجهمنسوبة للنّاظر المتأمّل

مثل العقارب فوق حیّات غدتیسعی بها فی عدوها ما یأتلی

و کأنما أسماکه من فضّةمن جمد ذائب مائه من أوّل

بعضهم:

أتطلب من زمانک ذا وفاءو تأمل ذاک جهلا من بنیه؟

لقد عدم الوفاء به و إنّیلأعجب من وفاء النّیل فیه

*** و من کلام القاضی الفاضل فی وصف النّیل المصریّ الذی یکسو الفضاء ثوبا فضّیا، و یدلی من الأرض ماءه سراجا من النّور مضیّا، و یتدافع تیّاره واقفا فی صدر الجدب بید الخصب، و یرضع أمّهات خلجه المزارع فیأتی أبناؤها بالعصف و الأبّ .

و قال فیه أیضا:

و أمّا النّیل فقد امتدّت أصابعه، و تکسّرت بالموج أضالعه، و لا یعرف الآن قاطع طریق سواه، و لا من یرجی و یخاف إلّا إیّاه.

و قال أیضا:

و أمّا النّیل المبارک فقد امتدّت أصابعه، و تکسّرت بالموج أضالعه، و لا یعرف الآن قاطع طریق سواه، و لا من یرجی و یخاف إلّا إیّاه.

و قال أیضا:

و أمّا النّیل المبارک فقد ملأ البقاع، و انتقل من الإصبع إلی الذراع، فکأنّما غار علی الأرضه فغطّاها، و أغار علیه فاستقعد و ما تخطّاها.

و من کتاب السجع الجلیل فیما جری من النیل:

و أما البحر الّذی بنی علیه عنوان هذه العبودیّة، فلا تسأل عمّا جری منه، و ما نقلت الرّواة من العجائب عنه؛ و ذلک أنّه عمّ فی أوّل قدومه بالنفع البلاد، و ساوی بین بطون الأودیة و ظهورها الوهاد. و قدم المفرد مبشّرا بوفائه فی جمع لا نظیر له فی الآحاد، و احمرّت علی من طلب الغلاء عیونه، و تکفّل للمعسر بأن یوفی بعد وفائه

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۰۹

دیونه، و نزل السّعر حین أخذ منه طالع الارتفاع، و أحدق بالقری فأصبح کأنّه سماوات کواکبها الضّیاع؛ فلم یکن بعد ذلک إلّا کلمح

البصر أو هو أقرب، حتّى عسل فى شوارع مصر كما عسر الطريق الثعلب، و جاس خلال ديارها فأصبح على زرائبها المبثوثة بسطة، و أحاط بالمقياس إحاطة الدائرة بالنقطة. ثمّ علت أمواجه، و اشتدّ اضطرابه، و كاد يمتزج بنهر المجرّة الذى الغمام زبده و النجوم حبابه .

و شرّق حتّى ليس للشّرق مشرقو غرّب حتّى ليس للغرب مغرب

إلى أن قال: أما دير الطّين فقد ليس سقوف حيطانه، و اقتلع أشجار غيطانه، و أتى على ما فيه من حاصل و غلّة، و تركه ملقة، فكان كما قيل: زاد الطّين بلّة.

و أما الجيزة فقد طغى الماء على قناطرها و تجسّر، و وقع بها القصب من قامته حين علا عليه الماء و تكسّر، فأصبح بعد اخضرار بزّته شاحب الإهاب، ناصل الخضاب، غارقا فى قعر بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ [النور: ۴۰]، و قطع طريق زاويتها على من بها من المنقطعين و الفقراء، و ترك الطالح كالصالح يمشى على الماء، فتنادوا مصبحين: أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ [القلم: ۲۴]، و أدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ [طه: ۷۸]، فنادوا: وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ [ص: ۳]، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل: ۲۶]، فانهدّت قواهم، و استغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا و عملوا الصالحات و قليل ما هم.

و أمّا الروضة فقد أحاط بها إحاطة الكمام بزهره، و الكأس بحباب خمره:

فكأنّها فيه بساط أخضرو كأنّه فيها طراز مذهّب

فكم بها من متهم و منجد، و مسافر ممّا حصل له من المقيم المقعد. و حائك أصبح حول نوله ينير، و جعل من غزله بل من غيظه على أجيره يحمل و يسير. و منجّم وصل الماء من منزله إلى العتبة الخارجة فأصبح فى أنحس تقويم، و دخل إلى بيت أمراضه فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ [الصافات: ۸۸]، فأصبح فى الطريق

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۰

و عليه كآبة و صفرة، و دموعه فى المحاجر كالحصى لها اجتماع و حمرة. و شاعر أوقعه فى الضرورة بحره المديد، و اشتغل بهدم داره عن بيت القصيد، و عروضىّ ضاقت عليه الدائرة فقال: هذه الفاصلة، و قلع من عروض بيته وتدا أزعج بقلعه مفاصله. و نحوىّ اشتغل عن زيد و عمرو ببلّ كتبه، و ذهل حين استوى الماء و الخشبة، عن المفعول معه و المفعول به، و طار عقله لا سيّما عن تصانيف ابن عصفور، و أخبر أنّ البحر و أثاث بيته جارّ و مجرور.

و أما الجزيرة الوسطى فقد أفسد جلّ ثمارها، و أتى على مقاتيها فلم يدع شيئا من ردّيها و خيارها، و ألحق موجودها بالمعدوم، و تلا على التكرورىّ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ [القلم: ۱۶]، و أخلق ديباج روضها الأنف، و ترك قلقاسها بمدّه و جزره على شفا جرف.

و أما المنشاة فقد أصبحت للهجر مقرّة، بعد أن كانت للعيون قرّة، و قيل لمنشيها:

أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها [البقرة: ۲۵۹]، فقال: يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ [يس: ۷۹]. و مال على ما فيها من شون الغلّات كلّ الميل، و تركها تتلو بفمها الذى شقتاه مصراعا الباب: يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ [يوسف: ۶۳].

و أمّا بولاق فقد أصبحت صعيدا زلقا من الملق، و قامت قيامة المارّ بها حين التفّت الساق بالساق من الزّلق، فكم اقتلع بها شجرة لبتّ رؤوسها، و ترك ساقية تنوح على أختها التى أصبحت خاوية على عروشها.

و أمّا الخليج الحاكمى فقد خرج عكسر موجه بعد الكسر على حميّة، و مرق من قسىّ قناطره كالسهم من الرميّة، و تواضع حين قبّل بحّارة زويلة عتاب غرفها العالية، و ترك السقايين فى حالة العجز عن وصفها صريع الدلاء و حمّاد الرواية. فأصبحوا من الكساد و قد سئموا الإقامة، قائلين فى شوارع مصر: يا اللّه السلامة.

ذكر البشارة بوفاء النيل

جرت العادة كلّ سنة إذا وفّى النيل أن يرسل السلطان بشيرا بذلك إلى البلاد

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۱

لتطمئن قلوب العباد، و هذه عادة قديمة، و لم يزل كتّاب الإنشاء ينشئون فى ذلك الرسائل البليغة؛ فمن إنشاء القاضى الفاضل فى وفاء النيل عن السلطان صلاح الدين بن أيّوب:

نعم اللّه سبحانه و تعالى من أضوئها بزوغا، و أخفاها سبوغا، و أصفاها ينبوعا، و أسناها منفوعا، و أمدّها بحر مواهب، و أختمها حسن عواقب. النّعمة بالنيل المصرىّ الذى يبسط الآمال و يقبضها مدّه و جزره، و يرمى النبات حجره، و يحيى مطلعه الحيوان، و يجنى ثمرات الأرض صنوانا و غير صنوان، و ينشر مطويّ حريرها و ينشر مواتها، و يوضح معنى قوله تعالى: وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها [فصلت: ۱۰].

و كان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا، فأسفر وجه الأرض و إنّ كان تنقّب، و أمن يوم بشراه من كان خائفا يترقّب، و رأينا الإبانة عن لطائف اللّه التى خفقت الظنون، و وفت بالرزق المضمون، إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأنعام: ۹۹]. و قد أعلمناك لتستوفى حقّه من الإذاعة، و تبعده من الإضاعة، و تتصرّف على ما نصرّفك من الطاعة، و تشهر ما أورده البشير من البشرى بإبانته، و تمدّه بإيصال رسمه مهنّى على عادته.

*** و كتب القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر عن السلطان إلى نائب السلطنة بحلب بشارة بوفاء النيل:

أعزّ اللّه أنصار المقرّ و سرّه بكلّ مبهجة، و هنّأه بكلّ مقدمة سرور تفد و للخصب و البركة منتجة، و بكلّ نعمى لا تصبح لمنّة السحاب محوجة، و بكلّ رحمى لا يستعدّ لأيّامها الباردة و لا لياليها المثلجة. هذه المكاتبة تفهمه أنّ نعم اللّه و إن كانت متعدّدة، و منحه و إن غدت بالبركات متردّدة، و منّته و إن أصبحت إلى القلوب متودّدة، فإنّ أشملها و أكملها، و أجملها و أفضلها، و أجزلها و أنهلها، و أتمّها و أعمّها، و أضمّها و ألمّها، نعمة أجزأت المنّ و المنح، و أنزلت فى برك سفح المقطّم أغزر سفح. و أتت بما يعجب الزّراع، و يعجّل الهرّاع، و يعجز البرق اللمّاع، و يعلّ القطاع، و يغل الأقطاع، و تنبعث أفواهه و أفواجه، و يمدّ خطاها أمواهه و أمواجه، و يسبق وفد الريح من حيث ينبرى، و يغبط مرّيخه الأحمر القمر لأنّ بيته السّرطان كما يغبط الحوت لأنّه بيت المشترى، و يأتى عجبه فى الغد بأكثر من اليوم و فى اليوم بأكثر من الأمس، و يركب الطريق مجدّا، فإن ظهر بوجهه حمرة فهى ما يعرض للمسافر من حرّ الشمس. و لو لم تكن شقته طويلة

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۲

لما قيست بالذّراع، و لو لا أنّ مقياسه أشرف البقاع لما اعتبر ما تأخّر من ماء حوله الماضى بقاع، بينا يكون فى الباب إذ هو فى الطّاق، و بينا يكون فى الاحتراق إذا هو فى الاختراق للإغراق، و بينا يكون فى المجارى، إذا هو فى السوارى، و بينا يكون فى الجباب إذا هو فى الجبال، و بينا يقال لزيادته: هذه الأمواه إذ يقال لغلّاته: هذه الأموال. و بينا يكون ماء إذ أصبح حبرا، و بينا هو يكسب تجارة قد أكسب بحرا، و بينا يفسد عراه قد أتى بعرار جسور على الجسور جيشه الكرّار، و كم أمست التّراع منه تراع، و البحار منه تحار. كم حسنت مقطّعاته على مرّ الجديدين، و كم أعانت مرارة مقياسه على الغرو من بلاد سيس على العمودين . أتمّ اللّه لطفه فى الإتيان به على التّدريج، و أجراه بالرّحمة إلى نقص العيون بالتفرّج و القلب بالتفريج، فأقل جيشه بمواكبه، و جاء يطاعن الجدب بالصوارى من مراكبه، و يصافف لجاجة الجسور فى بيداء لججه، و يثاقف القحط بالتراس من بركه و السّيوف من خلجه.

و لمّا تكامل إيابه، و صحّ فى ديوان الفلاح و الفلاحة حسابه، و أظهر ما عنده من ذخائر التيسير و ودائعه، و لفظ عموده حمل ذلك على أصابعه. و كانت الستّة عشر ذراعا تسمّى ماء السلطان، نزلنا و حضرنا مجلس الوفاء المعقود، و استوفينا شكر اللّه تعالى بفيض ما هو من زيادته محسوب و من صدقاتنا مخرج و من القحط مردود، وقع تيّاره بين أيدينا سطورا تفوق، و علت يدنا الشريفة بالخلوق، و حمدنا السير كما حمد لنا السرى، و صرفناه فى القرى للقرى، و لم نحضره فى العام الماضى فعملنا له من الشكر شكرانا و عمل هو ما جرى.

و حضرنا إلی الخلیج و إذا به أمم قد تلقّونا بالدعاء المجاب، و قرّظونا فأمرنا ماءه أن یحثو من سدّه فی وجوه المدّاحین بالتراب، و مرّ یبدی المسادّ و یعیدها، و یزور منازل القاهرة و یعودها، و إذا سئل عن أرض الطبّالة، قال: جننّا بلیلی، و عن خلجها، و هی جنّت بغیرنا. و عن برکة الفیل قال: و أخری بنا مجنونة لا نریدها. و ما برح حتّی تعوّض عن القیعان البقیعة، من المراکب بالسرر المرفوعة، و من الأراضی المحروثة، من جوانب الأدرب بالزرابیّ المبثوثة.

و انقضی هذا الیوم عن سرور لمثله فلیحمد الحامدون، و أصبحت مصر جنّة فیها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۳

ما تشتهی الأنفس و تلذّ الأعین و أهلها فی ظلّ الأمن خالدون. فلیأخذ حظّه من هذه البشری التی ما کتبنا بها حتّی کتبت بها الریاح إلی نهر المجرّة إلی البحر المحیط، و نطقت بها رحمة اللّه تعالی إلی مجاوری بیته من لابسی التقوی و نازعی المحیط، و بشّرت بها مطایا المسیر الذی یسیر من قوص غیر منقوص، و یتشارک بها الابتهاج فی العالم فلا مصر دون مصر بها مخصوص.

و اللّه تعالی یجعل الأولیاء فی دولتنا یبتهجون بکلّ أمر جلیل، و جیران الفرات یفرحون بجریان النیل.

و کتب الصلاح الصفدیّ بشارة إلی بعض النوّاب فی بعض الأعوام:

ضاعف اللّه نعمة الجناب و سرّ نفسه بأنفس بشری، و أسمعه من الهناء کلّ آیة أکبر من الأخری، و أقدم علیه من المسارّ ما یتحرّز ناقل و یتحرّی، و ساق إلیه کلّ طلیعة إذا تنفّس صبحها تفرّق اللیل و تفرّی، و أورد لدیه من أنباء الخصب ما یتبرّم به محلّ المحل و یتبرّی.

هذه المکاتبة إلی الجناب العالی نخصّه بسلام یری کالماء انسجاما، و یروق کالزهر ابتساما، و نتحفه بثناء جعل المسک له ختاما، و ضرب له علی الریاض النافحة خیاما، و نقصّ علیه من أنباء النیل الذی خصّ اللّه البلاد المصریّة بوفادة وفائه، و أغنی به قطرها عن القطر فلم تحتج إلی مدّ کافه وفائه، و نزّهه عن منّة الغمام الذی إنّ جاد فلا بدّ من شهقة رعده و دمعة بکائه، فهی الأرض التی لا یذمّ للأمطار فی جوّها مطار، و لا یزمّ للقطّار فی نفعها قطار، و لا ترمد الأنواء فیها عیون النّوار، و لا تشیب بالثلوج مفارق الطرق و رؤوس الجبال، و لا تفقد فیها حلی النجوم لاندراج اللیلة تحت السحب بین الیوم و أمس، و لا یتمسّک فی سنائها المساکین کما قبل بحبال الشمس، و أین أرض یخدّ عجاجها بالبحر العجّاج، و تزدحم فی ساحاتها أفواج الأمواج، من أرض لا تنال السّقیا إلا بحرب لأنّ القطر سهام و الضباب عجاج قد انعقد، و لا یعمّ الغیث بقاعها لأنّ السحب لا تراها إلا بسراج البرق إذا اتّقد. فلو خاصم النیل میاه الأرض لقال: عندی قبالة کلّ عین إصبع، و لو فاخرها لقال: أنت بالجبال أثقل و أنا بالملق أطبع. و النیل له الآیات الکبر، و فیه العجائب و العبر، منها وجود الوفا، عند عدم الصفاء، و بلوغ الهرم، إذا احتد و اضطرم، و أمن کلّ فریق، إذا قطع الطریق و فرح قطان الأوطان إذا کسر و هو کما یقال سلطان. و هو أکرم منتدی، و أعزب مجتبی، و أعظم مجتدی، إلی غیر ذلک من خصائصه، و براءته مع الزیادة من نقائصه.

و هو أنّه فی هذا العام المبارک جذب البلاد من الجدب و خلّصها بذراعه، و عصمها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۴

بخنادقه التی لا- تراع من تراعه، و حضّ ها بسواری الصواری تحت قلوعه و ما هی إلا عمد قلاعه، و راعی الأدب بین أیدینا الشریفة بمطالعتنا فی کلّ یوم بحر قاعه فی رقاعه، حتّی إذا أکمل الستّة عشر ذراعا و أقبلت سوابق الخیل سراعا، و فتح أبواب الرحمة بتغلیقه، وجد فی طلب تخلیقه، تضرّع بمدّ ذراعه إلینا، و سلم عند الوفاء بأصابعه علینا. و نشر علم ستره، و طلب لکرم طباعه جبر العالم بکسره، فرسمنا بأن یخلّق، و یعلّم تاریخ هنائه و یعلّق، فکسر الخلیج و قد کاد یعلوه فوق موجه، و یهیل کثیب سدّه هول هیجه، و دخل یدوس زرابیّ الدور المبثوثة، و یجوس خلال الحنایا کأنّ له فیها خبایا موروثة.

و مرق کالسهم من قسیّ قناطره المنکوسه، و علاه زبد حرکته و لولاه ظهرت فی باطنه من بدور إناثه أشعّتها المعکوسة. و بشر برکة

الفیل ببرکة الفال، و جعل المجنونة من تیاره المنحدر فی السلاسل و الأغلال، و ملأ أکفّ الرجا بأموال الأمواه، و ازدحمت فی عبارة شکره أفواج الأفواه. و أعلم الأقلام بعجزها عمّا یدخل من خراج البلاد، و هنأت طلائعه بالطوالع التی نزلت برکاتها من اللّه علی العباد. و هذه عوائد الألطاف الإلهیّة بنا لم نزل نجلس علی موائدها، و نأخذ منها ما نهبه لرعایانا من فوائدها. و نخصّ بالشکر قوادمها فهی تدبّ حولنا و تدرج، و تخصّ قوادمها بالثناء و المدح و الحمد فهی تدخل إلینا و تخرج.

فلیأخذ الجناب العالی حظّه من هذه البشری التی جاءت بالمنّ و المنح، و انهلّت أیادیها المغدقة بالسّحّ و السفح، و لیتلقّاها بشکر یضیء به فی الدجی أدیم الأفق، و یتّخذها عقدا تحیط منه بالعنق إلی النطق، و لیتقدّم الجناب العالی بألّا یحرّک المیزان فی هذه البشری بالجبایة لسانه، و لیعط کلّ عامل فی بلادنا بذلک أمانه، و لیعمل بمقتضی هذا المرسوم حتّی لا یری فی أسقاط الجبایة خیانة، و اللّه یدیم الجناب العالی لقصّ الأنباء الحسنة علیه، و یمتّعه بجلاء عرائس التهانی و الأفراح لدیه.

*** و کتب الأدیب تقیّ الدین أبو بکر بن حجّة بشارة عن الملک المؤیّد شیخ، سنة تسع عشرة و ثمانمائة:

و نبدی لعلمه الکریم ظهور آیة النیل الّذی عاملنا اللّه فیه بالحسن و زیادة، و أجراه لنا فی طرق الوفاء علی أجمل عادة، و خلق أصابعه لیزول الإیهام فأعلن المسلمون بالشهادة، کسر بمسری فأمسی کلّ قلب بهذا الکسر مجبورا، و أتبعناه بنوروز و ما برح هذا الاسم بالسعد المؤیدیّ مکسورا، دقّ قفا السودان فالرایة البیضاء من کلّ قلع علیه،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۵

و قبّل ثغور الإسلام فأرشفها ریقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إلیه، و شبّب خریره فی الصعید بالقصب، و مدّ سبائکه الذهبیّة إلی جزیرة الذهب، فضرب الناصریّة و اتّصل بأمّ دینار، و قلنا: لولا أنّ صبغ بقوّة لما جاء و علیه ذلک الاحمرار.

و أطال اللّه عمر زیادته فتردّد إلی الآثار، و عمّته البرکة فأجری سواقی ملکه إلی أن غدت جنّة تجری من تحتها الأنهار، و حضن مشتهی الرّوضة فی صدره، و حنا علیها حنوّ المرضعات علی الفطیم:

و أرشفنا علی ظمأ زلالاألذّ من المدامة للندیم

وراق مدید بحره لما انتظمت علیه تلک الأبیات، و سقی الأرض سلافته الخمریّة فخدمته بحلو النبات، و أدخله إلی جنّات النخیل و الأعناب فالق النوی و الحبّ، فأرضع فی أحشاء الأرض جنین النّبت، و أحیا له أمّهات العصف و الأبّ. و صافحته کفوف الموز فختمها بخواتمه العقیقیّة و لبس الورد تشریفه، و قال: أرجو أن تکونی شوکتی فی أیّامه قویّة، و نسی الزهر بحلاوة لقائه مرارة النّوی، و هامت به مخدّرات الأشجار فأرخت ضفائر فروعها علیه من شدّة الهوی، و استوفی النبات ما کان له فی ذمة الریّ من الدیون، و مازج الحوامض بحلاوته فهام النّاس بالسّکّر و اللیمون، و انجذب إلیه الکباد و امتدّ، و لکنّ قوی قوسه لمّا حظی منه بسهم لا یردّ، و لبس شربوش الأترجّ و ترفّع إلی أن لبس بعده التاج، و فتح منثور الأرض لعلامته بسعة الرزق و قد نفذ أمره وراج، فتناول مقالم الشنبر و علّم بأقلامها، و رسم لمحبوس کلّ سدّ بالإفراج، و سرّح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بمخلق بشائره، و أشار بأصابعه إلی قتل المحل فبادر الخصب إلی امتثال أوامره، و حظی بالمعشوق و بلغ من کلّ منیة مناه، فلا سکن علی البحر إلّا تحرّک ساکنه بعدما تفقّه و اتقن باب المیاه، و مدّ شفاه أمواجه إلی تقبیل فم الخور ، و زاد مترعه فاستحلی المصریّون زائده علی الفور، و نزل فی برکة الحبش فدخل التّکرور فی طاعته، و حمل علی الجهات البحریّة فکسر المنصورة و علا علی الطویلة بشهامته، و أظهر فی مسجد الخضر عین الحیاة فأقرّ اللّه عینه، و صار أهل دمیاط فی برزخ بین المال و بینه، و طلب المالح ردّه بالصدر و طعن فی حلاوة شمائله، فما شعر إلّا و قد رکب علیه و نزل فی ساحله.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۶

و أما المحاسن فدارت دوائره علی وجنات الدهر عاطفة، و ثقلت أرداف أمواجه علی خصور الجواری و اضطربت کالخائفة، و مال شیّق النخیل إلیه فلثم ثغر طلعه و قبّل سالفه، و أمست سود الجواری کالحسنات علی حمرة و جناته، و کلّما زاد زاد اللّه فی حسناته؛

فلا فقير سدّ إلا حصل له من فيض نعماه فتوح، و لا ميّت خليج إلا عاش به و دبّت فيه الروح، و لكنّه احمرّت عينه على الناس بزيادة و ترفّع، فقال له المقياس :

عندى قبالة كلّ عين أصبع. و نشر أعلام قلوعه و حمل و له على ذى الجزيرة زمجرة، و رام أن يهجم على غير بلاده فبادر إليه عزم المؤيدىّ و كسره.

و قد آثرنا الجناب بهذه البشرى الّتى سرى فضلها برّا و بحرا، و حدّثناه عن البحر و لا حرج و شرحنا له حالا و صدرا، ليأخذ حظّه من هذه البشارة البحريّة بالزيادة الوافرة، و ينشق من طيبها نشرا فقد حملت له من طيّبات ذلك النسيم أنفاسا عاطرة. و اللّه تعالى يوصل بشائرنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها فى كلّ وقت مشنفا، و لا برح من نيلها المبارك و إنعامنا الشريف على كلا الحالين فى وفا.

ذكر المقياس

قال ابن عبد الحكم: كان أوّل من قاس النّيل بمصر يوسف عليه السّلام، و وضع مقياسا بمنف، ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبّاء مقياسا بأنصنا ؛ و هو صغير الذّرع و مقياسا بإخميم. و وضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان و هو صغير، و وضع أسامة ابن زيد التّنوخىّ فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة؛ و هى المسمّاة الآن بالرّوضة، و هو أكبرها؛ حدّثنا يحيى بن بكير، قال: أدركت القيّاس يقيس فى مقياس منف و يدخل بزيادته إلى الفسطاط.

هذا ما ذكره ابن عبد الحكم.

قال التّيفاشىّ: ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة، و أسّسه و لم يتمّه، فأتمّ المتوكّل بناءه و هو الموجود الآن.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۷

و قال صاحب مباهج الفكر: المقياس الذى بأنصنا ينسب لأشمون بن قفطيم بن مصر، و يقال إنّه من بناء دلوكة، و بناؤه كالطيلسان، و عليه أعمدة بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر.

و رأيت فى بعض المجاميع ما نصّه: قال ابن حبيب: وجدت فى رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم، قال: لمّا فتحت مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقى أهلها من الغلاء عن وقوف النّيل عن مدّه فى مقياس لهم فضلا عن تقاصره، و إنّ فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار، و يدعو الاحتكار إلى تصاعد الأسعار بغير قحط، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يسأله عن شرح الحال، فأجابه.

فقال عمرو: إنّى وجدت ما تروى به مصر حتّى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا، و الحدّ الذى يروى منه سائرها حتّى يفضل عن حاجتهم و يبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا، و النهايتين المخوّفتين فى الزيادة و النقصان- و هو الظمأ و الاستبحار- اثنتا عشرة ذراعا فى النقصان، و ثمانى عشرة ذراعا فى الزيادة؛ هذا و البلد فى ذلك محفور الأنهار، معقود الجسور عندما تسلّموه من القبط و خمير العمارة فيه.

فاستشار عمر بن الخطاب علىّ بن أبى طالب فى ذلك، فأمره أن يكتب إليه بأن يبنى مقياسا، و أن ينقص ذراعين على اثنتى عشر ذراعا، و أن يقرّ ما بعدها على الأصل، و أن ينقص من [كل] ذراع بعد الستّة عشر ذراعا إصبعين.

ففعل ذلك و بناه بحلوان، فاجتمع له ما أراد من حال الأرجاف، و زال ما منه كان يخاف، بأن يجعل الاثنتى عشرة ذراعا أربع عشرة ذراعا؛ لأنّ كلّ ذراع أربعة و عشرون إصبعا، فجعلها ثمانية و عشرين من أوّلها إلى الاثنتى عشرة ذراعا، تكون مبلغ الزيادة على الاثنتى عشرة ثمانية و أربعين إصبعا؛ و هى الذراعان، و جعل الأربع عشرة ستّ عشرة و الستّة عشرة ثمانى عشرة، و الثمانى عشرة عشرين ذراعا، و هى المستقرّة الآن.

و قال بعضهم: كتب الخليفة جعفر المتوكّل إلى مصر يأمر ببناء المقياس الجديد الهاشمىّ فى الجزيرة سنة سبع و أربعين و مائتين؛ و

كان الذى يتولّى أمر المقياس النصارى، فورد كتاب أمير المؤمنين المتوكّل فى هذه السنة على بكّار بن قتيبة قاضى مصر، بألّا يتولّى ذلك إلّا مسلم يختاره؛ فاختار القاضى بكّار لذلك الردّاد عبد اللّه بن

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۸

عبد السلام المؤدب، و كان محدّثا فأقامه القاضى بكّار لمراعاة المقياس، و أجرى عليه الرزق ، و بقى ذلك فى ولده إلى اليوم.

و قال صاحب المرأة: المقياس الظاهر الآن بناه المأمون، و قيل: إنّما بناه أسامة ابن زيد التنوخىّ فى خلافة سليمان بن عبد الملك، و دثر فجدّده المأمون. و بنى أحمد بن طولون مقياسين؛ أحدهما بقوص و هو قائم اليوم، و الآخر بالجزيرة و قد انهدم.

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى العود الذى يطّلع به المقسى قياس النيل فى كلّ يوم بزيادة النيل:

قد قلت لمّا أتى المقسى و فى يدهعود به النيل قد عودى و قد نودى

أيّام سلطاننا سعد السعود و قدصحّ القياس يجرى الماء فى العود

ذكر جزيرة مصر و هى المسمّاة الآن بالروضة

قال المقريزىّ: اعلم أنّ الرّوضة تطلق فى زماننا على الجزيرة التى بين مدينة مصر و بين مدينة الجيزة، و عرفت فى أوّل الإسلام بالجزيرة و جزيرة مصر، ثمّ قيل لها جزيرة الحصن، و عرفت الروضة من زمن الأفضل بن أمير الجيوش إلى اليوم. انتهى.

و الجزيرة كلّ بقعة فى وسط البحر لا يعلوها البحر، سمّيت بذلك لأنها جزرت، أى قطعت و فصّلت من تخوم الأرض، فصارت منقطعة.

و فى الصّحاح: الجزيرة: واحدة جزائر البحر؛ سميت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض.

و قال ابن المتوّج فى كتابه إيقاظ المتغفّل و اتّعاظ المتأمّل: إنّما سميت جزيرة مصر بالرّوضة، لأنّه لم يكن بالديار المصريّة مثلها و بحر النيل حائز لها و دائر عليها، و كانت حصينة، و فيها من البساتين و الثمار ما لم يكن فى غيرها.

و لما فتح عمرو بن العاص مصر تحصّن الرّوم بها مدّة، فلمّا طال حصارها و هرب

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۱۹

الروم منها خرّب عمرو بن العاص بعض أبراجها و أسوارها، و كانت مستديرة عليها، و استمرّت إلى أن عمّر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ثلاث و ستين [و مائتين]، و لم يزل هذا الحصن حتّى خرّبه النيل.

*** و قال المقريزى: اعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلّها حادثة فى الإسلام ما عدا الجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر؛ فإنّ العرب لمّا دخلوا مع عمرو بن العاص إلى أرض مصر و حاصروا الحصن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر؛ حتّى فتح اللّه عنوة على [يد] المسلمين، و كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر، لم يبلغنى إلى الآن متى حدثت، و أما غيرها من الجزائر كلّها فقد تجدّدت بعد فتح مصر، و إلى هذه الجزيرة التجأ المقوقس لمّا فتح اللّه على المسلمين القصر، و صار بها هو و من معه من جموع الروم و القبط.

و قال ابن عبد الحكم: كان بالجزيرة فى أيام عبد الملك بن مروان أمير مصر خمسمائة فاعل عدّة لحريق إن كان فى البلاد أو هدم.

و قال الكندىّ: بنيت بالجزيرة الصّناعة فى سنة أربع و خمسين: و الصنّاعة اسم لمكان قد أعدّ لإنشاء المراكب البحرية- و أوّل صناعة عملت بأرض مصر التى بنيت بالروضة فى سنة أربع و خمسين من الهجرة، فاستمرّت إلى أيّام الإخشيد، فأنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر، و جعل موضع الصناعة التى بالروضة بستانا سمّاه المختار .

و قال القضاعىّ: حصن الجزيرة بناه أحمد بن طولون فى سنة ثلاث و ستّين و مائتين، ليحرز فيه حريمه و ماله، و كان سبب ذلك مسير موسى بن بغا من العراق واليا على مصر، و جميع أعمال ابن طولون، و ذلك فى خلافة المعتمد على اللّه، فلمّا بلغ أحمد بن طولون

مسیره تأمّل مدینة فسطاط مصر، فوجدها لا تأخذ إلا من جهة النیل، فبنی الحصن بالجزیرة التی بین الفسطاط و الجیزة لیکون معقلا لحریمه و ذخائره، و اتّخذ مائة مرکب حربیة سوی ما یضاف إلیها من العشاریّات و غیرها؛ فلما بلغ موسی بن بغا بالرّقة تثاقل عن المسیر لعظم شأن ابن طولون و قوّته، ثمّ لم یلبث موسی أن مات، و کفی ابن طولون أمره.

و قال محمد بن داود لأحمد بن طولون:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۰ لما قضی ابن بغا بالرّقتین ملاساقیه درقا إلی الکعبین و العقب

بنی الجزیرة حصنا یستجنّ بهبالعسف و الضرب، و الصنّاع فی تعب

و واثب الجیزة القصوی فخندقهاو کاد یصعق من خوف و من رعب

له مراکب فوق النیل راکدةلما سوی القار للنّظار و الخشب

تری علیها لباس الذّلّ مذ بنیتبالشطّ ممنوعة من عزّة الطّلب

فما بناها لغزو الروم محتسبالکن بناها غداة الرّوع للهرب

و قال سعید القاصّ من أبیات:

و إنّ جئت رأس الجسر فانظر تأمّلاإلی الحصن أو فاعبر إلیه علی الجسر

تری أثرا لم یبق من یستطیعهمن النّاس فی بدو البلاد و لا حضر

و ما زال حصن الجزیرة هذا عامرا أیّام بنی طولون؛ حتّی أخذه النیل شیئا فشیئا، و قد بقیت منه بقایا متقطّعة إلی الآن.

و کان نقل الصّناعة من الجزیرة إلی ساحل مصر فی شعبان سنة خمس و عشرین و ثلثمائة، و بنی مکانها البستان المختار، و صرف علی بنائه خمسة آلاف دینار؛ فاتّخذه الإخشید متنزّها به، و صار یفاخر به أهل العراق، و لم یزل متنزّها إلی أن زالت الدّولة الإخشیدیّة و الکافوریّة، و قدمت الدولة العبیدیة؛ فکان یتنزّه فیه المعزّ و العزیز، و صارت الجزیرة مدینة عامرة بالناس، بها وال و قاض. و کان یقال: القاهرة و مصر و الجزیرة؛ فلمّا استولی الأفضل شاهنشاه بن أمیر الجیوش بدر الدین، أنشأ فی بحریّ الجزیرة بستانا نزها سمّاه الروضة، و تردّد إلیه تردّدات کثیرة؛ و من حینئذ صارت الجزیرة کلّها تعرف بالروضة.

قال ابن میسر فی تاریخ مصر: أنشأ الأفضل الرّوضة بحریّ الجزیرة، و کان یمضی کلّ یوم إلیها فی العشاریّات الموکبیّة، و کان قتل الأفضل فی سنة خمس عشرة و خمسمائة.

قال: و فی سنة ستّ عشرة و خمسمائة، نقل المأمون البطائحیّ الوزیر عمارة المراکب الحربیّة من الصناعة التی بجزیرة مصر إلی الصناعة القدیمة بساحل مصر، و بنی علیها منظرة کانت باقیة إلی آخر أیام الدولة العلویة، فلما استبدّ الخلیفة الآمر بالأمر، أنشأ بجوار البستان المختار من جزیرة الرّوضة مکانا لمحبوبته البدویّة عرف بالهودج ،

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۱

و ذلک لمّا صعب علیها السکنی فی القصور، و مفارقة ما اعتادته من الفضاء. و کان الهودج علی شاطیء النیل فی شکل غریب، و لم یزل الآمر یتردّد إلیه للنّزهة فیه، إلی أن رکب إلیه یوما، فلمّا کان برأس الجسر، وثب علیه قوم کانوا کمنوا له بالروضة، فضربوه بالسکاکین حتّی أثخنوه، و ذلک یوم الأربعاء رابع ذی القعدة سنة أربع و عشرین و خمسمائة، و نهب سوق الجزیرة ذلک الیوم.

قال ابن المتوّج: اشتری الملک المظفّر تقیّ الدین عمر بن شاهنشاه بن أیّوب جزیرة مصر المشهورة بالرّوضة من بیت المال المعمور فی شعبان سنة ستّ و عشرین و خمسمائة ، و بقیت علی ملکه إلی أن سیّر السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب ولده الملک العزیز عثمان إلی مصر، و معه عمّه الملک العادل، و کتب إلی الملک المظفّر أن یسلّم لهما البلاد، و یقدم علیه إلی الشام، فلمّا ورد علیه الکتاب، و وصل ابن عمّه الملک العزیز و عمّه الملک العادل، شقّ علیه خروجه من الدیار المصریة، و تحقّق أنه لا عود له إلیها أبدا، فوقف مدرسة التی تعرف فی مصر بالمدرسة التقویّة؛ و کانت قدیما تعرف بمنازل العزّ علی الفقهاء الشافعیة، و وقف علیها جزیرة

الروضة بكمالها، و وقف أيضا مدرسة بالفيّوم، و سافر إلى عمّه صلاح الدين إلى دمشق، فملّكه حماة، و لم يزل الحال كذلك إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيّوب، فاستأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين أبى محمد عبد العزيز بن قاضى القضاة عماد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن السكرىّ مدرّس المدرسة المذكورة لمدّة ستين سنة فى دفعتين: كلّ دفعة قطعة، فالقطعة الأولى من جامع عين إلى المنظر طولا و عرضا من البحر إلى البحر، و استأجر القطعة الثانية، و هى باقى أرض الجزيرة الدائر عليها بحر النيل حين ذاك، و استولى على ما كان بالجزيرة من النخل و الجمّيز و الغروس فكأنّه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة قطعت النخل، و دخلت فى العمائر.

و أما الجمّيز فإنّه كان بشاطئ بحر النيل صفّ جمّيز يزيد على أربعين شجرة، و كان أهل مصر فرجهم تحتها فى زمن النّيل و الربيع، قطعت جميعها فى الدولة الظاهريّة، و عمّر بها شوانى عوض الشوانى التى كان سيّرها إلى جزائر قبرص، و تكسّرت هناك، و استمرّ تدريس المدرسة التقوية بيد القاضى فخر الدين إلى حين

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۲

وفاته، ثمّ وليها بعده ولده القاضى عماد الدين أبو الحسن علىّ، و فى أيامه تسلّم له القطعة المستأجرة من الجزيرة أولا، و بقى بيد السلطنة القطعة الثانية إلى الآن، و كان الإفراج عنهما فى شهور سنة ثمان و تسعين و ستمائة فى الدولة الناصرية، و لم يزل القاضى عماد الدين مدرّسها إلى حين وفاته، فوليها ولده و هو مدرّسها الآن فى شعبان سنة أربع عشرة و سبعمائة. هذا كلّه كلام ابن المتوج.

و لم تزل الرّوضة متنزّها ملوكيا، و مسكنا للناس إلى أن تسلطن الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن الكامل محمد، فأنشأ بالرّوضة قلعة، و اتّخذها سرير ملك، فعرفت بقلعة المقياس و بقلعة الروضة، و بقلعة الجزيرة و بالقلعة الصالحية. و كان الشّروع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة، و وقع الهدم فى الدّور و القصور و المساجد التى كانت بجزيرة الروضة، و تحوّل الناس من مساكنهم الّتى كانت بها، و هدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس، و أدخلها فى القلعة، و أنفق فى عمارتها أموالا جمّة، و بنى فيها الدور و القصور، و عمل لها ستّين برجا، و بنى بها جامعا، و غرس بها جميع الأشجار، و نقل إليها من البرابى العمد الصوّان و العمد الرخام، و شحنها بالأسلحة و آلات الحرب و ما يحتاج إليها من الغلال و الأقوات خشية من محاصرة الفرنج فإنّهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر.

و بالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة؛ حتّى قيل إنه استقام كلّ حجر فيها بدينار، و كلّ طوبة بدرهم، و كان الملك الصالح يقف بنفسه، و يرتّب ما يعمل، فصارت تدهش من كثرة زخرفها، و يحيّر الناظر إليها حسن سقوفها المقرنصة ، و بديع رخامها. و يقال إنّه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة، و كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره و طيب طعمه. و خرب البستان المختار و الهودج، و هدم ثلاثة و ثلاثين مسجدا كانت بالروضة، و أدخلت فى القلعة.

و اتفق له فى بعض المساجد خبر عجيب؛ قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليغمورى: سمعت الأمير جمال الدين موسى بن يغمور بن جلدك، يقول: من عجيب ما شاهدته من الملك الصالح، أنّه أمرنى أن أهدم مسجدا بجزيرة مصر، فأخّرت ذلك، و كرهت أن يكون هدمه على يدى، فأعاد الأمر، و أنا أكاسر عنه؛ فكأنّه فهم منّى ذلك، فاستدعى بعض خدمه و أنا غائب، و أمره أن يهدم ذلك المسجد، و أن يبنى فى حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۳۲۲

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۳

مكانه قاعة، و قدّر له صفتها، فهدم ذلك المسجد، و عمّر تلك القاعة مكانه و كملت.

و قدم الفرنج على الديار المصريّة، و خرج الملك الصالح مع عساكره إليهم، و لم يدخل تلك القاعة التى بنيت فى مكان المسجد، فتوفّى السلطان بالمنصورة، و جعل فى مركب، و أتى به إلى الروضة فجعل فى تلك القاعة التى بنيت مكان المسجد مدّة إلى أن بنيت له التربة التى فى جنب مدرسته بالقاهرة. و كان النيل فى القديم محيطا بالرّوضة طول السنة، و كان فيما بين ساحل مصر و الروضة

جسر من خشب، و كذلك فيما بين الروضة و الجيزة جسر من خشب يمرّ عليهما الناس و الدوابّ من مصر إلى الروضة، و من الروضة إلى الجيزة؛ و كان هذان الجسران من مراكب مصطفّة بعضها بحذاء بعض، و هى موثّقة، و من فوق المراكب أخشاب ممتدّة فوقها تراب.

و كان عرض الجسر ثلاث قصبات، و لم يزل هذا الجسر قائما إلى أن قدم المأمون مصر، فأحدث جسرا جديدا، فاستمرّ الناس يمرّون عليه، و كان عبور العساكر التى قدمت من المعزّ مع جوهر القائد على هذين الجسرين، و كان الجسر المتّصل بالروضة كرسيّه حيث المدرسة الخروبية قبلى در النحاس، و كان النّيل عندما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة قد انطرد عن برّ مصر، و لا يحيط بالرّوضة إلّا فى أيام الزيادة، فلم يزل يغرق السفن فى ناحية الجيزة، و يحفر فيما بن الروضة و مصر ما كان هناك من الرّمال، حتّى عاد ماء النيل إلى برّ مصر، و استمرّ هناك، فأنشأ جسرا عظيما ممتدّا من برّ مصر إلى الروضة، و جعل عرضه ثلاث قصبات. و كان كرسيّه حيث المدرسة الخروبيّة قبلىّ دار النحاس، و صار أكثر مرور الناس بأنفسهم و دوّابهم فى المراكب؛ لأنّ الجسرين قد اجترما بحصولهما فى حيّز قلعة السلطان، و كان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة إلى السلطان بقلعة الروضة يترجّلون عن خيولهم عند البرّ، و يمشون فى طول الجسر إلى القلعة و لا يمكن أحد من العبور عليه راكبا، سوى السلطان فقط.

و لما كملت تحوّل إليها بأهله و حريمه، و اتّخذها دار ملك، و أسكن معه فيها مماليكه البحرية؛ و كانت عدتهم نحو الألف. و ما برح الجسر قائما إلى أن خرّب العز أيبك قلعة الروضة بعد سنة ثمان و أربعين و ستمائة، فأهمل، ثم عمّره الظاهر بيبرس على المراكب، و عمله من ساحل مصر إلى الروضة، و من الروضة إلى الجيزة، لأجل عبور العسكر عليه لمّا بلغه حركة الفرنج.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۴

و قال علىّ بن سعيد فى كتاب المغرب- و قد ذكر الروضة: هى أمام الفسطاط فيما بينها و بين مناظر الجيزة، و بها مقياس النيل، و كانت متنزّها لأهل مصر، فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة، و بنى فيها قلعة مسوّرة بسور ساطع اللّون، محكم البناء، عالى السّمك، لم تر عينى أحسن منه، و فى هذه الجزيرة كان الهودج الّذى بناه الآمر الخليفة لزوجته البدويّة التى هام فى حبّها، و المختار بستان الإخشيد و قصره، و له ذكر فى شعر تميم بن المعزّ و غيره. و لشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطى:

أرى سرح الجزيرة من بعيدكأحداق تغازل فى المغازل

كأنّ مجرّة الجوزاء خطّت و أثبتت المنازل فى المنازل

و كنت أبيت بعض الليالى فى الفسطاط على ساحلها، فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل. أمّا سور هذه الجزيرة الدرّىّ اللون، فلم ينفصل عن مصر حتّى كمل سور هذه القلعة، و فى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همّة بانيها، هو من أعظم السلاطين همّة فى البناء. و أبصرت فى هذه الجزيرة إيوانا لجلوسه لم تر عينى مثاله، و لا يقدّر ما أنفق عليه، و فيه من الكتابة بصفائح الذهب و الرّخام الأبنوسىّ و الكافورىّ و المجزّع ما يذهل الأفكار، و يستوقف الأبصار، و يفصل عمّا أحاط به السور أرض طويلة فى بعضها حاظر حظر على أصناف الوحوش التى يتفرّج فيها السلطان، و بعدها بروج يتقطّع فيها مياه النيل، فينظر فيها أحسن منظر، و قد تفرّجت كثيرا فى طرق هذه الجزيرة ممّا يلى برّ القاهرة، فقطعت بها عشيّات مذهبات، لا تزال لأحزان الغربة مذهبات، و إذا زاد النيل فصل ما بينها و بين الفسطاط بالكليّة. و فى أيّام احتراق النيل يتّصل برّها ببرّ السلطان من جهة خليج القاهرة، و يبقى موضع الجسر يكون فيه المراكب.

و ركبت مرّة فى هذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محيى الدين بن بندار وزير الجزيرة، و صعدنا إلى جهة الصعيد ثمّ انحدرنا، و استقبلنا هذه الجزيرة و أبراجها تتلألأ، و النيل قد انقسم عنها، فقلت:

تأمّل لحسن الصالحيّة إذ بدتمناظرها مثل النجوم تلالا

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۵ و للقلعة الغرّاء كالبدر طالعايفرّج صدر الماء عنه هلالا

و وافى إليها الماء من بعد غيبةكما زار مشغوفا يروم وصالا

و عانقها من فرط شوق لحسنهافمدّ يمينا نحوها و شمالا

و لم تزل هذه القلعة عامرة، حتّى زالت دولة بنى أيّوب، فلمّا ملك السلطان الملك المعزّ عز الدين أيبك التركمانىّ أوّل ملوك الترك بمصر، أمر بهدمها، و عمّر منها مدرسته المعروفة بالمعزّية فى رحبة الحنّاء بمدينة مصر، و طمع فى القلعة من له جاه، و أخذ جماعة منها عدّة سقوف و شبابيك و غير ذلك، و بيع من أخشابها و رخامها أشياء جليلة. فلمّا صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ اهتمّ بعمارة قلعة الروضة، و رسم للأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولّى عمارتها كما كانت. فأصلح بعض ما تهدّم منها، و رتّب بها الجاندارية و أعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة، و أمر بأبراجها ففرّقت على الأمراء، و أعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفىّ، و البرج الذى يليه للأمير عز الدين الحلّى، و البرج الثالث من برج الزاوية للأمير عز الدين أدغان ، و أعطى برج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين الشمسىّ، و فرّقت بقيّة الأبراج على سائر الأمراء. و رسم أن يكون بيوت جميع الأمراء و إصطبلاتهم فيها، و سلّم المفاتيح لهم، فلمّا تسلطن الملك المنصور قلاوون، و شرع فى بناء المارستان و القبّة و المدرسة المنصوريّة نقل من قلعة الروضة هذه ما يحتاج إليه من العمد الصّوّان و العمد الرّخام التى كانت قبل عمارة القلعة بالبرابى، و أخذ منها رخاما كثيرا، و أعتابا جليلة ممّا كان بالبرابى و غير ذلك. ثم أخذ منها السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ما احتاج إليه من العمد الصوّان فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل و بالجامع الجديد الناصرىّ ظاهر مدينة مصر، و أخذ غير ذلك حتّى ذهبت كأن لم تكن.

قال المقريزىّ : و تأخّر منها عقد جليل تسمّيه العامّة القوس، كان مما يلى جانبها الغربىّ أدركناه باقيا إلى نحو سنة عشرين و ثمانمائة، و بقى من أبراجها عدّة قد انقلب كثير منها، و بنى الناس فوقها دورهم المطلّة على النيل، و عادت الروضة بعد هدم القلعة منها متنزّها، تشتمل على دور كثيرة، و بساتين عدّة، و جوامع تقام بها الجمعات و الأعياد، و مساجد. و فى الروضة يقول الأسعد بن ممّاتى:

جزيرة مصر لا عدتك مسرّة و لا زالت اللّذات فيك اتّصالها

فكم فيك من شمس على غصن بانةيميت و يحيى هجرها و وصالها

مغانيك فوق النيل أضحت هوادجاو مختلفات الموج فيها جمالها

و من أعجب الأشياء أنك جنّةترفّ على أهل الضلال ظلالها

و قال ظافر الحداد:

انظر إلى الروضة الغرّاء و النيلو اسمع بدائع تشبيهى و تمثيلى

و انظر إلى البحر مجموعا و مفترقاهناك أشبه شىء بالسراويل

و الريح تطويه أحيانا و تنشرهنسيمها بين تفريك و تعديل

الأسعد بن ممّاتى فى الروضة، و قد حلّها السلطان الملك الكامل:

جزيرة مصر، أنت أشرف موضععلى الأرض لمّا حلّ فيك محمد

و فيك علا البحران لكنّ كفّ ذاعلى الناس أندى بالعطاء و أجود

و أصبحت الأغصان من فرح بهتمايل، و الأطيار فيك تغرّد

يرقّ نسيم حين سار و جدولو يشدو هزار حين يرقص أملد

ذكر خليج مصر

قال المقريزىّ: هذا الخليج بظاهر فسطاط مصر، و يمرّ من غربىّ القاهرة، و هو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر بسبب هاجر

أمّ إسماعيل حين أسكنها إبراهيم عليه السّلام بمكّة، ثم تمادته الدهور و الأعوام، فجدّد حفره ثانيا بعض من ملك مصر من ملوك الرّوم بعد الإسكندر، فلمّا فتحت مصر على يد عمرو بن العاص، جدّد حفره بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فحفر عام الرّمادة، و كان يصبّ فى بحر القلزم كما تقدّم فى أوّل الكتاب، و لم يزل على ذلك إلى أن قام محمد بن عبد اللّه بن حسن ابن حسن بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة، فكتب الخليفة المنصور إلى عامله بمصر أن

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۷

يطمّ هذا الخليج حتّى لا تحمل الميرة من مصر إلى المدينة، فطمّ و انقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم، و صار على ما هو عليه الآن.

و كان هذا الخليج يقال له أولا خليج أمير المؤمنين- يعنى عمر بن الخطاب- لأنّه الذى أشار بتحديد حفره، ثمّ صار يقال له خليج مصر؛ فلمّا بنيت القاهرة بجانبه من شرقيّه صار يعرف بخليج القاهرة، و الآن تسمّيه العامة بالخليج الحاكمىّ. و تزعم أنّ الحاكم احتفره، و ليس بصحيح. و كان اسم الذى حفره فى زمن إبراهيم عليه السّلام طوطيس و هو الجبّار الذى أراد أخذ سارة، و جرى له معها ما جرى، و وهب لها هاجر. فلمّا سكنت هاجر مكّة وجّهت إليه تعرّفه أنّها بمكان جدب، فأمر بحفر نهر فى شرقىّ مصر بسفح الجبل حتّى ينتهى إلى مرفأ السفن فى البحر الملح؛ فكان يحمل إليها الحنطة، و أصناف الغلات، فتنقل إلى جدّة، و يحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدّة. و كان اسم الذى حفره ثانيا أردبان قيصر، و كان عبد العزيز بن مروان بنى عليه قنطرتين فى سنة تسع و ستّين، و كتب اسمه عليها، ثمّ جدّدهما تكين أمير مصر فى سنة ثمانى عشرة و ثلاثمائة، ثمّ جدّدهما الإخشيد فى سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة ثم عمرتا فى أيام العزيز، و كان موضع هاتين القنطرتين خلف خط السبع سقايات و هى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الخلفاء، و كان الخليفة يركب لفتح الخليج. فلما انحسر النيل عن ساحل مصر، و ربا الجرف أهملت هذه القنطرة فدثرت، و عملت قنطرة السدّ عند فم بحر النيل، و كان الذى أنشأها الملك الصالح أيّوب فى سنة بضع و أربعين و ستمائة.

قال ابن عبد الظاهر : و أوّل من رتّب حفر خليج القاهرة على الناس المأمون بن البطائحىّ، و جعل عليه واليا بمفرده.

و لأبى الحسن بن الساعاتى فى كسر يوم الخليج:

إنّ يوم الخليج يوم من الحسن بديع المرئىّ و المسموع

كم لديه من ليث غاب صؤولو مهاة مثل الغزال المروع

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۸ و على السّدّ عزّة قبل أن تملكه ذلّة المحبّ الخضوع

كسروا جسره هناك فحاكى كسر قلب يتلوه فيض دموع

ذكر الخليج الناصرىّ

حفره الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة ، لما بنى الخانقاه بسرياقوس ، فأراد إجراء الماء من النيل إليها ليرتب عليه السواقى و الزراعات، و فوّض أمره إلى أرغون النائب، فحفر فى مدّة شهرين من أول جمادى الأولى إلى سلخ جمادى الآخرة، و بنى فخر الدين ناظر الجيش عليه قنطرة، و بنى قديدار والى القاهرة قنطرة قديدار و قناطر الإوزّ و قناطر الأميريّة .

ذكر بركة الحبش

قال ابن المتوّج: هذه البركة مشهورة فى مكانها، و قد اتصل وقفها على قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة على أنّها وقف على الأشراف الأقارب و الطالبيّين نصفين بينهما بالسويّة، النّصف على الأقارب و النصف على الطالبيّين، و ثبت قبله عند قاضى القضاة بدر الدين يوسف السنجارىّ أنّ النصف منها وقف على الأشراف الأقارب بالاستفاضة بتاريخ ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين و ستمائة، و ثبت قبله عند قاضى القضاة عزّ الدّين عبد العزيز بن عبد السلام بالاستفاضة أيضا أنّها وقف على الأشراف و الطالبيّين بتاريخ التاسع و

العشرین من ربیع الآخر سنة أربعین و ستمائة.

و فی سنة إحدی و أربعین و سبعمائة أمر الناصر بن قلاوون بحفر خلیج من النیل إلی حائط الرّصد ببرکة الحبش، و حفر عشر آبار، کلّ بئر أربعون ذراعا، یرکب علیها السواقی لیجری الماء منها إلی القناطر التی تحمل الماء إلی القلعة، فشقّ الخلیج من مجری رباط الآثار، و کان مهمّا عظیما، و أمر الناصر فی هذه السنة بتجدید جامع راشدة، و کان قد تهدّم غالبه.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۲۹

ظافر الحداد فی برکة الحبش:

تأمّلت نهر النیل طولا و خلفهمن البرکة الغنّاء شکل مقدّر

فکان و قد لاحت بشطّیه خضرةو کانت و فیها الماء باق موفّر

غمامة شرب فی جواشن خضرةأضیف إلیها طیلسان مقوّر

أبو الصلت أمیّة بن عبد العزیز الأندلسیّ:

للّه یوم ببرکة الحبشو الأفق بین الضیاء و الغبش

و النّیل بین الریاح مضطرب کصارم فی یمین مرتعش

و نحن فی روضة منوّقةدبّج بالنّور عطفها و وشی

قد نسجتها ید الغمام لنافنحن من نسجها علی فرش

ذکر ما قیل فی الأنهار و الأشجار زمن الشتاء و الربیع من الأشعار

شمس الدین بن التّلمسانیّ:

و لمّا جلا فصل الربیع محاسناو صفّق ماء النهر إذ غرّد القمری

أتاه النسیم الرطب رقّص دوحهفنقّط وجه الماء بالذهب المصری

و قال:

تغنّت فی ذرا الأوراق ورقففی الأفنان من طرب فنون

و کم بسمت ثغور الزّهر عجباو بالأکمام قد رقصت غصون

و أبو إسحاق إبراهیم بن محمد بن فتحون المخزومیّ یصف نارنجة فی نهر:

و لقد رمیت مع العشیّ بنظرةفی منظر غضّ البشاشة یبهج

نهر صقیل کالحسام بشطّهروض لنا تفّاحه یتأرّج

تثنی معاطفه الصّبا فی بردةموشیّة بید الغمامة تنسج

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۰ و الماء فوق صفاته نارنجةتطفو به و عبابه یتموّج

حمراء قانیة الأدیم کأنّهاوسط المجرّة کوکب یتأجّج

القاضی عیاض:

کأنّما الزرع و خاماته و قد تبدّت فیه أیدی الریاح

کتائب تجفل مهزومةشقائق النعمان فیها جراح

کتب القاضی شهاب الدین بن فضل اللّه إلی الأمیر الجائی الدوادار :

بلد أنت ساکن فی رباهابلد تحسد الثّریا ثراها

قد تعالت إلی السماء بسکناک، فألقت علی البطاح رداها

جمد الطّلّ فی الزهور فخلناأنّه عقد جوهر لرباها

و جری الماء فی الریاض فقلنا:کسرت فوقه الغوانی حلاها

مثلما أنت فی معانیک فردهی فرد البلاد فی معناها

یقبّل الأرض، و ینهی أنّه لما عبر علی هذه الرّبا المعشبة، و الغدران الّتی کأنها صفائح فضة مذهّبة، ثمّ مرّ علی قریة تعرف بوسیم، تفترّ من شنب زهرها عن ثغر بسیم، استحسن مرآها، و نظم فی معناها، ما یعرضه علی الخاطر الکریم، لیوقف المملوک توقیف علیم، أو یتجاوز عن تقصیره تجاوز حلیم:

لمصر فضل باهرلعیشها الرغد النّضر

فی کلّ سفح یلتقیماء الحیاة و الخضر

و کذلک:

ما مثل مصر فی زمان ربیعهالصفاء ماء و اعتلال نسیم

أقسمت ما تحوی البلاد نظیرهالمّا نظرت إلی جمال وسیم

قال:

و ما بین أکناف البطاحمسک یذرّ علی الرّیاح

من حیث یلفی الرّوض فیأزهارها ریّان ضاحی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۱ و الریح فی السّحر البهیم یطیر مسکیّ الجناح

تسری فتغتبق الغصون بها علی عین الصّباح

و النّیل فی تیّاره المنصبّ مهتزّ الصّفاح

و به السّفائن کالجبال تجول أمثال القداح

فرکبت من صهواتهادهماء ساکنة الجماح

حرّاقة تجری علی اسم اللّه فی الماء القراح

و الأفق مثل حدیقةخضراء مزهرة النواحی

تحکی المجرّة بینهانهر تدفّق فی أقاح

و اقتادت الجوزاء للّیل البهیم إلی الرواح

فکأنّه زنجیّةجذبت بأطراف الوشاح

و بدا الصباح کوجه الجانی المهلّل لامتداحی

و قال:

و حدیثة غنّی الرباب لها بتوقیع السّحاب

فتمایلت حتی لقدرقصت علی صوت الرّباب

و قال:

فی نیل مصر مراکبتحوی بدور المواکب

فکم بها الفلک فی مجراه تسری الکواکب

ابن عبد الظاهر:

روض به أشیاء لیست فی سواه تؤلّف

فمن الهزار تهازرو من القضیب تقصّف

و من النّسیم تلطّفو من الغدیر تعطّف

نور الدین علیّ بن سعد الغماریّ الأندلسیّ:

کأنّما النهر صفحهٔ کتبتأسطرها و النّسیم منشئها

لمّا أبانت عن حسن منظرهامالت علیه الغصون تقرؤها

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۲

الصّلاح الصفدیّ:

قال خلّی: بالله صف أرض مصروقت کتّانها بوصف محقّق

قلت: أرض بالنیل یروی ثراهافلهذا الکتّان نور أزرق

و قال:

لم لا أهیم بمصرو أرتضیها و أعشق

و لم تر العین أحلیمن مائها إن تملّق

ابن الواسطیّ:

کأنّما السّفن بأرجائهاو هی علی الماء جریّات

عقارب فی رفع أذنابهاتسری علی أبطن حیّات

ابن الساعاتی:

و لقد رکبت البحر و هو کحلیهٔو الموج تحسبه جیادا ترکض

و کأنّما سلّت به أمواجهبیضاء تذهب تارهٔ و تفضّض

کلّ یصحّ إذا تصحّ حیاتهإلّا النسیم یصحّ ساعهٔ یمرض

مجیر الدین بن تمیم:

یا حسنه من جدول متدفّقیلهی برونق حسنه من أبصر

ما زلت أنذره عیونا حولهخوفا علیه أن یصاب فیعثر

فأبی و زاد تمادیا فی جریهحتّی هوی من شاهق فتکسّر

و قال:

و حدیقهٔ مالت بعاطف دوحها من غیر سکر

و النهر ساج قد غدابسعادهٔ الأغصان یجری

و قال:

لم لا أهیم إلی الریاض و حسنهاو أظلّ منها تحت ظلّ واف

و الرّوض حیّانی بثغر باسمو الماء یلقانی بقلب صاف

و قال:

و نهر خالف الأهواء حتّیغدت طوعا له فی کلّ أمر

إذا سرقت حلی الأغصان ألقتإلیه بها فیأخذها و یجری

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۳

و قال:

تأمّل إلى الدّولاب و النّهر إذ جرىو دمعهما بين الرّياض غدير

كأنّ نسيم الرّوض قد ضاع منهمافأصبح ذا يجرى و ذاك يدور

ناصر الدين بن النقيب:

و روضة توسوس الغصن بهالمّا هدى فيها النسيم الشّمال

قد جنّ فى أرجائها جدولهافهو على وجه الثّرى سلسال

آخر:

و حديقة باكرتها مطلولةو الشمس ترشف ريق أزهار الرّبا

يتكسّر الماء الزّلال على الحصافإذا أتى نحو الرياض تشعّبا

آخر:

مياه بوجه الأرض تجرى كأنّهاصفائح تبر قد سبكن جداولا

كأنّ بها من شدّة الجرى جنّة و قدألبستهنّ الرياح سلاسلا

ابن قزل:

كأنّما النّهر إذ مرّ النّسيم بهو الغيم يهمى وضوء البرق حين بدا

رشق السهام و لمع البيض يوم وغىخاف الغدير سطاها فاكتسى زردا

آخر:

يا حسن وجه النّهر حين بداو السّحب تهطل فوقه هطلا

فكأنّه درع و قد ملأتأيدى الكماة عيونه نبلا

الغزىّ:

فى روضة قرن النّهار نجومهابسنا ذكاء فزادهنّ توقّدا

و انجرّ فوق غديرها ذيل الصّباسحرا فأصبحت الصفيحة مبردا

تاج الدين مظفّر الذهبىّ:

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۴ و جدول خطّ فيهسطر بكفّ القبول

بدا عليه ارتعاش كذاك خطّ القليل

الشهاب المحمود:

و السّرو مثل عرائسلفّت عليهنّ الملاء

شمّرن فضل الأزر عنسوق خلاخلهنّ ماء

و النّهر كالمرآة تبصر وجهها فيه السّماء

قاضى القضاة مجير الدين بن العديم:

كأنّما النّهر و قد حفّت بهأشجاره فصافحته الأغصن

مرآة غيد قد وقفن حولهاينظرن فيها: أيّهنّ أحسن!

آخر:

شجرات الخريف تكثر من غير سؤال إلى الرياح نشاطا

تتعرّی من لبسها و هو تبرثم تلقیه للندیم بساطا

آخر:

النظر إلی الرّوض‌النضیر فحسنه العین قرّه

فکأن خضرته السّماء و نهره فیه المجرّه

ابن وکیع:

غدیر یجعّد أمواههبوب الریاح و مرّ الصّبا

إذا الشمس من فوقه أشرقت‌توهمته جوشنا مذهّبا

سیف الدین علیّ بن قزل :

فی یوم غیم من لذاذة جوّهغنّی الحمام و طابت الأنداء

و الرّوض بین تکبّر و تواضع‌شمخ القضیب به و خرّ الماء

آخر:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۵ أیا حسنها من روضة ضاع نشرهافنادت علیه فی الرّیاض طیور

و دولابها أضحی تعدّ ضلوعهلکثرة ما یبکی بها و یدور

سعد الدین بن شیخ الصوفیّة محیی الدین بن عربیّ:

شاهدت دولابا له أدمع‌تکلّفت للروض بالرّیّ

فاعجب له من فلک دائرما فیه برج غیر مائیّ

آخر:

و ناعورة فارقت‌بواکی من جنسها

تدور علی قلبهاو تبکی علی نفسها

وجیه الدین المناویّ:

فوّارة تحسب من حسنهاسبیکة من فضّة خالصه

تلهیک بالحسن فقد أصبحت‌جاریة ملهیة راقصه

الصلاح الصفدیّ:

النّهر مولی و النسیم خدیمههذا کلام لست فیه أشکّک

لو لم یکن فی خدمة النهر انبری‌ما کان یصقل ثوبه و یفرّک

و قال:

لمّا زها زهر الربیع بروضةو غدا له الفضل المبین علیه

قام الحمام له خطیبا بالثّناو جری الغدیر فخرّ بین یدیه

مجیر الدین بن تمیم:

تکسّر الماء لمّا جری فغدا الدّولاب یندبه شجوا و یبکیه

و أصبح الغصن بالأوراق ملتطماو الورق فوق کراسی الدّوح ترثیه

و قال:

و النهر مذ علق الغصون محبّةأضحت تطیل صدوده و جفاه

فنراه یجری لاثما أقدامهاو خریره شکوی الّذی یلقاه

و قال:

بعث الربیع رسالهٔ بقدومهللرّوض، فهو بقربه فرحان

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۶ و لطیب ما قرأ الهزار بشدوهمضمونها مالت له الأغصان

شمس الدین بن التّلمسانیّ:

کأنّما البرق خلال السّمامن فوق غیم لیس بالکابی

طراز تبر فی قبا أزرقمن تحته فروهٔ سنجاب

و قال:

فصل الشتا منح النّواظر نضرهٔلمّا کسا الألوان و هی عوار

لم یلبس الغبراء لین مطارفحتّی کسا الزرقاء بیض إزار

مجیر الدین بن تمیم:

و دولاب روض کان من قبل أغصناتمیس فلمّا فرقتها ید الدهر

تذکّر عهدا بالریاض فکلّهعیون علی أیام عصر الصّبا تجری

آخر:

و ناعورهٔ قد ضاعفت بنواحهانواحی، و أجرت مقلتیّ دموعها

و قد ضعفت مما تئنّ و قد غدتمن الضعف و الشکوی تعدّ ضلوعها

نور الدین علیّ بن سعد الأندلسیّ:

للّه دولاب یفیض بسلسلفی روضهٔ قد أینعت أفنانا

قد طارحت فیه الحمام بشجوهاو نحیبها فترجّع الألحانا

فکأنّه دنف یطوف بمعهدیبکی و یسأل فیه عمّن بانا

ضاقت مجاری طرفه عن دمعهفتفتّحت أضلاعه أجفانا

ابن منیر الطرابلسیّ فی ناعورهٔ:

هی مثل الأفلاک شکلا و فعلاقسمت قسم جاهل بالحقوق

بین عال سام ینکّسه الحظّو یعلو بساحل مرزوق

آخر:

النّهر مکسوّ غلالهٔ فضّهٔفإذا جری سیل فثوب نضار

و إذا استقام رأیت صفحهٔ منصلو إذا استدار رأیت عطف سوار

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۷

إبراهیم بن خفاجهٔ الأندلسیّ:

النّهر قد رقّت غلالهٔ خصرهو علیه من صبغ الأصیل طراز

تترقرق الأمواج فیه کأنّهاعکن الخصور تهزّها الأعجاز

بعضهم:

إنّ هذا الربیع شیء عجیبتضحک الأرض من بکاء السماء

ذهب حيثما ذهبنا و درّحيث درنا و فضّة فی الفضاء

ابن قلاقس:

كأنّما الرّعد و السّحاب و قدحلّا سويّا و البرق قد لاحا

ثلاثة من عدوّهم نفرواو قد غدا نحوهم و قد راحا

فسلّ ذا سيفه، و بكى هذا، و هذا من خيفة صاحا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۸

ذكر الرياحين و الأزهار الموجودة فی البلاد المصرية و ما ورد فيها من الآثار النبوية و الأشعار الأدبية و الإشارات الصوفية

ما ورد فی الفاغية

و هی نور الحنّاء.

أخرج البيهقیّ فی شعب الإيمان عن بريدة، قال: قال رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم: «سيّد الرياحين فی الدنيا و الآخرة الفاغية».

و أخرج البيهقیّ عن أنس، قال: كان أحبّ الرياحين إلی رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم الفاغية.

*** ما ورد فی الورد

رويت فيه أحاديث كلّها موضوعة، منها حديث علیّ مرفوعا: «لمّا أسری بی إلی السماء، سقط إلی الأرض من عرقی، فنبت منه الورد، فمن أحبّ أن يشمّ رائحتی فليشمّ الورد». اخرجه ابن عدیّ فی كامله.

و حديث أنس مرفوعا: «الورد الأبيض خلق من عرقی ليلة المعراج، و خلق الورد الأحمر من عرق جبريل، و الورد الأصفر من عرق البراق»، أخرجه ابن فارس فی كتاب الريحان.

و الحديثان أوردهما ابن الجوزیّ فی الموضوعات، و نصّ علی وضع الثانی أيضا الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر.

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۳۹

قال صاحب مباهج الفكر: كان الخليفة المتوكّل قد حمی الورد، و منعه من الناس كما حمی النعمان بن المنذر الشّقيق و استبدّ به، و قال: لا يصلح للعامّة، فكان لا يری إلا فی مجلسه. و كان يقول: أنا ملك السلاطين، و الورد ملك الرياحين، و كلّ منّا أولی بصاحبه. و إلی هذا أشار ابن سكّرة بقوله:

للورد عندی محلّ لأنّه لا يملّ

كلّ الرياحين جندو هو الأمير الأجل

إن جاء عزّوا و تاهواحتّی إذا غاب ذلّوا

قال ابن البيطار فی مفرداته: الورد أصناف: أحمر، و أبيض، و أصفر، و أسود.

زاد غيره: و أزرق.

و حكی صاحب كتاب نشوار المحاضرة، أنّه رأی وردا أسود حالك السواد، له رائحة ذكيّة، و أنه رأی بالبصرة وردة نصفها أحمر قانیء الحمرة، و نصفها الآخر أبيض ناصع البياض، و الورقة التی وقع الخطّ فيها كأنّها مقسومة بقلم.

قال صاحب مباهج الفكر: رأينا بثغر الإسكندرية الورد الأصفر كثيرا، و عددت ورق وردة، فكانت ألف ورقة.

قال: و حكی لی بعض الأصحاب أنّه رأی بحلب ورقة لها و جهان: أحدهما أحمر و الآخر أصفر.

قال: و حکی بعض الأصحاب أنّه رأی آبارا تجری إلی شجر الورد ماء مخلوطا بالنیل، فسأله فقال: إنّ الورد یکون أزرق بهذا العمل.

قال صاحب المباهج: و الظاهر من الورد الأسود، أنّه احتیل علیه کذلک. و قال الحافظ الذهبیّ فی المیزان: روی قریش عن أنس عن کلیب بن وائل- و کلیب نکرة لا یعرف- أنّه رأی بالهند ورقا فی الوردة مکتوب فیه «محمد رسول اللّه».

و روی ابن العدیم فی تاریخه بسنده إلی علیّ بن عبد اللّه الهاشمی الرّقیّ، قال:

دخلت الهند، فرأیت فی بعض قراها وردة کبیرة طیّبة الرائحة، سوداء، علیها مکتوب بخطّ أبیض «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، أبو بکر الصدیق، عمر الفاروق». فشککت فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۰

ذلک، و قلت: إنّه معمول، فعمدت إلی وردة لم تفتح، ففتحتها، فکان فیها مثل ذلک، و فی البلد منه شیء کثیر، و أهل تلک القریة یعبدون الحجارة، لا یعرفون اللّه عزّ و جل.

و یقال: ورد جور، و نرجس جرجان، و نیلوفر شروان، و منثور بغداد، و زعفران قمّ، و شاهسبرم سمرقند.

قال أبو العلاء صاعد الأندلسیّ فی باکورة ورد:

و دونک یا سیّدی وردةیذکّرک المسک أنفاسها

کعذراء أبصرها مبصرفغطّت بأکمامها رأسها

آخر:

وردة تحکی أمام الوردطلیعة سابقة للجند

قد ضمّها فی الغصن قرّ البردضمّ فم لقبلة من بعد

أبو عبادة البحتریّ :

أتاک الربیع الطلق یختال ضاحکامن الحسن حتّی کاد أن یتکلّما

و قد نبّه النّوروز فی غسق الدّجیأوائل ورد کنّ بالأمس نوّما

یفتّحه برد النّدی فکأنّمایبثّ حدیثا بینهنّ مکتّما

محمد بن عبد اللّه بن طاهر:

أما تری شجرات الورد مظهرةلنا بدائع قد رکّبن فی قصب

کأنّهنّ یواقیت یطیف بهازبرجد وسطه شذر من الذهب

یقال إنّه نظم هذین البیتین من قول أزدشیر بن بابک، و قد وصف الورد: هو درّ أبیض، و یاقوت أحمر، علی کراسیّ زبرجد أخضر، بوسطه شذر من ذهب أصفر.

الناشیء :

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۱ قضب الزبرجد قد حملن عقائقاأثمارهنّ قراضة العقیان

و کأنّ دمع القطر فی أهدابهدمع مرته فواتر الأجفان

محمد بن عبد اللّه بن طاهر:

مداهن من یواقیت مرکبةعلی الزّبرجد فی أجوافها ذهب

کأنّه حین یبدو من مطالعهصبّ یقبّل حبّا و هو یرتقب

خاف الملال إذا طالت إقامتهفظلّ یظهر أحیانا و یحتجب

أبو طالب الرّقّی:

و وردة من نبات معطارحيّت بها فی لطيف أسرار

كأنّها وجنة الحبيب و قدنقّطها عاشق بدينار

العماد الأصبهانی :

قلت للورد: ما لشوكك يدمی كلّ ما قد سعرت منه جراحی

قال لی: هذه الرّياحين جندیأنا سلطانها، و شوكی سلاحی

فی الورد الأصفر لبعضهم:

رعی اللّه وردا غدا أصفرابهيّا نضيرا يحاكی النّضارا

و أسقی غصونا به أثمرتو حمّلن منه شموسا صغارا

المؤيّد الطغرائی:

شجرات ورد أصفر تخذتفی قلب كلّ متيّم طربا

سبكت يد الغيم اللّجين لهافكسته صبغا مونقا عجبا

من ذا رأی من قبله شجراسقی اللّجين فأثمر الذهبا

و قال:

أ لم تر أنّ جند الورد وافیبصفر من مطارده و خضر

أتی مستلئما بالشّوك فيهنصال زمرّد و تراس تبر

فی الورد الأزرق من وصف بستان لبعضهم:

و به وارد من الورد قد أينع فی رقّة الهواء اللطيف

شبّهوه بدمعة العاشق الآلف نالته جفوة من أليف

فهو يحكيه زرقة و مثال القرص لونا فی خدّ ظبی تريف

ورق أزرق كزرق يواقيت تطلّعن من لجين مشوف

فی الورد الأبيض للسریّ الرّفاء:

و روض كساه الغيث إذ جاد دمعهمجاسد و شی من بهار و منثور

بدا أبيض الورد الجنیّ كأنّماتنسّم للناشیء بمسك و كافور

كأنّ اصفرارا منه تحت ابيضاضهبرادة تبر فی مداهن بلّور

فی الورد الأسود لأبی أحمد الطراریّ:

للّه أسود ورد ظلّ يلحظنامن الرّياض بأحداق اليعافير

كأنّها وجنات الزنج نقّطهاكفّ الإمام بأنصاف الدنانير

آخر:

و ورد أسود خلناه لمّاتنشّق نشره ملك الزمان

مداهن عنبر غضّ و فيهابقايا من سحيق الزعفران

علیّ بن الرومیّ يهجو الورد:

يا مادح الورد لا ينفكّ من غلطهأ لست تنظره فی كفّ ملتقطه؟

كأنّه سرم بغل حين يبرزهعند البراز، و باقى الرّوث فى وسطه

قال ابن المعتزّ يردّ عليه:

يا هاجى الورد لا حيّيت من رجلغلطت، و المرء قد يؤتى على غلطه

هل تنبت الأرض شيئا من أزاهرهاإذا تحلّت يحاكى الوشى من نمطه

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۳ أحلى و أشهر من ورد له أرج كأنّما المسك مذرور على وسطه؟

علىّ بن الرومىّ يفضل النرجس على الورد:

أيّها المحتجّ للور د بزور و محال ذهب النّرجس بالفضل فأنصف فى المقال لا تقاس الأعين النّجل بأسرام البغال أبو هلال العسكرىّ يردّ عليه:

أفضل الورد على النّرجسلا أجعل الأنجم كالأشمس

ليس الذى يقعد فى مجلسمثل الّذى يمثل فى مجلس

علىّ بن سعيد المؤرّخ:

من فضّل النرجس فهو الذىيرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعداو قام فى خدمته النّرجس؟

و الناس يشبّهون عدم دوام الورد بقلّة بقاء الودّ، و لهذا كتب أبو دلف إلى عبد اللّه بن طاهر يعاتبه:

أرى حبّكم كالورد ليس بدائمو لا خير فيمن لا يدوم له عهد

و ودّى لكم كالآس حسنا و نضرةله زهرة تبقى إذا فنى الورد

فأجابه عبد اللّه بن طاهر:

و شبّهت ودّى الورد و هو شبيههو هل زهرة إلّا و سيّدها الورد؟

و ودّك كالآس المرير مذاقهو ليس له فى القلب قبل و لا بعد

و اعتذر ديك الجن عن قلّة لبث الورد فقال:

للورد حسن و إشراق إذا نظرتإليه عين محبّ هاجه الطّرب

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۴ خاف الملال إذا دامت إقامتهفصار يظهر حينا ثمّ يحتجب

ما ورد فى النرجس

روى فيه حديث موضوع، أخرجه الديلمىّ فى مسند الفردوس، و ابن الجوزىّ فى الموضوعات بسند مسلسل بالقضاة عن علىّ مرفوعا: «شمّوا النّرجس و لو فى اليوم مرّة، و لو فى الشهر مرّة، و لو فى السنة مرّة، و لو فى الدهر مرّة، فإنّ فى القلب حبّة من الجنون و الجذام البرص لا يقطعها إلّا شمّ النرجس».

قال بقراط: كلّ شىء يغذو الجسم و النّرجس يغذو العقل.

و قال جالينوس: من كان له رغيف فليجعل نصفه فى النرجس، فإنه راعى الدماغ، و الدماغ راعى العقل.

و قال الحسن بن سهل: من أدمن شمّ النّرجس فى الشتاء أمن البرسام فى الصيف.

و قال بعض الأدباء: النرجس نزهة الطّرف، و طرف الظرف، و غذاء الروح، و مادة الروح. و كان كسرى أنوشروان مغرما بالنّرجس، و يقول: هو ياقوت أصفر بين درّ أبيض على زمرّد أخضر.

و قال: إنى لأستحى أن أباضع فى مجلس فيه النّرجس لأنّه أشبه شىء بالعيون الناظره.

و قال الشاعر:

فإذا قضيت لنا بعين مراقب‌فی الحبّ فليك من عيون النّرجس

أبو نواس :

لدی نرجس غضّ القطاف كأنّه‌إذا ما منحناه العيون عيون

مخالفة فی شكلهنّ فصفرةمكان سواد و البياض جفون

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۵

ابن المعتزّ :

كأنّ عيون النرجس الغضّ بيننامداهن تبر حشوهنّ عقيق

إذا بلّهنّ القطر خلت دموعهابكاء جفون كحلهنّ خلوق

كشاجم:

كأنّما نرجسناو قد تبدّی من كثب

أنامل من فضّةيحملن كأسا من ذهب

الصّنوبریّ :

أضعف قلبی النرجس المضعفو لا عجيب إن صبا مدنف

كأنّه بين رياحيناأعشار آی ضمّها مصحف

ابن مكنسة:

و نرجس إلی حداثق الرّبا محدّق

كأنّما صفرتهعلی بياض يقق

أعشار جزء أذهبتفی ورق من ورق

أبو بكر بن حازم:

و نرجس ككؤوس التّبر لائحةمن الزّبرجد قد قامت بها ساق

كأنّها من عيون هدبها ورقلهنّ من خالص العقيان أحداق

آخر:

و أحسن ما فی الوجوه العيون و أشبه شیء بها النّرجس

يظلّ يلاحظ وجه النّديم فردا وحيدا فيستأنس

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۶

الصّنوبریّ:

و عندنا نرجس أنيق‌تحيا بأنفاسه النفوس

كأنّ أجفانه بدوركأنّ أحداقه شموس

و قال:

أ رأيت أحسن من عيون النرجس‌أو من تلاحظهنّ وسط المجلس

درّ تشقّق عن يواقيت علی‌قضب الزبرجد فوق بسط السندس

ابن الرومیّ:

و نرجس كالثغور مبتسمله دموع المحدق الشاكى

أبكاه قطر الندى و أضحكهفهو مع القطر ضاحك باكى

و قال:

انظر إلى نرجس فى روضة أنفغنّاء قد جمعت شتّى من الزّهر

كأنّ ياقوتة صفراء قد طبعتفى غصنها حولها ستّ من الدرر

آخر:

أبصرت باقة نرجسفى كفّ من أهواه غضّه

فكأنّها قضب الزّبرجد قمّعت ذهبا و فضّه

و من رسالة لضياء الدين الأثير يصف منتزها: جاء فيها فى وصف النرجس: فمن جانى نرجس يقول: هذا صاحب القدّ المائس، و الذى عينه عين متيقّظ وجيده جيد ناعس، و هو بكر الربيع و البكر أكرم الأولاد على الوالد، و قد جعل ذا لونين اثنين؛ إذ لم يحظ غيره إلا بلون واحد.

ما ورد فى البنفسج

فيه أحاديث ذكرها ابن الجوزىّ فى الموضوعات، منها حديث أبى سعيد مرفوعا:

«فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان، كفضلى على سائر الخلق، بارد فى الصيف حارّ فى الشتاء». أخرجه ابن حبّان فى تاريخ الضعفاء و الحاكم فى تاريخ نيسابور و الديلمىّ فى مسند الفردوس. و ورد أيضا بهذا اللفظ من حديث أبى هريرة و أنس أخرجهما الخطيب البغدادىّ، و من حديث علىّ أخرجه ابن الجوزىّ و قال فى الأربعة: إنّها موضوعة.

حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۷

و أخرج أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن علىّ مرفوعا: «فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان، كفضل ولد عبد المطلب على سائر قريش، و فضل البنفسج كفضل الإسلام على سائر الأديان». قال أبو نعيم: هذا حديث غريب من حديث جعفر بن محمد، لم نكتبه إلا بهذا الإسناد عن هذا الشيخ، أفادنا إيّاه الدارقطنى، و أخرجه ابن الجوزىّ فى الموضوعات أيضا.

قال ابن وحشيّة: البنفسج نوعان: جبلىّ و بستانىّ، و الجبلىّ دقيق الورق، أزرق اللون، و البستانىّ عريض الورق حائك اللون، و يوجد فيه الأبيض على لون الشمع، و لا يوجد إلّا بمصر، و يسمّى الكوفىّ. و من عجيب أمره أنّ الإنسان إذا تغوّط فى مجارى الماء إليه مات و ذبل، و كذا إن خرج منه ريح فى مزرعته، و أنّه إذا دام عليه الضباب يوما أو نحوه ضعف، و متى توالى نقصت زهرته، و صغر ورقه، و تغيّرت رائحته؛ و من الأشياء المضادّة له القصب، فإنّه لا يكاد يفلح بقربه و لا ينمى، و إن وقعت صاعقة على أربعمائة ذراع منه فأقل هلك سريعا. و يفسده أيضا البرد و الرّعد الشديد المتتابع و السموم و ريح الشمال الباردة و المطر الكثير و ماء الآبار و الدخان و تراب المقبرة.

و من رسالة لأبى العلاء عطارد بن يعقوب الخوارزمىّ يصف بنفسجة: سماويّة اللباس، مسكيّة الأنفاس، واضعة رأسها على ركبتها كعاشق مهجور، تنطوى على قلب مسجور، كبقايا النقش فى بنان الكاعب، أو النّقس فى أصابع الكاتب، أو الكحل فى الألحاظ الملاح، المراض الصحاح، الفاترات الفاتنات، المحييات القاتلات، لازوردية أربت بزرقتها على زرق اليواقيت، كأوائل النار فى أطراف كبريت، أو أثر القرص فى خدود العذارى.

أو عذار خلعت فيه العذارا أبو القاسم بن هذيل الأندلسىّ:

بنفسج جمعت أوراقه فحكت كحلا تشرّب دمعا يوم تشتيت

أو لازورديّة أوفت بزرقتهاوسط الرياض على زرق اليواقيت

كأنّه و ضعاف القضب تحملهأوائل النار فی أطراف كبريت

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۸

آخر:

بنفسج بذكيّ الريح مخصوص‌ما فی زمانك إذ وافاك تنغيص

كأنّما شعل الكبريت منظرهأو خدّ أغيد بالتخميش مقروص

آخر:

ماس البنفسج فی أغصانه فحكیزرق الفصوص علی بيض القراطيس

كأنّه وهبوب الريح تعطفهبين الحدائق أعراف الطواويس

آخر فی البنفسج الأبيض:

كأنّ البنفسج فيما حكیلطائف أخلاقك المونقه

يلوح و من تحت طاقاتهفصوص من الفضّة المحرقه

الأمير عبد اللّه الميكالیّ:

يا مهديا لی بنفسجا أرجايرتاح صدری له و ينشرح

بشّرنی عاجلا مصحّفهبأنّ ضيق الأمور ينفسح

مجير الدين بن تميم الحموی:

عاينت ورد الرّوض يلطم خدّهو يقول و هو علی البنفسج محنق

لا تقربوه و إن تضوّع نشرهما بينكم فهو العدوّ الأزرق

آخر:

بنفسج الرّوض تاه عجباو قال طيبی للجوّ ضمّخ

فأقبل الزهر فی احتفالو البان من غيظه تنفّخ

ما قيل فی النّيلوفر

قال ابن التلميذ: النيلوفر اسم فارسیّ معناه النيلیّ الأجنحة و النيلیّ الأرياش.

و قال ابن وحشيّة: الفرس تسمّيه نينوفر و العرب نيلوفر و الهند نيلوفك و النّبط نيلوفريا.

قال ابن التلميذ: و من عاداته أن يحوّل وجهه إلی الشمس إذا طلعت، فيزيد انفتاحه بزيادة علوّ الشمس، فإذا أخذت فی الهبوط ابتدأ ينضمّ علی ذلك الترتيب، حتّی ينضمّ انضماما كاملا عند الغروب، و يبقی مضموما الليل كلّه، فإذا طلعت أخذ فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۴۹

انفتاح، و هذا دأبه أبدا. قال: و هو نبات قمریّ يزيد بزيادة القمر، و ينقص بنقصانه.

أبو بكر الزبيدی الأندلسیّ:

و بركة تزهو بنيلوفرنسيمها يشبه ريح الحبيب

حتّی إذا الليل دنا وقتهو مالت الشمس لوقت المغيب

أطبق جفنيه علی جيبهو غاص فی البركة خوف الرقيب

آخر:

و برکة أحیا بها ماؤهامن زهرها کلّ نبات عجیب

کأنّ نیلوفرها عاشق‌نهاره یرقب وجه الحبیب

حتّی إذا اللّیل بدا نجمهو انصرف المحبوب خوف الرقیب

أطبق جفنیه عسی فی الکری‌یبصر من فارقه من قریب

آخر:

یا حبّذا برکة نیلوفرقد جمعت من کلّ فنّ عجیب

أزرق فی أحمر فی أبیض‌کقرصة فی صحن خدّ الحبیب

کأنّه یعشق شمس الضحی‌فانظره فی الصبح و عند المغیب

إذا تجلّت یتجلّی لهاحتّی إذا غاب سناها یغیب

آخر: حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۳۴۹

کلّنا باسط الیدنحو نیلوفر ندی

کدبابیس عسجد قضبها من زبرجد

آخر:

انظر إلی برکة نیلوفرمحمّرة الأوراق خضراء

کأنّما أزهارها أخرجت‌ألسنة النّار من الماء

آخر:

و نیلوفر صافحته الریاح و عانقها الماء صفوا و رنقا

و تحمل أوراقه فی الغدیر ألسنة النّار حمرا و زرقا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۰

آخر:

صفر المداری تضمّها شرف‌مفتضح عند نشرها العطر

تحملها خیزرانة ذبلت‌ذبول صبّ أذابه الهجر

کأنّها إذ رأیت ألسنة‌أنطقها للمهیمن الشکر

خناجر من حناجر نزعت‌فهی علی الماء من دم حمر

الطّغرائی :

و نیلوفر أعناقه أبدا صفرکأنّ به سکرا و لیس به سکر

إذا انفتحت أوراقه فکأنّهاو قد ظهرت ألوانها البیض و الصفر

أنامل صبّاغ صبغن بنیلةو راحتها بیضاء فی وسطها تبر

ابن الرومیّ:

یرتاح للنّیلوفر القلب الّذی‌لا یستفیق من الغرام و جهده

و الورد أصبح فی الروایح عبدهو النّرجس المسکیّ خادم عبده

یا حسنه فی برکة قد أصبحت‌محشوّة مسکا یشاب بندّه

مهجور حبّ ظلّ يرفع رأسه كالمستجير بربّه من صدّه

و كأنّه إذ غاب عند مسائهفی الماء فانحجبت نضارة قدّه

صبّ تهدّده الحبيب بهجرهظلما فغرّق نفسه من وجده

الوجيه بن الذرویّ يهجو النيلوفر:

و نيلوفر أبدى لنا باطنا لهمع الظاهر المخضرّ حمرة عندم

فشبّهته لمّا قصدت هجاءهبكاسات حجّام بها لوثة الدم

البشنين

قال فی مباهج العبر: و إذ مرّ النيل بمصر ينبت فی أماكن منخفضة، قد وقف فيها الماء نباتا يشبه النّيلوفر، ليست له رائحة ذكية، يسمّی البشنين، يتّخذ منه دهن و هو

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۱

نوعان نوع يسمّی الخريریّ، يشبه الرّمان، و تسمّيه أهل مصر الجلجلان؛ و الآخر يسمّونه الغزیّ، و له أصل يسمّی البيارون.

ما ورد فی الآس

أخرج ابن السنّیّ و أبو نعيم، كلاهما فی الطبّ النبویّ عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء: بالآسة، و هی سيّدة ريحان الدنيا، و بالسّنبلة و هی سيّدة طعام الدنيا، و بالعجوة و هی سيدة ثمار الدنيا.

و أخرج ابن أبی حاتم فی تفسيره و ابن السّنیّ عن ابن عبّاس قال: أوّل شیء غرس نوح حين خرج من السفينة الآس.

و أخرج ابن السكن عن عائشة، قالت: نهی رسول اللّه صلی اللّه عليه و سلم أن يستاك بعود الآس و عود الرّمان، فإنّهما يحرّكان عرق الجذام.

و أخرج ابن السّنّیّ عن الأوزاعیّ، يرفع الحديث إلی النبی صلی اللّه عليه و سلم أنه نهی عن التخلّل بالآس، و قال: إنّه يسقی عرق الجذام.

قال فی مباهج العبر: اليونان تسمّی الآس مرسينا، و تسمّيه العامّة المرسين.

و قال ابن وحشية: الآس سيّد الرياحين و يعظم حتّی إنّه يشجر و يثمر ثمرا قدر الحمّص، و هو ثلاثة أنواع: أخضر و هو المشهور، و أصفر و هو ما فسد من ورق الأوّل، و أزرق و يسمّی الخسروانیّ، و هو أن يخلط فی أصوله عند الزرع ورق النيل، قال الأخيطل الأهوازیّ:

للآس فضل بقائه و وفائهو دوام منظره علی الأوقات

قامت علی أغصانه ورقاتهكنصول نبل جئن مؤتلفات

آخر:

و مشمومة مخضرّة اللون غضّةحوت منظرا للناظرين أنيقا

إذا شمّها المعشوق خلت اخضرارهاو وجنته فيروزجا و عقيقا

ابن وكيع :

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۲ خليليّ ما للآس يعبق نشرهإذا هبّ أنفاس الرياح العواطر

حكی لونه أصداغ ريم معذّرو صورته آذان خيل نوافر

ما ورد فی الریحان، و هو الحبق

روی فیه أحادیث موضوعة، منها حدیث ابن عبّاس مرفوعا: «نعم الریحان ینبت تحت العرش، و ماؤه شفاء للعین» أخرجه العقیلیّ، و قال: باطل لا أصل له، و ابن الجوزیّ فی الموضوعات. و ورد نحوه من حدیث أنس أخرجه الخطیب البغدادیّ، و قال: موضوع، و ابن الجوزی أیضا.

و أخرج الخطیب فی تالی التّلخیص من حدیث جابر بن عبد اللّه مرفوعا:

«المرزنجوش مزروع حول العرش، فإذا کان فی دار لم یدخلها الشیطان»، قال الخطیب: باطل.

قال ابن الجوزیّ: و روی بسند مجهول من حدیث أنس مرفوعا: «إنّ فی الجنّة بیتا سقفه من مرزنجوش».

قال فی مباهج العبر: العرب تطلق اسم الرّیحان علی کلّ نبت له ریح طیبة.

و الحبق أنواع: منه الریحان النّبطیّ، و هو عریض الورق، و یسمی الباذروج، و هو المعروف عند الناس المتّخذ فی البساتین.

و حبق ترجانیّ، و له رائحة کرائحة الأترجّ، و یسمّی الباذرنجبویه و الباذرنبویه، و اسمه بالفارسیة مرماخوز، بالزای المعجمة، و هو دقیق الورق.

و حبق قرنفلیّ، و له رائحة کرائحة القرنفل، و یسمّی الفرنحمشک بالفارسیة.

و حبق صعتریّ، له رائحة کرائحة الصعتر.

و حبق کرمانیّ، و یسمّی بالفارسیة الشّاهسفرم و معناه ملک الریاحین، و العرب تسمّیه الضّیمران و الضّومران، و هو دقیق الورق جدّا، یکاد أن یکون دون السداب.

و حبق الفتی و هو المرزنجوش، و العرب تسمیه العبقر، و یقال إنّه الثّمام.

و ریحان الکافور، و یسمی بالفارسیة سوسن، و شکله شکل المنثور و زهره و ورقه یؤدّیان رائحة الکافور.

قال السری الرّفاء یصف حوض ریحان:

و بساط ریحان کماء زبرجدعبثت به أیدی النّسیم فأرعدا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۳ یشتاقه القوم الکرام فکلّمامرض النسیم سعوا إلیه عوّدا

أبو الفضل المیکالیّ:

أعددت محتفلا لیوم فراغیروضا غدا إنسان عین الباغ

روض یروض هموم قلبی حسنهفیه لیوم اللهو أیّ مساغ

و إذا انثنت قضبان ریحان بهحیّت بمثل سلاسل الأصداغ

أبو القاسم الصّقلیّ:

أنا بالریحان مفتون، و لا مثل الحماحم

فتأمّله تجد عذرا لصبّ القلب هائم

غلمة الجند بخضر القمص فی حمر العمائم

الطغرائیّ:

مراضیع من الریحان تسقیسقیط الطلّ أو درّ العهاد

ملابسهنّ خضر مسبغاتبأشکال تمیل إلی السواد

إذا ذرّت علیها المسک ریحو جاد بفیضهنّ ید الغوادی

تخلّلها الرياح فسرحتهاصنيع المشط فی اللّمم الجعاد

ابن أفلح:

و حماحم كأسنّةفی كلّ معترك قديم

أو أنجم بزغت لتحرق كلّ شيطان رجيم

أو مثل أعراف الديوك لدی مبارزة الخصوم

أو كالشقيق تحرّشتبفروعه أيدی النّسيم

أو ثاكل صبغت ثيابامن دم الخدّ اللطيم

ابن وكيع:

هذا الحماحم زهرفيه حياة النفوس

كأنّه حين يبدوبرادة الآبنوس

آخر:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۴ أما تری الريحان أهدی لناحماحما منه فأحيانا

تحسبه فی طلّه و الندیمزرّدا يحمل مرجانا

ابن وكی فی الصعتریّ:

صعتریّ من أرجل النمل، و أذكی من نفحة الزعفران

كسطور كسين نقطا و شكلامن يدی كاتب ظريف البنان

صاعد الأندلسیّ فی الريحان الترنجیّ:

لم أدر قبل ترنجان مررت بهأنّ الزمرّد أغصان و أوراق

من طيبه سرق الأترجّ نكهتهيا قوم، حتّی من الأشجار سرّاق؟!

آخر:

ذكیّ العرف مشكور الأيادیكريم عرفه يسلی الحزينا

أغار علی التّرنج و قد حكاهو زاد علی اسمه ألفا و نونا

ما قيل فی المنثور، و هو الخيریّ

ابن وكيع:

انظر إلی المنثور فی ميدانهيدنو إلی النّاظر من حيث نظر

كجوهر مختلف لونهأسلمه سلك نظام فانتثر

آخر:

انظر إلی المنثور ما بيناو قد كساه الطّلّ قمصانا

كأنّما صاغته أيدی الحيامن أحمر الياقوت مرجانا

و من خواصّه أنه لا تعبق له رائحة إلّا ليلا، و فيه يقول الشاعر:

ينمّ مع الإظلام طيب نسيمهو يخفی مع الإصباح كالمتستّر

كعاطرة ليلا لوعد محبّهاو كاتمة صبحا نسيم التّعطّر

ما قیل فی الیاسمین

کتب ناصر الدین التّنیسیّ إلی النصیر الحمامیّ ملغزا فیه:

یا من یحلّ اللغز فی ساعةٍ کلمحة من طرفة العین

ما اسم إذا أنقصت من عدهفی الخطّ حرفا صار اسمین؟

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۵

فأجابه نصیر:

لعرض مولانا و أنفاسهألغزت لی حقّا بلامین

اسم سداسیّ لطیف بهنحافة تظهر للعین

لکنّه یغدو سمینا إذاأسقطت من أولاه حرفین

أبو إسحاق الحصریّ یصف الیاسمین قبل انفتاحه:

خلیلیّ هبّا و انفضا عنکما الکریو قوما إلی روض و نشر عبیق

فقد راح رأس الیاسمین منوّراکأقراط درّ قمّعت بعقیق

یمیل علی ضعفی الغصون کأنّماله حالتا ذی غشیة و مفیق

إذا الرّیح أدنته إلی الأرض خلتهنسیم جنوب ضمّخت بخلوق

آخر:

و روضة نورها یرفّمثل عروس إذا تزفّ

کأنّما الیاسمین فیهاأنامل ما لها أکفّ

أبو بکر بن القوطیّة :

و أبیض ناصع صافی الأدیمیطلع فوق مخضرّ بهیم

کأنّ نوّاره المجنیّ منهسماء قد تحلّت بالنجوم

آخر:

کأنّ الیاسمین الغضّ لمّاأدرت علیه وسط الرّوض عینی

سماء للزبرجد قد تبدّتلنا فیها نجوم من لجین

المعتمد بن عبّاد:

کأنما یاسمیننا الغضّ کواکب فی السماء تبیضّ

و الطّرق الحمر فی بواطنه کخدّ عذراء مسّه عضّ

ابن عبد الظاهر:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۶ و یاسمین قد بدتأزهاره لمن یصف

کمثل ثوب أخضرعلیه قطن قد ندف

آخر:

و یاسمین عبق النشریزری بریح العنبر الشّحری

یلوح من فوق غصون لهکمثل أقراط من الدرّ

ابن الحداد الأندلسیّ:

بعثت بالیاسمین الغضّ مبتسماو حسنه فاتن للنفس و العین

بعثته منبئا عن صدق معتقدیفانظر تجد لفظه یأسا من المین

و قال آخر:

لا مرحبا بالیاسمین و إن غدا فی الرّوض زینا

صحّفته فوجدتهمتقابلا یأسا و مینا

آخر:

و یاسمین إنّ تأمّلتهحقیقهٔ أبصرته شینا

لأنه یأس و مین و منأحبّ قطّ الیأس و المینا؟!

ما قیل فی النّسرین

قال ابن وحشیّهٔ: الیاسمین و النّسرین متقاربان حتّی کأنّهما أخوان، و کلّ واحد منهما نوعان: أبیض و أصفر، و لهما شقیق آخر ورده أکبر من وردهما، یسمّی جلّنسرین، قال عبد الرزاق بن علیّ النحویّ:

زان حسن الحدائق النّسرینفالحجی فی ریاضه مفتون

قد جری فوقه اللّجین و إلّافهو من ماء فضهٔ مدهون

أشبهته طلی الحسان بیاضاو حوته شبه القدود غصون

آخر:

أکرم بنسرین تذیع الصّبامن نشره مسکا و کافورا

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۷ ما إن رأینا قطّ من قبلهزبرجدا یثمر بلّورا

آخر:

انظر لنسرین یلوح علی قضیب أملد

کمداهن من فضهٔفیها برادهٔ عسجد

حیّتک من أیدی الغصون بها أکفّ زبرجد

ما قیل فی الأقحوان

مجیر الدین محمد بن تمیم:

لا تمش فی روض و فیه شقائقأو أقحوان غبّ کلّ غمام

إنّ اللّواحظ و الخدود أجلّهاعن وطئها فی الرّوض بالأقدام

آخر:

کأنّ نور الأقاحیإذ لاح غبّ القطر

أنامل من لجینأکفّها من تبر

علیّ بن عباد الإسکندرانیّ:

و الأقحوانهٔ حکی و هی ضاحکهٔعن واضح غیر ذی ظلم و لا شنب

كأنّها شمسة من فضّة حرستخوف الوقوع بمسمار من الذهب

ظافر الحدّاد :

و الأقحوانة تحكى ثغر غانيةتبسّمت فيه من عجب و من عجب

فی القدّ و البرد و الرّيض الشهىّ و طيب الرّيح و اللّون و التّفليج و الشّنب

كشمسة من لجين فی زبرجدةقد شرّفت حول مسمار من الذهب

الجمال علىّ بن ظافر المصرىّ:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۸ انظر فقد أبدى الأقاح مباسماضحكت تهلّل فی قدود زبرجد

كفصوص درّ لطّفت أجرامهاقد نظمت من حول شمسة عسجد

آخر:

ظفرت يدى للأقحوان بزهرةتاهت بها فی الروضة الأزهار

أبدت ذراع زبرجد و أناملامن فضّة فی كفّها دينار

ما قيل فی البان

شمس الدين بن محمد التّلمسانىّ:

تبسّم زهر البان عن طيب نشرهو أقبل فی حسن يجلّ عن الوصف

هلمّوا إليه بين قصف و لذّةفإنّ غصون البان تصلح للقصف

الشهاب محمود على لسان البان:

إذا دغدغتنى أيدى النّسيمفملت و عندى بعض الكسل

فسل كيف حال قدود الملاحو عن حال سمر القنا لا تسل

أبو جلنك الشاعر يهجو القاضى شمس الدين بن خلّكان:

للّه بستان حللنا دوحهفی جنّة قد فتّحت أبوابها

و البان تحسبه سنانيرا رأتقاضى القضاة فنفّشت أذنابها

تاج الدين بن شقير:

قد أقبل الصّيف و ولّى الشّتاو عن قريب نشتكى الحرّا

أما ترى البان بأغصانهقد أقلب الفرو إلى برّا

ما قيل فی الشقيق

ابن الرومىّ:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۵۹ يصوغ لنا كفّ الربيع حدائقاكعقد عقيق بين سمط لآل

و فيهنّ نوّار الشقائق قد حكىخدود غوان نقّطت بغوال

كشاجم :

فرّج القلب غاية التفريجابتهاجى ما بين روض بهيج

فكأنّ الشقيق فيه أكاليل عقيق على رؤوس زنوج

أبو العلاء السّرویّ:

جام تکوّن من عقیق أحمرملئت قرارته بمسک أذفر

خرط الربیع مثاله فأقامهبین الریاض علی قضیب أخضر

أبو بکر الصنوبریّ:

و کأن محمرّ الشقیق إذا تصوّب أو تصعّد

أعلام یاقوت نشرن علی رماح من زبرجد

الخیار البلدیّ:

انظر إلی مقل الشقیق تضمّنت حدق السبج

من فوق أغصان حسنّو ما سمجن من العوج

آخر:

شقیقة شقص علی الورد ماقد لبست من کثرة الصّبغ

کأنّها فی حسنها وجنةیلوح فیها طرف الصّدغ

فی زهر النارنج

للقاضی الفاضل:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۰ ندیمیّ هیّا قد قضی النجم نحبهو هبّ نسیم ناعم یوقظ الفجرا

و قد أزهر النارنج أزرار فضّةتزرّ علی الأشجار أوراقها الخضرا

فی الخشخاش

ابن وکیع:

و خشخاش کأنّا منه نفریقمیص زبرجد عن جسم درّ

کأقداح من البلّور صینتبأغشیة من الدیباج خضر

فی نور الکتان

ابن وکیع:

ذوائب کتّان تمایل فی الضّحیعلی خضر أغصان من الرّیّ میّد

کأنّ اصفرار الزّهر فوق اخضرارهامداهن تبر رکّبت فی زبرجد

آخر:

کأنّه حین یبدومداهن اللّازورد

إذا السماء رأتهتقول: هذا فرندی

ابن الرومیّ:

و حلس من الکتّان أخضر ناعمسقی نبته دانی الرّباب مطیر

إذا درجت فیه الشمال تتابعتذوائبه حتّی یقال غدیر

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۱

ذکر الفواکه

ما ورد فی البطیخ

أخرج ابن عدیّ فی الکامل عن عائشة، قالت: کان أحبّ الفاکهة إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم الرّطب و البطّیخ.

و أخرج الطبرانیّ و الحاکم فی المستدرک، عن أنس، أنّ النبی صلی اللّه علیه و سلم کان یأخذ الرّطب بیمینه، و البطیخ بیساره، فیأکل الرّطب بالبطّیخ، و کان أحبّ الفاکهة إلیه.

قال فی مباهج الفکر: البطّیخ ثلاثة أصناف: هندیّ و یسمّی بمصر البطّیخ الأخضر، و بالحجاز الحبحب، و صینیّ و یسمّی بمصر الأصفر، و فیه یقول الشاعر:

ثلاث هنّ فی البطّیخ زینو فی الإنسان منقصة و ذلّه

خشونة لمسه و الثّقل فیهو صفرة لونه من غیر علّه

و خراسانیّ، و یسمّی بمصر العبدلی منسوب لعبد اللّه بن طاهر، فإنّه الذی دخل به مصر، قال أبو طالب المأمونیّ فی البطّیخ الهندیّ:

و مبیضّة فیها طرائق خضرةکما اخضرّ مجری السّیل من صیّب المزن

کحقّة عاج ضبّبت بزبرجدحوت قطع الیاقوت فی عصب القطن

آخر:

أخ لی صادق أهدی إلیناما یهدی الصّدیق إلی الصدیق

قلال زبرجد فیهنّ شهدو حشوّ الشّهد شیء کالعقیق

آخر:

رأیتها فی کفّ کلّابهاو قد بدت فی غایة الحسن

کسلّة خضراء مختومةعلی الفصوص الحمر فی القطن

أبو طالب المأمونی فی البطّیخ الأصفر:

و بطّیخة مسکیّة عسلیةلها ثوب دیباج و عرف مدام

محقّقة ملء الأکفّ کأنّهامن الجزع کسری لم ترض بنظام

لها حلّة من جلّنار و سوسنمعمّدة بالآس غبّ غمام

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۲ تمازج فیها لون حبّ و عاشقکساه الهوی و البین ثوب سقام

إذا فصّلت للأکل کانت أهلّةو إن لم تفصّل فهی بدر تمام

و قال:

یقطّع بالسکین بطّیخة ضحیعلی طبق فی مجلس لان صاحبه

کبدر ببرق فی سماء أهلّةعلی هالة فی الأفق شتّی کواکبه

آخر:

أتانا الغلام ببطّیخةو سکّینة أشبعوها صقالا

فقطّع بالبرق شمس الضّحیو ناول کلّ هلال هلالا

آخر:

ألا فانظروا البطّیخ و هو مشقّقو قد جاز فی التّشقیق کلّ أنیق

صفاها کبلّور بدت فی زمرّدمرکّبة فیها فصوص عقیق

ما ورد فی الرّمان

أخرج عبد اللّه بن أحمد فی زوائد المسند و ابن السنّی بسند رجاله ثقات، عن علیّ ابن أبی طالب، قال: کلوا الرّمان بشحمه، فإنه دباغ للمعدة.

و أخرج الطّبرانیّ بسند صحیح، عن ابن عبّاس أنّه کان یأخذ الحبّة من الرمان فیأکلها، فقیل له: لم تفعل هذا؟ قال: بلغنی أنّه لیس فی الأرض رمّانة إلا تلقّح بحبّة من حبّ الجنّة، فلعلّها هذه:

قال بعضهم:

رمّانة صبغ الزّمان أدیمهافتبسّمت فی ناضر الأغصان

فکأنّها فی حقّة من عسجدقد أودعت خرزا من المرجان

آخر:

رمّانة مثل نهد الکاعب الرّیم‌تزهی بشکل و لون غیر مذموم

کأنّها حقّة من عسجد ملئت‌من الیواقیت نثرا غیر منظوم

آخر:

و لاح رمّاننا فأبهجنابین صحیح و بین مفتوت

من کلّ مصفرّة مزعفرةتفوق فی الحسن کلّ منعوت

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۳ کأنّها حقّة فإن فتحت‌فصرّة من فصوص یاقوت

آخر:

طعم الوصال یصونه طعم النّوی‌شبحان خالق ذا و ذا من عود

فکأنّها و الخضر من أوراقهاخضر الثیاب علی نهود الغید

آخر:

خذوا صفة الرّمّان عنّی فإنّ لی‌لسانا عن الأوصاف غیر قصیر

حقاق کأمثال العقیق تضمّنت‌فصوص بلخش فی غشاء حریر

فی جلّنارة

أبو فراس الحمدانیّ:

و جلّنار مشرف‌علی أعالی شجره

کأنّه فی أغصانه‌أحمره و أصفره

قراضة من ذهب‌فی خرق معصفره

عبد اللّه بن المعتزّ:

و جلّنار کاحمرار الخدّأو مثل أعراف دیوک الهند

ابن وکیع:

وجلّنار بهیّ‌ضرامه یتوقّد

بدا لنا فی غصون‌خضر من الرمی میّد

یحکی فصوص عقیق‌فی قبّهٔ من زبرجد

آخر:

کأنما الجلّنار لمّاأظهره العرض للعیون

أنامل کلّها خضیب‌تزهی احمرارا علی الغصون

ما ورد فی الموز

أخرج الخطیب فیما رواه مالک بن أنس، قال: لیس فی الدّنیا شیء یشبه ما فی

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۴

الجنّهٔ إلا الموز، لأن اللّه تعالی یقول: أُکُلُها دائِمٌ [الرعد: ۳۵]، و أنت تری الموز فی الشتاء و الصیف.

دخل القاضی أبو بکر بن فریقهٔ علی عزّ الدولهٔ بن بویه، و بین یدیه طبق فیه موز، فلم یدعه إلیه، فقال: ما بال الأمیر لا یدعونی إلی الفوز بأکل الموز؟! فقال له: صفه حتّی أطعمک منه، فقال: ما أصف من جرب دیباجیّهٔ، فیها سبائک ذهبیّهٔ، کأنّما حشیت زبدا و عسلا، أو خبیصا مرملا، أطیب الثمر کأنّه مخّ الشجر، سهل المقشر، لیّن المکسر، عذب المطعم بین الطعوم، سلس فی الحلقوم.

و قال النجم بن إسرائیل:

أنعته موزا شهیّ المنظرمستحکم النضج لذیذ المخبر

کأنّ تحت جلده المزعفرلفّات زبد عجنت بسکّر

ابن الرومیّ:

للموز إحسان بلا ذنوب‌لیس بمعدود و لا محسوب

یکاد من موقعه المحبوب‌یسلمه البلع إلی القلوب

البهاء زهیر :

یا حبّذا الموز الّذی أرسلته‌لقد أتانا طیّب من طیب

فی لونه و طعمه و ریحه‌کالمسک أو کالتبر أو کالضّرب

وافت به أطباقه منضّداکأنّه مکاحل من ذهب

آخر:

یحکی إذا قشّرته‌أنیاب أفیال من صغار

ذو باطن مثل الأقاح، و ظاهر مثل البهار

ما ورد فی النخل

أخرج الشیخان عن ابن عمر؛ أنّ النبیّ صلی اللّه علیه و سلم، قال: «إنّ فی الشّجر شجرهٔ، مثلها مثل المسلم، أخبرونی ما هی؟»، فوقع الناس فی شجر البوادی، و وقع فی قلبی أنّها النخلهٔ، فقال النبیّ صلی اللّه علیه و سلم: «هی النخلهٔ».

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۵

و أخرج أبو يعلى فى مسنده و ابن السّنّى عن علىّ، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:

«أكرموا عمّتكم النخلة، فإنّها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم، و ليس من الشجر شىء يلقح غيرها».

قال فى مباهج الفكر: و يقال إنّ ممّا أكرم اللّه به الإسلام النخل، و أنه قدّر جميع نخل الدنيا لأهل الإسلام فغلبوا على كلّ موضع هو فيه.

و قال الدينورىّ فى المجالسة: حدّثنا محمد بن عبد العزيز، حدّثنا أبى، عن محمد بن يزيد بن مطير، قال: قال محمد بن إسحاق، كلّ نخلة على وجه الأرض فمنقولة من الحجاز، نقلها النّماردة إلى المشرق، و نقلها الكنعانيون إلى الشام، و نقلها الفراعنة إلى باب أليون و أعمالها، و حملها التّبابعة فى مسيرهم إلى اليمن و عمان و الشّحر و غيرها.

الحداد:

روض كمخضرّ العذار و جدولنقشت عليه يد النسيم مواردا

و النّخل كالهيف الحسان تزيّنتفلبسن من أثمارهنّ قلائدا

فى الطّلع

كأنّما الطّلع يحكىلناظرى حين أقبل

سلاسلا من لجينيضمّها حقّ صندل

فى الجمّار

أهدى لنا جمّارةمن لست أخشى من عذابه

فكأنّما هى جسمهلمّا تجرّد من ثيابه

فى البلخ الأخضر

أما ترى النخل نثّرت بلحاجاء بشيرا بدولة الرّطب

كأنّه و العيون تنظرهمقمّعات الرءوس بالذهب

مكاحل من زبرجد خرطتمقمّعات الرءوس بالذهب

فى الأصفر

أما ترى البسر الّذىقد جاءنا بالعجب

كيف غدا فى لونه كعاشق مكتئب

مكاحلا من فضّةقد طليت بالذهب

فى الأحمر

انظر إلى البسر إذ تبدّىو لونه قد حكى الشقيقا

كأنّما خوصه عليهزبرجد مثمر عقيقا

ما ورد فى الأترج

أخرج الشيخان عن أبى موسى الأشعرى، عن النبىّ صلى اللّه عليه و سلم قال: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجّة طعمها طيّب و ريحها طيّب».

و أخرج ابن السنّى عن أبى كبشة، قال: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يعجبه النّظر إلى الأترجّ و الحمام الأحمر.

بعضهم:

كان أترجّنا النّضير و قدزان تحياتنا مصبعه

أيد من التبر أبصرت بدرامن جوهر فانثنت تجمعه

آخر:

يا حبّذا أترجّةتحدث للنفس الطّرب

كأنّها كافورةلها غشاء من ذهب

الأسعد بن ممّاتى:

للّه بل للحسن أترجّةتذكّر النّاس بأمر النّعيم

كأنّها قد جمّعت نفسهامن هيبة الفاضل عبد الرحيم

ابن المعتزّ:

أترجّة قد أتتك لطفالا تقبلنها و إن سررت

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۷ لا تهد أترجّة فإنّی رأيت مقلوبها «هجرت»

ما ورد فی القصب

أخرج ابن عساكر فی تاريخ دمشق من طريق الربيع بن سليمان، قال: سمعت الشافعیّ يقول: ثلاثة أشياء دواء للداء الذی لا دواء له، الذی أعيا الأطباء أن يداووه:

العنب و لبن اللقاح، و قصب السكّر؛ و لو لا قصب السكر ما أقمت بمصر.

بعضهم:

تحكيه سمر القنا و لكن تراه فی جسمه طلاوه

و كلّما زدته عذابازادك من ريقه حلاوه

فی الكمّثری

بعضهم:

هيّا بكمثراية لونهالون محبّ زائد الصّفره

تشبه نهد البنت إن قعدتو هی لها إن قلبت سرّه

فی الخوخ

بعضهم:

كأنّما الخوخ فی دوحهو قد بدا أحمره العندمی

بنادق من ذهب أصفرقد خضّبت أنصافها بالدم

ما ورد فی التين

أخرج ابن السنّی و الديلمیّ فی مسند الفردوس، عن أبی ذرّ، قال: أهدی إلی النبیّ صلی اللّه عليه و سلم طبق من تين، فقال لأصحابه:

«کلوا، فلو قلت إنّ فاکهة نزلت من الجنّة بلا عجم لقلت هی التین، و إنّه یذهب بالبواسیر، و ینفع من النّقرس».

کشاجم:

أهلا بتین جاءنامنضّدا علی طبق

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۸ یحکی الصّباح بعضهو بعضه یحکی الغسق

کسفرة مضمومةقد جمعت بلا حلق

ابن المعتزّ:

أنعم بتین طاب طعما و اکتسی‌حسنا، و قارب منظرا من مخبر

فی برد ثلج، فی قفا تبر، و فی‌ریح العبیر و طیب طعم السکّر

یحکی إذا ما صبّ فی أطباقهخیما ضربن من الحریر الأخضر

فی اللوز الأخضر

ابن المعتزّ:

ثلاثة أثواب علی جسد رطبمخالفة الأشکال من صنعة الربّ

تقیه الرّدی فی لیله و نهارهو إن کان کالمسجون فیها بلا ذنب

آخر:

أما تری اللّوز حین ترجلهمن الأفانین کفّ مقتطف؟

و قشره قد جلا القلوب لناکأنه الدّرّ داخل الصّدف

ظافر الحداد:

جاء بلوز أخضرأصفره ملء الید

کأنّما زئبره نبت عذار الأمرد

کأنّما قلوبهمن توأم و مفرد

جواهر لکنّما الأصداف من زبرجد

البدر الذهبی:

ما نظرت مقلتی عجیباکاللّوز لمّا بدا نوّاره

اشتعل الرأس منه شیباو اخضرّ من بعد ذا عذاره

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۶۹

ما قیل فی المشمش

محیی الدین بن عبد الظاهر:

حبّذا مشمش علی الدوح أضحیذا شعاع یستوقف الأبصارا

شجر أخضر لنا جعل الله تعالی منه کما قال نارا

و قال:

و کأنّ ضوء الشّمس من أوراقهافی نقش أسوقة الغصون خلاخل

و کأنّ مشمشها بصوت هزارهاإذ حرّکته به النّسیم جلاجل

آخر:

و مشمش جاءنا من أعجب العجبأشهی إلیّ من اللّذات و الطرب

کأنّه و هبوب الریح تنثرهبنادق خرطت من خالص الذهب

ما قیل فی النّبق

ابن الجیلیّ:

انظر إلی النبق فی الأغصان منتظماو الشّمس قد أخذت تجلوه فی القضب

کأنّ صفرته للناظرین غدتتحکی جلاجل قد صیغت من الذهب

آخر:

و سدرة کلّ یومن حسنها فی فنون

کأنّما النبق فیهاو قد بدا للعیون

جلاجل من نضارقد علّقت فی الغصون

ذکر الحبوب و الخضروات و البقول

فی سنابل البرّ و الشعیر

اشارة

القاضی عیاض:

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۰ انظر إلی الزّرع و خاماتهتحکی و قد ماست أمام الرّیاح

کتیبة تجفل مهزومةشقائق النعمان فیها جراح

آخر:

یا حبّذا سنبلةتبدو لعین المبصر

کأنّها سلسلةمضفورة من عنبر

ظافر الحداد:

کأنّ سنابل حبّ الحصیدو قد شارفت وقت إبّانها

کنائس مضفورة ربّعتو أرخی فاضل خیطانها

ابن رافع القیروانیّ:

انظر إلی سنبل الزّروع و قدمرّت علیه الجنوب و الشّمل

کأنه البحر فی تموّجهیعلو مرارا، و مرّة یسفل

و الماء للسقی فی جوانبهالمسک للناظرین أو صندل

فی الباقلّا

قال بعض الشعراء و هو ابن لنکک البصریّ:

فصوص زبرجد فی غلف درّبأقماع حکت تقلیم ظفر

و قد حاک الربیع لها ثیابالها لونان من بیض و خضر

آخر:

لی نحو ورد الباقلاإدمان لهو و لهج

کأنّما مبیضّه یلوح فی ذاک الدّعج

خواتم من فضّهٔفیها فصوص من سبج

ابن وکیع:

و لاح ورد الباقلاء ناظراعن مقلهٔ تفتح جفنا عن حور

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۱ کمثل ألحاظ الیعافیر إذاروّعها من قانص فرط الحدر

کأنّها مداهن من فضّهٔمجلوّهٔ فیها من المسک أثر

کأنّها سوالف من خرّدقد زیّنت سوادها سود الطّرر

فی القثّاء

عبد الرحیم بن رافع القیروانیّ:

أحبب بقثّاء أتانا من فوق أطباق منضّد

کمضارب قد حدّرتأجرامهنّ من الزّبرجد

نعم الدواء إذا الهواء من الهواجر قد توقّد

ابن المعتزّ:

انظر إلیه أنابیبا منضّدهٔمن الزّبرجد خضرا ما لها ورق

إذا قلبت اسمه بانت حلاوتهو کان معکوسه إنّی بکم أثق

فی الخیار

لبعضهم:

خیار حین تنسبه لبیت کریحان السّرور به اخضرار

کأنّ نسیمه أنفاس حبّفلیس لمغرم عنه اصطبار

فی الفقّوس

بعضهم:

شبّهت حین بدا الفقّوس مبتهجاعلی الرّیاض بحبّ فیه مأسور

مخازن من لجین لفّ ظاهرهابسندس حشوه حبّات کافور

فی القرع

لعبد الرحیم بن نافع: حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة ؛ ج۲ ؛ ص۳۷۱

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۲ و قرع تبدّی للعیون کأنّه‌خراطیم أفیال لطخن بزنجار

مررنا فعاینّاه بین مزارع‌فأعجب منها حسنه کلّ نظّار

فی الباذنجان

لبعضهم:

أهدت لنا الأرض من عجائبهاما سوف یزهو بمثله وقتی

إذا أجاد الّذی یشبهو أحکم الوصف منه فی النّعت

قال کرات الأدیم قد حشیت‌بسمسم قمّعت بکیمخت

آخر:

و مستحسن عند الطعام مدحرج‌غذاه نمیر الماء فی کلّ بستان

تطلع من أقماعه فکأنّه‌قلوب نعاج فی مخالیب عقبان

آخر:

و کأنّما الأبذنج سود حمائم‌أوکارها روض الرّبیع المسکر

لقطت مناقرها الزبرجد سمسمافاستودعته حواصلا من عنبر

آخر:

و باذنجانة حشیت حشاهاصغار الدّرّ باللّبن الحلیب

و غشّیت البنفسج و استقلّت‌من الآس الرطیب علی قضیب

فی السّلجم

لابن رافع القیروانیّ:

کأنّما السّلجم لمّا بدافی حسنه الرائق من غیر مین

قطائع الکافور ملمومةلمبصریها أو کرات اللّجین

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۳

فی الفجل

للّه فجل قد أتتنا به‌جاریة تخجل شمس النهار

کأنّه فی یدها إذ أتت‌به لنا غصنا بصوب العطار

سبائک من فضّة قد صفت‌أو مثل أنیاب الفیول الصّغار

آخر:

أحبب بفجل قد أتانا به‌طبّاخنا من بعد تقشیر

منضّدا فی طبق خلته‌من حسنه قضبان بلّور

آخر:

و بیضاء من حور الجنن ملکتهاو لمت علیها صاحبی ولی العذر

و ما کسیت من سندس الخلد حلّةو لا معجرا لکن ذوائبها خضر

فی الجزر

لابن رافع القیروانیّ:

انظر إلی الجزر البدیع کأنّهفی حسنه قضب من المرجان

أوراقه کزبرجد فی لونهاو قلوبه صیغت من العقیان

آخر:

انظر إلی الجزر الذیحکی لنا لهب الحریق

کمدیهٔ من سندسفیها نصاب من عقیق

فی الثّوم

لابن رافع القیروانیّ:

یا حبّذا ثومهٔ فی کفّ جاریهٔبدیعهٔ الحسن تسبی کلّ من نظرا

أبصرتها، و هی من عجب تقلّبهاکصرّهٔ من دبیقیّ حوت دررا

حسن المحاضرهٔ فی أخبار مصر و القاهرهٔ، ج۲، ص: ۳۷۴

آخر:

الثّوم مثل اللّوز إن قشّرتهلولا روائحه و طعم مذاقه

کالنّدل غرّک منظرا فإذا دعیلفضیلهٔ ینمی إلی أعراقه

فی النّمام

ابن رشیق:

لم کره النّمام أهل الهویأساء إخوانی و ما أحسنوا؟

إن کان نمّاما فتنکیسهمن غیر تکذیب لهم مأمن

آخر:

لا بارک اللّه فی النّمام إنّ لهاسما قبیحا من الأسماء مهجورا

لو لم ینمّ علی العشّاق سرّهمما کان فیهم بهذا الاسم مشهورا

فی النعناع

بعضهم:

و جاءت بنعناع کأنّ غصونهو أوراقه مخلوقهٔ من زبرجد

إذا مسّه نفح الحرور رأیتهکأصداغ زنج فلفلت من تجعّد

فی النارنج

لبعضهم:

تأمّلها کرات من عقیق یروقک فی ذرا دوح و ریق

صوالج من غصون ناعمات غذتها درّة العیس الأنیق

آخر:

أنظر إلی منظر یلهیک منظره بمثله فی البرایا یضرب المثل

نار تلوح علی الأغصان فی شجر لا النار تطفی، و لا الأغصان تشتعل

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۵

أبو الحسن الصّقلیّ:

و نارنجة بین الرّیاض نظرتها علی غصن رطب کقامة أغید

إذا میّلتها الریح مالت کأکرة بدت ذهبا فی صولجان زبرجد

و قال:

تنعّم بنارنجک المجتنی فقد حضر السعد لما حضر

فیا مرحبا بقدود الغصون، و یا مرحبا بخدود الشّجر

کأنّ السماء همّت بالنّضار، فصاغت لنا الأرض منها أکر

ابن المعتزّ:

کأنّما النّارنج لمّا بدت صفرته فی حمرة کاللّهب

وجنة معشوق رأی عاشقا فاصفرّ ثمّ احمرّ خوف الرّهب

آخر:

و شادن قلت له صف لنا بستاننا هذا و نارنجنا

فقال لی: بستانکم جنّة و من جنی النّارنج نارا جنی

فی اللیمون

قال ابن وحشیّة: اللیمون و النارنج فی الأصل شجر هندیّ.

السریّ الرفاء :

ظلّلته شجرات عطّرها أطیب عطر

فلک أنجمه اللّیمون من بیض و صفر

أکر من فضّة قد شابها تلویح تبر

آخر:

یا ربّ لیمونة حیّا بها قمر حلو المقبّل ألمی بارد الشّنب

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۶ کأنّها أکرة من فضّة خرطت فاستودعوها غلافا صیغ من ذهب

آخر:

أما تری اللیمون لمّا بدا یأخذ فی إشراقه بالعیان؟!

كأنّه بيض دجاج و قدلطّخها العابث بالزعفران

تم كتاب حسن المحاضرة و للّه الحمد

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۷

الفهرس

ذكر أمراء مصر من حين فتحت إلى أن ملكها بنو عبيد ۳

ذكر أمراء مصر من بنی عبيد ۲۰

ذكر أمراء مصر من حين ملكها بنو أيوب إلى أن اتخذها الخلفاء العباسيون دار الخلافة ۳۰

كتاب تقليد الخليفة لصلاح الدين ۳۳

صفات صلاح الدين و وفاته ۴۳

[مصر بين العزيز و المنصور و الأفضل و العادل] ۴۵

[الفرنج فی دمياط] ۴۶

[شعر] ۵۳

[الملك العادل سيف الدين أبو بكر، ثمّ الملك الصالح نجم الدين أيوب] ۵۵

[هجوم الفرنج و وفاة الملك الصالح] ۵۶

[شجرة الدر] ۵۷

[الملك المعزّ عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانی] ۵۸

[الملك المظفر سيف الدين قطز] ۵۹

[أرجوزة الجزّار فی الأمراء المصرية] ۶۰

[ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين] ۶۴

ذكر سلاطين مصر الذين فوض إليهم خلفاء مصر العبّاسيون فاستبدوا بالأمر دونهم ۱۰۲

ذكر الفرق بين الخلافة و الملك و السلطنة من حيث الشرع ۱۲۶

ذكر من يطلق عليه السلطنة من حيث المصطلح ۱۲۶

ذكر ما يلقب به ملك مصر ۱۲۷

ذكر جلوس السلطان فی دار العدل للمظالم ۱۲۷

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۸

ذكر عساكر مملكة مصر ۱۲۸

ذكر أرباب الوظائف فی هذه المملكة ۱۲۹

ذكر قضاة مصر ۱۳۳

الدولة المصرية ۱۶۵

ذكر قضاة الحنفية ۱۶۷

ذكر قضاة المالكية ۱۷۱

ذكر قضاة الحنابلة ۱۷۳

ذکر وزراء مصر ۱۷۵

ذکر کتاب السر ۲۰۵

ذکر جوامع مصر ۲۱۲

جامع عمرو ۲۱۳

جامع أحمد بن طولون ۲۱۸

الجامع الأزهر ۲۲۱

جامع الحاکم ۲۲۲

ذکر أمّهات المدارس و الخانقاه العظیمة بالدیار المصریة ۲۲۳

ذکر المدرسة الصلاحیة ۲۲۴

خانقاه سعید السعداء ۲۲۶

المدرسة الکاملیة ۲۲۷

المدرسة الصالحیة ۲۲۸

المدرسة الظاهریة القدیمة ۲۲۸

المدرسة المنصوریة ۲۲۹

المدرسة الناصریة ۲۲۹

الخانقاه البیبرسیة ۲۲۹

خانقاه قوصون بالقرافة ۲۳۰

خانقاه شیخو ۲۳۰

مدرسة صرغتمش ۲۳۱

مدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ۲۳۲

المدرسة الظاهریة ۲۳۳

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۷۹

المدرسة المؤیّدیة ۲۳۴

رباط الآثار ۲۳۵

ذکر الحوادث الغریبة الکائنة بمصر فی ملّة الإسلام من غلاء و وباء و زلازل و آیات و غیر ذلک ۲۳۵

ذکر الطریق المسلوک من مصر إلی مکّة شرّفها اللّه تعالی ۲۶۶

ذکر قدوم المبشّر سابقا یخبر بسلامة الحاج ۲۶۷

ذکر حمائم الرسائل ۲۶۸

ذکر عادة المملکة فی الخلع و الزیّ ۲۷۳

ذکر عادة السلطان فی الکتابة علی التقالید ۲۷۴

ذکر معاملة مصر ۲۷۴

ذکر کوکب الذنب ۲۷۵

ذکر بقیة لطائف مصر ۲۷۵

السبب فی کون أهل مصر أذلاء یحملون الضیم ۲۸۶

ذکر النیل ۲۸۹

أثر متصل الإسناد فی أمر النیل ۲۹۰

ذکر مزایا النیل ۳۰۱

ذکر ما قیل فی النیل من الأشعار ۳۰۳

ذکر البشارة بوفاء النیل ۳۱۰

ذکر المقیاس ۳۱۶

ذکر جزیرة مصر و هی المسمّاة الآن بالروضة ۳۱۸

ذکر خلیج مصر ۳۲۶

ذکر الخلیج الناصریّ ۳۲۸

ذکر برکة الحبش ۳۲۸

ذکر ما قیل فی الأنهار و الأشجار زمن الشتاء و الربیع من الأشعار ۳۲۹

ذکر الریاحین و الأزهار الموجودة فی البلاد المصریة و ما ورد فیها من الآثار النبویة و الأشعار الأدبیة و الإشارات الصوفیة ۳۳۸

ما ورد فی الفاغیة ۳۳۸

ما ورد فی الورد ۳۳۸

حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۸۰

ما ورد فی النرجس ۳۴۴

ما ورد فی البنفسج ۳۴۶

ما قیل فی النّیلوفر ۳۴۸

البشنین ۳۵۰

ما ورد فی الآس ۳۵۱

ما ورد فی الریحان، و هو الحبق ۳۵۲

ما قیل فی المنثور، و هو الخیریّ ۳۵۴

ما قیل فی الیاسمین ۳۵۴

ما قیل فی النّسرین ۳۵۶

ما قیل فی الأقحوان ۳۵۷

ما قیل فی البان ۳۵۸

ما قیل فی الشقیق ۳۵۸

فی زهر النارنج ۳۵۹

فی الخشخاش ۳۶۰

فی نور الکتان ۳۶۰

ذکر الفواکه ۳۶۱

ما ورد فی البطیخ ۳۶۱

ما ورد فی الرّمان ۳۶۲
فی جلّنارة ۳۶۳
ما ورد فی الموز ۳۶۳
ما ورد فی النخل ۳۶۴
ما ورد فی الأترج ۳۶۶
ما ورد فی القصب ۳۶۷
فی الکمّثری ۳۶۷
فی الخوخ ۳۶۷
ما ورد فی التین ۳۶۷
فی اللوز الأخضر ۳۶۸
ما قیل فی المشمش ۳۶۹
حسن المحاضرة فی أخبار مصر و القاهرة، ج۲، ص: ۳۸۱
ما قیل فی النّبق ۳۶۹
ذکر الحبوب و الخضروات و البقول ۳۶۹
فی سنابل البرّ و الشعیر ۳۶۹
فی الباقلّا ۳۷۰
فی القثّاء ۳۷۱
فی الخیار ۳۷۱
فی الفقّوس ۳۷۱
فی القرع ۳۷۱
فی الباذنجان ۳۷۲
فی السّلجم ۳۷۲
فی الفجل ۳۷۳
فی الجزر ۳۷۳
فی الثّوم ۳۷۳
فی النّمام ۳۷۴
فی النعناع ۳۷۴
فی النارنج ۳۷۴
فی اللیمون ۳۷۵

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ

كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹